...وجاء الحسين (عليه السلام)

هادي المدرّسي

دار أهل البيت (عليهم السلام) للعلوم

شبكة الفكر
alfeker.net

.. وجاء الحسين عليه السلام

❊ الكتاب: وجاء الحسين
❊ المؤلف: هادي المدرسي
❊ الناشر: دار أهل البيت للعلوم
❊ الطبعة: الثانية 2014 م . 1435

* Then Came Hussain
* Hadi Al Modarresi

❊ Second Edition January 2014
❊ Copyright © Ahlulbait Scientific Publishers
❊ Beirut .Lebanon
❊ asp.dar@gmail.com
❊ Twitter: @AspDar

❊ التنضيد والإخراج: فاطمة أبي عباس
❊ تصميم الغلاف: In Design
❊ جميع الحقوق محفوظة ©

.. وجاء الحسين عليه السلام

هادي المدرسي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ
ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ
غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ

المحتويات

هذا الكتاب 9

باختصار.. عن موقع الحسين عليه السلام دينياً وسياسياً واجتماعياً 11

البدايات 16

الحاكم الجديد وأزمة الشرعية 95

في دار الإمارة الحسين عليه السلام تحت التهديد 102

قرار الهجرة من المدينة 120

ابن البيت، في جوار البيت 140

واتخذ الحسين عليه السلام القرار 155

انقلاب الكوفة 170

حاكم العراقين يصل الكوفة متعطشاً للدَّم والانتقام 188

بداية المواجهة بين مبعوث الحسين عليه السلام ووالي يزيد 197

مسلم بن عقيل وحيداً في مواجهة إمبراطوريَّة الشرّ 214

إلى جنَّة الله هاني بن عروة 246

تتابع فصول المواجهة 252

الطريق إلى كربلاء 258

إعلان الثورة 288

الخطوات الأُولى 297

الاستعدادات المضادَّة 306

تعبئة الكوفة ضدَّ الحسين 323
أنباء مقلقة، وحوادث مؤسفة 327
كربلاء.. مقدِّمات المواجهة 381
يوم المواجهة 422
بداية المعركة 448
صلاة الحسين عليه السلام: 465
استشهاد أهل البيت عليهم السلام 490
مقتل إخوة العبَّاس عليه السلام: 504
مقتل ثلاثة أطفال في حجر الحسين عليه السلام: 515
هجمات الحسين عليه السلام قبل مقتله 519
ومطرت السَّماء دماً 531

السَّلامُ عليكَ يا أبا عبدِ اللهِ

وَعَلى الأرْواحِ التَّي حلَّتْ بِفنائِكَ

عليكَ مِنّي سلامُ اللهِ

أبَداً ما بقيتُ وَبقيَ اللّيلُ والنَّهارُ

وَلا جعلَهُ اللهُ آخرَ العهدِ منّي لِزيارتِكَ

السَّلامُ على الحُسينِ

وَعلى عليِّ بنِ الحُسينِ

وَعَلى أَصحابِ الحُسينِ

هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين محمَّد، وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد..

يتناول هذا الكتاب نهضة الإمام الحسين عليه السلام منذ بداياتها الأُولى، إلى حين استشهاده في كربلاء.

وفيه دمج بين أمرين:

الأوَّل: بيان ظروف هذه النهضة المقدَّسة، وأسبابها، وتحليل حوادثها، وتفسير وقائعها، وذلك على لسان شخصين افترضنا وجودهما في تلك الحقبة.

الثاني: سرد الوقائع التاريخية، بالاعتماد على أُمَّهات المصادر الموثوقة في هذا المجال.

أرجو أن أكون بهذا الكتاب قد أدَّيت جزءاً بسيطاً من ديون أهل البيت عليهم السلام عليَّ.

ومن الله تعالى أطلب حسن التوفيق وحسن العاقبة، وأن يحشرني مع محمَّد وآله يوم ألقاه، إنَّه قريب مجيب.

هادي المدرِّسي
١٤٣١هـ ٢٠١٠م

باختصار.. عن موقع الحسين عليه السلام دينياً وسياسياً واجتماعياً

أ ـ الإمام الحسين عليه السلام من حيث النسب هو ابن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، رئيس الدولة التي كان يمتد سلطانها من إفريقيا، حتَّى نهاية الإمبراطوريَّة الفارسيَّة.

وهو حفيد النَّبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم الذي اعتبر الرقم واحد في المائة الأوائل الذين كان، ولا يزال، لهم التأثير الأكبر في حياة الناس.

ب ـ بعد اغتيال الإمام عليّ عليه السلام في محراب العبادة، استطاع عدوّه الأوَّل معاوية بن أبي سفيان أن يبسط سيطرته على البلاد، ووقَّع معاهدة صلح مع أخيه الأكبر الحسن بن عليّ عليهما السلام، الذي أصبح بعد أبيه هو الحاكم الشرعي للبلاد، إلَّا أنَّ انتصار معاوية عسكريّاً دفعه إلى التوقيع على معاهدة الصلح، والتي بموجبها وافق الطرفان على عودة الحكم إلى الحسن بن عليّ عليهما السلام بعد موت معاوية، وعند وفاته ينتقل الأمر إلى أخيه الحسين بن عليّ عليه السلام.

ثمَّ إنَّ معاوية نقض المعاهدة بعد استتباب السلطان له، وبدل أن يُسلِّم مقاليد الحكم إلى الحسين عليه السلام لدى رحيله، فرض البيعة لابنه يزيد في حياته.

ج ـ عندما مات معاوية، بعد مضيّ عشرين عاماً من حكومته، تسلَّم السلطة ابنه يزيد بخلاف معاهدة الصلح، إلَّا أنَّ الناس الذين ذاقوا الظلم طويلاً في عهد أبيه، توجَّهوا إلى الحسين عليه السلام، ليس فقط لأنَّه كان حفيد نبيّهم وابن رئيسهم الشهيد، وصاحب الحقّ الشرعي في الحكم، وإنَّما لأنَّه كان الأكثر إيماناً وتقوىً وعلماً والتزاماً بالقيم والمثُل، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان في نظر المؤمنين وليّاً من أولياء الله، وقدِّيساً من القدِّيسين، فانهالت عليه الرسائل يطالبونه بالسفر إلى مدينة الكوفة، عاصمة أبيه التي تمَّ اغتياله فيها، وفي كثير من رسائلهم كانوا يلحّون عليه بالقدوم إليهم، وإلَّا فإنَّهم يشكونه إلى الله إذا لم يلبِّ دعوتهم هذه.

د ـ شعر الحسين عليه السلام بأنَّ عليه مسؤولية بسط العدل، ومنع الظلم، وإشاعة الخير، وهداية الناس، وأنَّ المهمَّة التي كانت على عاتق الأنبياء جميعاً أصبحت الآن على عاتقه، وأنَّ راية التوحيد أصبحت في يديه، فاستجاب لدعوتهم، ليس طمعاً في سلطان ولا التماس شيء من الحطام.. فكل ذلك كان بعيداً عن أخلاقيَّات عائلة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الأقربين الذين كانوا يعملون للآخرة وليس للدنيا، ولإشاعة العدل ومنع الظلم لا لبسط السلطة والحكم. فأرسل إليهم ابن عمّه مسلم بن عقيل يستطلع الأمر، وكتب للذين طالبوه بالمجيء إليهم أنَّه لو تبيَّن، من خلال تعاملهم مع ابن عمّه، أنَّهم صادقون فيما يطالبون به، ومستعدّون لنصرته، فسوف يرحل إليهم.

هـ ـ من جهته أرسل يزيد بن معاوية رسلاً إلى مختلف البلاد يطالب الولاة بالخضوع لسلطانه، وفرض بيعته على الناس، وأمرهم

بقتل كلّ من يخالف ذلك، وخصَّ بالذِّكر الحسين بن عليّ عليهما السلام، بسببين:

الأوَّل: إنَّ يزيد كان يشعر في قرارة نفسه أنَّه يغتصب مكان الحسين عليه السلام وموقعه، لعدَّة اعتبارات، أقلّها تلك المعاهدة التي وقَّعها أبوه مع الحسن بن عليّ عليهما السلام، فكانت الأزمة الشرعيَّة تعصف بقوَّة بحكومته.

الثاني: إنَّ الناس كانوا يعشقون الحسين عليه السلام، بما كان قد ورثه من أبيه وجدّه وأُمّه وأخيه من الفضائل والعلوم والمناقب. فقد كانت عائلته عائلة قدِّيسين، كما أنَّهم بايعوه وطالبوا بإعلان دولته، لأنَّهم كانوا يرون فيه الخلاص من الظلم والطغيان.

ومع رفض الحسين البيعة ليزيد، معتبراً إياه غير لائق حتَّى لمنصب شرطي، لما عُرف عنه من الفسوق والانحراف وإراقة الدماء وعدم الالتزام بشرعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّ يزيد أمر واليه على المدينة بإجبار الحسين عليه السلام على البيعة، وقطع رقبته إذا رفض ذلك.

فخرج الحسين عليه السلام من معقله في المدينة المنوَّرة، متجهاً إلى بيت الله الحرام في مكَّة، وهناك انهالت عليه الرسائل تطالبه بالقيام ضدّ الطاغية، والدفاع عن الحقّ، والذهاب إلى الكوفة، فأرسل ـ كما قلنا ـ ابن عمّه مسلم بن عقيل إليهم حيث بايعه من الناس أكثر من ثمانية عشر ألف شخص. فأرسل مسلم رسالة إلى الحسين عليه السلام يخبره أنَّ الكثيرين مستعدّون للدفاع عنه، والوقوف معه، وأخبره أنَّهم يرفضون رفضاً قاطعاً سلطة يزيد بن معاوية.

و ـ خرج الحسين عليه السلام نحو الكوفة ومعه أهل بيته، وعدد من الرجال والنساء، غير أنَّ الأوضاع انقلبت رأساً على عقب بعد قيام

السلطات بالانقلاب على الناس في مدينة الكوفة، وتمَّ اعتقال مبعوث الحسين (مسلم بن عقيل) وضُرب عنقه، بينما كان الحسين عليه السلام قد انطلق في طريقه إلى الكوفة.

ز ـ حشدت السلطة أكثر من ثلاثين ألف مقاتل لمواجهة الحسين، والتقى الطرفان في منطقة بين النواويس وكربلاء. ومع رفض الحسين عليه السلام رفضاً قاطعاً الخضوع لسلطان الظلم والطغيان، فقد وقعت المواجهة بين الطرفين في يوم العاشر من شهر محرَّم الحرام سنة 61 للهجرة النبويَّة، وكانت عدد قوَّات العدو التي واجهت الحسين عليه السلام أكثر من قوَّات الإمام بخمسمائة ضعف؛ أي أنَّ كلّ واحد من أصحاب الحسين عليه السلام كان يواجه خمسمائة مقاتل من الأعداء.

وبعد أن لم يبق مع الحسين عليه السلام إلَّا ثلاثة وسبعون شخصاً، وقعت الحرب بينهما، فاستبسل أصحاب الحسين عليه السلام في المواجهة، وقاتلوا حتَّى أخر رجل، وآخر قطرة دم، وأبدوا من الشهامة والبسالة، والالتزام بالمثُل والقيم، ما يفوق أيّ وصف.. فقد قُتلوا جميعاً، وأسرت عوائلهم، وأرسلوا إلى يزيد بن معاوية مع رؤوس الشهداء.

ح ـ في المواجهة بين الحسين عليه السلام وأصحابه من جهة، وبين أعدائه من جهة أُخرى، تمثَّل كلّ الإيمان، وكلّ النبل، وكلّ البطولة في معسكر الحسين عليه السلام، بينما تمثَّل كلّ الشرّ، وكلّ النفاق، وكلّ الرذائل في معسكر أعدائه.

ومع استشهاد الحسين عليه السلام وأصحابه بتلك الطريقة البطولية المأساوية، فإنَّهم تحوَّلوا إلى رمز للبطولات، وأصبحت رسالتهم هي

رسالة جميع المؤمنين الصالحين في الحياة، أمَّا أعدائه فقد تحوَّلوا إلى رمز لكلّ شرّ وباطل.

هذا باختصار قصَّة الحسين عليه السلام، إلَّا أنَّ تفاصيلها أهم من ذلك بكثير، وهذا ما يتكفَّل هذا الكتاب ببيانه.

***

البدايات

كانا صديقين، يجتمعان أحياناً، ويتفرَّقان أحياناً أُخرى، ويتفقان أحياناً، ويختلفان أحياناً أُخرى.

وكان كلّ واحد منهما يميل إلى أحد الطرفين الأساسيين في الصراع الذي بدأ بعد رحيل النَّبيّ ﷺ واشتدَّ في عهد الإمام عليّ عليه السلام بين أهل البيت من جهة، وبني أُميَّة من جهة أُخرى..

وكان كلّ من الرجلين منصفاً يريد معرفة الحقيقة، ولم يكن يبحث عن الجدال من أجل الجدال.

ولئن كانا مختلفين في مواقفهما قليلاً، إلَّا أنَّ مصيرهما انتهى إلى أمر واحد..

الأوَّل كان من الكوفة، واسمه عبد الله بن مسلم، وكان يميل إلى أهل البيت عليهم السلام.

والثاني كان من المدينة المنوَّرة، واسمه عبد الرحمن الصالح، وكان يميل إلى الطرف الآخر.

كانت أوضاع البلاد مضطربة، وذلك بسبب اندلاع عدَّة حروب بين أبناء الأُمَّة، وانقسامها إلى فئات متناحرة، ووقوع عدَّة اغتيالات طالت حتى الخلفاء.. إلَّا أنَّ معاوية بن أبي سفيان استطاع أن يبسط

سيطرته على جميع البلاد، فقام بتعيين ولاة مناوئين لأهل البيت عليهم السلام، مستعيناً بقومه من بني أُميَّة، من الذين طالما وقفوا في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وشنّوا عليه الحروب، قبل دخولهم في الإسلام.

في مثل هذه الأجواء من عام 54 للهجرة النبويَّة، في يوم صائف زار عبد الرحمن الصالح صديقه، عبد الله بن مسلم في الكوفة، وبعد المجاملات الأوَّلية، سأل عبد الرحمن صاحبه عن أوضاع العراق دينيّاً وسياسيّاً.

فقال عبد الله بن مسلم: إذا كنَّا نريد أن نقيس الأُمور بحسب الموازين التي جاء بها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فنحن في وادٍ، والدِّين في وادٍ آخر.

قال عبد الرحمن: كيف؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّك تعرف أنَّه قد وقعت عندنا حادثة مقتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، هذا الرجل الذي كان اليد اليمنى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أوَّل من أسلم، والذي كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يواجه به طغيان قريش. فمنذ أن كان عمره عشر سنوات كان يخرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يدفع عنه الأطفال الذين كانوا يرمونه بالحجارة في الطرقات. وحينما هاجر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من مكَّة إلى المدينة نام في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكي يطمئن رجال قريش الذين صمَّموا على اغتياله، إلى وجوده في الدار، حتى يستطيع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الإفلات منهم. ثمَّ فيما بعد خاض جميع المعارك والحروب التي شنَّت على رسول الله، وكان النصر معقوداً بناصيته، واستطاع أن يواجه كلّ سيوف قريش بسيف ذي الفقار، وانتصر سيف ذي الفقار على تلك السيوف، وانتصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام على الأعداء، حتَّى أنَّ عمر بن

الخطَّاب قال: «كنَّا ننظر إلى عليّ في عهد النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم كما ننظر إلى النجم»[1].

هذا الرجل بايعه الناس جميعهم، لكن تمرّد عليه شخص واحد هو معاوية، طالباً الاستمرار في ولاية الشام، لكن الإمام عليه السلام رفض ذلك، ووقعت بينهما المعارك المعروفة، ثمَّ جاء مقتله على أيد الخوارج، فلم يُقتل عليّ عليه السلام على أيدي الكفار في معركة بدر، ولا في أُحُد، ولا في معركة الأحزاب، ولا في خيبر، وإنَّما قُتل بأيدي مسلمين في ظروف تمرُّد معاوية.

ثمَّ إنَّ معاوية بدأ يحكم العالم، ليس وفق شريعة سيِّد المرسلين، وإنَّما بحسب أهوائه، وقد عمد إلى كلّ من يروي حديثاً عن عليّ عليه السلام، فألغاه من الديوان، وأمر وُلاته بأن يأخذوا أولياء أهل البيت صلى الله عليه وآله وسلم بالتهمة ويقتلوهم بالظنَّة، رغم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: «**حبّ عليّ إيمان، وبغضه كفر**»[2].

ويقول: «**لا يُحبّك إلَّا مؤمن، ولا يبغضك إلَّا منافق**»[3].

قال عبد الرحمن الصالح: يا أخي؛ إنَّ الأنبياء والأولياء لا يتكرَّرون، وهذا هو السلطان، وكما تعرف فإنَّ السلطة تغري صاحبها باستخدام القوَّة، والتوسُّل بكلّ ما يدعم سلطانه.

فقال عبد الله بن مسلم: أعرف ذلك، لكن إذا كنَّا نريد أن نقيِّم أوضاعنا بحسب الموازين التي جاء بها رسول الله، فنحن في

---

(1) عمَّار بن ياسر حليف مخزوم، صدر الدِّين شرف الدِّين، ص139.

(2) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص150.

(3) علل الشرائع، الشيخ الصدوف، ج1، ص145.

وادٍ والدِّين في وادٍ آخر. أمَّا أن تقول إنَّ ما يفعله معاوية هو لدعم سلطانه، كما هو دأب كلّ سلطان، فهذا صحيح.

فقال عبد الرحمن الصالح: إنَّ معاوية قد كبُر الآن، ولقد انتشرت شائعة هنا بأنَّه يريد توريث ولده للخلافة.

قال عبد الله: وهذا أيضاً من الأُمور التي يجعلنا نرى أنَّهم في وادٍ والدِّين في وادٍ آخر، ذلك أنَّ الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ـ بحسب المعاهدة التي وقَّعها معاوية مع أخيه الحسن عليه السلام ـ هو من يجب أن يكون الخليفة بعد معاوية، ومع ذلك فإنَّ الرجل يتجه نحو توريث ولده، مع أنَّنا جميعاً نعرف من هو يزيد.

قال عبد الرحمن: صدقت، فإذا عرفنا من هو يزيد فلابُدَّ أن نستشعر الخوف، فعلاً. لأنَّه ستقع كارثة إذا أصبح هذا الرجل خليفة على المسلمين.

قال عبد الله: أعتقد أنَّ الكارثة قد وقعت.

قال عبد الرحمن: متى؟

قال عبد الله: منذ فترة طويلة، ألا ترى أنَّ السلطان الذي بيد المسلمين، هو نتاج جهاد أهل البيت بزعامة سيِّدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهم الذين صنعوه؟

أين كان العرب قبل بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأين أصبحوا اليوم؟ حتَّى بني أُميَّة كان يتلخَّص سلطانهم في السيطرة على التجارة في مكَّة، وهي مجرَّد قرية كبيرة، وقصارى ما كانوا يفعلون هو رحلة الشتاء والصيف إلى الشام.

أمَّا اليوم فإنَّ معاوية يحكم العالم المعمور كلّه، ولكن أين هم أهل البيت عليهم السلام؟ وماذا حصلوا عليه؟ وأين أجر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الذي شنَّت عليه الغارات، وعاش منذ بعثته بين الحياة والموت، متنقِّلاً من معركة إلى معركة، حتى أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم خلال ثلاثة عشر عاماً فقط من عمر بعثته خاض أكثر من سبعين معركة؟

قال عبد الرحمن: النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان زاهداً في الحياة.

قال عبد الله: نعم؛ ولكن هذا لا يلغي واجب الناس تجاهه، ثمَّ ماذا عن أهل بيته؛ فاطمة الزهراء عليها السلام العزيزة عليه لم ترى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راحة في هذه الحياة، فقد عاشت باكية، وماتت مكظومة، والتحقت بأبيها بعد شهور قليلة من وفاته، ثمَّ منعوا عليّاً عليه السلام من تبوأ أي مقام خلال أربعة وعشرين عاماً ولم تعرض عليه حتى منصب قاض بسيط.

قال عبد الرحمن: هو لم يطلب ذلك.

فقال عبد الله: وهل عرضوا عليه أي موقع ومقام؟

ألم يكن عليّ بن أبي طالب هو أعلم الصحابة وأفضلهم، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في حقّه ما لم يقل في حقّ أيّ أحد، وكانت له مواقف لم تكن لأيّ شخص آخر، وهو أوَّل من آمن بالنبيّ وصلَّى معه؟

ألم يكن يستحق أن يُعرض عليه مثلاً أن يكون والياً في بلد من البلدان؟ ثم ألم يكن من واجب الجميع أن يطيعوه بعد أن بايعه الناس؟ فلماذا نكثت طائفة، ومرقت أُخرى، وقسط آخرون، وقُتل أصحابه غيلة واحداً بعد آخر، وشنَّت عليه الحروب كما شنَّت من

قبل على ابن عمّه رسول الله ﷺ، ثمَّ ضُرب على أمّ رأسه بسيف الظلم في محراب العبادة؟

ثمَّ ماذا جرى لولده الحسن عليه السلام، وهو سبط رسول الله ﷺ، وابن فاطمة الزهراء عليها السلام، والذي قال عنه رسول الله: «**الحسن منِّي**»[1]، وقال: «**الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنَّة**»[2]؟

وها هو الحسين عليه السلام جالس في المدينة، معزولاً عن كلّ أمر، محاطاً بالشرطة، ممنوعاً من أن يلتقي به أحد، ثمَّ الكارثة التي تحدَّثت عنها أن يأتي يزيد ويصبح خليفة رسول الله. أين العمل بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[3]؟ وأين الطاعة لسُنَّة رسول الله ﷺ القائل: «**أهل بيتي فيكم كالنُّجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم**»؟ و«**إنِّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وأهل بيتي**»؟

فقال عبد الرحمن: الآن أخبرني على الشائعة، هل صحيح أنَّ معاوية يعزم على توريث ولده، وهل هذا من سُنَّة رسول الله ﷺ ومن سبق من الخلفاء؟ ومن أين جاءته هذه الفكرة؟

قال عبد الله: سوف أعطيك الخبر اليقين، أنَّ المغيرة بن شعبة، والي الكوفة، أحسَّ بأنَّ معاوية يريد أن يعزله من الإمارة، ويستعمل بدلاً منه سعيد بن العاص، ولكي يستطلع الأمر قام بكتابة رسالة إلى معاوية يقول له فيها بالنص: «أمَّا بعد فإنِّي كبُرت ودقَّ

---

(1) الجامع الصغير، جلال الدِّين السيوطي، ج1، ص59.
(2) قرب الإسناد، الحميري القمي، ص111.
(3) سورة الشورى، الآية 23.

عظمي وشنفت ـ أي تنكَّرت ـ لي قريش، فإن رأيت أن تعزلني فعزلت».

فكتب إليه معاوية: «جاءني كتابك تذكر أنَّه كبُرت، فلعمري ما أكل عمرك غيرك، وتذكر أنَّ قريشاً شنفت لك، ولعمري ما أصبت خيراً إلَّا منهم، وتسألني أن أعزلك فقد فعلت، فإن تك صادقاً فقد شفَّعتك، وإن تك مخادعاً فقد خادعتك»(1).

ولمَّا وصلت الرسالة إلى المغيرة قال لمن حوله: الرأي هو أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه، ليظهر للناس كراهتي للولاية.

فسار إلى معاوية، وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم الآن ولايةً وإمارةً، لا أفعل ذلك أبداً(2).

قال عبد الرحمن: فالرسالة التي أرسلها إلى معاوية لم يكن يقصد بها أن يعتزل، وإنَّما كان يريد أن يعرف نوايا معاوية؟

قال عبد الله: تماماً، كان يريد أن يثبت ولايته على الكوفة، وليس الاعتزال عنها، ففكَّر في الأمر كثيراً.. حتى توصَّل إلى خطَّة تدفع معاوية إلى أن يثبته في مقامه، وذلك بأن يعرض على معاوية خلافة يزيد، وكان يعرف أنَّ لمعاوية كلّ الهوى في مثل هذا الأمر، رغم الشك الكثير الذي كان يحوم حول يزيد. صحيح أنَّ المسلمين سكتوا على خلافة معاوية بقوَّة السلاح والخداع والمال، لكن أمر يزيد يختلف تماماً، فهو متجرىء على الله ورسوله، ومجاهر بالفسق والفجور.

(1) تجارب الأُمم، ج2، ص35.
(2) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج3، ص503.

قال عبد الرحمن: وماذا حدث بين معاوية والمغيرة؟

قال عبد الله: إنَّ المغيرة دخل أوَّلاً على يزيد وقال له: «إنَّه قد ذهب أعيان أصحاب النبي وآله، وكبراء قريش وذوو أسنانهم وإنَّما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم، وأحسنهم رأياً، وأعلمهم بالسُّنَّة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة»؟

فقال له يزيد مستغرباً: أوَ ترى ذلك يتم؟

قال المغيرة: نعم.

ثمَّ خرج من عنده، فدخل يزيد على أبيه، وأخبره بما قال المغيرة، فأحضره معاوية وقال له: ما يقول يزيد عنك؟

قال المغيرة: يا أمير المؤمنين، قد رأيتَ ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف، فاعقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس، وخلفاً منك، ولا تسفك دماء، ولا تكون فتنة.

فقال معاوية: ومن لي بهذا؟

قال المغيرة: أنا أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك «زياد» أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك.

فقال معاوية: فارجع إلى عملك، وتحدَّث مع من تثق إليه في ذلك، وترى ونرى.

فخرج المغيرة من عند معاوية ورجع إلى أصحابه، فقالوا له: ماذا ورائك؟

فقال المغيرة: لقد وضعت رِجلَ معاوية في غرزٍ بعيد الغاية على أُمَّة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً.

وتمثَّل يقول الشاعر:

بمثلي شاهد النجوى وغالي بي الأعداء والخصم الغضابا

ثم رجع مع أصحابه حتَّى قدم الكوفة، وبدأ يذاكر من يثق إليه، ومن يعلم أنَّه من شيعة بني أُميَّة، فتحدَّث معهم حول أمر يزيد، فأجابوا إلى بيعته. فأوفد منهم أربعين رجلاً إلى الشام، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة، فقدموا على معاوية وزيَّنوا له بيعة يزيد، ودعوه إلى عقدها.

فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا، وكونوا على رأيكم.

ثمَّ قال لموسى بن المغيرة سرّاً: بِكَمْ اشترى أبوك مِن هؤلاء دينهم؟

قال موسى: بثلاثين ألف درهم.

فقال معاوية: لقد هان عليهم دينهم.

❋

وبعد رجوع هؤلاء النفر إلى الكوفة، قوي عزم معاوية على أخذ البيعة ليزيد، بعد أن اطمأن إلى وضع ثلث المدينة.

ثمَّ أرسل رسالة إلى «زياد ابن أبيه» وكان واليه على البصرة ليستمزج رأيه، ويستشيره في بيعة يزيد. ومع أنَّ زياداً كان له هوى في بني أُميَّة، وعلى الخصوص في معاوية الذي نسبه إلى أبيه، وجعله أخاً له، بعد أن كان معروفاً بزياد ابن أبيه، فأصبح زياد بن أبي سفيان، مع ذلك فإنَّه لم يكن مرتاحاً إلى خلافة يزيد، ليس

بسبب تقواه، وإنَّما خوفاً من خسارة بني أُميَّة لسلطانهم، لأنَّ الناس لا يرغبون في خلافة شاب فاسق نزق مثله.

ثمَّ إنَّ زياد ابن أبيه أحضر عبيد بن كعب، وقال له: «إنَّ لكل مستشير ثقة، ولكلّ سرّ مستودعاً.. وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف، أنَّ أمير المؤمنين معاوية كتب يستشيرني في بيعة يزيد، وهو يتخوَّف من نفرة الناس، ويرجو طاعتهم، ويزيد صاحب رسلة وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فألقِ أمير المؤمنين معاوية، واذكر له فعلات يزيد، وقل له: رويدك بالأمر، فأحرى لك أن يتمّ لك، لا تعجل فإنَّ دركاً في تأخير، خير من فوت في عجلة»

فقال له عبيد بن كعب: أشير عليك بغير هذا؟

قال زياد: وما هو؟

قال عبيد بن كعب: «لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تبغِّض إليه إبنه، وألقى أنا يزيد، فأخبره أنَّ أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في البيعة له، وأنَّ زياداً يتخوَّف من خلاف الناس عليك لهنات ينقمونها عليك، ولذلك فإنَّا نرى أن نترك ما ينقم عليه الناس، لتستحكم له الحجَّة عليهم ويتمّ ما تريد، فتكون قد نصحت أمير المؤمنين، وسلمت ممَّا تخاف من أمر الأُمَّة».

فقال زياد: أشخص على بركة الله ـ يعني إفعل ـ فإن أصبت فما لا يُنكر، وإن يكن خطأ فغير مستغش، وتقول بما ترى.

فقدم عبيد بن كعب على يزيد، فذكر ذلك له، فأظهر يزيد

تصميمه على الكفّ عن كثير ممَّا كان يصنعه أمام الناس، وكتب زياد معه إلى معاوية يشير عليه بأن لا يعجل[1].

كما كتب معاوية إلى كل من مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، وهم من أركان نظامه في المدينة، يستطلعهم أمر بيعة يزيد. فأشاروا عليه بالتأني في أمره، وأن لا يعجل حتى يطالع أهل المدينة في ذلك[2].

والغريب أنَّ معاوية لم يواجه رفض البيعة ليزيد من قبل أركان نظامه فحسب، بل واجه ذلك حتى في بيته، حيث إنَّ زوجته فاختة بنت قرضة بن حبيب بن عبد شمس، كانت تكره بيعة يزيد، وتودّ لو آثر معاوية بالبيعة إبنها عبد الله، فقالت له: «ما أشار به عليك المغيرة، أراد أن يجعل لك عدوّاً من نفسك، يتمنَّى هلاكك كلّ يوم».

وممَّن عارض معاوية على البيعة ليزيد، سعيد بن عثمان، الذي كان يرى نفسه أحق من يزيد بالخلافة، لأنَّه ابن عثمان بن عفَّان الذي استولى معاوية على الخلافة باسمه، فقال لمعاوية: «يا أمير المؤمنين، علامَ تبايع ليزيد وتتركني، فوالله لتعلم أنَّ أبي خير من أبيه، وأُمِّي خير من أُمّه، وأنَّك إنَّما نلت ما نلت بأبي».

فقال له معاوية ضاحكاً: «حاشا يابن أخي، أمَّا قولك أنَّ أباك خير من أبيه، فيومٌ من عثمان خير من معاوية، وأمَّا قولك أنَّ أُمّك خيرٌ من أُمّه ففضل قرشيَّة على كلبيَّة فضل بيِّن، وأمَّا أن أكون نلت ما أنا فيه

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص504 ـ 505؛ ونهاية الأرب، للنويري، ج20، ص348 ـ 351.
(2) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص225.

بأبيك، فإنَّما الملك يؤتيه الله من يشاء، قُتل أبوك فتواكلته بنو العاص، وقامت فيها بنو حرب، فنحن أعظم بذلك منَّة عليك، وأمَّا أن تكون خيراً من يزيد، فوالله ما أحبّ أنَّ داري مملوئة مثلك بيزيد، ولكن دعني من هذا القول، وسلني أعطيك، ثمَّ ولَّاه ولاية خراسان»[1].

وهكذا كان كبار بني أُميَّة يمنّون أنفسهم الخلافة بعد معاوية، ما دامت الموازين قد تبدَّلت، بعد أن لم يعد العلم والحكمة والعدالة مطلوبة لتولِّي الحكم، وإنَّما المساومات و«أنا أحقّ به لأنَّك عن طريقنا وصلت إلى الحكم»، وما شابه ذلك.

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجُّس من كبار بني أُميَّة والمساومة مع الولاة، والإكراه للناس، وبهذه الجفوة قوبلت القضيَّة بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء، وظاهر من اللحظات الأُولى أنَّ المغيرة بن شعبة كان سمساراً يصافق على ما لا يملك، فقبض ولاية الكوفة ثمناً لسمسرته هذه ومنع الخلاف في غيرهما، بينما الكوفة أوَّل من كره بيعة يزيد، والبصرة تلكَّأت في الجواب، وواليها زياد ابن أبيه أرجأ الأمر وأوصى بالتمهُّل. وأطراف الدولة من ناحية همدان سارت، والحجاز استعصت على بني أُميَّة سنوات، وفي اليمن لم يكن هنالك نصر للأمويِّين[2].

قال عبد الرحمن: ومع أنَّ زياد لم يكن من رأيه استخلاف يزيد، إلَّا أنَّ معاوية بقي مصرّاً على أمره، أليس كذلك؟

قال عبد الله: هذا صحيح، ولكنَّه أخذ يبحث على الأقل عن

---

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص213 و214؛ والأغاني، ج18، ص188.

(2) أبي الشهداء الحسين بن عليّ، لعبَّاس محمود العقَّاد، ص202 و204.

الإجماع بين قومه على أمر ولده، وأعتقد أنَّه كان ينتظر شيئاً. نعم؛ هو ماض في ذلك، غير أنَّه يريد ترتيب الأُمور أكثر.

❁

بعد أن أيَّد أهل الشام معاوية لاختيار يزيد خليفة من بعده، كتب بيعته إلى الآفاق، وكان أكثر ما يهمّه أمر الحجاز، فكتب إلى مروان بن الحكم، عامله هناك، أن يجمع رؤساء القوم ويأخذ البيعة منهم، لكن مروان كان يطمع في الخلافة من بعد معاوية ويعتبر نفسه أولى بها من إبنه، فتلكأ في ذلك، بل وأغرى رؤوس قريش بالامتناع عن البيعة. فعزله معاوية، وولَّى سعيد بن العاص مكانه، لكنَّ الرجل أيضاً فشل في أن يستطيع أخذ البيعة ليزيد من أهل الحلّ والعقد، فتدخَّل معاوية شخصيّاً، وأخذ يكتب الرسائل إلى رؤوس القوم، وكان ممَّن كتب إليهم عبد الله بن عبَّاس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، والحسين بن عليّ.. وأمر عامله سعيداً أن يوصل كتبه هذه إليهم، ويبعث إليه بجواباتهم.

وكان فيما قال لسعيد: «فهمت ما ذكرت من إبطاء الناس، وقد كتبتُ إلى رؤسائهم كتباً فسلِّمها إليهم، ولتشتدّ عزيمتك، وتحسب نيَّتك، وعليك بالرفق، وانظر «حسيناً» خاصَّة، فلا يناله منك مكروه، فإنَّ له قرابة وحقّاً عظيماً لا ينكره مسلم ولا مسلمة، وهو ليث عرين، ولست آمنك إن ساورته أن لا تقع عليه. فأمَّا من يرد مع السباع إذا وردت، ويكنس إذا كنست، فذلك عبد الله بن الزبير، فاحذره أشدّ الحذر»[1].

---

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص154.

فأعيت سعيد بن العاص كلّ حيلة في إقناع وجهاء الناس وعامَّتهم بهذه البيعة البغيضة، فقرَّر معاوية أن يذهب بنفسه إلى مكَّة والمدينة، ومعه الجند وحقائب الأموال. فقطع الطريق كلّه من الشام إلى الحجاز لتثبيت بيعة ابنه، وهناك دعا بأولئك النفر الذين كتب الرسائل إليهم، فقال لهم: «قد علمتم سيرتي فيكم، وصلتي لأرحامكم، ويزيد أخوكم وابن عمّكم، وأردت أن تقدِّموا يزيد باسم الخلافة، وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون، وتجلبون المال وتقسِّمونه».

فتصدى له عبد الله بن الزبير، الذي كان هو الآخر يطمع في الخلافة، وخيِّره بين أن يصنع كما صنع أبو بكر، إذ عهد إلى رجل ليس من بني أبيه، أو كما صنع عمر، إذ جعل الخلافة شورى في ستّة نفر، ليس فيهم أحد من ولده، ولا من بني أبيه.

فقال معاوية مغضباً: وهل عندك غير هذا؟

قال ابن الزبير: لا.

فالتفت معاوية إلى الآخرين يسألهم قائلاً: فأنتم؟

فكانوا بين من سكت، وبين من وافق ابن الزبير، وبين من خالف، فقال متوعِّداً: «لقد أعذر من أنذر، إنِّي كنت أخطب فيكم، فيقوم إليَّ القائم منكم، فيكذِّبني على رؤوس الناس، فأحلم عن ذلك وأصفح».

ثمَّ أخبرهم أنَّه سوف يجمع الناس ويقوم فيهم خطيباً، فلو ردّوا عليه فسوف يقتلهم فوراً، وقال: «إنِّي قائم بمقالة، ليس أقول قولاً، فأقسم بالله لأن ردَّ عليَّ أحدكم كلمة في مقامي هذا، لا ترجع

إليه كلمة غيرها حتَّى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقينَّ رجل إلَّا على نفسه»!

ثمَّ أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كلّ واحد منهم رجلين بيدهما السيف، وقال لهما: «إن ذهب رجل منهم يردّ عليَّ بكلمة، سواء بتصديق، أو بتكذيب، فاضرباه بسيفكما».

ثمَّ خرج بهم إلى المسجد ورقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «هؤلاء، سادة المسلمين وخيارهم، لا يُبرم أمرٌ دونهم، ولا يُقضى إلَّا على مشورتهم، وإنَّهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوه».

وهكذا كانت البيعة ليزيد في الحجاز[1].

وكان معاوية لا يسمع بأحد يتوقَّع أن يرفض بيعة يزيد، أو يخالفه في ذلك إلَّا وأرسل له مبلغاً من المال، أو يُهدِّده بالقتل، حتَّى أنَّ أحدهم وهو عقيبة الأسدي، وكان شاعر أهل البصرة، يكره بيعة يزيد ويبغضه، وأنشأ في ذلك يقول:

معاويُ إنَّنا بشرٌ فاسجعْ فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكلتُم أرضنا فجردتُموها فهلّ من قائم أو من حصيدِ
أتطمع في الخلود إذا هلكنا وليس لنا ولاً لكَ من خُلودِ
فهبها أُمَّةً هلكت ضياعاً يزيدُ يسوسها وأبو يزيدِ
دعوا حقّ الخلافة واستقيموا وتأميرَ الأراذل والعبيدِ
وأعطونا السويَّة لا تزركم جنودٌ مردفاتٌ بالجنودِ

(1) تاريخ خليفة، ص131 ـ 133؛ والعقد الفريد، ج5، ص121؛ وتاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص197.

فأرسل إليه معاوية بعشرة آلاف درهم ليكفّ لسانه، واشترى بذلك ضميره، فأنشأ له الأبيات التالية:

ألا ليتَ شعري ما يقول ابن عامرٍ
ومروان، أم ماذا يقول سعيدُ
بني خلفاء اللَّه مهلاً فإنَّما
يبوِّأها الرحمنُ حيث يريدُ
إذا المنبر الغربيّ خلاه ربّهُ
فإنَّ أميرَ المؤمنين يزيدُ
على الطائر الميون والجدّ صاعدٌ
لكلّ أُناس طائرٌ وجُدودُ
فلا زلتَ أعلى الناس كعباً ولم تزل
وفودٌ تساميها إليك وفودُ
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً
تشيّد أطنابٌ له وعمودُ

ولم يزل معاوية يروِّض الناس على بيعة يزيد، ويعطي المقارن ويداني المتباعد، حتَّى مالوا إليه، وأجابوه إلى ذلك[1].

واستمرَّ بهذه السياسة يروِّض الناس في كلّ موسم، فلم يزل على ذلك سبع سنين. وفي سنة خمس وخمسين كتب إلى أهل الأمصار أن يقدموا عليه، فقدم عليه قوم من أهل الكوفة، وأهل البصرة، وأهل مكَّة والمدينة، وأهل مصر، والجزيرة، ومن جميع البلاد، فاستشارهم في البيعة ليزيد.

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص228.

فقام إليه رجل من أهل المدينة يُقال له محمَّد بن عمرو بن حزم، فقال: «يا معاوية؛ إنَّ يزيد أهل لما تريد أن ترسمه له، وهو لعمري غنيّ في المال، ووسيط في النسب، غير أنَّ الله سبحانه سائل كلّ راعٍ عن رعيَّته، فاتق الله يا معاوية، وانظر من تولِّي أمر أُمَّة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم».

فتنفَّس معاوية الصعداء ثمَّ قال: «يابن عمرو، أنت رجل ناصح، وإنَّما قلت برأيك، ولم يكن عليك إلَّا ذلك، غير أنَّه لم يبق من أولاد الصحابة إلَّا ابني وأبناؤهم، وابني أحبّ إليَّ من أبنائهم».

فسكت الناس وانصرفوا يومهم[1].

❋

واستمر الحوار فيما بين الصديقين عبد الله وعبد الرحمن بخصوص ما تواجه الأُمَّة من مصير خطير..

وما برحا على هذا الحال حتى أقفل عبد الرحمن راجعاً إلى المدينة المنوَّرة بعد أن أنهى زيارته للكوفة.

❋

ولم تمض فترة طويلة على افتراق هذين الصديقين، حتى حان موسم الحج، فشدَّ عبد الله رحاله، قاصداً مكَّة المكرَّمة لأداء المناسك.

وفي سفره هذا قصد المدينة المنوَّرة ليزور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويُصلِّي في مسجده.. وهناك توجَّه إلى صديقه عبد الرحمن ونزل عنده.

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص229.

وما إن استراح قليلاً من وعثاء السفر، حتى بادره عبد الرحمن بالسؤال: ما الذي ورائك يا عبد الله؟

قال عبد الله: إنَّ الصالحين من عباد الله، خاصَّةً أهل الكوفة، ضاقوا ذرعاً بمعاوية، ورغبوا بعد وفاة الحسن في أن ينهض الحسين بالأمر ويغيِّر ما هم عليه، فقد اجتمع المؤمنون ومعهم بني جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي، في دار سليمان بن صُرد الخزاعي، وكتبوا إلى الحسين عليه السلام يعزّونه على مصابه بأخيه. وكان ممَّا جاء في الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

«إلى الحسين بن عليّ بن أبي طالب، من شيعته وشيعة أبيه.

«أمَّا بعد، فإنَّا نحمد الله الذي لا إله إلَّا هو، ونسأله أن يصلِّي على محمَّد وآل محمَّد، وقد بلغنا وفاة أخيك الحسن عليه السلام، فرحمه الله يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حيّاً، وغفر الله له وضاعف حسناته، وألحقه بدرجة جدّه وأبيه، وضاعف لك الأجر بالمصاب، وجبر مصيبتك من بعده، فعند الله نحتسبه، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ممَّا أصيبت به هذه الأُمَّة عامَّة، وما رُزيت به خاصَّة.

«ولقد رُزئت بالرزء العظيم، وأُصبت بالمصاب الجليل، فاصبر يا أبا عبد الله على ما أصابك، إنَّ ذلك من عزم الأُمور، وإنَّك والحمد لله خلف لمن كان قبلك، والله تعالى يعطي رشده لمن سلك سبيلك ويهتدي بهدايتك، ونحن شيعتك المصابون بمصيبتك، المحزونون بحزنك، المسرورون بسرورك، المنتظرون لأمرك. شرح

الله صدرك، وأعلى شأنك، ورفع قدرك، وردَّ عليك حقّك، والسَّلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فكتب الإمام الحسين عليه السلام في جوابهم: «إنِّي لأرجو أن يكون رأي أخي في الموادعة، ورأيي في جهاد الظلمة رشداً وسداداً، فألصقوا بالأرض وأكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنَّة ما دام ابن هند (معاوية)حيّاً، فإن يحدث به حدث وأنا حيٌّ يأتيكم رأيي إن شاء الله»[1].

وهكذا فقد كانت هنالك ضغوط على الحسين عليه السلام لكي ينهض في زمن معاوية، إلَّا أنَّه كان يمتنع ويقول لمن يصرّ عليه: «إنَّ بيني وبين معاوية عهداً وعقداً لا يجوز لي نقضه، حتَّى تمضي المدَّة، فإذا مات معاوية نظرنا في ذلك»[2].

كما أنَّ كثيرين كانوا يأتون إلى الحسين عليه السلام وهو في المدينة يطلبون منه النهضة ويبدون استعدادهم لنصرته، ولكنَّه كان يأمرهم بالتوقُّف عن القيام بأيّ عمل، فكان فيما قال لبعضهم: «ليكن كلّ امرىء منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام هذا الرجل حيّاً، فإن يهلك وأنتم أحياء رجونا أن يخيّر الله لنا، ويأتينا رشدنا، ولا يكلنا إلى أنفسنا، فإنَّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

وقال للمسيّب بن نجبة الذي جاء على رأس وفد من رجال الكوفة يطالبونه بخلع بيعة معاوية قائلين: «لقد علمنا رأيك ورأي أخيك من قبل».

---

(1) مقتل أبي مخنف المشهور، ص5 و6.
(2) الإرشاد، للمفيد، ج2، ص30.

فأجابهم الحسين: «إنِّي لأرجو أن يعطي الله أخي على نيَّته في حبّه الكف، وأن يعطيني على نيَّتي في حبِّي جهاد الظالمين»[1].

ومع أنَّ رأي الحسين في عهد معاوية لم يكن في النهضة ضدّه، كما بيَّن ذلك لكثيرين، سواء في رسائله الجوابية أو في كلماته المباشرة، إلَّا أنَّ اختلاف الناس إليه، وزيارتهم له وإجلالهم لمقامه، وتعظيمهم لفضله، ودعواتهم له بالنهوض أثارت مخاوف بني أُميَّة، ليس فقط لأنَّهم كانوا يخشون استجابة الحسين لهم، بل لأنَّ مخاوف بعضهم كانت تمتد إلى ما بعد معاوية.

فأشخاص، مثل مروان بن الحكم كان له هوى في الخلافة بعد معاوية، ولم يكن يخفي ذلك، كان يخشى أن يكون إذا مات معاوية أن يعدل الناس بالحسين أحداً.

ولقد حدث أنَّ عمرو بن عثمان بن عفَّان جاء إلى مروان بن الحكم في أيام ولايته من قِبل معاوية على المدينة، وقال له: قد كثر اختلاف الناس إلى الحسين، وإنِّي لأرى أنَّ لكم منه يوماً عصيباً.

فكتب مروان ذلك إلى معاوية، وكان ممَّا ذكره في كتابه: «إنِّي لست آمن أن يكون الحسين مرصداً للفتنة، وأظنُّ يومكم من الحسين طويلاً»[2].

وأمثال هؤلاء في الحقيقة كانوا يرغبون في أن يقدم معاوية على اغتيال الحسين عليه السلام بطريقة أو بأخرى، كما فعل بأخيه

(1) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج3، ص197؛ البداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص162.

(2) مختصر ابن منظور، ج7، ص137؛ سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج3، ص198.

الحسن ﵇، حتى لا يكون الحسين غداً عقبة أمام سلطتهم وطغيانهم. لكن معاوية لم يكن يرى خطراً على سلطانه آنذاك، لأنَّ الحسين لم يكن فعلاً ينوي القيام بشيء، كما ذكرنا. فكتب معاوية إلى مروان: «أترك حسيناً ما تركك، ولم يظهر لك عداوة، وما لم يبد لك صفحته، واكمن عنه كمون الثرى إن شاء الله، والسَّلام»[1].

❁

قال عبد الرحمن الصالح لعبد الله بن مسلم: أظنُّ إنَّ نفوس الناس تغلي في صدورهم ممَّا يجري، فكم من قتل فظيع في صفوف الصالحين، وكم من استئثار لما الناس فيه أسوة، وكم من تهجير لمن هم مع أهل البيت ﵈، لكن أرى أنَّ معاوية استعمل الحكمة حينما لم يستجب لدعوات بعض المتزلِّفين في قتل الحسين أو نفيه أو سجنه.

فقال عبد الله بن مسلم: لم تكن تلك حكمة منه، وإنَّما كان مجبراً على ذلك.

قال عبد الرحمن: ومن الذي أجبره؟

قال عبد الله بن مسلم: مقام الحسين وموقعه في نفوس الناس، خاصَّة وأنَّه لم يفعل شيئاً، فلم يعطي عذراً لمعاوية في ذلك.

قال عبد الرحمن: أترى أنَّ الحسين ﵇ يرى لمعاوية حقّاً في سلطانه؟

---

(1) أنساب الأشراف، ج3، ص152؛ جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص367.

قال عبد الله بن مسلم: ليس هنالك من المؤمنين حتى شخص واحد يرى حقّاً لمعاوية في الحكم، فلا هو وصيّ رسول الله ﷺ، ولا هو ممَّن بايعه الناس، إنَّما استعمال السيف، والمال، والخديعة، وتخلّي الناس عن الدفاع عن الحق هو الذي جاء به إلى السلطان.

فقال عبد الرحمن: هل تظن أنَّ معاوية يخاف الحسين؟

قال عبد الله بن مسلم: نعم؛ لأنَّ الحسين عليه السلام سيِّد بني هاشم، ولا يخفى على أحد فضله ومنزلته.. وهو أولى الناس برسول الله ﷺ. ولم يقم بالنهضة ضد معاوية وبطشه، إلَّا لالتزامه بمعاهدة الصلح التي وقعها مع الحسن عليه السلام، وإلَّا فالوضع بالتأكيد سيكون غير الذي نحن عليه اليوم.

فقال عبد الرحمن: ولكن ما هي تفاصيل أخذ البيعة من قبل معاوية لابنه يزيد؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ معاوية بن أبي سفيان بعث إلى الضحَّاك بن قيس، فدعاه وقال: «إنِّي قد عزمت على الكلام لبيعة يزيد، فإذا غصَّ المجلس بأهله، ورأيتني ساكتاً فكنت أنت الذي تدعوني إلى أمر بيعته، وحضِّني على ذلك».

فلمَّا كان من الغد أرسل معاوية إلى وجوه من الناس، فأحضرهم بمجلسه، فلمَّا اجتمعوا بدأ بالكلام، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ عظَّم الإسلام وعظَّم حرمته، وذكر ما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر، ثمَّ ذكر يزيد وفضله في قريش وعلمه بالسياسة.

فقام الضحَّاك بن قيس وقال: «يا أمير المؤمنين، إنَّه لابُدَّ

للناس من والٍ بعدك وولي عهدك، فإنَّا قد بلونا الجماعة والفرقة، فوجدنا الجماعة والألفة أحقن للدماء، وآمن للسبل، وخيراً في العاجلة والآجلة، والأيام عوج رواجع، ولله في كلّ يوم أمر وشأن، ولا تدري ما يختلف به العصران، وينقلب به الحدثان، ويزيد ابن أمير المؤمنين في هديه وقصد سيرته، وهو من أفضلنا حلماً وأكرمنا علماً، فولِّهِ عهدك، واجعله لنا عَلَماً بعدك، يكون مفزعاً نلجأ إليه، وخليفة نعول عليه، تسكن به القلوب وتأمن به الفتن».

ولمَّا سكت الضحَّاك، قام عمرو بن سعيد الأشدق وقال: «أيُّها الناس، إنَّ يزيد لطويل الباع، وسيع الصدر، رفيع الذكر، إن صرتم إلى عدله وسعكم، وإن لجأتم إلى جوده أغناكم، وهو خلف لأمير المؤمنين ولا خلف منه».

فقال له معاوية: اجلس أبا أُميَّة، فقد أوسعت وأحسنت.

ولمَّا جلس الرجل، قام يزيد بن المقنَّع الكندي وبيده سيف، فقال: «أيُّها الناس، إنَّ أمير المؤمنين هذا ـ وأشار بيده إلى معاوية ـ فإذا مات فهذا ـ وأشار بيده إلى يزيد ـ فمن أبى فهذا ـ وأشار بيده إلى السيف ـ.

فقال له معاوية: اجلس فأنت سيِّد الخطباء.

ثمَّ قام الحسين بن نمير السكوني، فقال: يا معاوية، والله لأن لقيت الله، ولم تبايع ليزيد فتكوننَّ مضيِّعاً للأُمَّة!

فالتفت معاوية إلى الأحنف بن قيس وقال: يا أبا بحر، ما يمنعك من الكلام؟

قال الأحنف: «أنت أعلمنا بيزيد في ليله ونهاره، ومدخله

ومخرجه، وسرّه وعلانيته، فإن كنت تعلمه لله عزَّ وجلَّ ولهذه الأُمَّة رضا، فلا تشاورنَّ فيه أحداً من الناس، وإن كنت تعلم لله غير ذلك فلا تزوِّده الدُّنيا، وأنت ماضٍ إلى الآخرة، فإن قلنا ما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا.

فقال معاوية: «أحسنت يا أبا بحر، جزاك الله عن السمع والطاعة خيراً».

ثمَّ أمر الناس أن يبايعوا يزيد، فبايعوه، وانصرفوا إلى منازلهم[1].

فلمَّا انفضَّ المجلس، وخرج الضحَّاك، الرجل الذي حثَّ معاوية على أن يولِّي يزيد أُمور المسلمين، لقيه الأحنف بالباب، فقال الرجل وهو يبرِّر كلامه: «يا أبا بحر، إنِّي لأعلم أنَّ شرّ من خلق الله هو هذا وابنه ـ يقصد معاوية ويزيد ـ ولكنَّهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في استخراجها إلَّا بما سمعت».

فقال له الأحنف: «يا هذا، أمسك، فإنَّ ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً»[2].

❋

قال عبد الله بن مسلم لصاحبه: ألا ترى يا عبد الرحمن كيف أنَّ معاوية يُقلِّد الأباطرة وملوك الهند والرومان والفرس الذين كانوا يأخذون البيعة لأولادهم في حياتهم من دون أن يكون للدِّين وقيمه،

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص230 و232.

(2) الكامل، للمبرّد، ج1، ص30.

وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما اشترطه ربّ العالمين، فيمن يتولَّى أُمور الناس أي دخل في ذلك؟

إنَّه حاكم بيده المال والسلطان، فمن أطاعه أعطاه، ومن امتنع عليه ضرب عنقه، وبهذه الطريقة يأخذ البيعة لابنه يزيد طوعاً أو كرهاً.

ولقد بيَّن هذا المعنى عبد الرحمن بن همام السلولي في أبيات له يخاطب بني أُميَّة، يقول:

فإن تأتوا برملة أو بهند نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما مات كسرى، قام كسرى نعدّ ثلاثة متناسقينا
فيا لهفا لو أنَّ لنا ألوفاً ولكن لا نعود كما عنينا
إذن لضربتمُ حتَّى تعودوا بمكَّة تلعقون بها السخينا
حشينا الغيظ حتَّى لو شربنا دماء بني أُميَّة ما روينا
لقد ضاعت رعيَّتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا[1].

ثمَّ إنَّ معاوية لم يكتفِ لتثبيت ولاية العهد ليزيد بإصدار الأوامر إلى الولاة في البلدان بأخذ البيعة لولده، وإنَّما أشغل الدولة كُلّها بهذه القضيَّة، فكان هو شخصيّاً يعقد بين فترة وأُخرى مجالس يتفق سلفاً مع بعض المتكلِّمين حتَّى يمدحوه، ويمدحوا ولده، ويحثّوا الناس على إطاعة يزيد.

فكان أحياناً يجلس جلسة عامَّة ويأذن للوفود بالدخول عليه، ويتقدَّم إلى أصحابه أن يقولوا في يزيد ما ليس فيه. فانعقدت

---

(1) مروج الذهب، للمسعودي، ج3، ص37.

المجالس في كلِّ مكان، وكُلّها مسخَّرة لمدح الرجل، وكأنَّ الأُمَّة عجزت عن أن تلد مثله..

وممَّا قاله بعضهم في إحدى المجالس: «إنَّ يزيد أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، طويل الباع، رحب الذراع، إذا صرتم إلى عدله وسعكم، وإن طلبتم رفده أغناكم، جذع قارح.. سُوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع، خلف من أمير المؤمنين، ولا خلف منه»[1].

✵

قال عبد الله بن مسلم: غريب، أنَّ القوم استكثروا على رسول الله ﷺ أن يعيّن خليفة من بعده، وحرَّفوا معاني كُلّ الكلمات التي قالها في حقّ عليّ عليه السلام مثل من قوله: «**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه**»[2]. وقوله: «**أقضاكم عليّ**[3]، **وأعلمكم عليّ**»[4].. ومئات من أمثالها، وأنكروا أخذ البيعة له في غدير خُمّ، ولكن اعتبروا تعيين معاوية لخليفته أمراً شرعيّاً.

أليس ذلك هو التلاعب بالدِّين؟

ألم أقل لك إنَّنا إذا أردنا أن نوزن الأُمور بالموازين التي جاء بها رسول الله ﷺ لكنَّا نحن في وادٍ، والدِّين في وادٍ آخر؟

---

(1) العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ج4، ص369.
(2) الكافي، الشيخ الكليني، ج1، ص287.
(3) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج2، ص163.
(4) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج6، ص306.

قال عبد الرحمن: هذا صحيح، ولكنَّه الملك والسلطان كما تعرف، ولكلٍّ متطلّباته.

قال عبد الله بن مسلم: وهذا ما أردت أن أقوله، أنَّه هو الملك والسلطان لا الدِّين والبرهان، فلا يجوز لنا أن نعتبر ما يجري ديناً، وهذا معنى كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال لقومه ذات يوم: «**ألا وإنَّ السلطان والقرآن لمجتمعان، ألا وإنَّهما سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنَّه سيكون عليكم أُمراء إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم**».

قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟

قال: «**كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم، حُمّلوا على الخشب ونُشروا بالمناشير. موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله**»[1].

فقال عبد الرحمن: لكن أخبرني هل قَبِل كُلّ رجال بني أُميَّة بيعة يزيد؟ وماذا عمَّن كان يطمح في الخلافة؟

قال عبد الله بن مسلم: تقصد مروان بن الحكم؟

قال عبد الرحمن: نعم، وأمثاله.

قال عبد الله بن مسلم: سبق وأن قلت لك إنَّ هذا الرجل كان يريد الخلافة لنفسه، وكان يُخطِّط لها، ولذلك حينما أرسل معاوية الكتب ببيعة يزيد إلى الأمصار كتب إلى مروان وهو واليه على المدينة يعلمه باختياره يزيد خليفة له ومبايعته إيَّاه بولاية العهد،

(1) سبيل الهدى والرشاد، الشيخ محمد بن يوسف الصالحي الشامي، ج10، ص136.

ويأمره بمبايعته وأخذ البيعة له من الناس، فخرج مروان مغضباً في أهل بيته وأخواله من بني كنانة حتَّى أتى دمشق فنزلها، ودخل على معاوية يمشي بين السماطين، حتَّى إذا كان منه بقدر ما يُسمعه صوته، سلَّم، وتكلَّم بكلام كثير يوبِّخ به معاوية.

وكان ممَّا قال: «أقم الأُمور يابن أبي سفيان، وأعدل عن تأميرك الصبيان، واعلم أنَّ لك من قومك نظراء، وأنَّ لك على منازلهم وزراء».

فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً، لكنَّه كظم غيظه، وأخذ بيد مروان وبدأ يمدحه وقال: «أنت نظير أمير المؤمنين بعده، وعدّته في كلّ شدَّة وعضده، والثاني بعد وليّ عهدِه، فقد ولَّيتك قومك، وأعظمت في الخراج سهمَك، وأنا مجيز وفدك، ومحسن رفدك، وعلى أمير المؤمنين غناك، والنزول عند رضاك».

وبذلك فقد عيَّن مروان مستشاره الثاني بعد ولي عهد يزيد، لحمله على قبول البيعة ليزيد، وردَّه إلى المدينة[1].

وكعادته، فقد أغدق عليه أموالاً كثيرة، حتَّى قيل إنَّ أوَّل ما رُزق ألف دينار في كلّ هلال، وفرض له في أهل بيته مائة مائة.

ولمَّا رجع مروان إلى المدينة أرسل إلى وجوه أهلها، فجمعهم في المسجد الأعظم، ثمَّ صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر الطاعة وحضَّ عليها، وذكر الفتنة وحذَّر منها.

ثمَّ قال: «أيُّها الناس؛ إنَّ أمير المؤمنين قد كبُر سنّه، ورقَّ جلده وعظمه، وخشي الفتنة من بعده، وقد أراه الله رأياً حسناً، وقد

---

(1) مروج الذهب، للمسعودي، ج3، ص37 و38.

أراد أن يختار لكم وليَّ عهد يكون من بعده لكم مفزعاً، يجمع الله به الألفة، ويحقن به الدماء، وأراد أن يكون ذلك عن مشورة منكم وتراضٍ، فماذا تقولون؟

فقال الناس من كلِّ جانب: إنَّا لا نكره ذلك، إذا كان لله فيه رضى.

فقال مروان: «إنَّه قد اختار لكم الرضى الذي يسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين المهديِّين، وهو ابنه يزيد».

فسكت الناس وتعجَّبوا، ولكن عبد الرحمن بن أبي بكر قام وقال: «كذبت والله يا مروان، وكذب من أمرك بهذا، والله ما يزيد برضى، ولكنَّكم تريدونها هرقلية».

فقال مروان: أيُّها الناس؛ إنَّ هذا المتكلِّم هو الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾[1].

فغضب عبد الرحمن بن أبي بكر، فرفع صوته قائلاً: يابن الزرقاء، فينا تتأوَّل القرآن، وأنت الطريد ابن الطريد؟

ثمَّ تكلَّم كلّ من الحسين بن عليّ عليه السلام، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، ، وأنكروا بيعة يزيد. فضجَّ بنو أُميَّة في المسجد، وتكلَّموا ضدّ عبد الرحمن، وبلغ ذلك عائشة، فخرجت من منزلها ملتفَّة بملائة لها ومعها نسوة من قريش، حتَّى دخلت المسجد. فلمَّا نظر إليها مروان كأنَّه فزع منها، فقال: نشدتكِ الله يا أُمّ المؤمنين إن قلتِ إلَّا حقّاً.

(1) سورة الأحقاف، آية 17.

فقالت عائشة: «لا قلت إلَّا حقّاً، أشهد لقد لعن رسول الله أباك، ولعنك معه، وأنت الطريد ابن الطريد، أنت تكلِّم أخي عبد الرحمن بما تكلِّمه»؟

فسكت مروان، ولم يرد عليها، ورجعت عائشة إلى منزلها، وتفرَّق الناس.

فكتب مروان إلى معاوية رسالة يخبره بذلك، وبما كان من عبد الرحمن بن أبي بكر، فلمَّا قرأ معاوية الكتاب أقبل على جلسائه فقال: «عبد الرحمن شيخ قد خرف، وذهب عقله ويجب أن نكفّ عنه، ونتحمَّل ما يكون منه، فليس هذا من رأيه، ولكن من رأي غيره»[1].

قال عبد الله بن مسلم: يا عبد الرحمن؛ إنَّ تثبيت خلافة يزيد لم يكن سهلاً، لأنَّ معاوية ساعدته الظروف، بعد أن تخاذل الناس عن حقّ عليّ والحسن، ولكن يزيد خلاصة أبي سفيان، ويمثّل في الإسلام دور جدّه في الجاهليَّة، ومعنى ذلك عودة الجاهلية وانتصارها على الدِّين في ظاهر الأمر وباطنه، خاصَّة وأنَّ الكل يعرف من هو هذا الشاب المغرور الذي لا يحافظ حتَّى على ظواهر الدِّين، فيشرب الخمور علناً، ويلعب القمار، ومشغول دائماً بالصَّيد، وأُمّه غير مسلمة، بالإضافة إلى رعونته في التعامل مع الناس، ولذلك فإنَّ الدولة كما قلت انشغلت كُلّها، من رأسها إلى آخر موظَّف فيها، بتثبيت خلافة يزيد وأخذ البيعة له.

فقد بدأ معاوية يكتب رسائل شخصيَّة إلى مختلف الرجال،

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص235.

مستغلّاً قوَّة سلطانه، كحاكم مطلق لم يكن يتَّقي الله في يوم من الأيام في إراقة دم من يخالفه، غيلة أو علناً أو أي شيء.

ألم يكن هو الذي أرسل بسر بن أرطأة لغزو بلاد المسلمين على الطريقة الجاهلية، في قتل الرجال وسبي الذراري والنساء؟

ألم يكن هو الذي قتل عمَّار بن ياسر، الذي قال عنه رسول الله: «تقلتك الفئة الباغية»؟[1].

ألم يكن هو الذي قتل محمد بن أبي بكر، ووضع جثمانه في جلد حمار وأحرقه؟

وبهذه الأعمال زرع الرعب في قلوب الناس وخافوا سلطانه، ومن جهة أُخرى فإنَّ الرجل فتح أبواب بيت المال على مصراعيها لشراء الضمائر.

ومن جملة من كتب إليهم سعيد بن العاص وهو واليه على المدينة، يأمره أن يدعو الناس إلى البيعة، ويكتب إليه بمن سارع ومن أبطأ. فلمَّا أتى سعيد بن العاص الكتاب دعا الناس إلى مبايعة يزيد وأظهر الغلظة، وأخذهم بالعزم والشِّدَّة، وسطا بكلّ من أبطأ عن ذلك. فأبطأ الناس عنها إلَّا اليسير، ولا سيَّما بنو هاشم، فإنَّه لم يجبه منهم أحد. وكان من أشدّ الناس إنكاراً لذلك عبد الله بن الزبير وردّاً له.

فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية: «أمَّا بعد، فإنَّك أمرتني أن أدعو الناس لبيعة يزيد ابن أمير المؤمنين، وأن أكتب إليك بمن سارع ممَّن أبطأ، وإنِّي أخبرك أنَّ الناس عن ذلك بطَّاء، لا سيَّما

(1) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج1، ص392.

أهل البيت من بني هاشم، فإنَّه لم يجبني منهم أحد، وبلغني عنهم ما أكره، وأمَّا الذي جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فهو عبد الله بن الزبير، ولست أقوى عليهم إلَّا بالخيل والرجال، أو تقدم بنفسك فترى رأيك في ذلك، والسَّلام».

فكتب معاوية رسائل إلى عبد الله بن عبَّاس، وإلى عبد الله بن الزبير، وإلى عبد الله بن جعفر، وإلى الحسين بن عليّ، وأمر سعيد بن العاص أن يوصلها إليهم ويبعث بجواباتها.

❁

قال عبد الرحمن لعبد الله بن مسلم: وماذا كانت في رسائل معاوية إلى رؤساء القوم وزعماء الأُمَّة، وماذا كانت جواباتهم، هل تعلم شيئاً من ذلك؟

قال عبد الله بن مسلم: نعم؛ أمَّا رسالة معاوية إلى ابن عبَّاس فكانت كما يلي: «أمَّا بعد، فقد بلغني إبطائك عن البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين، وإنِّي لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إليَّ، لأنَّك ممَّن ألَّب عليه وأجلب، وما معك من أمان فتطمئنُّ به، ولا عهد فتسكن إليه، فإذا أتاك كتابي هذا فاخرج إلى المسجد، والعن قتلة عثمان، وبايع عاملي، فقد أعذر من أنذر، وأنت بنفسك أبصر، والسَّلام».

فقال عبد الرحمن: رسالة شديدة، وفيها تهديد؟

قال عبد الله: نعم؛ ولكن جواب عبد الله بن عبَّاس كان أشدّ من الرسالة وفيها تحدّي.

قال عبد الرحمن: وماذا كتب فيها؟

قال عبد الله: كتب ابن عبَّاس إلى معاوية يقول: «أمَّا بعد،

فقد جاءني كتابك وفهمت ما ذكرت، وأنَّ ليس معي منك أمان، وإنَّه والله ما منك يُطلب الأمان يا معاوية، وإنَّما يُطلب الأمان من الله ربّ العالمين».

«وأمَّا قولك في قتلي، فوالله لو فعلت للقيت االلَّهَ ومحمَّداً خصمك، فما أخاله أفلح ولا أنجح من كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خصمه».

«وأمَّا ما ذكرت من أنّي ممَّن ألَّب في عثمان وأجلب فذلك أمر غبتَ عنه، ولو حضرته ما نسبت إليَّ شيئاً من التأليب عليه. وأيم الله ما أرى أحداً غضب لعثمان غضبي، ولا أعظم أحدٌ قتلَه إعظامي، ولو شهدت لنصرته أو أموت دونه، ولقد قلت وتمنّيت يوم قُتل عثمان ليت الذي قتل عثمان لقيني فقتلني معه ولا أبقى بعده».

«وأمَّا قولك لي: العن قتلة عثمان، فلعثمان وُلدٌ وخاصَّة وقرابة هم أحقّ باللَّعن منّي، فإن شاؤوا أن يلعنوا فليلعنوا، وإن شاؤوا أن يمسكوا فليمسكوا، والسَّلام»(1).

❁

أمَّا رسالة معاوية إلى عبد الله بن جعفر فكانت تنصُّ على ما يلي: «أمَّا بعد، فقد عرفت إثرتي إيَّاك على من سواك، وحسن رأيي فيك وفي أهل بيتك، وقد أتاني عنك ما أكره، فإن بايعت تُشكر، وإن تأبى تُدبر، والسَّلام».

فكتب إليه عبد الله بن جعفر: «أمَّا بعد، فقد جاءني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من إثرتك إيَّاي على من سواي، فإن تفعل

---

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص154 و155.

فبحظِّك أصبت، وإن تأبى فبنفسك قصَّرت. وأمَّا ما ذكرت من جبرك إيَّاي على البيعة ليزيد، فلعمري لئن أجبرتني عليها، لقد أجبرناك وأباك على الإسلام، حتَّى أدخلناكما كارهين غير طائعين، والسَّلام»[1].

❁

ثمَّ إنَّ عبد الله بن مسلم سكت هنيئة وتنهَّد قبل أن يقول لصحابه: أنظر، إنَّ أهل البيت هم الذين حملوا راية هذا الدِّين يوم كان بنو أميَّة، وعلى رأسهم أبو سفيان وولده معاوية، يحملون راية الكفر والضلال في مواجهة راية التوحيد، فكان أهل البيت مع رسول الله ﷺ، وتحمَّلوا في سبيل ذلك كُلّ المصائب والمصاعب والموت والشهادة، فقُتل منهم من قُتل مع النبيّ، وبعد رسول الله ﷺ كانوا هم الأُمناء على هذا الدِّين، يردّون عنه كيد المنافقين، كما ردّوا عنه من قبل كيد الكافرين، وكان المؤمنون الصالحون يعرفون أنَّهم هم الملجأ من الضلال، والمنجى من الهلاك بعد بيعة يزيد القسريَّة القيصريَّة التي اعتبرها الصالحون بمثابة بداية لنهاية الإسلام، وكان هذا هو رأي الحسين بن عليّ عليه السلام، حيث قال لمروان فيما بعد: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وعلى الإسلام السَّلام إذ قد بليت الأُمَّة براعٍ مثل يزيد»[2].

ولقد اكتشف الناس أنَّهم خدعوا، وأنَّ بني أُميَّة يريدون إعادة الجاهلية، وقلع جذور الدِّين، وإتمام الانقلاب على رسول الله ﷺ، فأخذوا يختلفون إلى الحسين، ويلتجأون إليه. فأوجس معاوية خيفة

---

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص155.
(2) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص17.

من الحسين عليه السلام وهو زعيم أهل البيت وسيِّدهم، وهو من لا يدانيه أحد، لا في الفضل ولا في العلم ولا في الأخلاق، وقد شبَّهه معاوية نفسه بالأسد الذي إذا نهض لا يقوم له أحد.

من هنا فقد كتب إلى الحسين قائلاً: «أمَّا بعد، فقد انتهتْ إليَّ منك أُمور أرغب بك عنها، فإن كانت حقّاً لم أقارّك عليها، وإن كانت باطلاً فأنت أسعد الناس بذلك، وبحظ نفسك تبدأ وبعهد الله توفي. فلا تحملني على قطيعتك والإساءة إليك، فإنِّي متى تنكرني أنكرك، ومتى تكدني أكدك، فاتق شقّ عصى هذه الأُمَّة، وأن يرجعوا على يدك إلى الفتنة، فقد جرَّبت الناس وبلوتهم، وأبوك كان أفضل منك، وقد كان اجتمع عليه رأي الذين يلوذون بك، ولا أظنّه يصلح لك منهم ما كان فسد عليه، فانظر لنفسك ودينك ولأُمَّة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يستخفنَّك السفهاء والذين لا يعلمون».

فلمَّا وصل الكتاب إلى الحسين عليه السلام كتب إليه: «أمَّا بعد، فقد بلغني كتابك، تذكر أنَّه قد بلغك عنِّي أُمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، فإنَّ الحسنات لا يهدي لها، ولا يُسدِّد إليها إلَّا الله».

«وأمَّا ما ذكرت أنَّه انتهى إليك عنِّي، فإنَّه إنَّما رقَّاه إليك الملَّاقون المشَّاؤون بالنميمة، وما أريد لك حرباً ولا عليك خلافاً. «وأيم الله أنِّي لخائف من الله في ترك ذلك، وما أظنّ الله راضياً عنِّي بترك محاكمتك إليه، ولا عاذري دون الإعذار إليه فيك، وفي أوليائك القاسطين الملحدين، حزب الظالمين وأولياء الشياطين».

وأضاف عليه السلام في رسالته:

«ألست أنت القاتل لحجر بن عدي، أخا كندة، والمصلِّين

العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع، ولا يخافون في الله لومة لائم؟ فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما كنت أعطيتهم الأيمان المغلَّظة، والمواثيق المؤكَّدة، أن لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم، ولا بأحنَّة تجدها في نفسك، جرأة منك على الله، واستخفافاً بعهده»؟

«أوَلست أنت قاتل عمرو بن الحمق، صاحب رسول الله ﷺ، العبدُ الصالح الذي أبلته العبادة، فنحل جسمه، وصفر لونه، فقتلته بعدما أمَّنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل، ثمَّ قتلته جرأة على ربّك، واستخفافاً بذلك العهد»؟

«أوَلست المدعي زياد بن سميَّة المولود، على فراش عبيد ثقيف، فزعمت أنَّه ابن أبيك، وقد قال رسول الله ﷺ: «**الولد للفراش، وللعاهر الحجر**». فتركت سُنَّة رسول الله ﷺ تعمُّداً، وتبعت هواك بغير هدى من الله، ثمَّ سلَّطته على أهل الإسلام، يقطّع أيدي المسلمين وأرجلهم، ويسمّل أعينهم، ويصلّبهم على جذوع النخل، كأنَّك لست من هذه الأُمَّة، وليسوا منك»؟

«أوَلست صاحب الحضرميين، الذين كتب فيهم ابن سميّة: إنَّهم على دين عليّ صلوات الله عليه، فكتبت إليه أن اقْتل كُلّ من كان على دين عليّ عليه السلام فقتَلَهم ومثَّل بهم بأمرك.

فكتبتَ إليه: الذي كان يبغض عليه أباك، والذي انتحالك إيَّاه هو ما أجلسك مجلسك هذا؟ ولولا ذلك كان أفضل شرفك تجشّم الرحلتين (الشتاء والصيف) في طلب الخمور».

«وقلتَ فيما قلت في كتابك: «انظر لنفسك ولدينك ولأُمَّة محمَّد ﷺ، واتق شقّ عصى هذه الأُمَّة، وأن تردّ الناس إلى الفتنة».

«وإنِّي لا أعلم فتنةً أعظم على هذه الأُمَّة من ولايتك عليها، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأُمَّة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من أن أجاهدك. . فإن فعلتُ فإنَّه قربة إلى الله، وإن تركته فإنِّي أستغفر الله لديني، وأسأله توفيقه لإرشاد أمري».

«وقلتَ فيما قلت لي: «أنِّي إن أنكرتني أنكرك وإن كدتني أكدك»، فكدني ما بدا لك، فإنِّي أرجو أن لا يضرّني كيدك فيَّ، وأن لا يكون علي أحد أضرّ منه على نفسك، على أنَّك قد ركبت جهلك وتحرَّصت على نقض عهدك، ولعمري ما وفيت بشرط».

«ولقد نقضتَ عهدك بقتلك هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان والعهود والمواثيق، فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتليك، ولا نقضوا عهدك، ولم تفعل ذلك بهم إلَّا لذكرهم فضلنا، وتعظيمهم حقّنا، فقتلتهم مخافة أمرٍ لعلَّك لو لم تقتلهم متّ قبل أن يفعلوا، أو ماتوا قبل أن يدركوا. فابشر يا معاوية بالقصاص واستيقن بالحساب، واعلم أنَّ لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها، وليس الله بناس لك أخذك بالظنَّة، وقتلك أولياء عليّ عليه السلام على الشُّبهة والتهمة، ونفيك أوليائهم من دورهم إلى دار الغربةِ، ثمَّ ولَّيت ابنك وهو غلام سفيه، يشرب الشراب ويلعب بالكلاب، فخنت أمانتك، وأخربت رعيَّتك، ولم تؤدِّ نصيحة ربّك».

«فكيف تُولِّي على أُمَّة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم من يشرب المسكر، وشارب المسكر في الفاسقين، وليس شارب المسكر بأمين على درهم، فكيف على الأُمَّة، فعن قليل ترد على عملك حين تقرأ صحائف الاستغفار، وتبوَّأت مقعدك من النار، فبعداً للقوم الظالمين».

وكتب في آخر الكتاب: والسَّلام على من اتبع الهدى»[1].

فقال عبد الرحمن لصاحبه: لا أرى أشدّ من هذه الرسالة، ففيها اتّهم الحسين عليه السلام معاوية بالإلحاد، وأنَّه من حزب الظلمة وأولياء الشياطين، وكشف عن جرائمه بحقِّ رجال صالحين كحجر بن عدي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، والحضرميين، ونقضه للعهود والمواثيق، كما أنَّه عليه السلام قام بتقريعه لتعيين يزيد خليفة على المسلمين من بعده، فماذا كان جواب معاوية؟

قال عبد الله بن مسلم: لمَّا قرأ معاوية كتاب الحسين عليه السلام قال: لقد كان في نفسه ضبٌّ ما أشعر به.

فقال يزيد: «يا أمير المؤمنين، أجبه جواباً تصغر إليه نفسه، وتذكِّره فيه بشيء فعله».

فقال معاوية: «أخطأت، أرأيت لو أنِّي ذهبتُ لعيب عليّ عليه السلام محقّاً ما عسيت أن أقول فيه، ومثلي لا يحسن أن يعيب بالباطل وما لا يعرف، ومتى ماعبت به رجلاً بما لا يعرفه الناس لم يحفل به صاحبه وكذَّبوه، وما عسيت أن أعيب حسيناً عليه السلام، والله ما أرى للعيب فيه موضعاً، وقد رأيت أن أكتب إليه أتوعَّده وأتهدَّده، ثمَّ رأيت أن لا أفعل، ولن أفعله»[2].

قال عبد الرحمن: غريب أمر هذه الأُمَّة، لقد استطاع بنو أُميَّة أن يزيحوا أهل البيت من سدة الحكم، وأن يثبّتوا سلطانهم، ثمَّ ها

(1) تاريخ الإمام الحسين عليه السلام، ج44، ص214؛ دعائم الإسلام، للقاضي النعمان، ج2، ص131.

(2) العوالم، لعبد الله البحراني، ج17، ص90 ـ 93؛ دعائم الإسلام، للقاضي النعمان، ج2، ص131.

هم ينصبون أحد الصبيان، بحسب تعبير مروان بن الحكم، خليفة على الأُمَّة.

قال عبد الله بن مسلم: لقد صدق عليٌّ عليه السلام الذي قال: «ألا وإنَّه من لا ينفعه الحقّ، يضرّه الباطل»[1].

وأضاف: إنَّ أمراً كخلافة يزيد لم يكن ليتم إلَّا بالعنف والإكراه، وشراء الضمائر وتهديد الناس.. وكما قلنا فقد تدخَّلت الدولة كُلّها بقضّها وقضيضها لأجل ذلك، ومن هنا فإنَّ معاوية لم يكتف بإصدار الأوامر وكتابة الرسائل، وإنَّما قرَّر أن يذهب إلى مكَّة والمدينة بنفسه.

فخرج من الشام بكلِّ جبروته وسلطانه، ومعه ألف من الرجال، حتَّى إذا وصل إلى المدينة لقيه الحسين بن عليّ عليهما السلام، وكان أوَّل من يلقاه، فلمَّا نظر إليه معاوية، قال: «لا مرحباً ولا أهلاً، بدنة يترقرق دمها، والله مهريقه».

فقال الحسين: مهلاً يا معاوية، فإنِّي لست بأهل بهذه المقالة.

قال معاوية: بلى؛ وأشدّ من هذا، فإنَّكم تريدون أمراً، والله يأبى ما تريدون.

ثمَّ مشى عنه ولم ينتظر ليسمع جواب الإمام عليه السلام.

ثمَّ لقيه عبد الله بن الزبير، فقال له معاوية: «لا مرحباً ولا أهلاً، خبٌّ ضب، تلعة يدخل رأسه، فيضرب بذنبه، ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه، ويدقّ ظهره، نحيَّاه عنِّي».

---

(1) نهج البلاغة، خطبة رقم 28.

فضرب جلاوزة معاوية وجه حلة ابن الزبير، وأبعدوه.

ثمَّ لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال له معاوية: «لا مرحباً ولا أهلاً، شيخ قد خرف وذهب عقله. ثمَّ أمر بضرب وجه راحلته، وفعل بعبد الله بن عمر نحو ذلك»[1].

هكذا فعل معاوية بكبار القوم، لكي ينكِّل بهم غيرهم، ويُبيِّن أنَّه ماضٍ في تصميمه بتسليط ولده يزيد على رقاب المسلمين.

ثمَّ إنَّه أتى لزيارة عائشة، فاستأذن عليها، فأذنت له وحده، على أن لا يدخل معه أحد آخر، وكان عندها مولاها ذكوان، ولمَّا استقرَّ به المجلس، قالت له عائشة: يا معاوية، أكنت تأمن أن أقود لك رجلاً فأقتلك، كما قتلتَ أخي محمَّد بن أبي بكر؟

فقال معاوية: ما كنتِ لتفعلي ذلك.

قالت: ولِمَ؟

قال: لأنِّي في بيت آمن، بيتِ رسول الله ﷺ[2].

فسكتت عائشة، فبدأ معاوية يبرِّر تعيين يزيد خليفة من بعده، فنسب ذلك ـ كما يفعل جميع الملوك والحكَّام ـ إلى قضاء الله وقدره.

فقالت له عائشة: «يا معاوية، ما كفاك أنَّك قتلت أخي، وأحرقته بالنار، حتَّى قدمت المدينة، وأخذت بالوقيعة في أبناء

(1) نهاية الإرب، للنويري، ج20، ص355 ـ 356 ـ 359.
(2) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص158.

الصحابة، وأنت من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، وكان أبوك من الأحزاب؟

فقال معاوية: «أنتِ يا أُمّ المؤمنين، العالمة بالله وبرسوله، دللتينا على الحقّ، وحضضتينا على حضّ أنفسنا، وأنتِ أهل لأن يُطاع أمركِ، ويُسمع قولكِ، وإنَّ أمر يزيد قضاء من القضاء، وليس للعباد الخيرة من أمرهم، وقد أكَّد الناس بيعتهم في أعناقهم، وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم. أفترين أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم؟

فقالت عائشة: «بلغني عنك أنَّك هدَّدت أخي عبد الرحمن، وابن عمر، وابن أختي عبد الله بن الزبير، والحسين بن فاطمة، وليس مثلك من يتهدَّد مثل هؤلاء. وأمَّا ما ذكرت من عهود ومواثيق، فاتق الله في هؤلاء الرهط ولا تعجِّل فيهم.

فقام معاوية ليذهب، فقالت له عائشة: يا معاوية؛ إنَّك قتلت حجراً وأصحابه العابدين المجتهدين.

فقال معاوية: دعي هذا، كيف أنا في الذي بيني وبينكِ من حوائج؟[1].

فعرفت عائشة بأنَّه ماضٍ لأمره، لكنَّه مستعدّ أن يدفع لها ما تريد ثمناً لذلك، فسكتت.

وبالطبع، فإنَّ معاوية حينما كان يطلب من كبار القوم أن يبايعوا يزيداً، أو على الأقل أن لا يجاهروا بمخالفتهم له، كان

---

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص158؛ والفتوح، لابن أعثم، ج4، ص235.

يشفع ذلك بالتهديد. فقد قال لعبد الرحمن بن أبي بكر بعد أن خلا به: «بأية يد، أو رجل، تقدم على معصيتي؟

فقال عبد الرحمن: أرجو أن يكون ذلك خيراً لي.

فقال معاوية: والله لقد هممت أن أقتلك.

فقال عبد الرحمن: لو فعلت لأتبعك الله به لعنة في الدُّنيا، وأدخلك به في الآخرة النار»[1].

❁

وفي يوم آخر من أيام وجوده في المدينة، أمر معاوية بفراش، فوضع له في مجلسه، وسويت مقاعد خاصَّة حوله، ثمَّ خرج بعد أن تعطَّر وعليه حلَّة يمانية، فقعد على سريره وأجلس كتَّابه إلى جنبه، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس وإن قرب، ثمَّ أرسل رسولاً إلى الحسين بن عليّ، وعبد الله بن عبَّاس. فجاء ابن عبَّاس أوَّلاً، فلمَّا دخل وسلَّم أقعده في الفراش عن يساره، وقال له: يابن عبَّاس، لقد وفَّر الله حظَّكم من مجاورة هذا القبر الشريف، ودار الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام.

فقال ابن عبَّاس: نعم؛ وحظّنا، من القناعة بالبعض، والتجافي عن الكلّ، أوفر.

فجعل معاوية يُحدِّثه، ويحيد به عن طريق المجاوبة، ويعدل إلى ذكر الأعمار على اختلاف الغرائز والطبائع، حتَّى أقبل الحسين عليه السلام، فلمَّا رآه معاوية جمع له وسادة كانت عن يمينه، فدخل الحسين، فأشار إليه، فأجلسه مكان الوسادة.

---

(1) المنتظم، لابن الجوزي، ج4، ص105.

ثمَّ قال لهما: «إنَّ رسول الله مضى وقد ترك من الدُّنيا ما بُذل له، واختار منها الترك لما سخّر له، زهادةً واختياراً لله، وأنفة، واقتداراً على الصبر، ثمَّ خلَّفه رجلان محفوظان، وثالث مشكور، وبين ذلك خوض طالما عالجناه، مشاهدةً ومكافحةً ومعاينة وسماعاً».

ثمَّ بدأ يمدح ابنه يزيد، وقال في ذلك: «قد كان من أمر يزيد ما سبقتم إليه وإلى تجويزه، وقد علم الله ما أحاول به في أمر الرعيَّة، من سدِّ الخلل، ولمِّ الصدع بولاية يزيد بما أيقر العين، وأحمد الفعل، هذا معناي في يزيد. وفيكما فضل القرابة، وحظوة العلم، وكمال المروءة. وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة، ما أعياني مثله عندكما، وعند غيركما، مع علمه بالسُّنَّة، وقراءة القرآن، والحلم الذي يرجّح بالصمّ الصلاب».

«وقد علمتما أنَّ الرَّسول المحفوظ بعصمة الرسالة قدَّم على الصدِّيق والفاروق، ومن دونهما من أكابر الصحابة وأوائل المهاجرين يوم غزوة السلاسل، من لم يقارب القوم برتبة في قرابة موصولة، ولا سُنَّة مذكورة، فقادهم الرجل بأمره، وجمع بهم صلاتهم، وحفظ عليهم فيئهم. وفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة، فمهلاً بني عبد المطَّلب، فأنا وأنتم شعبا نفع وجدّ، وما زلت أرجو الإنصاف في اجتماعكما، فما يقول القائل إلَّا بفضل قولكما، فردًّا على ذي رحم مستعتب، ما يحمد به البصير في عتابكما».

فأراد ابن عبَّاس أن يجيبه، ونصب يده للمخاطبة، فأشار إليه الحسين عليه السلام قائلاً: «على رسلك، فأنا المراد، ونصيبي في التهمة أوفر».

فسكت ابن عبَّاس.

فقال الحسين عليه السلام بعد أن حمد الله وصلَّى على جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أمَّا بعد يا معاوية، فلن يؤدِّ القائل، وإن أطنب في صفة الرَّسول، من جميع جزءاً، وقد فهمت ما لبَّست به الخلف بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من إيجاز الصفة والتنكُّب عن استبلاغ النعت، وهيهات هيهات يا معاوية، فضَحَ الصبحُ فحمةَ الدُّجى، وبهرت الشَّمسُ أنوار السراج، ولقد فضّلت حتَّى أفرطت، واستأثرت حتَّى أجحفت، ومنعت حتى بخلت، وجُرت حتى جاوزت، ما بذلت لذي حقٍّ من أتمّ حقّه بنصيب، حتَّى أخذ الشيطان حظَّه الأوفر ونصيبه الأكمل».

«وفهمت ما ذكرته عن يزيد، من اكتماله وسياسته لأُمَّة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، تريد أن توهم الناس في يزيد كأنَّك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عمَّا كان ممَّا احتويته بعلم خاص».

«وقد دلَّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن، والقينات ذوات المعازف، وضروب الملاهي، تجده باصراً. ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر ممَّا أنت لاقيه. فوالله ما برحتَ تقدّح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم، حتَّى مُلئت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلَّا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود، ولات حين مناص».

وأضاف عليه السلام:

«ورأيتك عرَّضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثاً،

ولقد أورثنا الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام ولادة، وجئت لنا بها ما حججتم به، فركبتم الأعاليل وفعلتم الأفاعيل، وقلتم: كان ويكون، حتَّى أتاك الأمر يا معاوية عن طريق كان قصدها لغيرك. فاعتبروا يا أولي الأبصار».

«وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتأميره له، تقصد عمرو بن العاص، وما صار ـ لعمرو الله ـ يومئذٍ مبعثهم حتَّى أنف القوم إمرته، وكرهوا تقديمه، وعدّوا عليه أفعاله، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا جَرمَ معشر المهاجرين، لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري**».

«فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أوكد الأحكام وأولاها بالمجمع عليه من الصواب، أم كيف صاحبت بصاحبٍ تابعاً، وحولك من لا يؤمن في صحبته ولا يعتمد في دينه وقرابته؟ وتتخطَّاهم إلى مسرف مفتون، تريد أن تلبِّس الناس شبهة يسعد بها الباقي في دُنياه، وتشقى بها أنت في آخرتك، إنَّ هذا لهو الخسران المبين».

فنظر معاوية إلى ابن عبَّاس وقال: ما هذا يابن عبَّاس؟

فقال ابن عبَّاس: لعمرو الله، إنَّها لذرِّيَّة الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأحد أصحاب الكساء، ومن البيت المطهَّر، فاسأله عمَّا تريد، فإنَّ لك في الناس مقنعاً، حتَّى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين[1].

❁

وهكذا فإنَّ معاوية كان يعمل لتثبيت يزيد خلفاً له، ليلاً

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص159 و161.

ونهاراً، سرّاً وعلانية، ويجتمع لذلك بالزعماء، ويحتج، ويخاطب، ويُهدِّد. فلم يكن يكتفي بالاجتماعات التي غالباً ما كانت غير علنيَّة، خوفاً من أن يعرف الناس حجج هؤلاء الرجال ضدّ بيعة ابنه، بل كان يعقد اجتماعات علنية أيضاً. ومنها أنَّه، حين كان في المدينة، أمر المنادي أن ينادي في الناس أن يجتمعوا لأمر مهم. فاجتمع الناس بالمسجد، وكان ممَّن حضر أيضاً الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر وغيرهم، وقد قعد هؤلاء حول المنبر. فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ ذكر يزيد وفضله وقراءته للقرآن.

ثمَّ قال: «يا أهل المدينة؛ لقد هممت ببيعة يزيد، وما تركت قرية ولا مدرة إلَّا بعثت إليها في بيعته، فبايع الناس جميعاً وسلَّموا، وأخَّرت المدينة بيعته، وقلت: المدينة بيضته وأصله ومن لا أخافهم عليه. وكان الذين أبوا البيعة منهم من كانوا أجدر أن يوصلوه، فوالله لو علمت من هو خير من المسلمين من يزيد لبايعت له».

فقام الحسين عليه السلام وقال: والله لقد تركت من هو خير منه أباً وأُمّاً ونفساً.

فقال معاوية: كأنَّك تريد نفسك؟

قال الحسين عليه السلام: نعم.

فقال معاوية: «إذن أخبرك، أمَّا قولك خير منه أُمّاً، فلعمري أُمّك خير من أُمّ يزيد، ولو لم تكن إلَّا أنَّها امرأة من قريش لكان لنساء قريش فضلهن، فكيف وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأُمّك ـ لعمرو الله ـ خير من أُمّه.

«وأمَّا أبوك، فقد حاكم أباه إلى الله، فقضى لأبيه على أبيك.

بأنْ الله قضى لمعاوية ضدَّ عليّ ـ يقصد بذلك أنَّ عليّاً قُتل بينما معاوية أصبح الخليفة على المسلمين ـ.

قال الحسين عليه السلام: حسبك جهلك، وآثرت العاجل على الآجل.

فقال معاوية: أمَّا ما ذكرت أنَّك خير من يزيد نفساً، فيزيد والله خير لأُمَّة محمَّد منك.

قال الحسين عليه السلام: هذا هو الإفك والزور، يزيد شارب الخمر، ومشتري اللهو، أهو خير منِّي؟

فقال معاوية: مهلاً عن شتم ابن عمّك، فإنَّك لو ذُكرت عنده بسوء لم يشتمك[1].

فقال الحسين: إنَّ علم يزيد منِّي ما أعلمه منه أنا، فليقل فيَّ ما أقول فيه.

وهنا استخدم معاوية من جديد منطق التهديد، فقال: «أبا عبد الله؛ انصرف إلى أهلك راشداً، واتقِ الله في نفسك، واحذر أهل الشام أن يسمعوا منك ما قد سمعتُه، فإنَّهم أعداؤك وأعداء أبيك[2].

وهكذا نرى أنَّ الحسين عليه السلام وأشخاصاً آخرين ردّوا على معاوية بيعة يزيد، وفضحوا محاولات تسويقه للناس، إلَّا أنَّ الرجل كان قد صمَّم على أخذ البيعة، وكان بيده التاج والصولجان، وأموال بيت المال، لذلك فكلَّما كان ينقصه المنطق يستخدم التهديد، وإذا

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص162.
(2) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص240.

لم ينفع التهديد استخدم الترغيب. وهذا ما فعله أيضاً مع عبد الرحمن بن أبي بكر، فقد قال له عبد الرحمن ذات يوم: «والله يا معاوية لعلَّ ودّك أنَّا قد وكَّلناك إلى الله في أمر ابنك يزيد ـ يعني تركناك، لتفعل ما تريد، وتفعل ما تشاء ـ لا والله لا نفعل ذلك أبداً، أو لتردنَّ الأمر شورى بين المسلمين».

فقال معاوية: أما والله إنِّي لأعرف بك وبسفهك، ولقد هممت أن أفعل كذا وكذا.

فقال له عبد الرحمن: إذن والله يا معاوية يدركك الله به في الدُّنيا، ويدخّر لك العقوبة في الآخرة.

فقال معاوية: اللَّهمَّ اكفني أمر هذا الشيخ. يا هذا؛ اتق الله في نفسك، ولا تقل ما يسمعك أهل الشام.

فقال عبد الرحمن: أمَّا نحن فقد اتقينا الله، فذرنا نقعد في منازلنا، ولا تدعونا إلى بيعة يزيد الخمور، ويزيد الفهود، ويزيد القرود[1].

❁

ثمَّ إنَّ معاوية قبيل رحيله عن المدينة المنوَّرة متجهاً إلى مكَّة، أعطى الناس أعطياتهم وأجزل العطاء، وأخرج إلى كلّ قبيلة جوائز كثيرة، لكنَّه جفى بني هاشم، فلقيه عبد الله بن عبَّاس وقال له: ما بالك جفوتنا؟

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص242.

فقال معاوية: لأنَّ صاحبكم الحسين بن عليّ لم يبايع ليزيد، فلم تنكروا عليه.

فقال ابن عبَّاس: يا معاوية؛ إنِّي لخليق أن أنحاز إلى بعض السواحل فأقيم به، ثمَّ انطلق بما تعلم حتَّى أدع الناس كُلّهم خوارج عليك[1].

ثمَّ تفرَّقا.

✵

أمَّا في مكَّة فإنَّ معاوية استخدم أسلوباً جديداً، وهو أنَّه أشاع بين الناس بأنَّ عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن عليّ عليه السلام قد بايعوا يزيد سرّاً، فقد دعى بالفعل هؤلاء النفر، واجتمع بهم، وجلس معهم زمناً معيَّناً من دون أن يتبادلوا الحديث في أيّ شيء.

وحينما خرجوا إلى منازلهم، صعد معاوية المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أيُّها الناس؛ إنَّا قد وجدنا أحاديث الناس ذات عوارض، وإنَّهم قد زعموا أنَّ الحسين بن عليّ، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير لم يبايعوا يزيد، وهؤلاء الأربعة هم عندي سادة المسلمين وخيارهم، وقد دعوتهم إلى البيعة، فوجدتهم سامعين مطيعين، وقد سلَّموا وبايعوا، وسمعوا، وأجابوا، وأطاعوا».

وكان قد أمر جلاوزته، الذين جاء بهم من الشام من حملة السيوف، أن يهدِّدوا هؤلاء بقطع رقابهم إن لم يبايعوا علناً، وكان

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص252.

ذلك بالاتفاق المسبق معهم، حيث ضرب هؤلاء بأيديهم إلى سيوفهم فسلّوها، ثمَّ قالوا: يا أمير المؤمنين؛ ما هذا الذي تعظِّمه من أمر هؤلاء الأربعة، إئذن لنا أن نضرب أعناقهم، فإنَّا لا نرضى أن يبايعوا سرّاً، ولكن يبايعوا جهراً حتَّى يسمع الناس أجمعون.

فقال معاوية: «سبحان الله؛ ما أسرع الناس بالشرّ، وما أحلى بقائهم عندهم. اتقوا الله يا أهل الشام، ولا تسرعوا إلى الفتنة، فإنَّ القتل هو مطالبة وقصاص»[1].

وأقبل أهل مكَّة إلى هؤلاء الأربعة، فقالوا لهم: «يا هؤلاء، إنَّكم قد دُعيتم إلى بيعة يزيد في المدينة، فلم تبايعوا وأبيتم ذلك، ثمَّ دُعيتم إلى ذلك في مكَّة فرضيتم وبايعتم؟».

فقال الحسين: «لا والله ما بايعناه، ولكن معاوية خدعنا وكادنا ببعض ما كادكم به»[2].

❁

قال عبد الله بن مسلم لعبد الرحمن الصالح: ترى، كيف ترك معاوية الحسين عليه السلام ولم يمسّه بسوء مع شدَّة رفضه في مسألة بيعة يزيد؟

قال عبد الرحمن: كما وصلني الخبر، فإنَّ معاوية دعا مروان بن الحكم، فقال له: أشر عليَّ في الحسين؟

فقال مروان: أرى أن تخرجه معك إلى الشام، فتقطعه عن أهل العراق، وتقطعهم عنه.

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص246.
(2) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص249.

فقال معاوية: «إنَّك أردت والله أن تستريح منه وتبتليني به، فإن صبرتُ عليه صبرت على ما أكره، وإن أسأت إليه كنت قد قطعت رحمه.

ولم يكن خوف معاوية من قطيعة الرحم، بل من احتمال توجُّه الناس إلى الحسين أكثر، ومعرفتهم للحقّ.. تماماً مثلما حدث مع أبي ذرّ الغفاري حينما نُفي إلى بلاد الشام، فبدأ هناك ينشر فضائل عليّ وأهل البيت، فخاف معاوية من أحاديثه، وكتب إلى الخليفة يطلب منه أن يعيده إلى المدينة.

وعلى كلِّ حال فإنَّ رفض الحسين ﷺ البيعة كان هاجس معاوية الأوَّل، ولذلك فإنَّه لم يكتف باستشارة مروان في أمره، وإنَّما بعث إلى سعيد بن العاص وقال له: يا أبا عثمان، أشر عليَّ في الحسين؟

فقال سعيد: «والله إنَّك لا تخاف الحسين، إلَّا على من بعدك (يعني أنَّك لا تخاف الحسين على نفسك بل على يزيد)، وإنَّك لتخلّف له قرناً ـ يقصد يزيد ـ إن صارعه ليصرعنَّه، وإن سابقه ليسبقنَّه. فذر الحسين بمنبت النخلة، يشرب من الماء، ويصعد في الهواء، ولا يبلغ إلى السَّماء»(1).

قال عبد الله بن مسلم لصاحبه: وماذا فعل معاوية في النهاية؟

قال عبد الرحمن: إنَّه أمر الوليد بن عتبة، والي المدينة، أن يمنع أهل العراق من الاجتماع مع الحسين، ولذلك فقد قال له

(1) العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ج4، ص22 و23؛ والبحار، ج44، ص210.

الحسين: «يا ظالماً لنفسه، ويا عاصياً لربّه، علامَ تحول بيني وبين قوم عرفوا من حقِّي ما جهلته أنت، وعمّك معاوية؟».

فقال الوليد: «ليت حلمنا عنك لا يدعو جهل غيرنا إليك، فجناية لسانك مغفورة لك، ما سكنت يدك، فلا تخطر بها، فتخطر بك»[1].

وهكذا فإنَّ بني أُميَّة أكملوا الدائرة على أهل البيت عليهم السلام، فمنعوا الناس ممَّن يعرف قدر الحسين وأهل البيت من اللقاء به، بالإضافة إلى منع حقوقهم من بيت المال، وقتل من كان يتظاهر بحبِّه لعليّ وأهل بيته، وتهجير عوائل بأكملها من بلادها، حتَّى أنَّ الفتنة والبلاء لم تزل تعظمان وتشتدَّان على كل من له هوى في أهل البيت، فلم يبق ولي لله إلَّا خائفاً على دمه، ولم يبق عدوٌّ لله إلَّا مظهراً الحجَّة، غير مستتر ببدعته وضلالته[2].

قال عبد الرحمن: يبدو بذلك أنَّ موقف الحسين وأهل البيت أصبح موقفاً صعباً، أليس كذلك؟

قال عبد الله بن مسلم: لقد عادت الأُمور إلى ما حدث في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حيث تقابل النبيّ مع قريش بقيادة أبي سفيان فمنعوا الناس من التلاقي مع النَّبيّ والتعامل معه. فها هو الحسين في مقابل معاوية.

قال عبد الرحمن: لكن الأمر الآن مختلف، لأنَّ أبا سفيان في ذلك الوقت كان يرفع راية الكفر، أمَّا معاوية فهو يرفع راية الدِّين؟

(1) أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص157.
(2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج33، ص181.

قال عبد الله: صحيح أنَّ كلّاً من الحسين ومعاوية يتحدَّثان عن الدِّين نفسه، إلَّا أنَّهما قطبان متناقضان، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو سفيان قطبين متناقضين، وكان عليّ ومعاوية قطبين متناقضين.

وكما أنَّ أبا سفيان كان يتحدَّث باسم دين الآباء والأجداد، ومن ثمَّ فهو كان ينصب نفسه مدافعاً عن دينهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتحدَّث عن التوحيد، وهو أيضاً كان يتحدَّث عن الدِّين. التغيير الذي حدث أنَّ بني أُميَّة دخلوا في الإسلام تحت بريق السيوف، ورفعوا شعار لا إله إلَّا الله ومحمَّد رسول الله، وهم يحجّون إلى البيت ويأمّون الصلاة، ليحقنوا دمائهم ويحصلوا على المكاسب والمغانم فالشعار هو الإسلام، لكن الجوهر ليس كذلك.

لقد كان بنو أُميَّة، وعلى رأسهم أبو سفيان يقولون قبل إعلان إسلامهم: أعلُ هبل، أمَّا الآن فمعاوية لا يقول ذلك، إنَّما يقول: الله أكبر.

لكن هؤلاء هم المنافقون الذين قال عنهم الله عزَّ وجلَّ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(1).

فهم جعلوا الصلاة ضدَّ الصلاة، والأذان ضدَّ الأذان، والحجّ ضدَّ الحجّ.. بعد أن أفرغوا الدِّين من محتواه. ومن ثمَّ فإنَّ هدف الحسين بن عليّ ليس أن يتبوَّأ سدَّة الحكم، فما قيمة ذلك عند أهل البيت الذي ضحَّوا بكل ما يملكون لله؟ فلم يمرُّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام يوم لم يضحّوا في سبيل

(1) سورة المنافقون، آية 4.

دين الله. فالحسين يتحمَّل كل العنت، وكل العذاب، وكل الصعاب، وكل التهم، وكل التهديد.. ليُبيِّن للناس جوهر الدِّين.

ومخالفة الحسين عليه السلام مع بيعة يزيد ليست من أجل سلطان الدُّنيا، ولا التماس شيء من حطامها، وإنَّما هي للدفاع عن جوهر الدِّين. فالحسين يريد تصحيح النظام الدِّيني والاجتماعي والسياسي حيث أنَّ الحاكم لا يرى نفسه مجرَّد رئيس دولة، مثل الأكاسرة والأباطرة والقياصرة، وإنَّما يتحدَّث بصفته خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إنَّ هذه الحكومة أصبحت حكومة زمنيَّة لا ارتباط لها بالدِّين، ولا يجوز أن يتخذ الناس أعمال هؤلاء ومواقفهم ديناً يتقرَّبون به إلى الله، هذا هو الخطر الذي يشعر به الحسين، وكل ما يقوله إنَّما هو لبيان هذه الحقيقة.

فلا يمكن أن يكون وليّاً للعهد من لم يعيّنه الله، ولم ينتخبه الناس، وبالإضافة إلى ذلك فهو يجاهر بالفسق والفجور ومخالفة الدِّين في أُموره الشخصيَّة، فكيف بالأُمور العامَّة.

فقال عبد الرحمن الصالح: أترى أنَّ الحسين سوف يكتفي بما قال في مجلس معاوية، وصرَّح به؟

قال عبد الله بن مسلم: لا أعتقد ذلك، لأنَّ موقف الحسين وكلامه، وإن كان حجَّة كافية لعامَّة الناس لمعرفة أنَّ القرآن أصبح في واد والسلطان في وادٍ آخر، وإنَّهما قد افترقا، ولكن هنالك شريحة من العلماء وكبار القوم، لم يتحرَّكوا بعد، ولم يتحمَّلوا مسؤولياتهم، ولذلك لا أعتقد أنَّ الحسين سيكتفي بذلك.

قال عبد الله: عذراً، حان وقت الرحيل، ولابُدَّ لي أن أغادر

المدينة المنوَّرة وألحق بركب الحجَّاج، وقد بقيت أُمور لم نتحدَّث عنها بعد، وهي لا تقل أهميَّة ممَّا تحدَّثنا عنها. فكلِّي أمل أن ألقاك مرَّة أُخرى لنتحدَّث مليّاً.

فتوادع الصديقان، على أمل لقاء آخر.

✵

بعد شهور من ذاك اللقاء ذهب عبد الرحمن إلى البصرة للقاء بعض أقاربه، وكان قد سبقه إلى هناك عبد الله بن مسلم في تجارة له. وعلى غير موعد التقيا في زقاق من أزقَّة البصرة، فدعا عبد الله صاحبه إلى بيت أخته على شاطىء النهر، فاستجاب له.

ومن جديد بدءا يتحدَّثان، فقال عبد الله بن مسلم: ألم أقل لك إنَّ الحسين عليه السلام لا يكتفي بما قاله لمعاوية؟

قال عبد الرحمن: ما الذي حدث؟

قال عبد الله: كان موسم الحجّ قبل شهرين، وكان الحسين عليه السلام يحجّ إلى بيت الله الحرام، فجمع بني هاشم رجالهم ونسائهم ومواليهم، ومن الأنصار ممَّن يعرفهم، بالإضافة إلى أهل بيته. ثمَّ أرسل رسلاً وقال لهم: «لا تدعوا أحداً ممَّن حجَّ العام، من أصحاب رسول الله المعروفين بالصلاة والنسك، إلَّا وجمعتموهم لي.

فاجتمع إليه بمنى أكثر من سبعمائة رجل وهم في سرادقه، عامّتهم كانوا من التابعين، ونحو مائتي رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

فقام فيهم الحسين عليه السلام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أمَّا بعد؛ فإنَّ هذا الطاغية ـ ويقصد معاوية ـ قد فعل بنا

وبشيعتنا ما قد رأيتم وعلمتم وشهدتم، وإنِّي أريد أن أسألكم عن شيء، فإن صدّقتُ فصدّقوني وإن كذبت فكذّبوني، وأسألكم بحقِّ الله عليكم، وحقّ رسول الله ﷺ، وقرابتي من نبيّكم لمَّا سيَّرتم مقامي هذا. (إلَّا وذكرتم ما يجري بيني وبينكم، وما أقوله لكم ولجميع الناس) ووصفتم مقالتي، ودعوتم أجمعين في أنصاركم من قبائلكم من أمنتم من الناس، ووثقتم به، فادعوهم إلى ما تعلمون من حقّنا، فإنِّي أتخوَّف أن يُدرس هذا الأمر، ويذهب الحق ويُغلب، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون».

ولم يترك الحسين شيئاً ممَّا أنزل الله في أهل البيت من القرآن إلَّا تلاه وفسَّره، ولا شيئاً ممَّا قاله رسول الله ﷺ في أبيه وأخيه وأُمّه وفي نفسه وأهل بيته إلَّا رواه.

وفي كلّ ذلك كان الحضور يقولون: «اللَّهمَّ نعم، قد سمعنا وشهدنا». ويقول التابعي: «اللَّهمَّ قد حدَّثني به من أُصدِّقه وأئتمنه من الصحابة».

وكان ممَّا قاله الحسين أيضاً: «أنشدكم الله؛ أتعلمون أنَّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان أخا رسول الله ﷺ، حين آخى بين أصحابه، فآخى بينه وبين نفسه، وقال: أنت أخي وأنا أخوك في الدُّنيا والآخرة»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال: «أنشدكم الله؛ هل تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ اشترى موضع مسجده ومنازله، فابتناه ثمَّ ابتنى فيه عشرة منازل، تسعة له، وجعل عاشرها في وسطها لأبي، ثمَّ سدَّ كُلّ باب شارع إلى المسجد غير باب عليّ عليه السلام، فتكلَّم في ذلك من تكلَّم. فقال رسول الله: «ما

أنا سددت أبوابكم وفتحت بابه، ولكن الله أمرني بسدّ أبوابكم وفتح بابه». ثمَّ نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ينام في المسجد غيره، وكان يجنب في المسجد ومنزله في منزل رسول الله، فولد لرسول الله وله فيه أولاد»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أفتعلمون أنَّ عمر بن الخطَّاب حرص على كوَّة بقدر عينه يدعها في منزل المسجد»؟ (لكي ينظر منها إلى داخل المسجد) فأبى رسول الله عليه، ثمَّ خطب فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله أمرني أن أبني مسجداً طاهراً لا يسكنه غيري وغير أخي وبنيه».

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أنشدكم الله؛ أتعلمون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصب عليّاً يوم غدير خم، فنادى له بالولاية وقال: ليبلِّغ الشاهدُ الغائب»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أنشدكم الله؛ أتعلمون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له في غزوة تبوك: «**أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى، وأنت وليّ كلّ مؤمن بعدي**»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال عليه السلام: «أنشدكم الله؛ أتعلمون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين دعا النصارى من آل نجران إلى المباهلة، لم يأت إلَّا بأبي وبصاحبته وابنيه ـ أي الحسن والحسين ـ»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال عليه السلام: «أنشدكم الله؛ أتعلمون أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دفع إلى أبي

اللِّواء يوم خيبر ثمَّ قال: «**لأدفعنَّه إلى رجل يُحبّه الله ورسوله، ويُحبّ الله ورسوله، كرّار غير فرّار، يفتحها الله على يديه**»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين ﴿عليه السلام﴾: «أتعلمون أنَّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بعثه بسورة البراءة وقال: لا يبلغ عنِّي إلَّا أنا، أو رجل منِّي»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين ﴿عليه السلام﴾: «أتعلمون أنَّ رسول الله لم تنزل به شدَّة قطّ، إلَّا قدَّم أبي لها ثقة به، وأنَّه لم يدعه باسمه قطّ إلَّا يقول: يا أخي عليّ، أو: أدعوا لي أخي»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين ﴿عليه السلام﴾: «أتعلمون أنَّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ قضى بينه وبين جعفر وزيد، فقال: «**يا عليّ أنت منِّي وأنا منك، وأنت وليّ كلّ مؤمن بعدي**»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين ﴿عليه السلام﴾: «أتعلمون أنَّه كانت له من رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ كلّ يوم خلوة، وكلّ ليلة دخلة، إذا سأله أعطاه، وإذا سكت ابتداه»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين ﴿عليه السلام﴾: «أتعلمون أنَّ رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فضَّله على جعفر وحمزة حين قال لفاطمة ﴿عليها السلام﴾: «**زوَّجتكِ خير أهل بيتي، أقدمهم سلماً، وأعظمهم حلماً، وأكثرهم علماً**»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أتعلمون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**أنا سيِّد ولد بني آدم، وأخي عليّ عليه السلام سيِّد العرب، وفاطمة عليها السلام سيِّدة نساء أهل الجنَّة، والحسن والحسين عليهما السلام إبناي، سيِّدا شباب أهل الجنَّة**»؟

قال الحاضرون: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أتعلمون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر أبي بغسله، وأخبره أنَّ جبرائيل يعينه عليه»؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أتعلمون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في آخر خطبة خطبها: «**إنِّي تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسَّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، وقد أنبأني اللطيف الخبير أنَّهما لن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض**»؟

قال الحاضرون: اللَّهمَّ نعم.

قال الحسين عليه السلام: «أتعلمون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**من زعم أنَّه يُحبّني ويبغض عليّاً فقد كذب، ليس يُحبّني من يبغض عليّاً**»؟ فقال له من حضر النبيّ: يا رسول الله، وكيف ذلك؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لأنَّه منِّي وأنا منه، من أحبَّه فقد أحبَّني، ومن أحبَّني فقد أحبَّ الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله**»؟

فقال الحاضرون: اللَّهمَّ نعم، قد سمعنا.

فلم يدع شيئاً أنزله الله في عليّ بن أبي طالب عليه السلام خاصَّة،

وفي أهل بيته من القرآن، ولا على لسان نبيّه إلَّا ناشدهم فيه، فيقول الصحابة: اللَّهمَّ نعم، قد سمعنا، ويقول التابعي: اللَّهمَّ قد حدَّثني من أثق به فلان وفلان[1].

✵

قال عبد الرحمن: يا عبد الله؛ هل مخالفة القوم مع عليّ عليه السلام كانت مخالفة شخصيَّة، أو من أجل السلطان، حيث لم يكن هؤلاء يريدون لعليّ عليه السلام أن يتبوَّأ مقعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكانوا هم يرغبون في السلطة، ولذلك أبعدوا عليّاً عن مقامه؟

قال عبد الله: القضيَّة أكبر من ذلك، فإذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ للدِّين جوهراً ومظهراً، وأنَّ الجوهر هو الأساس والمقصود، وأنَّ المظهر لا قيمة له إلَّا إذا كان يؤدِّي إلى الجوهر، وأخذنا بعين الاعتبار أنَّ أهل البيت كانوا أُمناء على رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ أي على جوهر الدِّين ومحتواه، وأُصوله، وفروعه.. وليس على المظاهر وحدها، وأنَّ عليّاً كان باب علم رسول الله، وأعلم صحابته، وأقضاهم بنصِّ حديث النبيّ، وما جاء على لسان رسول الله في حقِّ عليّ، وهو كثير، لم يقل مثله في حقّ أحد من البشر. فلم يقل في حقّ أحد من صحابته أنَّه بمنزلة رأسه من جسده مثلما قال في عليّ: «**عليّ منِّي بمنزلة رأسي من بدني**»[2].

ولم يقل في حقّ أحد: أنا وفلان من شجرة واحدة، كما قال

---

(1) بحار الأنوار: الشيخ محمد باقر المجلسي، ج33، ص181 ـ 185.
(2) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص353.

في حقِّ عليّ: «**أنا وعليّ من شجرة واحدة، وسائر الناس من شجر شتَّى**»[1].

ولم يقل في حقّ أحد أنَّ ذكره عبادة، كما قال في حقّ عليّ: «**ذكر عليّ عبادة**»[2].

ولم يقل في حقّ أحد مثلما قال في حقّ عليّ: «**أنا مدينة الجنَّة وعليٌّ بابها**[3]، **أنا مدينة الحكمة وعليٌّ بابها**[4]، **أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها**»[5].

هذه روايات لم ينكرها أحد، وهي تدلُّ صراحة أنَّه لا يمكن الوصول إلى علم رسول الله إلَّا عن طريق عليّ، ولا على حكمة رسول الله إلَّا عن طريق عليّ، ولا الدخول إلى الجنَّة إلَّا عن طريق عليّ، وقد قالها النَّبيّ صراحة: «**لا يجوز أحد الصراط إلَّا من كتب له عليّ الجواز**»[6]. (صكّ من عليّ). وقال: «**أنت أخي ووزيري وصاحب لوائي في الدُّنيا والآخرة، وأنت صاحب حوضي**»[7].

فمعنى ذلك أنَّ الذين خالفوا عليّاً عليه السلام كانوا يريدون من الدِّين مجرَّد مظهره لا جوهره، وهذا هو سبب المخالفة مع عليّ،

---

(1) إقبال الأعمال، السيِّد ابن طاوس، ج1، ص506.
(2) مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب، ج3، ص6.
(3) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص577.
(4) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص483.
(5) عيون أخبار الرِّضا، الشيخ الصدوق، ج2، ص21.
(6) ذخائر العقبى، الشيخ أحمد بن عبد الله الطبري، ص71.
(7) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج39، ص211.

ثمَّ مع الحسن، والآن مع الحسين، وإلَّا فلماذا ينصب معاوية العداء لعليّ بعد مقتله، ويصدر أمراً إلى جميع الولاة يقول فيه: «انظروا إلى من روى حديثاً في أبي تراب فألغوه من الديوان». أو يقول: «خذوهم بالتهمة واقتلوهم بالظنَّة». ويمنع الحديث عن عليّ، أو في عليّ. لماذا؟ وعليّ عليه السلام لم يكن موجوداً حتَّى ينافسه في السلطان؟

فالقضيَّة أكبر من مجرَّد صراع على السلطة، بين طلَّابها والطامعين فيها، ولذلك فإنَّ حديث أهل البيت عليهم السلام عن فضائل الإمام عليّ وفاطمة والحسن، وحديث الحسين حتَّى عن فضائل نفسه، ليس من باب أنَّه يريد المديح الشخصي للحصول على مقام لدى الناس، وإنَّما هو لأنَّ علم رسول الله بالدِّين عندهم، وكذلك حكمة رسول الله، وكما أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يقبل من أحد أنَّ الإيمان به من دون أن يؤمن برسوله، لأنَّه تعالى حين يبعث نبيّاً يريد أن يُطاع بإذنه، ويريد الله دينه عن طريقه وليس عن طريق آخر. كذلك فيما يرتبط بما بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد صرَّح النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك عندما قال: «**إنِّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي**»[1].

فقال عبد الرحمن: هل اكتفى الحسين في ذلك الاجتماع الهام بأن بيَّن فضائل عليّ وفاطمة والحسن، وفضائل نفسه؟

قال عبد الله: لا، وهنا القضيَّة الأساسية التي من أجلها جمعهم. فبعد أن بيَّن لهم فضائل أهل البيت، وأخذ الاعتراف من

(1) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج1، ص28.

أصحاب النبيّ بأنَّهم سمعوا منه ذلك، وأيضاً شهد التابعون بأنَّهم سمعوا ممَّن يثقون به، وضعهم أمام مسؤولياتهم، فقال عليه السلام:

«اعتبروا أيُّها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار، إذ يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾[1]، وقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[2].

«وإنَّما عاب الله ذلك عليهم لأنَّهم كانوا يرون من الظَلَمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد، فلا ينهونهم عن ذلك، رغبةً فيما كانوا ينالون منهم ورهبة ممَّا يحذرون، والله يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[3]، ويقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[4]. فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه، لعلمه بأنَّها إذا أدّيت وأُقيمت استقامت الفرائض كُلّها، هيّنها وصعبها، وذلك أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الإسلام، مع ردّ المظالم، ومخالفة الظالم، وقسمة الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها، ووضعها في حقّها».

وأضاف الحسين (سلام الله عليه) قائلاً: «ثمَّ أنتم أيتها العصابة، عصابة بالعلم مشهورة، وبالخير مذكورة، وبالنصيحة

---

(1) سورة المائدة، آية 63.

(2) سورة المائدة، آيتان 78 ـ 79.

(3) سورة المائدة، آية 44.

(4) سورة التوبة، آية 71.

معروفة، وبالله في أنفس الناس مُهابة، يهابكم الشريف، ويكرمكم الضعيف، ويؤثركم من لا فضل لكم عليه، ولا يد لكم عنده، تشفعون في الحوائج إذا امتنعت من طلَّابها، وتمشون في الطريق بهيئة الملوك، وكرامة الأكابر، أليس كل ذلك بما نلتموه، وما يرجى عندكم من القيام بحقّ الله؟ وإن كنتم عن أكثر حقّه تقصِّرون، فاستخففتم بحقّ الأئمَّة، فأمَّا حقّ الضعفاء فضيَّعتم، وأمَّا حقّكم بزعمكم فطلبتم، فلا مالاً بذلتموه، ولا نفساً خاطرتم بها للذي خلقها، ولا عشيرة عاديتموها في ذات الله، وأنتم تتمنّون على الله جنَّته، ومجاورة رُسله، وأماناً من عذابه»؟!

وأضاف عليه السلام: «لقد خشيت عليكم، أيُّها المتمنّون على الله، أن تحلّ بكم نقمة من نقماته، لأنَّكم بلغتم من كرامة الله منزلة فضّلتم بها، ومن يعرف بالله لا تُكرِمون، وأنتم بالله في عباده تُكرَمون، وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تفزعون، وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون، وذمَّة رسول الله صلَّى الله عليه وآله محقورة، والعمي والبكم والزمنى في المدائن مهملة، لا ترحمون، ولا في منزلتكم تعملون، ولا من عمل فيها تعينون، وبالإدّهان والمصانعة عند الظلمة تأمنون، كلّ ذلك ممَّا أمركم الله به من النهي والتناهي وأنتم عنه غافلون».

«وأنتم أعظم الناس مصيبةً لما غُلبتم عليه من منازل العلماء، لو كنتم تشعرون، ذلك بأنَّ مجار الأُمور والأحكام على أيدي العلماء بالله، الأُمناء على حلاله وحرامه، فأنتم المسلوبون تلك المنزلة، وما سُلبتم ذلك إلَّا بتفرّقكم عن الحق، واختلافكم في السُّنَّة بعد البيِّنة الواضحة».

«ولو صبرتم على الأذى، وتحمَّلتم المؤونة في ذات الله كانت أُمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع».

«ولكنَّكم مكَّنتم الظلمة من منزلتكم، وأسلمتم أُمور الله في أيديهم، يعملون بالشُّبهات، ويسيرون في الشهوات، سلَّطهم على ذلك فراركم من الموت، وإعجابكم بالحياة، التي هي مفارقتكم، فأسلمتم الضعفاء في أيديهم. فمن بين مستعبد مقهور، وبين مستضعف على معيشته مغلوب».

«يتقلَّبون في الملك بآرائهم، ويستشعرون الخزي بأهوائهم، اقتداءً بالأشرار، وجرأة على الجبَّار، في كلّ بلد منهم على منبره خطيب يصقع، فالأرض لهم شاغرة، وأيديهم فيها مبسوطة، والناس لهم خول، لا يدفعون يد لامس، فمن بين جبَّار عنيد، وذي سطوة على الضعفة شديد، مطاع لا يعرف المبدىء المعيد».

«فيا عجباً، وما لي لا أعجب، والأرض من غاشم غشوم، ومتصدِّقٍ ظلوم، وعامل على المؤمنين بهم غير رحيم»؟!

«فالله الحاكم فيما فيه تنازعنا، والقاضي بحكمه فيما شجر بيننا».

ثمَّ رفع الحسين عليه السلام يديه قائلاً: «اللَّهمَّ إنَّك تعلم أنَّه لم يكن ما كان منَّا تنافساً في سلطان، ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لنري المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويُعمل بفرائضك وسُننك وأحكامك.

«فإنَّكم إن لا تنصرونا ولا تنصفونا قوي الظلمة عليكم،

وعملوا في إطفاء نور نبيّكم، وحسبنا الله وعليه توكَّلنا وإليه أنبنا وإليه المصير»[1].

❁

قال عبد الرحمن: إنَّ كلام الحسين هذا كلام خطير، ألا تظنُّ أنَّ بني أُميَّة سيعتبرون ذلك تحريضاً عليهم، ودعوة للنهضة ضدَّهم؟

قال عبد الله بن مسلم: باستطاعتهم أن يفسِّروا ذلك بأيِّ تفسير يريدون، لكن الحسين يريد من العلماء وأصحاب رسول الله ﷺ والتابعين، أن يؤدّوا أمانتهم في الدعوة إلى الحقّ، وأن يتحمّلوا مسؤولياتهم في الدفاع عن المظلومين، وذلك بعد أن آيس الحسين عليه السلام من استجابة معاوية وجماعته لنصائح الناصحين، وهذا ديدن الأنبياء والأوصياء دائماً، فهم أوَّلاً يأتون إلى الحاكمين وينصحونهم، ويدافعون عن حقوق المستضعفين، فإذا لم ينفع معهم ذلك توجَّهوا إلى الأُمَّة. وطالبوا في الدرجة الأُولى أولئك الذين يستجيب الناس لهم من العلماء الذين يأكلون رزقهم باسم الدفاع عن الدِّين، وهذا ما قاله الإمام الحسين عليه السلام لهم.

فباعتبارهم ينطقون باسم الدِّين أصبح لهم مقام كريم بين الناس، وآن الأوان أن ينطقوا فعلاً باسم الدِّين، وأن لا يكتفوا ببيان الأحكام الشخصيَّة وما يرتبط بالطهارة والنجاسة وما شابه ذلك. هنا مربض الغنم، وهنا النقطة المركزية في كلام الإمام، ويشبه ما قاله

(1) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص237 ـ 239.

الإمام كلام أبيه حينما قال: «وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظَّة ظالم، ولا سغب مظلوم»[1].

قال عبد الرحمن: يبدو أنَّنا في زمن عنود، وظروف صعبة للغاية.

قال عبد الله: هذا صحيح، نحن على مفترق طرق، فإذا استطاع بنو أُميَّة أن يشلّوا إرادة الأُمَّة ويضلّوا الناس، ومن ثمَّ يرفعوا الأشرار ويضعوا الأخيار فإنَّهم سيفعلون كما فعلت الأُمم السابقة، حيث انحرفوا عن موازين الأنبياء ومبادئهم وقيمهم، ثمَّ قاموا بتحريف الدِّين نفسه، وفرَّغوا جوهره من محتواه وجعلوه مجرَّد مظاهر.

فقال عبد الرحمن: ولكن الله بالنسبة إلى هذا الدِّين وعد بأن يحفظه، حيث يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2]، فلا خشية عليه، أليس كذلك؟

قال عبد الله بن مسلم: نعم؛ إلَّا أنَّ الله أبى أن يجري الأُمور إلَّا بأسبابها، فربّنا سيحفظ هذا الدِّين بأهل بيت نبيّه، كما أنَّ الله تعالى قال في معركة الأحزاب: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[3]، لأنَّه تعالى لم ينزل ملائكة لكي يقتلوا عمرو بن ودّ، ويحاربوا المشركين، ويهزموهم وإنَّما بعث عليّاً عليه السلام ووفَّقه لقتل عمرو بن ودّ، فكفى الله المؤمنين القتال بعليّ. فهو حينما يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ

(1) نهج البلاغة، خطبة رقم 3.
(2) سورة الحجر، آية 9.
(3) سورة الأحزاب، آية 25.

﴿لَحَٰفِظُونَ﴾، يستعمل صيغة الجمع، ويقصد نفسه وملائكته وأوليائه. كما يقول في كتابه الكريم: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾[1]، ويقصد أنَّه تعالى أنذر الناس عبر إنزال جبرائيل على رسول الله ﷺ، وإنذاره لقومه.

قال عبد الرحمن: أحياناً أتساءل مع نفسي: هل هؤلاء الذين يحكمون باسم رسول الله ﷺ، ويتبوَّأون مقعده، ويدَّعون خلافته، هم في دواخل نفوسهم مؤمنين بالله ورسوله، ولكنَّهم فسقة يخالفون بعض بنود الشريعة؟، أم أنَّهم ألغوا ما يرتبط بآخرتهم، ومن ثمَّ فهم مثل جميع الظلمة في التاريخ الذين استخدموا الدِّين، وما فيه من المبادىء والقيم، غطاءاً لسلطتهم وأعمالهم؟

قال عبد الله بن مسلم: لا يَعرف ما في القلوب إلَّا الله، ولكن من ظواهر أعمال هؤلاء يتبيَّن أنَّ الدُّنيا عندهم هو كل شيء. أمَّا الآخرة فقد تركوها لأهل البيت عليهم السلام، وما حديثهم عن الله تعالى ورسوله ﷺ إلَّا من أجل استغلاله لمآربهم وخداع الناس به، تماماً كما أنَّ كثيراً من الحكَّام في التاريخ كانوا يقولون للناس ما يرضيهم، ويعملون ما فيه مصلحة أنفسهم. ألا ترى مثلاً أنَّ معاوية، وهو يعيش أيامه الأخيرة لمَّا زاد مرضه وتحدَّث الناس أنَّه الموت، قال لأهله: «أحشوا عيني إسمداً، وأوسعوا رأسي دهناً». ففعلوا وبرَّقوا وجهه بالدهن، ثمَّ مهَّدوا له في فراش، فجلس، وقال: أسندوني. حتَّى لا يتبيَّن ضعفه.

ثمَّ قال: «ائذنوا للناس فليسلِّموا عليَّ قياماً، ولا يجلس أحد.

---

(1) سورة النبأ، آية 40.

فجعل الرجل يدخل فيُسلِّم قائماً، فيراه مكتحلاً مدهَّناً، فلمَّا يخرج من عنده يقول: هذا أصحَّ الناس[1].

يريد بذلك أن يُبيِّن للناس أنَّ صحَّته كأفضل ما يكون.

ثمَّ حينما كان يخرج الناس، يقول لأهل بيته:

وتجلُّدي للشامتين أريهموا أنِّي لريبِ الدهر لا أتضعضعُ
وإذا المنيَّة أنشبتْ أضفارها ألفيتَ كلّ تميمة لا تنفعُ

وقال لابنتيه، في مرضه الذي ثقل عليه وهما تقلُّبانه، قال لهما: تقلُّبان حُوَّلاً قلِّبا. (أي رجلاً كثير الحيلة والقدرة)، جمع المال من شبّ إلى دبّ، ثمَّ تمثَّل بقول الشاعر:

لقد سعيتُ لكم من سعي ذي نصبٍ
وقد كفيتُكُم التطواف والرّحلا[2]

قال عبد الرحمن: ما الذي يقصد بقوله من شبّ إلى دبّ؟

قال: أي جمعت لكم المال من لدن شببتُ، إلى أن دببت على العصى.

فلو كان هؤلاء يحسبون حساب الآخرة، ولو بمقدار قليل، لفكَّروا فيما يقدمون عليه، لا فيما يتركونه خلفهم.

فترى أنَّ معاوية حينما يشتدَّ عليه المرض ويرى الشائلات صرَّه، يقول وكأنَّه يرى شيئاً: أسقوني أسقوني، فيشرب الماء كثيراً فلا يروى، ويغشى عليه اليوم واليومين، فإذا أفاق من غشوته ينادي

---

(1) التاريخ، الطبري، ج5، ص226.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص327.

بأعلى صوته: «ما لي وما لك يا حجر بن عدي؟ ما لي وما لك يا عمرو بن الحمق؟ ما لي وما لك يابن أبي طالب»؟

فيقول له يزيد: «يا أمير المؤمنين، عجِّل لي بالبيعة قبل موتك، فقد أزف الأمر، فإنَّك إن لم تذكر البيعة لي خشيت أن ألقى من آل أبي تراب مثل ما لقيت»[1].

فأخذ معاوية يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حجر طويل[2].

قال عبد الرحمن: ألم يكن لهؤلاء ضمير يؤنِّبهم على ما يفعلون؟

قال عبد الله: نعم؛ ولذلك كانت تخرج منهم أحياناً كلمات لمصلحة الحقّ، لكن الشهوات والرغبات وحبّ السلطان تدفعهم مرَّة أُخرى إلى أحضان الباطل. فمثلاً أنشأ معاوية ذات مرَّة يقول:

فيا ليتني لم أعن في الملك ساعة ... ولم أكُ في اللذَّات أعشى النواظر
وكنت كذي طمرين عاش ببلغةٍ ... من الدهر حتَّى زار أهل المقابر[٣]

قال عبد الرحمن: ألم يكن معاوية يخشى ما بعد الموت؟

قال عبد الله: أحياناً كان يخشى ذلك، ولكنَّه كان يظن أنَّ بإمكانه أن يكسب الجنَّة بالحيلة، كما كسب الدُّنيا بها. فمعاوية هو

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص252؛ وشرح النهج، لابن أبي الحديد، ج8، ص52.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص257.
(3) مروج الذهب، للمسعودي، ج3، ص58.

الذي قاتل عليّاً ابن عمّ رسول الله، وأخاه، ووصيّه، وتسبَّب في مقتل قرابة مائة ألف شخص في معركة صفِّين، وظلم أهل البيت (سلام الله عليهم) وقتل الحسن بن علي عليهما السلام بالسُّم، وظلم الحسين عليه السلام، وفي عروقهما كانت تجري دماء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..

تراه عند موته يوصي بأن يوضع في عينيه قلامة أظفار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول لهم: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كساني قميصاً فحفظته، وقلَّم أظفاره يوماً فأخذت قلامته، فجعلتها في قارورة، فإذا متُّ فألبسوني ذلك القميص، واسحقوا تلك القلامة وذروها في عيني وفمي، فعسى الله أن يرحمني ببركتها!

ثمَّ يتمثَّل بشعر الأشهب:

إذا متُّ ماتَ الجودُ وانقطع النَّدى
من الناسِ إلَّا من قليل مصرَّد
وردَّت أكفّ السائرين وأمسكوا
من الدِّين والدُّنيا بخلف مجدَّد[1]

وأحياناً كان يخاطب ربّه قائلاً:

إن تناقشْ يكن نقاشك يا ربّ
عذاباً، ولا طوق لي بالعذابِ
أو تجاوزْ فأنت ربٌّ
صفوحٌ عن مسيء ذنوبه كالتُّرابِ[2]

فهو يعيش بين عذابات الضمير من جهة، وحبّ الدُّنيا

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص260.
(2) نهاية الإرب، للنويري، ج20، ص366.

والسلطان من جهة أُخرى، لكن حبّ الدُّنيا هو الذي يغلب عليه في نهاية المطاف، ولذلك فكلَّما كان يثقل عليه المرض ويفيق ويخاف الرحيل عن الدُّنيا، يؤكِّد على بيعة يزيد من جديد.

يقول له الضحَّاك: «يا أمير المؤمنين؛ إنَّ الناس قد اضطربوا وضجّوا واختلفوا بسرعة وأنت حيّ، فكيف إن حدث بك أمر؟ فماذا ترى أن يكون حال الناس؟

ويقول له مسلم بن عقبة: «إنَّا نرى الناس ونسمع كلامهم، ونرى أنَّ الأمر في يزيد، وهو أهمّ له (أقدر عليه بهمّته)، وهو لهم رضى، فبادر إلى بيعته من قبل أن يعتقل لسانك.

فيقول: «صدقت يا مسلم، إنَّه لم يزل رأيي في يزيد، وهل تستقيم الناس لغير يزيد؟ ليتها في ولدي وذرِّيَّتي إلى يوم الدِّين، وأن لا تعلو ذرِّيَّة أبي تراب على ذرِّيَّة آل أبي سفيان[1].

وهكذا ينظر إلى المسألة نظرة قبليَّة بحتة، كعهد الجاهليين من آل أبي سفيان، فهم لا يزالون ينظرون إلى هذا الدِّين باعتباره ملكاً، ومن ثمَّ فهو وراثة لأبنائهم في مقابل آل أبي تراب وبني هاشم، ونعرف أنَّ بني هاشم هم أحفاد جدّ النبيَّ وذرِّيَّة رسول الله ﷺ.

ثمَّ أُنظر إلى وصيَّته إلى يزيد، يقول فيها: «يا بُنيَّ؛ إنِّي قد وطأت لك الأشياء، وأذللت لك الأعداء، وأخضعت أعناق الناس ببيعتك ـ أي بالإجبار ـ فانظر أهل مكَّة والمدينة فأكرمهم، فإنَّهم أصلك ومنصبك، فمن ورد عليك منهم فأكرمه، ومن لم يأتك فابعث إليه بصلته.

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج4، ص346.

«وأُنظر أهل العراق، فإنَّهم أهل طعن على الأُمراء، وملالة لهم، فإن يسألوك أن تبدِّل لهم كلّ يوم عاملاً فافعل.

«وأُنظر أهل الشام، فليكونوا بطانتك وعيبتك وحصنك، فمن رابك أمره فارمه بهم، (أي إذا خالفك قوم فحشد أهل الشام لمواجهتهم). فإذا فرغوا ـ أي فرغ أهل الشام من أولئك ـ فأقفلهم إليك فإنِّي لا آمن الناس على إفسادهم، (فهو يريد إبقاء أهل الشام في داخل الشام حتَّى لا يفهموا شيئاً من الحق، ويستطيع أن يقاتل بهم أهل الصلاح، لأنَّه يخاف عليهم من الصلاح ويُسمِّي ذلك فساداً)، وقد كفاك الله عبد الرحمن بن أبي بكر، لأنَّه مات، فلست أخاف عليك إلَّا حسيناً، وابن عمر، وابن الزبير. فأمَّا الحسين فلست أشكّ في وثوبه عليك، فسيكفيك من قتل أباه وجرح أخاه، إنَّ آل أبي طالب قد مدّوا أعناقهم إلى غاية أبتْ العرب أن تعطيهم المقادة فيها. (فحديث معاوية لا يرتبط بدين ولا بقيم الرسالة، وإنَّما ينطق باسم العرب، وباسم عائلته والملك).

«وأمَّا ابن عمر فقد وقذه الإسلام وشغله عن منازعتك. وأمَّا ابن الزبير فخبٌّ خدع، فإذا شخص إليك فألبد له، فإنَّه ينفسخ عن المطاولة[1].

ويقول له: «يا بُنيَّ؛ إنِّي من أجلك آثرت الدُّنيا على الآخرة، ودفعت حقّ عليّ بن أبي طالب، وحملت الوزر على ظهري.

ويضيف: «إنِّي جعلت هذا مطمعاً لك، ولولدك من بعدك،

---

(1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج5، ص108.

وإنِّي موصيك بوصيَّة فاقبلها فإنَّك تحمد عاقبتها، وإنَّك بحمد الله حازم صارم.

«أنظر، إن تأتيك نائبة فَثُبّ وثوب الشهم البطل، ولا تجبن جبن ضعيف النكل، فإنِّي قد كفيتك الحلّ، والترحال، وجوامع الكلم، والمنطق، ونهاية البلاغة، ودفع المؤونة، وسهولة الحفظ. ولقد وطأت لك يا بُنيَّ البلاد، وذلَّلت لك رقاب العرب الصعاب، وأقمت لك المنار، وسهَّلت لك السُّبل، وجمَّعت لك اللجين والعقيان، ومهَّدت لك الملك من بعدي تمهيداً، فعليك يا بُنيَّ من الأُمور ما قرب مأخذه، وسهل مطلبه، وذرعاً كما تعصى عليك»[1].

ألا ترى أنَّ الحديث كلّه عن الملك، وتوطيد الأمر، وإذلال الرقاب، وتجميع الذهب والعقيان، لا عن القيم والمثُل،، ومن ثمَّ لا تجد حديثاً في داخل بيوت بني أُميَّة عمَّا يريده الله، وما أمر به النبيّ ﷺ. وإنَّما هو الحديث الطبيعي الذي يدور بين الملوك وأولادهم، وبين الأُمراء والزعماء وورّاثهم. وهذا هو ما كان يريد أهل البيت أن يكشفوه للناس، حتى يعرفوا أنَّ أعدائهم لا يمتّون إلى الدِّين بصلة، وليس لهم من هم إلَّا همّ الملك والدُّنيا.

❁

بعد هذا الحديث ودَّع كلٌّ من عبد الرحمن وعبد الله صاحبه وتفرَّقا، ولم يلتقيا إلَّا بعد موت معاوية. عندما ذهب عبد الله بن

---

(1) التفوح، لابن أعثم، ج4، ص256 و257.

مسلم لأداء العمرة في أواخر شهر رجب، وكان معاوية قد مات في النصف منه سنة ستّين، وهو ابن سبعٍ وسبعين سنة[1].

فقال عبد الرحمن لصاحبه: ها إنَّ معاوية قد هلك، فهل ترى أنَّه قد يحدث شيء؟

قال عبد الله: ستحدث أشياء.

قال عبد الرحمن مبتسماً: وهل تعرف الغيب؟

قال عبد الله: لا، ولكن هذا هو منطق الأحداث. فالحسين (سلام الله عليه) لن يسكت على باطل، وليست بينه وبين يزيد معاهدة، مثل ما كانت بينه وبين معاوية. وكان من بنود المعاهدة أن يكون الحسين هو من يتسلَّم الأمر ويقود الأُمَّة بعد معاوية، إن لم يكن الحسن بن عليّ حيّاً، لكن معاوية لم يعمل بهذه المعاهدة، بينما بقي الحسين عليه السلام ملتزماً بما عاهده عليه أخوه الحسن.

فقال عبد الرحمن: أترى، كان يجب على الحسين عليه السلام أن يبقى ملتزماً بتلك المعاهدة، في الوقت الذي لم يلتزم بها الطرف الآخر؟

قال عبد الله: هذا هو الفارق بين أهل الحقّ وأهل الباطل، فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بقي وفيّاً لمعاهدة الحديبيَّة، فقد التزم بأنَّ من فرَّ من المشركين إليه يُسلِّمه لأهل مكَّة، بينما لو فرَّ أحد المسلمين إلى أهل مكَّة لا يُسلِّمه المشركون إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. ومع أنَّ أهل مكَّة لم يلتزموا بهذا البند من صلح الحديبيَّة، لكنَّ النبيّ التزم به، وقد

(1) التاريخ، لليعقوبي، ج2، ص213.

سلَّم ﷺ بالفعل أحد المسلمين الذين فرّوا من جور قريش، سلَّمه إليهم بعد أن قال له: إنَّ الله سيجعل لك من أمرك فرجاً ومخرجاً.

فالآن وقد مات معاوية، فإنَّ الحسين بن عليّ لن يبايع يزيد، ولا تلزمه أية معاهدة بالهدنة معه.

فقال عبد الرحمن: وهل ترى أنَّ يزيد سيحاول فرض البيعة عليه؟

فضحك عبد الله بن مسلم وقال: يبدو أنَّك لا تعرف هذا الرجل، نعم، لا شكَّ أنَّه سيفعل، بل ولا مانع لديه أن يضرب عنق الحسين إن لم يبايع، فهو صبيّ ـ كما قال مروان بن الحكم ـ وأرعن، وحوله رجال يحثّونه على ذلك من أمثال الضحَّاك بن قيس، ومسلم بن عقبة.. والأخطر من كلّ ذلك مستشار أبيه السيرجون، والذي لا يهمّه أمر الأُمَّة، لأنَّه لا ينتمي إليها أساساً، وربَّما يعمل بناءً على خطَّة من أعداء الدِّين والأُمَّة.

يا هذا، إنَّ يزيد رجل طروب، نزق، لا يهمّه من أمر الدِّين إلَّا الملك واللعب. فمن أغرب ما شوهد منه أنَّه في الوقت الذي كان أبوه بين الحياة والموت، وكان يغشى عليه بين فترة وأخرى ويهذي ويقول: كم بيننا وبين الغوطة، فتقول له ابنته: واحزناه. فيقول: إن تنفريه فقد رأيتِ منفِّراً[1].

في نفس الوقت كان يزيد ذاهباً للصيد إلى منطقة حوران،

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص261.

وهوموضع بالشام، ليتصيَّد هناك، ويقول للضحَّاك، وكان رئيس شرطة معاوية: انظر لا تخفى عليَّ شيئاً من أمر أمير المؤمنين[1].

قال عبد الله بن مسلم لصاحبه: أنت أعرف بشؤون الشام، فما الذي حدث بعد موت معاوية؟

قال عبد الرحمن: إنَّ الضحَّاك بن قيس جاء بعد موت معاوية إلى المسجد الأعظم، فصعد المنبر ومعه أكفان معاوية، فقال: «أيُّها الناس؛ إنَّ معاوية بن أبي سفيان كان عبداً من عباد الله، ملَّكه على عباده، فعاش بقدَر، ومات بأجَل، وهذه أكفانه كما ترون، نحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومخلّون بينه وبين ربّه، فمن أحبّ منكم أن يشهد جنازته فليحضر بعد صلاة الظهر.

ثمَّ نزل وتفرَّق الناس، ولمَّا صلّوا الظهر اجتمعوا وأصلحوا جهازه، وحملوه حتَّى دفنوه[2].

ثمَّ كتب الضحَّاك رسالة إلى يزيد يقول له فيها: «لعبد الله يزيد أمير المؤمنين، من الضحَّاك بن القيس، سلام عليك. أمَّا بعد، فكتابي إلى أمير المؤمنين كتاب تهنئة ومصيبة، فأمَّا الخلافة التي جاءتك فهي تهنئة، وأمَّا المصيبة فموت أمير المؤمنين معاوية، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، فإذا قرأت كتابي هذا فالعجل العجل، لتأخذ الناس ببيعة أُخرى مجدَّدة، والسَّلام عليك ورحمة الله وبركاته[3].

---

(1) راجع مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص177.
(2) الأخبار الطوال، للدينوري، ص228.
(3) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص1 و2.

فقصد يزيد دمشق، ووصلها بعد ثلاثة أيَّام من مدفن أبيه، فذهب إلى قبره، فجلس وانتحب ساعة، ثمَّ أنشأ يقول:

جاء البريدُ بقرطاسٍ يحثُّ به ... فأوجسَ القلبُ من قرطاسه فزعا
قلنا: لك الويلُ ماذا في كتابكُمُ ... قال: الخليفةُ أمسا مدنفاً وجعا
مادتْ بنا الأرض أو كادت تميد بنا ... كأنَّما العزّ من أركانها انقلعا
أودى ابن هندٍ وأودى المجد يتبعه ... كذاك كانا جميعاً قاطنين معا
أغرّ أبلج يستسقى الغمام به ... لو قارع الناس عن أحلامهم قرعا
لا يرقع الناس ما أوحى ولو جهدوا ... أن يرقعوه، ولا يوهون ما رقعا[1]

فقال عبد الله بن مسلم: أتدري أنَّ هذين البيتين الأخيرين هي للشاعر الجاهلي المعروف الأعشى، وقد قالهما في مدح رسول الله ﷺ؟

ولكن، ليس غريباً ممَّن يسرق الخلافة أن يسرق أوصاف رسول الله ﷺ ببيتين من الشعر في مدح النبيّ ﷺ ويمدح به أباه.

ثمَّ التفت إلى عبد الرحمن وسأله: ما الذي فعل يزيد بعد ذلك؟

قال عبد الرحمن: إنَّه قام من قبر أبيه، وسار حتَّى جاء إلى قصر الخضراء، حيث وُضعت له الفُرش، فجلس على الأريكة، وطلب من الناس أن يبايعوه، فبايعوه مجدَّداً.

بعد ذلك خطب في الناس، وأخذ يمدح أباه قائلاً: «إنَّ أمير المؤمنين معاوية كان لكم كالأب البارّ بالولد، وكان من

---

(1) العقد الفريد، لابن عبد ربّه، ج4، ص373 و374؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص2 و6.

العرب أمجدها، وأحمدها، وأعظمها خطراً، وأرفعها ذكراً، وأنداها أنامل، وأوسعها فواضل، وأسماها إلى الفرع الباسق، لا يعتريها الفهاهة في بلاغته، ولا تدخله اللكنة في منطقه، حتَّى انقطع من الدُّنيا أثره، وصار إلى رحمة الله تعالى ورضوانه».

فقام رجل من أقصى الناس، فصاح قائلاً: «كذبت والله، ما كان معاوية بهذه الصفة، وإنَّما كانت هذه صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه أخلاقه، لا أخلاق معاوية ولا أنت».

فاضطرب الناس، فطُلب الرجل، فلم يقدروا عليه. وأنَّ رجلاً يُقال له عطاء بن أبي صيفي، من جماعة معاوية، التفت إلى يزيد قائلاً: «يا أمير المؤمنين؛ لا تلتفت إلى ما يقول الأعداء، وقد أُعطيت خلافة الله من بعد أبيك، فأنت خليفتنا، وابنك معاوية ولي العهد بعدك، لا نريد به بدلاً، ولا نبغي عنه حولاً»[1].

❋ ❋ ❋

(1) الفتوح، لابن الأعثم، ج5، ص6 ـ 9.

الحاكم الجديد وأزمة الشرعية

تماماً كما يحدث بعد موت كلّ حاكم مستبد برأيه، مطلق اليد، طال به الزمن، وكانت الأُمور كُلّها تجري بناءً على أوامره ونواهيه. فقد اضطربت الأحوال في العالم الإسلامي كُلّه، فضحايا الحكم السابق وجدوها فرصة لرفع الرؤوس والمطالبة بالحقوق، وعاد الهاربون من البطش والبغي والطغيان، إلى بيوتهم.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ أزمة الشرعيَّة كانت تعصف بحكم معاوية، نعرف لماذا استمرَّت الأوضاع متوتِّرة من جميع النواحي، وخاصَّة في العراق، حيث كانت عاصمة دولة الإمام عليّ عليه السلام فيه.

فانتقال الحكم من الإمام إلى خصمه معاوية، إنَّما تمَّ بسبب اغتيال الإمام، فالشرعيَّة كانت لا تزال عند عليّ وبنيه، وأهل العراق خاضوا معركة شرسة مع جيش الشام، فكان خضوعهم لمعاوية قسرياً ولم يكن عن إيمان منهم ورغبة واختيار. أمَّا بالنسبة للحاكم الجديد، فإنَّ حكمه مرفوض من قِبَل أغلب أهل الحلّ والعقد وأغلب الناس، ماعدا قلَّة من أصحاب النُّفوس الوضيعة من بني أُميَّة، وجلاوزتهم، ومن لهم هوى في ملكهم.

وكذلك الأمر فيما يرتبط بالحجاز.

ومن هنا فإنَّ الحاكم الجديد الذي تمَّت له البيعة أكثر من مرَّة في زمن أبيه، كان يشعر في قرارة نفسه أنَّ خلافته غير شرعيَّة، ولذلك بمجرَّد موت أبيه أخذ يكتب رسائل إلى جميع الولاة يطالبهم بأخذ البيعة له من جديد، وكان يخصُّ بالذِّكر أولئك الذين لهم مكانة خاصَّة في قلوب الناس.

فكتب رسائل إلى كلّ من نعمان بن البشير الأنصاري والي الكوفة، وإلى عبيد الله بن زياد والي البصرة، وإلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة، وإلى عمرو بن سعيد الأشدق والي مكَّة، يطالبهم بأخذ البيعة له.

وكانت رسالته إلى الوليد بن عتبة، والتي أرسلها مع عبد الله بن عمر بن أويس، هي من جملة الرسائل الغريبة حقّاً، ذلك أنَّها كانت في الظاهر رسالة عادية، فقد جاء فيها: «أمَّا بعد، فإنَّ معاوية بن أبي سفيان كان عبداً من عبيد الله، أكرمه الله واستخلفه وخوَّله ومكَّن له، فعاش بقدَر ومات بأجَل، فرحمة الله عليه، فقد عاش محموداً، ومات برّاً تقيّاً. فنعم الخليفة كان، ولا أزكِّيه على الله، وهو أعلم به منِّي، وقد كان عهد إليَّ عهداً، وجعلني له خليفة من بعده، فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة على أهل المدينة، والسَّلام»[1].

وكما يبدو فإنَّ هذه الرسالة عادية، ربَّما لم تكن تؤدِّي إلى حدث خاص لولا أنَّه أضاف إليها رسالة أُخرى كتبها في صحيفة صغيرة، جاء فيها: «أمَّا بعد، فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر،

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص10 و11؛ وجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج5، ص313.

وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً، ليست فيها رخصة ولا هوادة، حتَّى يبايعوا، فمن أبى منهم فاضرب عنقه وابعث إليَّ برأسه»[1].

والغريب هنا هو أن يطلب من الوالي قطع رأس من يمتنع عن مجرَّد البيعة، وليس بقطع رأس من يعلن المخالفة أو ينهض بثورة أو يرفع راية المعارضة، وإنَّما بمجرَّد عدم البيعة، فلابُدَّ من قطع رأسه، مع أنَّ ذلك لم يكن لرسول الله ﷺ، وقد قال ربّنا في كتابه الكريم: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2]، وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[3]، وأمر الله نبيّه بأن يترك اليهود والنصارى على ما هم عليه، إذا لم يمنعوا الناس عن الالتزام بهذا الدِّين.

وأساساً ربّ العالمين لا يقطع رأس من لا يؤمن بذاته المقدَّسة، وقد عاقب الله نبيّاً عظيماً من أنبيائه وهو يونس بن متَّى لأنَّه استعجل في الدُّعاء على قومه بالعذاب، مع أنَّه لم يفعل ذلك إلَّا لأنَّهم امتنعوا عن الإيمان بالله، فقال ربّنا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

فكيف يسمح حاكم يدَّعي أنَّه يمثِّل رسول الله ﷺ ولم يمض

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص11؛ وجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج5، ص313؛ والتاريخ، لليعقوبي، ج2، ص215.

(2) سورة الكهف، آية 29.

(3) سورة البقرة، آية 256.

(4) سورة الأنبياء، آية 87.

على وفاة النبيّ إلَّا أقلّ من أربعين عاماً، كيف يسمح لنفسه بإجبار الناس على البيعة، وقطع الرؤوس إذا امتنع منهم أحد؟

ثمَّ إنَّ من ذكرهم بالاسم لم يكونوا من عامَّة الناس، وإنَّما كان كلّ واحد منهم يُمثِّل تيَّاراً في الأُمَّة، وعلى الخصوص سيِّد شباب أهل الجنَّة الحسين بن عليّ بن أبي طالب، ابن فاطمة، سبط رسول الله، وهو الذي سمع الصحابة من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الكثير من الأحاديث في فضله، منها: «**حسين منِّي وأنا من حسين**»[1]، ومنها: «**الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنَّة**»[2]، ومنها: «**أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً**»[3]، ومنها: «**إنَّ الحسين بن عليّ في السَّماء أكبر منه في الأرض، وإنَّه لمكتوب عن يمين عرش الله عزَّ وجلَّ: الحسين مصباح هدى وسفينة نجاة**»[4].

ولقد رأى الناس كيف أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعامل مع الحسين، إذ يضعه هو وأخاه الحسن على كتفيه ويمشي بهما في الأسواق ويقول: «**نعم المطيُّ مطيّكما، ونعم الراكبان أنتما**»[5].

على كلِّ حال فإنَّ محبَّة الناس لرسول الله ولأهل بيته كانت في ذلك الوقت تتركَّز في الحسين، فكيف يطلب شابٌّ مغرور البيعة من الحسين، ويأمر بقطع عنقه إذا رفض؟!

حقّاً لقد كان الزمن الذي عاشه الناس في ظلِّ معاوية

---

(1) ذخائر العقبى، للطبري، ص133.
(2) الأمالي، للصدوق، ص112.
(3) ذخائر العقبى، للطبري، ص133.
(4) عيون أخبار الرضا، للصدوق، ج2، ص62.
(5) بحار الأنوار، للمجلسي، ج43، ص286.

زمناً كنوداً، فقد تمَّ فيه إلغاء الأُمَّة، بينما أعطيت كلّ القيمة للحاكم، حتى أنَّك عند تقرأ عن ذلك الزمن لا تجد أية أخبار عن الناس، وإنَّما فقط عن معاوية، وعمَّا فعل، وعمَّا أمر، وعمَّا نهى، وليس أكثر من ذلك. مع أنَّ حكمه امتدَّ طويلاً، ولو أنَّ الأُمَّة كانت حاضرة لفعلت الأفاعيل، لكن الرجل كان قد ألغى الأُمَّة، بينما رفع من شأن عشيرته، وكان كلّ اهتمامه منصبّاً في تثبيت حكمه، كأيِّ واحد من القياصرة والأباطرة والأكاسرة.

فكان الظلام مخيّماً على الناس، وكان الرجال الصالحون مغيَّبين عن الساحة تماماً، إلَّا أنَّ الأُمَّة أصبحت بعده على وشك أن تدخل في نفق أظلم، وفي ظلِّ طغيان لا مثيل له.

❁

في مثل هذه الظروف قام عبد الرحمن الصالح بزيارة الكوفة، فدخل على عبد الله بن مسلم، وكالعادة أخذا يتجاذبان الحديث عمَّا يجري.

كان الوقت بعد موت معاوية بأسبوع، وقد شحت بين الناس أخبار ما يجري في مراكز الحكم، خاصَّة عند والي المدينة.

فسأل عبد الرحمن، صاحبه عمَّا يحدث.

فقال عبد الله بن مسلم: بلغني أنَّ يزيد أرسل رسالة إلى الوليد بن عتبة ينعى فيه معاوية، ويأمره بأخذ البيعة من الناس عامَّة، ومن الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر خاصَّة، ويطالبه بأن يقطع رأس كلّ من يمتنع ولا يبايع.

فقال عبد الرحمن: وماذا فعل الوليد؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ الوليد فُظع برسالة يزيد[1].

وبما أنَّ الرجل لم تكن له خبرة في التعامل مع أوامر كهذه، فقد دعا مروان بن الحكم، وكان من قبل والياً على المدينة من قِبل معاوية، وكان بينهما زعل، ولا يأتي مروان إلى الوليد إلَّا متكارهاً. فلمَّا جاء كتاب يزيد إلى الوليد اضطرَّ لاستشارة مروان، فدعاه إلى دار الإمارة وأبلغه خبر موت معاوية، وأعطاه كتاب يزيد، وقال له: ما الرأي؟

فقال مروان: «أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر، فتدعوهم إلى البيعة، فإنَّهم إن بايعوا لم يختلف على يزيد أحد من أهل الإسلام، فعجِّل عليهم قبل أن يفشي الخبر فيمتنعوا»[2].

فقال الوليد: وإن أبوا؟

فقال مروان: «قدَّمتهم فضربت أعناقهم، قبل أن يعلموا بوفاة معاوية، فإنَّهم إن علموا بها وثب كلّ امرىء منهم في ناحية، فأظهر الخلاف والمنابذة، ودعى إلى نفسه»[3].

قال عبد الرحمن الصالح: أبهذه السهولة، يأمره أن يضرب رؤوس هؤلاء إذا امتنعوا عن البيعة؟

قال عبد الله بن مسلم: كما ذكرت لك، لقد كانت لمروان هوى في الخلافة، وكان يُخطِّط بعيداً للوصول إليها، وكانت مصلحته

---

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص175.

(2) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص175.

(3) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج5، ص314.

أن يرتكب يزيد عملاً شنيعاً، لتضطرب عليه الأوضاع حتَّى يثب هو إلى الحكم. فالرجل لم يكن مخلصاً ليزيد، وهو من خالف بيعته في بداية الأمر، ولولا تهديد معاوية له بالعزل وإغرائه بالأموال، لم يأخذ البيعة من الناس ليزيد في زمن أبيه. بالإضافة إلى أنَّه كان عدوّاً لبني هاشم، وهو من ألَّب الجيوش من قبل لمقاتلة الإمام عليّ.

فقال عبد الرحمن: معنى ذلك أنَّ مروان بن الحكم لم يكن يفكِّر، في آخرة نفسه، ولا في دُنيا يزيد.

قال عبد الله بن مسلم: هذا صحيح، ولذلك لم يكتف بأن يطلب من الوليد أن يضرب عنق الحسين، بل أصرَّ عليه، وقال فيما قال: «إنَّ آل أبي تراب هم الأعداء من قديم الدهر (ويقصد بذلك من زمن رسول الله، حيث كان هو ومعاوية وأبو سفيان في جبهة الكفر) ولا يزالون»!

وأضاف: «إنِّي لست آمن أيُّها الأمير، إن لم تعاجل الحسين بن عليّ خاصَّة، أن تسقط منزلتك عند أمير المؤمنين يزيد».

فقال له الوليد: «مهلاً، ويحك، دعني من كلامك هذا، وأحسن القول في ابن فاطمة، فإنَّه بقيَّة ولد النَّبيِّين»[1].

وأضاف: «سبحان الله، أأقتل الحسين إن لم يبايع»؟[2].

❁ ❁ ❁

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص181.
(2) الأمالي، للشجري، ج1، ص170.

في دار الإمارة
الحسين عليه السلام تحت التهديد

بالرغم من أنَّ الوليد بن عتبة كان يتجنَّب مواجهة الحسين، نظراً لمقامه الكريم عند جميع أبناء الأُمَّة، خاصَّة في الحجاز والعراق، إلَّا أنَّ الرجل كان والياً لمعاوية ويزيد، ومن رجال بني أُميَّة، فكان يعيش في حالة برزخيَّة بين مصالحه مع السلطة، بالإضافة إلى جذوره التي نبتت على بغض أهل البيت، وبين عقله وضميره اللذان يأمرانه بأن يحترم الحسين، ولا ينفِّذ أمر يزيد. وعلى كلِّ حال كان عليه أن يفعل شيئاً، فاستجاب لرأي مروان بن الحكم، وأرسل من ساعته في منتصف الليل إلى حفيد عثمان بن عفَّان، واسمه عبد الله بن عمرو، وقال له: انطلق إلى الحسين، وعبد الله بن الزبير وادعوهما إليَّ.

فجاء الرجل يبحث عنهما، فوجدهما في المسجد النبويّ عند قبر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقال لهما: أجيبا الأمير الوليد، فإنَّه يدعوكما إليه.

فقالا له: انصرف، الآن نأتيه.

وحينما خرج من المسجد، قال عبد الله بن الزبير للحسين عليه السلام: ما الذي تراه دفعه لكي يبعث إلينا في هذه الساعة، وهو لا يجلس فيها؟

لقد كان استدعاء الرجلين في ذلك الوقت المتأخّر إلى دار الإمارة غريباً حقّاً، ويكشف عن أنَّ حدثاً كبيراً قد وقع..

فقال الحسين: أظنّ أنَّ طاغيتهم قد هلك، فبعث إلينا ليأخذ بالبيعة، قبل أن يفشو الخبر في الناس.

فقال ابن الزبير: وأنا ما أظنّ غيره، فما تريد أن تصنع، يا أبا عبد الله؟

قال الحسين: سوف أمشي إليه.

فقال عبد الله: إنِّي أخاف عليك إذا دخلت عليه.

فقال الحسين: لا آتيه إلَّا وأنا اقدر على الامتناع[1].

ولكي لا يستطيع الوالي قتل الحسين، فإنَّه لم يذهب مباشرة إلى الوليد، كما دعاه، وإنَّما ذهب إلى داره أوَّلاً، وجمع تسعة عشر من الرجال، من أمثال أخيه العبَّاس وولده عليّ الأكبر، وأمرهم بأن يحملوا معهم سيوفهم تحت ثيابهم، وقال لهم فيما قال: «إنِّي داخل على هذا الرجل، فإن سمعتم صوتي قد علا فاهجموه، وإلَّا لا تبرحوا حتَّى أخرج إليكم[2].

كان الوقت متأخراً وكانت طرقات المدينة خالية من المارَّة، وكان الحسين عليه السلام ومن معه يمشون الهوينا، حتَّى وصلوا إلى دار الإمارة، فتقدَّم الحسين عليه السلام وحده وأوقف الرجال في مكان يسمعون كلامه إذا علا صوته، ودخل وجلس عند الوليد، فرأى مروان بن

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص264.

(2) مقتل ابن مخنف المشهور، ص11 ـ 12؛ والفصول المهمَّة، لابن الصبَّاغ، ص182.

الحكم عنده، وكان بين مروان والوليد قطيعة، فعرف الحسين عليه السلام أنَّ ما تنبّأ به من موت معاوية هو صحيح، وإلَّا فإنَّ أركان البيت الأموي ـ مع القطيعة بينهم ـ لم يكونوا يجتمعون في مثل تلك الساعة من اللَّيل إلَّا لحدث عظيم، خوفاً من أن تنفلت الخلافة من أيديهم، خاصَّة وأنَّ الأكثريَّة في حاضرة العالم الإسلامي ذلك الوقت كانوا يتحيّنون الفرصة للخلاص ممَّن حوَّل الخلافة إلى بستان لبني أُميَّة، يحتكر أموال الناس، ويصادر حقوقهم، ويسمِّل عيون المخالفين، ويقتل من يعترض عليه.

ولمَّا استقرَّ المجلس بالحسين نعى إليه الوليد موت معاوية، ثمَّ أقرأه كتاب يزيد الذي يأمر بأخذ البيعة من الناس.

فقال الحسين: «إنَّ مثلي لا يبايع سرّاً، فإذا دعوت الناس إلى البيعة دعوتنا معهم، فكان أمراً واحداً».

ويبدو أنَّ الوليد اقتنع بهذا الكلام، إلَّا أنَّ مروان بن الحكم التفت إليه قائلاً: «أيُّها الأمير! لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبايع، لم تقدر منه على مثلها حتَّى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرجل حتَّى يبايع، أو تضرب عنقه».

فبان الغضب في وجه الحسين، وهو سبط رسول الله وابن عليّ وفاطمة، لجرأة رجل مثل مروان بن الحكم الذي وصفه الإمام عليّ من قبل بقوله: الوزغ ابن الوزغ، أن يأمر بحبس الحسين، وإجباره على البيعة، أو ضرب عنقه.

فوثب الحسين قائماً ورفع صوته قائلاً:

«أيُّها الأمير! إنَّا أهل بيت النُّبوَّة، ومعدن الرِّسالة، ومختلف

الملائكة، ومهبط الوحي، بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد راكب الفجور، وشارب الخمور، وقاتل النفس المحترمة، ومعلن بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرو أيّنا أحقّ بالبيعة والخلافة».

وسمع رجال الحسين الذين أقامهم خلف الباب صوته، فاقتحموا المجلس، وأحاطوا بالحسين عليه السلام وبان الذعر في وجه كلّ من الوليد ومروان، وخرج الحسين معهم، ولم يصب بأذى.

فقال مروان للوليد: «عصيتني، فوالله لا يمكنك على مثلها أبداً، إنَّ الحسين لا يمكِّنك من نفسه».

فقال الوليد ـ وكان لا يزال فيه بعض بقايا ضمير، ويعرف قدر الحسين ومقامه عند الناس ـ: «ويحَ غيرك يا مروان، لقد اخترت لي ما فيه هلاك ديني ودُنياي، أأقتل حسيناً إن قال: لا أبايع؟ والله لا أظنّ امرءاً يحاسب بدم الحسين إلَّا خفيف الميزان يوم القيامة، ولا ينظر الله إليه ولا يزكِّيه، وله عذاب أليم»[1].

وهكذا انتهت تلك الجلسة بعتاب متبادل بين مروان بن الحكم، ووالي المدينة.

أمَّا الحسين فإنَّه ذهب إلى بيته سالماً، وأمر رجاله بأن يذهبوا إلى بيوتهم.

✻

لقد كانت كلمة الحسين عليه السلام الموجزة القصيرة في حضور

---

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص144؛ والتاريخ، لابن خلدون، ج3، ص20؛ ومقتل أبي مخنف المشهور، ص13.

اثنين من أركان النظام: الوالي السابق على المدينة المنوَّرة، والوالي الفعلي والمعتمد من قِبل معاوية ويزيد، كانت الكلمة: «إنَّا أهل بيت النُّبوَّة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعدن العلم، وأهل بيت الوحي، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد شارب الخمور، وراكب الفجور، وقاتل النفس المحترمة، ومثلي لا يبايع مثله». كانت هذه الكلمة بمثابة البيان الأوَّل لنهضته التي حمل فيها راية الأنبياء والأولياء، والتي بموجب إمامته ونهضته سيكون وارث آدم عليه السلام وهابيل عليه السلام ونوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام.

كما أنَّ رفضه للبيعة، حتَّى قسراً، كان أمراً مهمّاً جدّاً، لأنَّ أولياء الله درجوا على أنَّهم إذا بايعوا ولو مجبرين، فإنَّهم يلتزمون بمستلزماتها، وكذلك الأمر لو أنَّهم صالحوا مكرهين، فهم يلتزمون بالصلح وشروطه. وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صلح الحديبيَّة التي جاءت في ظروف قاهرة اضطرَّه إلى القبول ببنود الصلح، فاستمرَّ ملتزماً بها رغم أنَّ قريش نقضته مراراً وتكراراً.

وكذلك الإمام عليّ عليه السلام، الذي قبل بالهدنة مع معاوية في معركة صفِّين، وظلَّ مستمرّاً على الالتزام بها، بالرغم من أنَّ قسماً كثيراً من أصحابه طالبوه بأن يُجدِّد الحرب على معاوية، فرفض ذلك، لأنَّه كان في حالة الهدنة معه.

كذلك فعل ابنه الحسن بن عليّ عليهما السلام في صلحه مع معاوية بن أبي سفيان، والذي هو الآخر اضطرَّ إلى ذلك، وبقي الحسين ملتزماً بما صالح عليه أخوه، حتى بعد وفاته. ولهذا كُلّه فقد رفض الحسين عليه السلام البيعة كرهاً أو طاعة، ولو سرّاً.

وهذا ما يميِّز الأولياء عن غيرهم، من الذين لا مانع لديهم أن يفعلوا في السرّ ما لا يفعلونه في العلن، بأن يبايعوا مثلاً سرّاً، ثمَّ يخالفوا ذلك علناً، أو العكس، وأن يقولوا للناس ما يقبلونه، ثمَّ يفعلون بخلاف ذلك.

إنَّ أولياء الله صادقون مع أنفسهم، لأنَّهم صادقون مع ربّهم، ولذلك فهم صادقون مع الناس، لا يملكون شيئاً يخفونه عن أحد. وهذا ما قاله الحسين: «مثلي لا يبايع سرّاً». فإذا كان يبايع في السرّ فلا مانع لديه أن يبايع في العلن، وإذا كان لا يبايع في السرّ فهو لا يبايع في العلن.

بالإضافة إلى أنَّ المطلوب من الحسين هو القيام بنهضة تصحيحيَّة، يعيد الاعتبار إلى جوهر الدِّين، بالإضافة إلى مظاهره التي أخذت تهتزّ في عهد يزيد، الذي كان يتظاهر بالفسوق والفجور إلى جنب إمامته للصلاة والتي أصبحت هي الأُخرى جزءاً من جلال السلطان، وليس من مظاهر الخشوع لله. فهو إذا كان يقيم الصلاة فلتأكيد سلطانه وإبراز أبهَّته وجلاله، وهو إذا كان يذهب إلى الحجّ فليس لإظهار العبوديَّة لله والخضوع والخشوع له، وإنَّما لكي يظهر جلاله هو، وأبهَّته هو، وسلطانه هو.

وكذلك الأمر فيما يرتبط بجوهر الدِّين الذي يأمر بالحفاظ على حقوق الناس، والعدل في الرعيَّة، ورفع الحيف عن المستضعفين، إلَّا أنَّ الوضع في عهد يزيد أخذ ينقلب رأساً على عقب، وحتَّى السيف الذي كان بأيدي السلطات، وهو سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي شهره في مواجهة الطغاة والظلمة من المشركين والكفَّار، هذا السيف

تحوَّل من الدفاع عن المظلومين إلى مواجهة المظلومين، ومظاهر الإيمان أصبحت ضدّ جوهر الإيمان.

ولأنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان ملتزماً بالطهر التزاماً مطلقاً، ولم يكن طالب سلطان، بل كان طالب حقّ، فإنَّه كان مستعدّاً لكي يموت دون هذا الحقّ، وكانت السلطة تعرف ذلك في الحسين، وتعرف أنَّه لن يساوم على مبادئه وقيمه، ولا يمكن أن يشتروه بأيِّ ثمن، وهو لن يتنازل عمَّا يؤمن به.

لقد كان الحسين يشعر في قرارة نفسه، بأنَّ الراية التي حملها الأنبياء على مرِّ التاريخ أصبحت في يده، وإنَّ المهمَّة التي أدَّاها الأنبياء لأُممهم أصبحت مهمَّته، وأنَّ الفرصة قد حانت لكي يعظ الأُمَّة بما وعظ به الأنبياء أُممهم، وأنَّ من واجبه أن يدخل مع قلَّة من قرابته وأصحابه في مواجهة إمبراطورية الشرّ التي كان على رأسها يزيد بن معاوية، ذلك الشاب المغرور، الذي لم يكن يرقب الله إلّاً ولا ذمَّة، منذ أن كان وليّاً للعهد وإلى يوم مات أبيه، حتَّى أنَّه لم يكن يهتم حتَّى بمجرَّد التظاهر بالعدل والابتعاد عن قتل الأبرياء في العلن. وكان الحسين عليه السلام يعرف أنَّ عليه أن يتحمَّل من العنت ما تحمَّل الأنبياء، وكان عارفاً أنَّ كل أنواع المصائب التي تعرَّض لها الأنبياء سوف يتعرَّض لها.

فإذا كان هنالك نبيّ قد هجّر في سبيل الله فإنَّ على الحسين أن يتحمَّل الهجرة في سبيل الله، وإذا كان نبيّ آخر قد تعرَّض للاتهام فإنَّ الحسين سيتعرَّض للاتهام أيضاً، وإذا كان هنالك نبيّ آخر قد تعرَّض لمحاولة القتل فإنَّ الحسين سيتعرَّض لمحاولة القتل، وإذا كان هنالك نبيّ قدَّم وَلَده شهيداً في سبيل الله فإنَّ على الحسين أن

يُقدِّم وُلده شهداء في سبيل الله، وإذا كان هنالك نبيّ تعرَّض أهله للأسر في سبيل الله، فإنَّ أهله سيتعرَّضون للأسر أيضاً.

❁

في مكَّة المكرَّمة التقى عبد الرحمن الصالح صاحبه عبد الله بن مسلم، حيث كانا يقومان بأداء العمرة، وكان الحديث قد انتشر عمَّا حدث بين الحسين وبين اثنين من أركان النظام، وأنَّ الحسين قد أعلنها بصراحة لا لبس فيها أنَّه لن يبايع يزيد بن معاوية، وأنَّ السلطة غاضبة عليه، لأنَّ رجالها يعلمون أنَّها إنَّما تعود إلى أهل الحقّ، وليس أهل الحقّ إلَّا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال عبد الرحمن لصاحبه: أترى أنَّ القضيَّة تنتهي إلى المواجهة؟

قال عبد الله: العلم عند الله، ولكن من المؤكَّد أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أخبر من قبل أنَّ الحسين مقتول، ولا أظنّه يقتل إلَّا على يد أبغض الخلق إلى الله، ذلك أنَّ التقابل بين الحقّ والباطل عادة ما يكون بتناسب الحقّ والباطل، فكلَّما كان صاحب الحقّ أعلى درجة، كان الذي يقابله أكثر انحطاطاً. ألا ترى أنَّ عليّ بن أبي طالب، وهو مَن هو، قتله رجل خامل الذِّكر، وهو عبد الرحمن بن ملجم، مدفوعاً بشهوة امرأة، في مقابل ألف دينار أخذه منها، لتنفيذ جريمته الخطيرة تلك؟

وألم تسمع ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما خرج عليّ عليه السلام لمواجهة عمر بن ودّ: «برز الإيمان كُلّه إلى الشِّرك كُلّه»(1)؟ فبمقدار

(1) بحار الأنوار: للمجلسي، ج20، ص215.

ما كان عليّ عليه السلام يُمثِّل الإيمان، كان عمرو بن ودّ يُمثِّل الكفر والشِّرك. ولا أشكّ في أنَّ يزيد بن معاوية مقدم على قتل الحسين.

قال عبد الرحمن: ألا يحسب الرجل حساباً لمقام الحسين عند الناس؟

فقال عبد الله: لو كان يحسب الرجل حساباً لمقام الحسين عند الله، لكنَّا نتوقَّع أن يحسب حساباً لمقامه عند الناس أيضاً. ثمَّ إنَّ يزيد يريد أن يكمِّل المهمَّة، مهمَّة تغيير مسار هذا الدِّين إلى الأبد، وتفريغه من محتواه، بالإضافة إلى أنَّه مغرور إلى أبعد الحدود.

ألا ترى كيف أنَّه يطلب في رسالته الأُولى إلى الوليد بن عتبة بأخذ البيعة من الحسين، فإن أبى فإنَّ عليه أن يضرب عنقه؟

قال عبد الرحمن: من جهته ألا تظنّ أنَّ الحسين سيتجنَّب المواجهة، حتى لا يُقتل على يد يزيد؟

قال عبد الله: الحسين مشروع شهادة، وقد بشّر الأنبياء أوصيائهم بشهادته، وبشّر بها النبيّ أهل بيته.

قال عبد الرحمن: ومتى حدث ذلك؟

قال عبد الله بن مسلم: عندما بكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ولادة الحسين، ولمَّا سُئل عن ذلك قال: «**إنَّ ولدي هذا مقتول مخذول**».

ثمَّ رفع يديه بالدُّعاء قائلاً: «**اللَّهمَّ بارك له في مقتله، واجعله من سادات الشُّهداء، ولا تبارك في قاتله وخاذله**»[1].

(1) مقتل الحسين، للشيخ جعفر الشوشتري، ص. 51

فقال عبد الرحمن: إذا كان الأمر كذلك، وإنَّك ترى أنَّ يزيد سيقدم على قتل الحسين لا محالة، فلماذا لم يحدث ذلك منذ البداية، وأقصد لماذا لم تقدم السلطة على قتله حتى الآن؟

قال عبد الله بن مسلم: بسببين، الأوَّل أنَّ الوليد بن عتبة كان متردِّداً في تنفيذ أمر يزيد منذ بداية البدايات، خاصَّة وأنَّ بعض من كان معه لم يكن رأيهم أن يُمسّ الحسين بسوء، بما في ذلك زوجته أسماء بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. فلقد عاتبته على التلاسن الذي وقع بينه وبين الحسين، وقالت له: أسببت حسيناً؟

فقال الوليد: هو بدأ فسبَّني.

قال عبد الرحمن: وهل أنَّ الحسين سبَّ الوليد؟

قال عبد الله: لا، ولكن حينما أوصى مروان بن الحكم الوليد بأن يُضرب عنق الحسين إن لم يبايع، قال الحسين: «يابن الزرقاء، أأنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله، وأثمت».

قال عبد الرحمن: وماذا كان جواب زوجة الوليد له؟

قال عبد الله: إنَّها قالت: وإن سبَّك الحسين، أتسبّه؟ وإن سبَّ أباك، أتسبّ أباه؟[1].

قال عبد الرحمن: وما هو السبب الثاني؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّهم انشغلوا بعبد الله بن الزبير، فإنَّهم كانوا يخشون عبد الله بن الزبير أكثر ممَّا يخشون الحسين عليه السلام، من حيث أنَّ الرجل كان شبيهاً لهم، فلم يكن لديه أي مانع أن يخادع

---

(1) مختصر ابن منظور، ج7، ص138.

الجماعة، وحتَّى أن يقوم بعمليَّات الاغتيال كما يفعلون، وأن يساوم بعض الولاة هنا وهناك، فاهتموا به، وانشغلوا بذلك عن الحسين، حتَّى أنَّ الوليد وجَّه عدَّة رسل إلى عبد الله بن الزبير يطلبه إلى قصر الإمارة.

ففي الليلة التي ذهب فيها الحسين إليه، رفض عبد الله بن الزبير أن يذهب، وإنَّما بقي في داره، وكان كلَّما جاء رسول الوليد إليه، يقول: لا تعجِّلوا فإنِّي آتيكم. حتَّى أنَّ الوليد وجَّه موالي له، فشتموه وقالوا: يابن الكاهليَّة، إن أتيت الأمير، وإلَّا قتلناك.

فجعل يقول: الآن أجيء، والآن أجيء.

ثمَّ أرسل أخاه جعفر بن الزبير إلى الوليد ليقول له: «كفّ رحمك الله، عن عبد الله، فقد أفزعته وذعرته بكثرة رسلك، وهو سيأتيك غداً إن شاء الله».

فصرف الوليد رسله عنه، وهكذا خادعهم عبد الله بن الزبير، وخرج من المدينة في ليلة السبت لثلاث ليال بقين من رجب، سنة ستّين للهجرة، وأخذ الطرق الفرعيَّة ومعه أخوه، وتجنَّبا الطريق الأعظم. فلمَّا أصبح الوليد طلبه، فلم يجده. فقال له مروان: أظنُّ أنَّه توجَّه إلى مكَّة. فوجَّه الوليد في طلبه حبيب بن كوين في ثلاثين فارساً من موالي بني أُميَّة، ولكنَّهم لم يجدوه في الطريق، لأنَّه لم يكن يسلك الطريق العام، وتشاغلوا عن الحسين بطلب ابن الزبير(1).

قال عبد الرحمن: وماذا عن نهاية أمر الحسين والوليد بن عتبة؟

(1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج5، ص314 و315.

قال عبد الله: إنَّ الوليد كتب إلى يزيد بن معاوية يخبره بما كان من أمر أهل المدينة، وما حدث مع عبد الله بن الزبير. ثمَّ ذكر له بعد ذلك أمر الحسين عليه السلام وقال في رسالته: إنَّ الحسين ليس يرى لنا عليه طاعة ولا بيعة.

فلمَّا ورد الكتاب على يزيد غضب لذلك غضباً شديداً، وكان إذا غضب انقلبت عيناه، فعاد أحول. فكتب إلى الوليد رسالة يقول له فيها: «من عبد الله يزيد أمير المؤمنين، إلى الوليد بن عتبة، أمَّا بعد، فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة ثانية على أهل المدينة، توكيداً منك عليهم، وذرْ عبد الله بن الزبير فإنَّه لن يفوتنا، ولن ينجو منَّا أبداً ما دمنا أحياء، وليكن مع جواب كتابي هذا رأس الحسين بن عليّ، فإن فعلت ذلك جعلت لك أعنَّة الخيل، ولك عندي الحظ الأوفر، والجائزة العظمى، والسَّلام»(1).

فقال عبد الرحمن: ولماذا لم ينفّذ الوليد أمر يزيد هذا، مع شدَّة صرامته وصراحته؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ الوليد بن عتبة لم يكن يرى نفسه أقلّ من يزيد مقاماً وشأناً في بني أُميَّة، كما أنَّ الرجل لم يكن يرى أيّ داع لقتل الحسين ما دام أنَّه رفض البيعة فقط، ولم يقم بعد بأي عمل آخر، ويبدو أنَّ بقايا ضميره منعته من تنفيذ ذلك. فقد علَّق على رسالة يزيد قائلاً: «واللَّهِ لا يراني الله، وأنا قاتل الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو جعل لي يزيد الدُّنيا وما فيها»(2).

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص168؛ والتفوح، لابن أعثم، ج5، ص26.
(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص186.

قال عبد الرحمن الصالح: كيف تقول إنَّ السلطة انشغلت بعبد الله بن الزبير عن الحسين، ما دام أنَّ الرجل قد فلت من أيديهم وذهب إلى مكَّة؟

قال عبد الله بن مسلم: كان لعبد الله بن الزبير الكثير ممَّن هواهم معه من أهل المدينة، فانشغل الوليد بتعقّبهم وسجنهم، وكان فيمن حبسهم يومئذٍ ابن عمّ لعمر بن الخطَّاب يُقال له عبد الله بن مطيع العدوي، وحبس أيضاً مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، وغيرهما كثير، حتَّى أنَّ رجالاً من بني عدي ذهبوا إلى عبد الله بن عمر، ووسَّطوه لخلاص صاحبهم.

ويُقال إنَّ بعضهم هدَّد بالقتال من أجل خلاص عبد الله بن مطيع، وقالوا لعبد الله بن عمر: إنَّ صاحبنا عبد الله بن مطيع قد حُبس مظلوماً لا ذنب له، والله لتخرجنَّه أو لنموتنَّ من دونه.

فقال لهم عبد الله بن عمر: لا تعجّلوا بالفتنة ولا تسارعوا إليها. ثمَّ أرسل إلى مروان بن الحكم، فدعاه إليه، وطالبه بالكفّ عن عبد الله بن مطيع وإخلاء سبيله. وكان فيما قاله لمروان: «إنَّا لا نعلم أنَّ لكم على صاحبنا سبيل، ولا حقّ تحبسونه به، فإن زعمتم أنَّكم إنَّما حبستموه بالحقّ فافعلوا ذلك، وإن كنتم إنَّما حبستموه على الظن، فإنَّا لا ندع صاحبنا يُحبس مظلوماً».

فقال مروان: إنَّما نحن حبسناه بأمر أمير المؤمنين يزيد، وعليكم أن تكتبوا في ذلك إليه، ونحن نكتب أيضاً، فإنَّه لا يكون إلَّا ما تحبّون.

ولم يصبر بنو عدي حتَّى يكتبوا إلى يزيد ويأتي الجواب،

وإنَّما اقتحموا السجن وأخرجوا صاحبهم، وأخرجوا كلّ من كان معه[1].

فمثل هذه المواجهات الصغيرة، والتوتّرات شغلت السلطة عن تعقُّب الحسين عليه السلام.

قال عبد الرحمن: أخبرني يا عبد الله ما الذي فعل الحسين بعد تلك اللَّيلة؟

قال عبد الله: إنَّ الحسين أصبح من غده، فخرج من بيته، فإذا هو بمروان بن الحكم يعترضه في طريقه، فقال مروان: أبا عبد الله؛ إنِّي لك ناصح، فأطعني ترشد وتسدَّد.

فقال الحسين: ما ذلك، قل حتَّى أسمع؟

فقال مروان: أقول إنِّي أرشدك ببيعة يزيد، فإنَّها خير لك في دينك وفي دُنياك.

فاسترجع الحسين قائلاً: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.. وعلى الإسلام السَّلام إذا بُليت الأُمَّة براعٍ مثل يزيد».

ثمَّ قال: «يا مروان؛ أترشدني لبيعة يزيد وهو رجل فاسق؟ لقد قلت شططاً من القول وزللاً، ولا ألومك، فإنَّ من لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينكر من أن يدعو لبيعة يزيد».

وأضاف: «إليك عنِّي يا مروان، فإنَّا أهل بيت رسول الله، والحقّ فينا، وينطق على ألستنا، وقد سمعت جدِّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: الخلافة محرَّمة على آل أبي سفيان، الطلقاء وأبناء

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص21 و23.

الطلقاء، فإذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه. ولقد رآه أهل المدينة على منبر رسول الله، فلم يفعلوا به ما أمروا به، فابتلاهم الله بابنه يزيد».

فغضب مروان من كلام الحسين وقال: لتبايعنَّ يزيد بن معاوية صاغراً.

فقال الحسين: إليك عنِّي، فإنَّا من أهل بيت الطهارة، قد أنزل الله فينا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[1].

فنكَّس مروان رأسه ولم ينطق.

فقال الحسين وهو يبتعد عنه: «أبشر يا مروان بكلّ ما تكره من رسول الله يوم تقدم على ربّك، فيسألك جدِّي عن حقِّي وحقّ يزيد».

فمضى الرجل مغضباً إلى الوليد وأخبره بما قاله الحسين[2].

❋

قال عبد الرحمن الصالح: في نظرك يا عبد الله، هل تعرف كيف يرى الحسين نهاية أمره معهم؟

فقال عبد الله: لا أشكّ أنَّه يعرف أنَّه مقتول، وأنَّه قربان الله في هذه الأرض، وأنَّه المعني بقوله تعالى في قصَّة إسماعيل: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾[3]. فحاشى لله أن يُسمِّي كبشاً بصفة العظيم،

(1) سورة الأحزاب، آية 33.
(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص185.
(3) سورة الصافَّات، آية 107.

فإذا كان إبراهيم الخليل، رأى في منامه بأنَّه يذبح ولده إسماعيل، ولكن امتنع عليه السكّين فلم يُذبح، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو سيِّد الأنبياء وخاتم الرُّسل هو الذي سيقدِّم القربان.

قال عبد الرحمن: وهل أنَّ الحسين يصرِّح لأحد بمثل ذلك؟

قال عبد الله: إنَّ أهل البيت جميعاً يعرفون ما أقول، أمَّا الحسين نفسه فنعم، إنَّه يتحدَّث عن شهادته، بل أحياناً يُبيِّن أين يكون مصرعه.

قال عبد الرحمن: لمن تحدَّث؟

قال عبد الله: لقد تحدَّث أخوه من أبيه عمر بن عليّ بن أبي طالب، فقال: إنَّ الحسين لمَّا امتنع عن البيعة ليزيد بالمدينة دخلت عليه، فوجدته خالياً؛ أي وحده، فقلت له: جعلت فداك يا أبا عبد الله، حدَّثني أخوك أبو محمَّد الحسن عن أبيه.. ثمَّ سبقتني الدَّمعة وعلا شهيقي.

فضمَّني إليه وقال: أعرف، حدَّثك أنِّي مقتول.

فقلت: حوشيت يابن رسول الله.

فقال: سألتك بحقِّ أبيك أبقتلي خبَّرك؟

فقلت: نعم، وطلبت منه أن يبايع.

فقال الحسين: حدَّثني أبي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبره بقتله وقتلي، وأنَّ تربته ـ أي تربة الإمام عليّ ـ تكون بقرب تربتي، أتظن أنَّك علمت ما لم أعلمه؟

ثمَّ قال: وإنِّي لا أعطي الدنيَّة من نفسي أبداً، ولتلقينَّ

فاطمة عليها السلام أباها شاكية ممَّا لقيت ذرِّيتها من أُمَّته، ولا يدخل الجنَّة من آذاها في ذرِّيتها[1].

هنا تأوَّه عبد الرحمن الصالح، وقال: آسى لما آل إليه أمر هذه الأُمَّة، فمثل الحسين بن عليّ ابن فاطمة سبط رسول الله يُضيَّق عليه ويُطالب بالبيعة لمثل يزيد، ولكن ما دامت القضيَّة محسومة سلفاً بالنسبة إلى الحسين، فهل هذا يعني أنَّه سوف يخوض مواجهة لا هوادة فيها مع شرطة بني أُميَّة في المدينة، أو في أيِّ مكان حتَّى يتمّ قتله؟

قال عبد الله بن مسلم: لا، ليس الأمر كماتظن، فالحسين لن يُعين أحداً على نفسه، فهو قربان الله الذي سيُقتل، ولكن بالطريقة التي يختارها الله له، وليس كما يريد بنو أُميَّة، خاصَّة وأنَّ المقصود ليس هو أن يُعلَّق رأس الحسين على الرمح لكي يفتدي ذنوب العباد، كما يعتقد النصارى في المسيح. فما يريده الحسين هو إخراج العباد من حيرة الضلالة، وإنقاذ الدِّين من الذين يريدون تحويله من دين الله إلى دين الحاكمين، ومن شريعة سيِّد المرسلين إلى شريعة الطغاة الفاسدين. وأعتقد أنَّ قتل الحسين سيكون هو الزلزال العظيم الذي يهزُّ، ليس فقط هذه الأُمَّة، وإنَّما تاريخ البشرية جميعاً.

فالحسين سيكون بما يقدم عليه حجَّة الله العظمى على الناس جميعاً في كلّ زمان ومكان، فيومه سيكون يوماً مشهوداً، وهذا ما قاله أخو الحسن له: «لا يوم كيومك يا أبا عبد الله»[2].

---

(1) اللهوف، لابن طاوس، ص26 و27؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص148.
(2) الأمالي، للصدوق، ص177.

وهذا أمر طبيعي، فالله عزَّ وجلَّ يقف مع عباده الذين يقفون معه، ولما كان الحسين مع الله، كان الله معه.

وإذا كان ربّنا قد تحدَّث عن أصحاب الأخدود، والشُّهداء الذين قُتلوا حرقاً لأنَّهم رفضوا الكفر بالله، وهم مؤمنون مثل بقيَّة المؤمنين، فكيف بالنسبة إلى سيِّد شباب أهل الجنَّة، وسبط رسول الله، وابن عليّ وفاطمة، وأخ الحسن؟

قال عبد الرحمن الصالح: أتقصد أنَّ ما أنزله الله في سورة البروج، حيث يقول: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۞ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۞ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۞ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۞ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۞ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]. هذا أيضاً ينطبق على الحسين وعلى أعدائه؟

قال عبد الله: هو كذلك، فالقوم سيقتلون حسيناً، ولكن الله حينئذٍ سوف يفي بوعده الذي ذكره في هذه السورة، حيث قال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[2]. ففراعنة هذه الأُمَّة سيجدون ما وجده أسلافهم من قبل. فالله هو الله، وليست له قرابة مع أحد، وسُنَّته لا تبديل فيها ولا تحويل، من يعمل سوءاً يُجز به ومن يرتكب جريمة يؤخذ بها ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[3].

---

(1) سورة البروج، الآيات 1 ـ 9.

(2) سورة البروج، آية 12.

(3) سورة الفجر، آية 14.

قرار الهجرة من المدينة

قرَّر الحسين عليه السلام أن يخرج من المدينة المنوَّرة إلى مكَّة المكرَّمة، ولكنَّه قبل ذلك استخار الله في أمره، فأتى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فصلَّى ركعتي صلاة.

فلمَّا فرغ منهما رفع يديه بالدُّعاء قائلاً: «اللَّهمَّ إنَّ هذا قبر نبيّك محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا ابن بنت نبيّك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللَّهمَّ وإنِّي أحبّ المعروف، وأكره المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحقِّ هذا القبر ومن فيه، إلَّا ما اخترت لي من أمري هذا ما هو لك رضى، ولرسولك رضى».

ثمَّ جعل يدعو ويبكي، حتَّى إذا كان قريباً من الصبح وضع رأسه على القبر فأغفى، فإذا به يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أقبل في كتيبة من الملائكة عن يمينه وشماله وبين يديه، فجاء حتَّى ضمَّ الحسين إلى صدره وقبَّل بين عينيه وقال له: «يا بُنيَّ، كأنِّي أراك عن قريب مرمَّلاً بدمائك، مذبوحاً بأرض كرب وبلاء، بين عصابة من أُمَّتي، وأنت في ذلك عطشان لا تُسقى، وظمآن لا تُروى، وهم في ذلك يبغون شفاعتي، ما لهم، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة».

ثمَّ قال: «**حبيبي يا حسين، إنَّ أباك وأُمّك وأخاك قد قدموا عليَّ، وهم إليك مشتاقون**».

فقال الحسين: يا جدَّاه، لا حاجة لي في الرجوع إلى الدُّنيا، فخذني إليك واجعلني معك في منزلك.

فقال له النبيّ ﷺ: «**إنَّ لك في الجنَّة درجات لا تنالها إلَّا بالشهادة، وما كتب الله لك من الثواب العظيم، فإنَّك وأباك وأخاك وعمّك وعمّ أبيك تُحشرون في زمرة واحدة حتَّى تدخلوا الجنَّة**»[1].

فانتبه الحسين عليه السلام من نومه، ورجع إلى منزله وجمع أهل بيته، فقصَّ عليهم رؤياه، فلم يكن في ذلك اليوم، في مشرق ولا مغرب، قومٌ أشدّ غمّاً من أهل بيت رسول الله، ولا أكثر باكٍ ولا باكية منهم[2].

وبهذه الرؤيا، اكتملت الصورة. فكما أنَّ إبراهيم الخليل رأى في المنام أنَّه يذبح ولده إسماعيل، واعتبر ذلك أمراً ربَّانياً له بالذبح، فإنَّ الحسين رأى رسول الله في عالم الغيب، وقد تلقَّى منه الأمر بما يجب عليه أن يفعل، كما تلقى البشارة بأنَّه ذبيح الله في هذه الأرض، ولم يكن إخباره لأهل بيته إلَّا ليهيأهم لما هو مُقدم عليه، وما سيحدث بالنسبة إليه، وإليهم.

❋

كان عبد الرحمن يريد معرفة تفاصيل ما يجري للحسين، ولأنَّ عبد الله بن مسلم كان من الموالين لأهل البيت، المدافعين عنهم، فإنَّ عبد الرحمن كان يسأله عن أخبار الحسين وأهل البيت، كما أنَّ

---

(1) الفتوح، لابن الأعثم، ج5، ص25 ـ 29؛ والأمالي، للصدوق، ص152؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص187.
(2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج44، ص327.

عبد الله بن مسلم كان يسأل عبد الرحمن عن أخبار الجبهة الأُخرى وهي جماعة يزيد بن معاوية باعتباره مقيماً في المدينة، وله ارتباط برجال الدولة.

فقال عبد الرحمن: ما الذي جرى خلال الفترة الماضية؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ أخبار ليلة القطيعة بين الحسين وبين السلطة الأموية انتشرت بسرعة في أوساط الناس، ذلك أنَّ موت معاوية كان متوقَّعاً خلال الفترة الماضية نظراً لكبر سنّه، كما أنَّ خلافة يزيد من بعده كانت محسومة سلفاً، وكما ذكرت لك فإنَّ الدولة كُلّها كانت مشغولة خلال السنوات السبع قبل رحيل معاوية بتثبيت سلطة يزيد. ومن هنا فإنَّ الأنظار كانت تتجه نحو موقف أهل البيت، خاصة مع رفض الحسين البيعة، وكلامه الصريح بأنَّ يزيد لا يصلح بأية حال للخلافة، وأصبح الأمر في نظر الناس للحسين، ليس فقط لأنَّ ذلك كان بنداً من بنود الصلح بين معاوية والإمام الحسن، بل لاختلاف شخصيَّته عن شخصيَّة خصمه، وحرص الحسين على الحفاظ على هذا الدِّين، والدفاع عن حقوق الناس.

من جانبها فإنَّ السلطة الأمويَّة كانت تريد إجبار الحسين على البيعة، أو القضاء عليه إذا امتنع، وبما أنَّ الحسين كان يعرف هذا القرار المتخذ من قبلهم فإنَّه كان حريصاً على أن لا يتمّ قتله بشكل يضيع به دمه، فهو يعرف قيمة هذا الدم، كما أنَّ هدفه لم يكن التنافس على سلطان، بل الحفاظ على الدِّين.

وهكذا فإنَّ الحسين ويزيد اختلفا، ولكن ليس على أمر واحد؛ فمورد النزاع لم يكن واحداً، بل كان على هدفين مختلفين. فالحسين يريد الآخرة ويزيد يريد الدُّنيا، والحسين يريد الحفاظ على الدِّين،

ويزيد يريد الحفاظ على السلطة. وهذا ظاهر من طريقة الرجلين في اتخاذ المواقف، ومن كلامهما أيضاً.

قال عبد الرحمن: ما دام الاختلاف كان على أمرين مختلفين، فلماذا يقع الصِدام بينهما؟

فقال عبد الله: إنَّ السلطة التي تتحدَّث باسم الدِّين، وتستمد شرعيتها من خلافة رسول الله ﷺ يمكن أن تصبح نموذجاً يقتدى به الناس ويتبعونه باعتباره دين الله، وليس باعتباره سلطة زمنية، وهذا ما حدث بعد رسول الله ﷺ. فالنبيّ كان يشرِّع بناءً على ما كان يوحى إليه، وليس باعتباره نجح في تأسيس سلطة وإقامة دولة. أمَّا بعد رسول الله ﷺ فكلّ من أصبح خليفة، صار مقدَّساً في نظر كثيرين، وأصبح ما يفعله شرعاً وديناً، وأخذ الناس يتبعونه باعتباره وسيلة للتقرُّب إلى الله.

قال عبد الرحمن: هل لك أن تضرب مثالاً على ذلك؟

قال عبد الله: خذ صلاة التراويح التي شرَّعها الخليفة الثاني، والتي قال عنها: نعمتِ البدعة هذه[1]. كيف أصبحت شريعة مقدَّسة، مع أنَّها ليست سُنَّة نبويَّة، والبدعة محرَّمة في الدِّين بنصّ كلام النبيّ ﷺ، وبنصوص الآيات القرآنية الكريمة، وحينما أراد الإمام عليّ عليه السلام أن يحذف هذه البدعة، خرجت مظاهرة تقول: وآسنَّة عمراه.

وهناك أُمور كثيرة اختلفت فيها طريقة رسول الله، مع طريقة

(1) النهاية، ج1، ص106.

الخلفاء، لكن طريقة الخلفاء هي التي غلبت على طريقة النبيّ، واعتبره بعض المسلمين ديناً يُدان به.

من هنا تجد أنَّ كثيراً من القضاة أخذوا يستشهدون بما فعله الحاكمون من الخلفاء؛ أي بصفتهم حاكمين على الأُمَّة، كأنَّ للحكَّام الحق في تشريع الأحكام وابتداع واجبات دينية، وتحليل الحرام وتحريم الحلال، وكأنَّ كل من جلس على كرسي الحكم فهو وليّ الله، بحيث إنَّ غير هؤلاء لو كان هو الذي يحكم لكانت القدسيَّة قد انتقلت إليه. وهذا أمر لم ينزل الله به من سلطان.

فإذا كانت تصرُّفات الحاكم هي التي تُحدِّد الشريعة، وليست القيم والمبادىء والمثُل والأحكام التي جاء بها الأنبياء، فلابُدَّ من قراءة الفاتحة على الدِّين كلّه.

ثمَّ إنَّ يزيد ليس ملتزماً بالدِّين لا واقعاً ولا ظاهراً، ويقوم بأعمال مخالفة لصريح الدِّين، والخطورة هنا أن تصبح تصرُّفاته شريعة مقدَّسة، فيضل الناس في هذه الحياة باتباعهم له، واعتقادهم بأنَّه يمثِّل الدِّين.

وهكذا فإنَّ هدف الحسين عليه السلام الأساسي هو أن يفصل بين الأمرين، حتى يعرف الناس أنَّ الحاكم، مع قطع النظر عن ادعاءاته، ليس فقط لا يمثِّل الدِّين إذا خالف المبادىء والقيم والمثُل التي جاء بها الدِّين، وإنَّما قد يمثِّل الكفر، ويكون الرشد في خلافه.

أليس أوَّل ما يصدع به الدِّين هو أنَّ على الناس أن يتبعوا أولياء الله، وليس الحكَّام؟

فلا قيمة عند ربّ العالمين لموقع السلطة باعتباره سلطة، وإلَّا كان لابُدَّ من تقديس فرعون، وهامان، ومن هم على شاكلتهم.

قال عبد الرحمن: تريد أن تقول إنَّ علينا أن لا ننظر إلى الحاكم باعتباره شخصاً مقدَّساً، بل أن نحاكمه إذا خالف مبادىء العدل والحقّ والإيمان، ومن ثمَّ فليست سيرته شريعة مقدَّسة حتى يكون على الناس اتباعها؟

قال عبد الله: تماماً؛ وأريد إضافة شيء آخر، وهو أنَّ سلوك الرجلين يدلُّ على أنَّهما سبيلان مختلفان، هدفاً، وطريقةً، وأخلاقاً. إنَّ الحسين عليه السلام يمثِّل كلّ الفضائل، بينما يزيد يُمثِّل كلّ الرذائل، وأوَّلها الخيانة.

قال عبد الرحمن: خيانة مَن؟

قال عبد الله بن مسلم: خيانة الأُمَّة، وهي أعظم وأخطر أنواع الخيانات.

قال عبد الرحمن: ماذا عن الوفاء عند الحسين؟ ما هي مظاهره؟

قال عبد الله: الحسين أساساً وليٌّ من أولياء الله، فمواقفه وأعماله عين القيم والمثُل، فإذا كنت تريد أن ترى الوفاء يمشي على قدمين فانظر إلى الحسين، وإذا كنت تريد أن تنظر إلى الشجاعة، والإيمان، والصدق، والصفاء، والإخلاص، والعدل، والإحسان، والعبادة، والخضوع والخشوع لله، والتواضع للناس فانظر إلى الحسين.

❋

قال عبد الرحمن: أخبرني، ما هي تفاصيل خروج الحسين من المدينة؟

قال عبد الله: حينما عزم الحسين على الخروج من المدينة إلى مكَّة مضى في جوف اللَّيل، إلى قبر أُمّه، فصلَّى عند قبرها وودَّعها. ثمَّ قام من قبرها وصار إلى قبر أخيه الحسن، ففعل مثل ذلك، ثمَّ رجع إلى منزله وقت الصبح(1).

قال عبد الرحمن: لماذا قرَّر الحسين عليه السلام الهجرة إلى مكَّة وليس إلى أيّ مكان آخر؟

قال عبد الله: الأسباب كثيرة، منها أنَّ مكَّة هي مدينة الحسين، ففيها ولد كلّ من جدّه، وأبيه، وأُمّه، وفيها بيت الله الحرام، الذي من دخله كان آمناً، بالإضافة إلى أنَّ مكَّة ملتقى القوافل ومجمع الرجال، كما أنَّ أقرب الناس إلى الإمام أوصاه بأن يذهب إلى مكَّة.

قال عبد الرحمن الصالح: ومَن تقصد؟

قال عبد الله: محمَّد ابن الحنفيَّة. فقد جاء إلى الحسين وقال:

«يا أخي، أنت أحبّ الناس إليَّ وأعزّهم عليَّ، ولست أدَّخر نصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك، تنحَّ بتبعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأنصار ما استطعت، ثمَّ ابعث رسلك إلى الناس، فادعوهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا

---

(1) العوالم، للبحراني، ج17، ص178؛ والنفس المهموم، للقمِّي، ص73؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص187.

يذهب به مروئتك ولا فضلك. إنِّي أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك وأُخرى عليك فيقتتلون، فتكون أنت لأوَّل الأسنَّة، فإذا خير هذه الأُمَّة كُلّها، نفساً وأباً وأُمّاً، أضيعها دماً، وأذلّها أهلاً[1].

فقال له الحسين: إلى أين أذهب يا أخي؟

قال محمَّد ابن الحنفيَّة: «أخرج إلى مكَّة، فإن اطمأنت بك الدار فذاك الذي تحبّ، وإن تكن الأُخرى خرجت إلى ما تريد، مثل بلاد اليمن، فإنَّهم أنصار جدّك وأخيك وأبيك، وهم أوسع الناس بلاداً وأرجحهم عقلاً، وإلَّا لحقت بالرمال وشعوب الجبال، وصرت من بلد إلى بلد لتنظر ما يؤول إليه أمر الناس، ويحكم الله بينك وبين القوم الفاسقين».

فقال له الحسين عليه السلام: «يا أخي، والله لو لم يكن في الدُّنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية أبداً، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللَّهمَّ لا تبارك في يزيد**». فجزاك الله عنِّي خيراً، ولقد نصحتَ وأشرتَ بالصواب، وأنا أرجو أن يكون رأيك موفَّقاً مسدَّداً، وإنِّي قد عزمت على الخروج إلى مكَّة، وقد تهيَّأت لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي».

ثمَّ دعا الحسين عليه السلام بدواة وبياض وكتب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن عليّ بن أبي طالب أخاه محمَّد المعروف بابن الحنفيَّة، ولد عليّ بن أبي طالب، أنَّ الحسين بن عليّ يشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنَّ

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص341.

محمَّداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ من عنده، وأنَّ الجنَّة حقّ والنار حقّ، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور».

«ألا وإنِّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا ظالماً، ولا مفسداً، وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمَّة جدِّي محمَّد، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدِّي محمَّد وسيرة أبي علي بن أبي طالب. فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر حتَّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين.

«هذه هي وصيَّتي إليك يا أخي، وما توفيقي إلَّا بالله، عليه توكَّلت وإليه أنيب، والسَّلام عليك وعلى من اتبع الهدى، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليّ العظيم».

ثمَّ طوى الكتاب وختمه بخاتمه ودفعه إليه، ثمَّ ودَّعه[1].

❋

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ الحسين ـ كما قلت ـ كان مثالاً للوفاء والمروءة والرجولة والشجاعة. فهو لا يخرج من مدينة رسول الله إلَّا بعد أن يودع قراباته الأحياء والأموات معاً، كما أنَّه لا يفعل ما فعله عبد الله بن الزبير، حيث سلك الطريق الملتوي من المدينة باتجاه مكَّة.

فلقد شوهد الحسين يمشي بين رجلين ويدخل مسجد رسول الله وهو يتمثَّل بقول الشاعر يزيد بن مفزع الحميري:

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص29 و34؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص189.

لا ذعرتُ السوَّام في فلق الصبح مغيراً ولا دعيتُ يزيدا
يوم أعطى مخافة الموت ضيماً والمنايا يرصدنني أن أحيدا[١]

فعرف كلّ من سمع هذا الكلام منه أنَّه لن يعط الدنيَّة من نفسه، لا تحت التهديد بالموت، ولا تحت ضغط الترغيب بالمال والجاه.

قال عبد الرحمن الصالح: أريد أن أسألك عن شيء سمعته، وهو أنَّ أُمّ سلمة قد علمت بمقتل الحسين من رسول الله، فهل هذا صحيح؟

قال عبد الله بن مسلم: هو كذلك، فقد قالت أُمّ سلمة: «دخلت على النبيّ ذات يوم وعيناه تفيضان، فقلت له: يا نبيّ الله، هل أغضبك أحد»؟

قال: لا.

قلت: ما شأن عينيك تفيضان؟

فقال النبيّ ﷺ: «**لقد قام من عندي جبرائيل قبل أمد، فحدَّثني أنَّ الحسين يُقتل بشطِّ الفرات**».

ثمَّ قال ﷺ: «هل لكِ أن أشمكِ من تربته»؟

فقلت: نعم.

فمدَّ النبيّ ﷺ يده، فقبض قبضة من تراب، فأعطاها لي، فلم تملك عيناي أن فاضتا[2].

---

(1) شرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج3، ص144

(2) مسند أحمد بن حنبل، ص85.

وأضاف عبد الله قائلاً: لمَّا عزم الحسين عليه السلام على الخروج من المدينة أتته أُمّ سلمة، فقالت: «يا بُنيَّ؛ لا تحزنِّي بخروجك إلى العراق، فإنِّي سمعت جدّك يقول: يُقتل ولدي الحسين بأرض العراق، في أرض يُقال لها كربلاء».

فقال لها الحسين عليه السلام: «يا أُمَّاه؛ وأنا واللَّهِ أعلم بذلك، وإنِّي مقتول لا محالة، وليس لي من هذا بدّ، وإنِّي لأعرف اليوم الذي أُقتل فيه، وأعرف من يقتلني، وأعرف البقعة التي أُدفن فيها، وإنِّي أعرف من يُقتل من أهل بيتي وقرابتي وشيعتي، وإن أردتِ يا أُمَّاه أريتكِ حفرتي ومضجعي».

ثمَّ أشار إلى جهة كربلاء، فانخفضت الأرض حتَّى أراها مضجعه ومدفنه وموضع عسكره وموقفه ومشهده. فبكت أُمّ سلمة بكاءً شديداً وسلَّمت أمرها إلى الله. فقال لها الحسين عليه السلام: «يا أُمَّاه؛ قد شاء الله عزَّ وجلَّ أن يراني مقتولاً مذبوحاً، ظلماً وعدواناً، وشاء أن يرى حرمي ورهطي ونسائي مشرَّدين، وأطفالي مذبوحين مظلومين مأسورين مقيَّدين، وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً ولا معيناً».

ثمَّ أخذ تربة فجعلها في قارورة وأعطاها إيَّاها وقال: اجعليها مع قارورة جدِّي، فإذا فاضتا دماً فاعلمي أنِّي قد قُتلت»[1].

وهكذا فإنَّ الحسين عليه السلام كان يعلم أنَّه قربان أهل البيت العظيم في هذه الأرض، وذبيح الله الأعظم في السَّماء، ولا محيص عن يوم

(1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج44، ص331 و332؛ العوالم، للبحراني، ج17، ص181؛ لواعج الأشجان، للأمين، ص31.

خطّ بالقلم، وكان يعلم أنَّ هجرته من المدينة إلى مكَّة لا عودة فيها، ومن هنا فقد أخبر نساء بني عبد المطَّلب بخروجه إلى هناك، فاجتمعن عنده وأخذن بالنياحة عليه، فقال لهنَّ: أنشدكنَّ الله أن لا تبدين في هذا الأمر معصية لله ولرسوله.

فقالت نساء بني عبد المطَّلب: «فلمن نستبقي النياحة والبكاء، فهذا اليوم عندنا كيوم مات فيه رسول الله ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن وزينب وأُمّ كلثوم، فننشدك الله، جعلنا الله فداك، من الموت يا حبيب الأبرار».

فأقبلت إليه أُمّ هاني عمَّة الحسين ـ وكانت كبيرة السّن ـ فلمَّا رآها قال: يا عمَّة؛ ما الذي جاء بكِ، وأنتِ على هذه الحالة؟

فقالت: وكيف لا آتي، ولقد بلغني أنَّ كفيل الأرامل ذاهب عنِّي؟

ثمَّ إنَّها انتحبت باكية وتمثَّلت بأبيات أبيها أبي طالب في حقّ النبيّ ﷺ:

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهِهِ ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ
تطوفُ به الأفلاكُ من آل هاشمٍ فهم عنده في نعمةٍ وفواضلِ

ثمَّ قالت: سيِّدي؛ لقد سمعت البارحة هاتفاً يقول:

وإنَّ قتيلَ الطَّفِّ من آل هاشم أذلَّ رقاباً من قريش فذَّلتِ
حبيبُ رسول اللّه لم يك فاحشاً أبانت رزاياه الأنوف وجلَّتِ

فقال لها الحسين: «يا عمَّة؛ لا تقولي من قريش، ولكن قولي: أذلَّ رقاب المسلمين فذلَّتِ».

«يا عمَّة؛ كل الذي مقدَّر فهو كائن لا محالة».

وأضاف:

وما هم بقومٍ يغلبون ابن غالبٍ ولكنْ بعلم الغيبِ قد قُدِّر الأمرُ

فخرجت أُمّ هاني من عنده باكية وهي تقول:

وما أُمّ هاني وحدها ساء حالها خروجُ حسينٍ عن مدينة جدِّهِ
ولكنَّما القبرُ الشريفُ ومن به ومنبرهُ يبكون من أجلِ فقدِهِ[١]

❁

خرج الحسين من المدينة في ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب، سنة ستّين للهجرة النبويَّة الشريفة.

وهكذا فإنَّه بعد نصف قرن من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أهل بيته لا يزالون يعيشون ظروفاً صعبة، وهم الذين أسَّسوا الدولة، وأقاموا النظام، وأخرجوا الناس من الظُّلمات إلى النُّور، وعلى أيديهم اهتدى الناس إلى دين الله، إلَّا أنَّ الأحداث غيَّرت الموازين، فأبعدت أهل البيت من سدَّة الحكم، واستطاع أحفاد أولئك الذين قاوموا رسول الله، ونصبوا له العداء، وحاولوا القضاء عليه وعلى دينه مراراً وتكراراً، أصبحوا حاكمين على بلاد المسلمين، وأصبح سبط رسول الله مهدَّداً في مدينة جدّه!

❁

كان مع الحسين في هجرته من المدينة أختاه أمّ كلثوم وزينب، ووُلد أخيه، وإخوته: أبو بكر، وجعفر، والعبَّاس، وعامَّة من كان

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص153؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص215؛ وكامل الزيارات، لابن قولويه، ص97.

في المدينة من أهل البيت، إلَّا محمَّد ابن الحنفيَّة الذي بقي في مكَّة[1].

وكان في الطريق يتلو قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

لقد صار التاريخ يعيد نفسه، فوارث الأنبياء في المدينة، أصبح مثل موسى بن عمران عليه السلام الذي اضطرَّ للخروج من مصر خوفاً من الفراعنة، وهو أيضاً يخرج حتى لا يضطرّ لبيعة فرعون زمانه، وكما أنَّ موسى عليه السلام خرج منها خائفاً يترقَّب، كذلك الحسين، وكما دعا موسى ربّه أن ينجِّيه من القوم الظالمين، فقد دعا الحسين بذلك.

وهذه واحدة من التماثل بين الحسين وبين الأنبياء.

من جانبه فإنَّ الوليد بن عتبة حاول بعد ذلك جلب الحسين لإجباره على البيعة، فلمَّا لم يجده في منزله، قال: الحمد لله الذي خرج، ولم يبتلني بدمه[3].

ولزم الحسين الطريق الطبيعي الذي كان يسلكه الناس عادة بين المدينة ومكَّة، فقال له بعض أهله: لو تنكَّبت الطريق الأعظم كما فعل ابن الزبير، لكي لا يلحقك الطلب؟

فقال: لا والله، لا أفارقه حتَّى يقضي الله ما هو أحبّ إليه[4].

---

(1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص230؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص341.
(2) سورة القصص، آية 21.
(3) البحار، للمجلسي، ج44، ص328.
(4) التاريخ، للطبري، ج5، ص351؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، ص33.

وكان في الطريق يقرأ القرآن ويتلوه، وأحياناً يتحدَّث مع بنيه حول ماعليهم أن يفعلوه ويعظهم، ويذكر لهم أحاديث رسول الله، وكان أحياناً يقرأ هذه الأبيات من الشعر:

إذا المرؤُ لا يحمي بنيهِ وعرضَهُ وعترتَه كان اللئيمَ المسيّبا
ومِن دونِ ما يبغي يزيدٌ بنا غداً نخوض حياضَ الموتِ شرقاً ومغربا
ونضربُ ضرباً كالحريق مقدَّماً إذا ما رآه ضيغمٌ فرَّ مهربا[1]

❁

مرَّة أُخرى التقى الصديقان عبد الرحمن الصالح، وعبد الله بن مسلم وفي لقائهما هذا سأل عبد الرحمن صاحبه: هل حدث شيء غير طبيعي في طريق الحسين من المدينة إلى مكَّة؟

قال عبد الله: إنَّك تعرف أنَّ الحسين وليّ من أولياء الله، وهو يحمل راية التوحيد التي حملها الأنبياء، وأقل ما يُقال في موقفه هو ما قاله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في أبيه في معركة الأحزاب: أنَّه «**برز الإيمان كُلّه إلى الشِّرك كُلّه**»[2].

ولا شكَّ أنَّ لأولياء الله مع ربّهم شأناً غير شأن بقيَّة الناس، فهم لا يعملون عملاً إلَّا في سبيل الله. فمن أجل ربّهم يأكلون ويشربون، ويتحرَّكون، ويتحدَّثون، ولذلك فإنَّ ربّ العالمين يهديهم سواء السبيل، وهو القائل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[3]،

(1) مقتل أبي مخنف المشهور، ص15 و16.
(2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج20، ص215.
(3) سورة الأنبياء، آية 73.

والقائل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾[1]. وكما أنَّ ربّ العالمين أمر الملائكة بأن يعرضوا على إبراهيم الخليل عليه السلام خدماتهم، عندما ألقوه في داخل النار، فرفض، فقال جبرئيل: فاسألِ الله. فقال: حسبي من سؤالي، علمه بحالي[2].

وليس بعزيز على الله أن يأمر الملائكة والجنّ أن يعرضوا على الحسين عليه السلام خدماتهم ودفاعهم عنه، مع فارق واحد وهو أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يكن قد تقرَّر له في علم الله أن يُحرق ويموت، أمَّا الحسين فهو قربان الله في هذه الحياة، وهو مقتول لا محالة.

فقال عبد الرحمن: لم أفهم، فهل حدث أن عرضت الملائكة شيئاً على الحسين عليه السلام؟

قال عبد الله بن مسلم: لمَّا سار الحسين عليه السلام من المدينة نحو مكَّة، لقيته أفواج من الملائكة المسوَّمين، في أيديهم الحراب على نجب من نجب الجنَّة، فسلَّموا عليه وقالوا: «يا حجَّة الله على خلقه، إنَّ الله عزَّ وجلَّ أمدَّ جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنا في مواطن كثيرة، وإنَّ الله أمدَّك بنا».

فقال لهم الحسين: «الموعد حفرتي وبقعتي التي أُستشهد فيها وهي كربلاء، فإذا وردتها فأتوني».

فقالوا: «يا حجَّة الله، إنَّ الله أمرنا أن نسمع لك ونطيع، فهل تخشى من عدوّ يلقاك فنكون معك»؟

---

(1) سورة الطلاق، آية 2.

(2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج68، ص156.

فقال: «لا سبيل لهم عليَّ، ولا يلقوني بكريهة، أو أصل إلى بقعتي».

وأتاه أفواج من مؤمني الجنّ، فقالوا: «يا مولانا، نحن أنصارك، فمُرنا بما تشاء، فلو أمرتنا بقتل كلّ عدوّ لك، وأنت بمكانك لكفيناك ذلك».

فقال لهم الحسين عليه السلام: «جزاكم الله خيراً، أما قرأتم كتاب الله المنزل على رسول الله في قوله: ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾؟ فإذا قمت في مكان فبم يمتحن هذا الخلق وبماذا يختبرون؟ ومن ذا سيكون ساكن حفرتي، وقد اختاره الله تعالى يوم دحى الأرض، وجعلها معقلاً لمحبِّينا، تقبل أعمالهم وصلواتهم، ويُجاب دعاؤهم، فتكون لهم أماناً في الدُّنيا وفي الآخرة».

فقالوا: «لولا أنَّ أمرك طاعة، ولا يجوز لنا مخالفتك لخالفناك، وقتلنا أعدائك، قبل أن يصلوا إليك».

فقال لهم الحسين: «نحن والله أقدر عليهم منكم، ولكن ليهلك من هلك عن بيِّنة، ويحيا من حيّ عن بيِّنة»[1].

لقد كان الحسين ماضياً في طريقه الذي حدِّد له ربُّه، ولم يكن يتحرَّك من دون أن يعرف ماذا يعمل، وهو أمين الله في أرضه، وحجَّته على عباده، كان ثقل الرسالة النبويَّة على كاهله، وكان عليه أن يُصحِّح المسير والمسار. وكان يعرف أنَّ مهمَّته تستدعي التضحية بكلّ ما يملك، وأن يتقبَّل حرّ السيوف وضربات الرماح وغرزات

(1) اللهوف، لابن طاوس، ص66 و69؛ والبحار، للمجلسي، ج44، ص331.

السهام في سبيل الله عزَّ وجلَّ، معتبراً الشهادة من أجل الحفاظ على دين الله من مواطن الشكر لا من مواطن الصبر، كما كان شأن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يذكر ذلك قائلاً: «قلت لرسول الله: يا رسول الله؛ أوَليس قد قلت لي يوم أُحُد حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عنّي الشهادة، فشقَّ عليَّ ذلك، فقلت لي: أبشر فإنَّ الشهادة من ورائك؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم لي: إنَّ ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذاً؟

فقلت: «يا رسول الله؛ ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر»[1].

كانت عين الحسين على الآخرة، وما أعدَّه الله للمستشهدين في سبيله، أمَّا الآخرون فكانت عيونهم على الدُّنيا، وكلّ الذين نصحوه بأن لا يخرج ولا ينهض، وأن يذهب إلى جبل من الجبال، كانوا حريصين على حياته الدنيويَّة، بينما الحسين عليه السلام كان يريد دُنياه لآخرته، وحياته لرسالته.

قال عبد الرحمن الصالح لصاحبه: هل التقى الحسين عليه السلام بأحد في الطريق، ونصحه بخلاف ما كان عازماً عليه؟

قال عبد الله: نعم، فالحسين مرَّ على عبد الله بن مطيع القرشي، وهو عند بئرٍ له، فقال له عبد الله: أين تريد؟

قال الحسين: أمَّا الآن فأريد مكَّة، وأمَّا بعدها فإنِّي أستخير الله.

(1) نهج البلاغة، خطبة رقم 156.

فقال عبد الله بن مطيع: خار الله لك، يابن رسول الله، غير أنِّي أحبّ أن أشير عليك برأيي.

قال الحسين: وما هو؟

فقال: إذا أتيت مكَّة فأردت الخروج منها إلى بلد من البلدان، فإيَّاك والكوفة فإنَّها بلدة مشؤومة، فقد قُتل فيها أبوك، وخُذل أخوك واغتيل بطعنة كادت أن تأتي على نفسه، بل الزم الحرم فإنَّك سيِّد العرب، لا يعدل بك والله أهل الحجاز أحداً، ويتداعى إليك الناس من كلِّ جانب، فلا تفارق الحرم، فوالله لئن قتلوك ليتخذنا هؤلاء القوم عبيداً(1).

قال عبد الرحمن الصالح: وهل كان خروج الحسين من المدينة، وكذلك ابن الزبير من قبل ذلك صدمة للسلطات في الشام، لأنَّهم كانا يتوقَّعون من الوليد بن عتبة إجبارهما على البيعة؟ أم اعتبر ذلك أمراً طبيعيّاً؟

قال عبد الله: لا، لم يكن أمراً طبيعيّاً أبداً، فالأوامر صدرت من يزيد إلى الوليد بأخذ البيعة من أهل المدينة عامَّة، ومن الحسين وابن الزبير خاصَّة. وبما أنَّهما قد خرجا فإنَّ يزيد استاء من ذلك، وكان مروان بن الحكم قد أخبره بذلك في رسالة بعثها إليه، وبيَّن فيها تسامح الوليد، واستضعافه في أمر الحسين، فعزله يزيد مع قرابته منه، لأنَّ التكبُّر من عادة الطغاة، فإذا لم تُنفّذ أوامرهم فإنَّهم يأخذون العاملين تحت أيديهم بأشدّ ما يكون، ولهذا فإنَّ يزيد عزل

(1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص230؛ والطبقات، لابن سعد، ج5، ص107؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص351.

الوليد من ولاية المدينة، ونصب مكانه عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وكان رجلاً على مقاس يزيد، عظيم التكبُّر[1].

وفي أوَّل فعل قام به هذا الرجل أنَّه صعد المنبر في مسجد رسول الله ﷺ، فلمَّا استوى عليه أصيب بالرعاف، وكان في المجلس أعرابي يتوسَّم من الحوادث، فقال: «مَهْ، جاءنا واللَّهِ بالدَّم.

فقام رجل وتلقَّى دم عمرو بن سعيد بعمامته.

فقال ذلك الأعرابي: «مَهْ، عمّ الدَّم الناس، والله.

ثمَّ قام فخطب، فناولوه عصى له شربتان.

فقال الأعرابي: تشعَّب الناس والله ـ أي اختلفوا ـ.

وكان ممَّا قاله عمرو بن سعيد في خطبته تلك: إنَّ ابن الزبير تعوَّذ بمكَّة، (يعني عاذ ببيت الله وحرمه)، فوالله لنغزونَّه، ثمَّ لأن دخل الكعبة لنحرقنَّها عليه، رغم أنف من رغم[2].

❁ ❁ ❁

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص265.

(2) تاريخ الإسلام، للذهبي، ج2، ص268.

ابن البيت، في جوار البيت

بعد رحلة دامت خمسة أيَّام بلياليها، وصل الحسين ﵇ مع أهل بيته وعياله إلى مكَّة المكرَّمة، وكان ذلك ليلة الجمعة لثلاث ليال خلون من شعبان، في عام ستين للهجرة. فنزل في شعب عليّ، في دار العبَّاس بن عبد المطَّلب[1].

فأخذ الناس، سواءً من أهل مكَّة أو من المعتمرين وأهل الآفاق، يختلفون إليه، ويجتمعون عنده حلقاً حلقاً، يستمعون إلى أحاديثه، ويسألونه ما أهمَّهم من أمر دينهم ودُنياهم.

أمَّا عبد الله بن الزبير فلم يكن مرتاحاً لوصول الحسين إلى مكَّة، بل ساءه ذلك، لأنَّه علم أنَّ الناس لا يحفلون به ما دام الحسين مقيماً بالبلد، غير أنَّه لم يظهر استيائه، فكان يأتي إليه بين يوم وآخر، وكان الحسين أثقل الناس عليه، لأنَّه كان يطمع في أن يبايعه الناس، وهو يعلم أنَّ لا أحد يبايعه ما دام الحسين موجوداً، فالحسين أعظم في أنفسهم وأطوع عندهم[2].

ومع دخول الحسين مكَّة انقلبت المعادلات على السلطة، فلا

(1) مختصر ابن منظور، ج7، ص139؛ والبداية والنهاية، ج8، ص162.
(2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج5، ص315؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص230؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص351.

هم قادرون على قتله هناك، لالتفاف الناس حوله واختلافهم إليه، والحضور إلى مجلسه، ولوجود البيت هناك، ولا أحد يستطيع أن يمنع الناس من المجيء إلى بيت الله والطواف حوله، خاصَّة وأنَّ ربّنا يقول: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾[1]، ويقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[2]. وهذا ما صرَّح به الحسين عليه السلام حينما سأله والي يزيد على مكَّة، قائلاً: ما أقدمك؟

فقال الحسين: عائذ بالله، وبهذا البيت[3].

بالإضافة إلى أنَّ مكَّة هي مدينة الحسين، وهو ابن البيت الذي بناه جدّه إبراهيم الخليل عليه السلام، وطهَّره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأصنام بيد أبيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام في فتح مكَّة، وكانت بيوت الهاشميين لا تزال هناك، فكان وصول الحسين عليه السلام إلى مكَّة، ورفضه لبيعة يزيد قد أثار نخوة الإيمان في نفوس الناس في مختلف الأمصار.

وكان الحسين يقضي أيَّامه في مكَّة بين أُمور ثلاث: إمَّا استقبال الناس والتحدُّث معهم وإلقاء المواعظ عليهم، وإمَّا القيام بالطواف حول البيت والصَّلاة في فناء المسجد، وإمَّا زيارة قبور آبائه وأجداده، خاصَّة السيِّدة خديجة جدّته، حيث كان يقوم بزيارة قبرها، ويصلِّي هناك ويبتهل إلى الله تعالى كثيراً[4].

---

(1) سورة الحج، آية 25.
(2) سورة البقرة، آية 114.
(3) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص135.
(4) مقتل الحسين، للمقرّم، ص158.

مع وصول الحسين إلى مكَّة قرَّر كلّ من عبد الله بن مسلم وعبد الرحمن الإقامة أيضاً في مكَّة من دون اتفاق مسبق بينهما على ذلك، فكانا يلتقيان بين فترة وأُخرى ويتدارسان الأوضاع، وفي يوم من الأيَّام قال عبد الرحمن لصاحبه، وهما في فناء الكعبة: إلى أين سيؤول أمر الحسين مع يزيد بن معاوية؟

قال عبد الله بن مسلم: ما أعرفه الآن أنَّ المؤمنين في كلِّ مكان بدأوا يتجمَّعون حول بعضهم البعض، ويتدارسون أمر الحسين، بالرغم من أنَّهم لا زالوا في دوَّامة حكم بني أُميَّة، إذ لم يمض إلَّا وقت قصير على موت معاوية، ولا تزال سلطته قائمة، ولا يزال ولاته في كلِّ مكان، والدولة مبنيَّة بطريقة كسرويّة وقيصريَّة، فهو نظام يقوم على الاستبداد، واستخدام العنف والقتل، والنفي والتشريد، وضرب كلّ من يخالف، بالرغم من ذلك فإنَّ كثيراً من المؤمنين أثارتهم شجاعة الحسين، ورفضه البيعة، ووصوله إلى مكَّة، وكان من أكثر البلدان التي تأثَّرت بموقف الحسين عاصمة العراق، الكوفة، وهي المدينة التي حكمها عليّ بن أبي طالب، وكان الحسين ساكناً فيها مع أبيه، إلى أن قُتل أبوه في محراب العبادة بيد عبد الرحمن بن ملجم المرادي.

فقال عبد الرحمن: على ذكر الكوفة، ما هي أخبارها؟

قال عبد الله: لقد اجتمع المؤمنون، ممَّن لهم هوى في أهل البيت، في دار سليمان بن صرد الخزاعي، وهو من صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقد شارك معه في بعض الغزوات كالخندق، وقد امتلأت داره بكبار القوم، فقام سليمان خطيباً فيهم، فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على النبيّ وعلى أهل بيته، ثمَّ ذكر أمير المؤمنين

عليّ بن أبي طالب، فترحَّم عليه، وذكر مناقبه الشريفة، وكلّنا نعرف أنَّ معاوية كان قد منع الحديث عن عليّ وذكر فضائله، وسنَّ سبَّه على المنابر، وسمَّى عمله هذا «سُنَّة». . وكان فيما قال سليمان:

«إنَّكم قد علمتم بأنَّ معاوية قد سار إلى ربّه وقدم على عمله، وسيجزيه الله تبارك وتعالى بما قدَّم، وقد قعد في موضعه ابنه يزيد، وهذا الحسين بن عليّ قد امتنع من بيعته وقد خرج إلى مكَّة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنَّكم ناصروه ومجاهدوا عدوّه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوهن والفشل، فلا تغرّوا الرجل من نفسه.

فقال القوم: بل ننصره، ونقاتل عدوّه، ونقتل أنفسنا دونه.

فأخذ عليهم سليمان بذلك ميثاقاً وعهداً، ثمَّ قال: «اكتبوا إليه الآن كتاباً من جماعتكم أنَّكم له كما ذكرتم، وسلوه القدوم عليكم».

فقالوا: أفلا تكفينا أنت الكتاب إليه؟

قال سليمان: لا، بل يكتب جماعتكم[1].

قال عبد الرحمن: وهل الناس أحرار في أن يجتمعوا فيما بينهم، ويتدارسوا في مثل هذا الأمر علناً وصراحة، ويتحدَّثوا عن فضائل عليّ؟

قال عبد الله: الآن يمكنهم ذلك، لأنَّ معاوية مات، ويزيد لم يسيطر تماماً على الأُمور بعد، والنعمان بن بشير، بالرغم من أنَّه عثماني مجاهر ببغض عليّ وسيِّء القول فيه، إلاَّ أنَّه ليس مثل بُسر بن أرطأة، أو مسلم بن عقبة، من الذين يبادرون إلى إراقة الدماء،

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص38 ـ 45؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص352.

بالإضافة إلى أنَّ المؤمنين على كلِّ حال يشكِّلون قوَّة في الكوفة لا يُستهان بها.

قال عبد الرحمن: وهل كتب أهل الكوفة الكتاب إلى الحسين بذلك، كما طالبهم بذلك سليمان؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ كتب أهل الكوفة ورسلهم بدأت تنهال على الحسين، ففي كلّ يوم نسمع عن مجموعة جديدة جاءت من هناك، وهي رسائل من مختلف طبقات الناس، يطلبون من الحسين الذهاب إليهم.

قال عبد الرحمن: وهل يقتصر الأمر على أهل الكوفة؟

قال عبد الله بن مسلم: لا، وإنَّما الرسائل تأتي من كلِّ مكان، بما في ذلك من البصرة، واليمن، والرّي وغير ذلك، ولكنَّها من الكوفة أكثر[1].

قال عبد الرحمن: وما هو مضمون هذه الكتب؟

قال عبد الله: سأقرأ عليك الرسالة التي كتبها جماعة سليمان بن صرد، ومن معه، فقد جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن عليّ، من سليمان بن صرد، والمسيّب بن نجبة، ورفاعة بن شدَّاد، وحبيب بن مظاهر، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة.

«أمَّا بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوّك الجبَّار العنيد، الذي

---

(1) بغية الطلب، لابن العديم، ج6، ص2612؛ وتاريخ الإسلام، للذهبي، ج2، ص343.

اعتدى على هذه الأُمَّة، فانتزعها حقوقها، واغتصبها أُمورها، وغلبها على فيئها، وتأمَّر عليها على غير رضىً منها، ثمَّ قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دُولةً بين أغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود». .

«إنَّه ليس علينا إمام، فأقدم علينا لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإنَّ النعمان بن بشير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة، وألحقناه بالشام، والسَّلام»(1).

لقد كانت الرسائل التي تأتي إلى الإمام الحسين تتوالى وتزداد يوماً بعد يوم، وأحياناً كان من يأتي من الكوفة يحمل معه نحو خمسين رسالة، وهي موقعة من قِبل الاثنين والثلاثة والأربعة، وكُلّها تطالبه أن يستعجل الذهاب إليهم.

فمن جملة الكتابات التي وصلت، رسالة تقول: «أمَّا بعد، فحيَّ أهلاً، فإنَّ الناس منتظرون لك، لا إمام لهم غيرك، فالعجل ثمَّ العجل ثمَّ العجل، والسَّلام».

وفي بعضها كتب أهل الكوفة: «إنَّا معك ومعنا مائة ألف سيف»(2).

كما أنَّه وصلت إلى الحسين رسالة موقَّعة من قِبل التالية أسماؤهم: شبث بن ربعي اليربوعي، وحجَّار بن أبجر العجلي،

---

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج2، ص4؛ وأنساب الأشراف، ج3، ص.
(2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص422.

وعمرو بن الحجَّاج الزبيدي، وعذرة بن قيس الأحمسي، ويزيد بن الحارث الشيباني، ومحمَّد بن عمير التميمي، ونصّ الرسالة كالتالي:

«أمَّا بعد، فقد اخضرَّ الجناب، وأينعت الثمار، وطمَّت الجمام، فإذا شئت فأقدم علينا، فإنَّما تقدم على جند لك مجنَّد، والسَّلام»[1].

وفي بعض تلك الرسائل كانت العبارة التالية: إنَّا قد حبسنا أنفسنا عليك، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي، فأقدم علينا[2].

وفي نصّ آخر قال أصحاب الرسالة: إنَّا نموت دونك، ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك[3].

وفي نصّ رسالة أُخرى كتب أصحابها: إنَّا قد اعتزلنا الناس، فلسنا نصلِّي بصلاتهم ولا إمام لنا، فلو أقبلت إلينا رجونا أن يجمعنا الله بك على الإيمان[4].

وفي رسالة أُخرى كتب بعضهم يقول: إنَّا قد حبسنا أنفسنا عليك، فأقدم علينا فنحن في مائة ألف قد فشى فينا الجور، وعُمل فينا بغير كتاب الله وسُنَّة نبيّه، ونرجوا أن يجمعنا الله بك على الحقّ، وينفي عنَّا بك الظلم، فأنت أحقّ بهذا الأمر من يزيد وأبيه الذي غصب الأُمَّة فيئها، وشرب الخمور، ولعب بالقرود والطنابير، وتلاعب بالدِّين[5].

(1) أنساب الأشراف، ج3، ص159؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، ص38.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص347.
(3) مروج الذهب، للمسعود ج3، ص64.
(4) تجارب الأُمم، لأبي علي مسكويه، ج2، ص41.
(5) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص136.

وكانت الرسائل تأتي تباعاً، حتَّى ورد عليه في يوم واحد ستمائة رسالة، واجتمع عنده في فترات متفرِّقة اثنا عشر ألف كتاب[1].

قال عبد الرحمن الصالح: وهل الحسين يجيب على كلّ رسالة ترد إليه؟

قال عبد الله بن مسلم: حتَّى الآن يكتفي الحسين بتلقِّي الرسائل، ولم يكتب جواباً على أية رسالة من رسائلهم.

قال عبد الرحمن: ألا ترى أنَّ مثل هذه الرسائل والكتب، وما فيها من المضامين تحمِّل الحسين مسؤولية كبرى في أن يستجيب لهم؟

قال عبد الله: هذا صحيح، فإنَّ مضامين هذه الرسائل ليست عادية.

فأوَّلاً، أنَّهم يصرِّحون باعتزالهم الجمعة والجماعة، لأنَّهم لا يرون الوالي وأتباع بني أُميَّة أهلاً لكي يجتمعوا إليهم، ويصلّوا خلفهم.

ثانياً، أنَّهم يعلنون عن إجماعهم على إمامة الحسين، وأنَّه لا إمام لهم غيره.

وثالثاً، أنَّهم يطلبون الحسين لكي يدفع عنهم الضيم والظلم والطغيان.

---

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص152.

ورابعاً، أنَّهم يطلبون الحسين لكي يهديهم سبيل الهدى ويجمعهم على الحقّ.

وخامساً، أنَّهم يعلنون استعدادهم لتحمُّل مسؤولياتهم معه، حتَّى لو تطلَّب ذلك الموت في سبيل ذلك، وأنت تعرف أنَّ الإمام عليّ عليه السلام لم يقم بالأمر إلَّا لما ذكره في خطبته الشقشقيَّة، قائلاً: «أما والذي فلق الحبَّة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجَّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظَّة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها»[1].

وكلّ هذه أُمور اجتمعت الآن، فهنالك حضور في الساحة من الذين يبدون استعدادهم لنصرة الحقّ، وهذه الرسائل، التي تؤكِّد أنَّ أصحابها مستعدّون للنصرة، مع انتشار الظلم والطغيان، ومخالفة الدِّين، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظَّة ظالم ولا سغب مظلوم؛ كلّ هذه تحمَّل الحسين مسؤولية كبرى.

فقال عبد الرحمن: إذن لماذا لا يستجيب الحسين؟

قال عبد الله: أعتقد أنَّه ينتظر، ليس فقط لإتمام الحجَّة أكثر، والتثبُّت من الأمر، وإنَّما ينتظر أيضاً أمراً من الغيب.

قال عبد الرحمن: ألم تقل أنَّ الحسين يعرف سلفاً أنَّه قربان آل محمَّد، وأنَّه شهيد هذه الأُمَّة وذبيحها؟

قال عبد الله بن مسلم: نعم؛ ولكن الحسين ليس يريد أن يقدم

(1) نهج البلاغة، خطبة رقم 3.

على القتل للقتل، الحسين يتحرَّك بناءً على مشروع واضح، ومن أجل أهداف ربَّانيَّة محدَّدة.

قال عبد الرحمن: وما هي تلك الأهداف؟

قال عبد الله بن مسلم: هي نفسها، أهداف الأنبياء التي ذكرها القرآن الكريم في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1]. فبسط العدل، ودفع الظلم، وإنصاف المظلومين، وهداية الضالِّين، وإقامة حدود الله، والإصلاح بين الناس، وعمارة الأرض.. هي أهداف الحسين، كما كانت هي أهداف الأنبياء.

قال عبد الرحمن: تريد أن تقول إنَّ أهداف الحسين هي خليط من أُمور الدُّنيا والآخرة؟

قال عبد الله: نعم، هي كذلك.

قال عبد الرحمن: ألم تقل أنَّ الحسين يريد الآخرة، ولا يريد الدُّنيا؟

قال عبد الله: هذا صحيح؛ ولكن ليس بمعنى أنَّه لا يريد الدُّنيا للآخرين، أو أنَّه لا يريد الإصلاح بين الناس، ولا يريد العدالة لهم في هذه الحياة، لكنَّه يريد الدُّنيا كمزرعة للآخرة، بأن يعمل فيها بما يرضي الله عزَّ وجلَّ، وينفع العباد، ويمنع الظلم والطغيان.. ولكن هدفه من ذلك ليس أن يحصل هو على مغانم الدُّنيا، فإذا خالف عليّ معاوية فإنَّ من الواضح أنَّ معاوية كان يريد الدُّنيا للدُّنيا، بينما عليّ عليه السلام كان يحارب معاوية ولكن ليس لكي

(1) سورة الحديد، آية 25.

يحصل على أية مصلحة لنفسه، وإنَّما لكي يمنع معاوية من أن يجعل الأموال دولة بين الأغنياء، ويمنع من ظلم العباد والفساد في الأرض.

قال عبد الرحمن: يبدو أنَّ بني أُميَّة مصمّمون على الوقوف بوجه بني هاشم في كلّ مراحل التاريخ، فأبو سفيان في مواجهة رسول الله، ومعاوية في مواجهة عليّ، ويزيد في مواجهة الحسين؟

قال عبد الله بن مسلم: سبحان الله؛ إنَّ ربّنا هكذا يمتحن العباد، فيمتحن الأخيار بالأشرار، والأشرار بالأخيار. فقد خلق التقابل بين اللَّيل والنَّهار، وبين الظلمة والنُّور، وبين الخير والشرّ، وإذا لم يكن الأمر كذلك «فبم يُمتحن هذا الخلق؟ كما يقول الإمام الحسين عليه السلام»[1].

قال عبد الرحمن: أترى أنَّ انجذاب الحسين نحو الخير وانجذاب يزيد نحو الشرّ، ومن قبل انجذاب رسول الله وعليّ إلى الخير، وانجذاب أبي سفيان ومعاوية إلى الشرّ، هل ذلك يرجع إلى اختلاف مزاج الطرفين؛ بمعنى أنَّ مزاج أبي سفيان ومعاوية يعمل من أجل المنفعة الدنيويَّة والغنيمة الآنيَّة، بينما مزاج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ وأهل البيت عليهم السلام يعمل من أجل الخير والنبل والأخلاق؟

قال عبد الله: بل يرجع الأمر إلى اختلاف الأهداف، واستجابة كلّ طرف للكوامن المودعة فيه؛ فأهل البيت يستجيبون للكوامن الخيِّرة في نفوسهم، بينما أعدائهم يستجيبون للكوامن الشرِّيرة فيهم.

---

(1) اللهوف، لابن طاوس، ص42.

وكلّ طرف يجمع حوله من يشاكله؛ فالحسين لا يبحث عن النفعيين والأشرار وعبدة الدُّنيا، وأمثال هؤلاء أيضاً لا يميلون إلى الحسين، بينما يزيد لايجمع حوله إلّا من فيه صفات تماثله مثل الطمع في الدُّنيا، والجشع لحطامه، والخسَّة، وعدم الالتزام بالمُثل والقيم.

وأضاف عبد الله: الحسين عليه السلام لا يريد المنافع لنفسه، بل حتى ما يملكه إنَّما يريده للناس، والعكس هو في عدوّه. فيزيد، وجميع السلاطين الذين على شاكلته، يريدون مصالح الأُمَّة لأنفسهم، ولذلك نجد أنَّ أمثال الحسين مستعدّون للتضحية بأنفسهم في سبيل إنقاذ العباد، بينما أمثال يزيد مستعدّون للتضحية بالعباد لمصالح أنفسهم. فالحسين بتمسُّكه بمبادئه يتناسى نفسه في سبيل تلك المبادىء والقيم، لأنَّه يريد الخير للناس، أمَّا يزيد فليس مستعدّاً أن يتنازل عن أصغر منفعة ذاتية لمصلحة الناس.

قال عبد الرحمن: وهل كان الأمر كذلك بين عليّ ومعاوية؟

قال عبد الله: تماماً؛ فالحسين امتداد لعليّ، ويزيد امتداد لمعاوية، ومنهج الحسين هو منهج عليّ، كما أنَّ منهج يزيد هو منهج معاوية. وكان الاختلاف بين عليّ ومعاوية اختلافاً بين مشروع الإمامة ومشروع السلطة. فعليّ عليه السلام كان يريد أن يقود الناس إلى ما فيه خير دُنياهم وآخرتهم، ومعاوية كان يريد استغلال الناس والتأمُّر عليهم، وقد صرَّح بذلك عندما دخل الكوفة، بعد مقتل عليّ عليه السلام وتوقيع معاهدة الصلح مع الحسن، فقد صعد المنبر وقال: إنِّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا تصوموا، ولا تحجّوا ولا تزكّوا، إنَّكم تفعلون

ذلك. وإنَّما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون[1].

فصراع عليّ: مع معاوية كان صراعاً بين منهجين، أكثر ممَّا كان صراعاً بين شخصين، كما أنَّ الاختلاف بينهما واضح فيما ارتبط بسلوك الطرفين وطريقتهما في الأُمور الشخصيَّة والعامَّة. فالحسين بريء من العيب، كما قال معاوية لابنه يزيد: «والله ما أرى للعيب فيه موضعاً»[2].

فإذا كان معاوية لا يرى في الحسين عيباً، فإنَّ كلّ العيوب موجودة في يزيد، ولذلك فإنَّ الأمويِّين الكبار تردَّدوا كثيراً في قبول خلافته في زمن معاوية، وبعضهم خالفه جهراً، حتَّى أنَّ معاوية اضطرَّ إلى أن يزيح بعض أقرب المقرَّبين إليه، ويقتل أكثر من شخصيَّة منهم لكي يثبت خلافة يزيد.

قال عبد الرحمن: ومن هو الذي قتله معاوية لتثبيت خلافة ابنه؟

قال عبد الله: إنَّ معاوية قتل كثيرين، أمَّا من الأخيار فقد قتل بالسُّم الحسن بن عليّ، على يد زوجته جعدة بنت الأشعث التي وعدها بأن يزوِّجها يزيد، ويعطيها مائة ألف درهم إن فعلت ذلك، فوفى بوعد المال، ولم يفِ بوعد الزواج[3].

---

(1) مقاتل الطالبيين، لأبي فرج الأصفهاني، ص45.
(2) أنساب الأشراف، ج3، ص155.
(3) التاريخ، لليعقوبي، ج2، ص225؛ وتذكرة الخواص، ص211؛ ومروج الذهب، ج3، ص5.

أمَّا من غيرهم، فقد قتل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة، وكان من فرسانه، وكان من أعداء الإمام عليّ وبني هاشم، واستعمله معاوية في غزو الرُّوم، وقد اختاره أهل الشام ليكون الخليفة بعده، وذلك عندما خطبهم طالباً منهم تعيين الخليفة بعده، فأشار الناس إلى عبد الرحمن بن خالد واختاروه، فشقَّ ذلك على معاوية وأسرَّها في نفسه، فأمر طبيباً عنده يعرف بابن آثال اليهودي أن يسقيه السُّمّ، فسقاه، فمات في عام ستّ وأربعين[1].

بينما أنت ترى أنَّ الحسين تأتيه الرسائل تطالبه بأن يذهب إليهم، ولكنَّه يتريَّث، فهو لا يريد أن يُقتل أحد من الناس من أجل وصوله إلى السلطة، لأنَّه أساساً لا يريد السلطة. والفرق بين الرجلين ليس من باب أنَّ أحدهما أفضل من الآخر، وإنَّما هو كالفرق بين الظلمة والنُّور، والخير والشرّ، والصلاح والفساد، والإيمان والنفاق، والجنَّة والنَّار.

هذا هو التقابل القائم بين الطرفين.

قال عبد الرحمن: إذن النتيجة أيضاً ستكون معروفة في الصراع بين الحسين ويزيد، لأنَّ الحسين سيستجيب لكوامنه الخيِّرة، ومن ثمَّ يُضحِّي بنفسه في سبيل ما يؤمن به، ويزيد لا يتورَّع عن ارتكاب كلّ ما هوحرام لتثبيت سلطانه في سبيل دُنياه، واستخدم معاوية كلّ ما يملك من الحيلة والمكر، وشراء النُّفوس، والقتل بطريقة الاغتيال.. لتثبيت ملكه.

(1) التاريخ الكبير، ج5، ص277؛ وأسد الغابة، ج3، ص289؛ والإصابة، ج5، ص69.

قال عبد الله: مع فارق كبير وهو أنَّ الأُمور هنا الآن أوضح، فالحسين يُمثِّل رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بكلّ ما فيها من نبل وخير وإيمان وصدق وصفاء وعدل وحبّ الخير للناس، ويزيد يُمثِّل السلطة بكلّ ما فيها من جشع ونفاق، وأرذل ما في النفس من الصفات.

وبمقدار ما عند الحسين من العلم والفضيلة، فإنَّ عدوّه لا هو من أهل الصلاح، ولا من أهل الفضل، ولا من أهل الرأي، ولكنَّه فتىً عربيد يقضي ليله ونهاره بين الطنابير والخمور، ولا يفرغ من مجالس النساء، إلَّا ليركض إلى مجالس صيد اللَّهو، ويقضي فيه الأسبوع بعد الأسبوع، بين الأديرة والبوادي والآجام[1].

وبمقدار ما أنَّ الحسين جبل أشم في الفضائل، فإنَّ يزيد مستنقع سحيق مليء بالرذائل.

قال عبد الرحمن: ترى من باب الافتراض فقط، لو أنَّ الحسين بايع يزيد لأيَّام ما ضيره في ذلك؟

قال عبد الله: وهل أنَّ موسى بن عمران عليه السلام قبل أن يعبد فرعون لأيَّام؟

وهل بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا سفيان لأيَّام؟ وهل قبل النبيّ عبادة الأصنام لأيَّام؟

قال عبد الرحمن: هل القضيَّة بهذه الحدَّة بين الطرفين؟

قال عبد الله: وأكثر من ذلك، وهذا ما ستثبته الأيَّام.

---

(1) مروج الذب، ج3، ص77؛ وتذكرة الخواص، ص288؛ والبداية والنهاية، ج8، ص230.

واتخذ الحسين عليه السلام القرار

بعد أيَّام من لقائهما السابق، التقى كلّ من عبد الرحمن الصالح وعبد الله بن مسلم في فناء المسجد الحرام مرَّة أُخرى.

فسأل عبد الرحمن صاحبه: ما هي أخبارك عن الحسين، هل ترى أنَّه سيبقى هكذا لا يجيب أهل الكوفة، وقد تجاوزت الرسائل التي أرسلت إليه اثني عشر ألف رسالة ودعوة، وبعضها كان من أكثر من شخص واحد، وهذا عدد لم نسمع بمثله من قبل، فهل يجيبهم إلى شيء؟

قال عبد الله: نعم؛ لم نسمع قطّ أنَّ هذا العدد من الرسائل والدعوات تأتي إلى شخص واحد تطالبه بأن ينهض بالأمر، وأن يذهب إليهم ليؤمّهم، ويقيم جماعتهم بعد أن خلا هذا الموقع فيهم، ومن هنا فإنَّ الحسين قد استجاب.

قال عبد الرحمن: وما الذي فعل؟

قال عبد الله بن مسلم: كان من أواخر من أتى إلى الحسين هما كُلٌّ من «هاني بن هاني السبيعي» و«سعيد بن عبد الله الحنفي»، وهما من رجال الكوفة. فقد سألهم الإمام عمَّا يجري هناك، وعمَّن اجتمع على الدعوة إليه، والانقطاع عن والي يزيد في تلك المدينة، فقالا: اجتمع على هذا الأمر أعيان الكوفة، وذكرا له أسماء مثل

شبث بن ربعي الذي كان يعتبر فقيه أهل الكوفة، وحجَّار بن أبجر، ويزيد بن الحارث، ويزيد بن روين، وعروة بن قيس، وعمرو بن الحجَّاج، ومحمَّد بن عمير بن عطارد.

وبعد ذلك قام الحسين وتوضَّأ وذهب إلى المسجد الحرام، وصلَّى ركعتين بين الركن والمقام، ولمَّا انفتل من صلاته سأل ربّه الخيرة فيما كتب إليه أهل الكوفة[1].

قال عبد الرحمن: وماذا تعني بأنَّه سأل ربّه الخيرة في ذلك؟

قال عبد الله: هذه هي الخيرة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنَّ من يريد أمراً فليسأل في ذلك الخيرة من ربّه، بأن يصلِّي ركعتين، ويطلب منه تعالى أن يختار له ما هو الخير.

قال عبد الرحمن: ثمَّ ماذا قرَّر الحسين؟

قال عبد الله: إنَّ آخر من آتى إلى الحسين بقوا ينتظرون جوابه، وقد جاؤوه بعد أيَّام من استخارته، فخرج إليهم، فقال: «إنِّي رأيت جدِّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منامي وقد أمرني بأمر، وأنا ماضٍ لأمره، فعزم الله لي بالخير إنَّه وليّ ذلك، والقادر عليه إن شاء الله تعالى»[2].

ثمَّ إنَّه دعى بدواة وقلم وكتب رسالة إلى أهل الكوفة هذا نصّها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ، إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين».

(1) اللهوف، لابن طاوس، ص36؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص195.
(2) التفوح، لابن أعثم، ج5، ص50 و51.

«أمَّا بعد، فإنَّ هانياً وسعيداً قدما عليَّ بكتبكم، وكانا آخر من قدم عليَّ من رسلكم، وقد فهمت كلّ الذي قصصتم وذكرتم، ومقالة جلّكم: إنَّه ليس علينا إمام، فأقبل لعلَّ الله يجمعنا بك على الهدى والحقّ.

«وإنِّي باعث إليكم أخي، وابن عمِّي، وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، ليعلم لي كُنه أمركم، ويكتب إليَّ بما يتبيَّن له من اجتماعكم، فإن كتب إليَّ أنَّه قد اجتمع رأي ملأكم، وذوي والفضل والحجى منكم، على مثلما قدمت عليَّ رسلكم وقرأت في كتبكم، فإنِّي أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله. فلعمري ما الإمام إلَّا العامل بالكتاب، والقائم بالقسط، والدائن بالحقّ، الحابس نفسه على ذات الله، والسَّلام»[1].

ثمَّ دعا مسلم بن عقيل وقال له فيما قال: «إنِّي موجهك إلى أهل الكوفة وهذه كتبهم إليَّ، وسيقضي الله من أمرك ما يُحبّ ويرضى، وأنا أرجو أن أكون أنا وأنت في درجة الشُّهداء، فامض على بركة الله حتَّى تدخل الكوفة، فإذا دخلتها فأنزل عند أوثق أهلها، فإن رأيت الناس مجتمعين فعجِّل لي بالخبر، حتَّى أعمل حسب ذلك إن شاء الله»[2].

ثمَّ أوصاه بوصايا، منها أمره بتقوى الله وكتمان أمره، واللُّطف[3].

❁

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص353؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص232.
(2) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص53.
(3) التاريخ، للطبري، ج5، ص354.

في لقائهما اليومي في فناء الكعبة سأل عبد الرحمن الصالح من صاحبه عمَّا يدور في بيت الحسين، وعمَّا هو مقدم عليه.

فقال عبد الله بن مسلم: تعرف أنَّ الحسين أصبح الآن محوراً لحركة الناس وموئلاً لآمالهم، فالمظلومون والمضطهدون من المؤمنين وجدوا فيه راية مرفوعة للحقّ، ودعوة واضحة لاسترداد الحقوق، وهم يعرفون أنَّ الحقّ كان مع أهل البيت ولا يزال، وسيِّد أهل البيت هو الحسين. وإذا كان الناس في السابق سكتوا وخضعوا فلأنَّهم أيسوا من الانتصار على أعدائهم، أمَّا اليوم فقد اجتمعت في الحسين الآمال في تحصيل حقوق أبناء الأُمَّة ورفع الظلم عن كواهلهم، والإيمان بأنَّ الحسين يُمثِّل جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الزمن. من هنا فإنَّك تجد أنَّ أهل الحجاز يذهبون فرادى وجماعات إلى بيت الحسين يلتقون به، ليظهروا موقفهم منه، ومودَّتهم له ووقوفهم معه. والحسين، وإن كان لا يقول الكثير من الكلام كعادته، إلَّا أنَّ مجرَّد رفضه للبيعة، وانتقاله إلى بيت الله الحرام يكفي لبيان سخطه على السلطة، ولذلك فما من مرَّة يخرج من بيته إلى المسجد الحرام، من أجل الطواف والصلاة، إلَّا وتجد المئات من الناس يمشون معه. وحينما يزيد عدد الطائفين والركّع السجود، فإنَّ أيّ شخص يراه هنا في المسجد الحرام سيعرف أنَّه السيِّد المطلق على قلوب الناس.

أمَّا في الكوفة فقد علمت أمرها، إنَّما الجديد أنَّ الحسين عليه السلام مع رسالته إلى أهل الكوفة، بعث أيضاً رسائل أُخرى إلى كلّ من البصرة والرّي.

قال عبد الرحمن: وماذا في رسائله؟

قال عبد الله: مضمونها الدَّعوة إلى التمسُّك بالحقّ، والعودة إلى العمل بكتاب الله وسُنَّة رسوله، والابتعاد عن البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، مثل تحويل الخلافة إلى ملك عضوض، والحكم بالأهواء، وإبعاد الأخيار من كل مراكز الدولة، وتقريب الأشرار بدلاً عنهم، الأمر الذي يعني الابتعاد عن الدِّين، وما فيه من قيم ومثُل وشريعة.

هذا ما حدث خلال الفترة الماضية، حيث كانت الأُمور تسير بعيداً عمَّا أمر به الله ورسوله.

قال عبد الرحمن: وإلى من كتب الحسين رسائله تلك؟

قال عبد الله: بالنسبة إلى البصرة أرسل رسالة إلى زعماء القوم، مثل الأحنف بن قيس، ومالك بن مسمع، والمنذر بن الجارود، وقيس بن الهيثم، ومسعود بن عمرو، وعمرو بن عبيد الله بن معمَّر.

فقال عبد الرحمن: هل حصلت على نصٍّ لهذه الرسائل أو بعضها؟

قال عبد الله: نعم؛ في رسالته إلى زعماء أهل البصرة كتب الحسين يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ، أمَّا بعد، فإنَّ الله اصطفى محمَّداً على جميع خلقه، وأكرمه بنبوَّته، وحباه برسالته، وقد نصح العباد وبلَّغ رسالات ربّه، ثمَّ قبضه الله إليه مكرَّماً، وكان أهله وأوليائه أحقّ بمقامه من بعده، فاستأثر علينا قوم، فسلَّمنا ورضينا كراهة الفتنة وطلب العافية، وقد بعثت إليكم بكتابي هذا وأنا

أدعوكم إلى كتاب الله وسُنَّة نبيّه، فإنَّ السُّنَّة قد أميتت وإنَّ البدعة قد أحييت، فإن سمعتم قولي واتبعتم أمري، أهدكم سبيل الرشاد، والسَّلام عليكم ورحمة الله»[1].

❋

أصبح التململ في العالم الإسلامي مشهوداً في كلّ مكان، والأخبار التي كانت تأتي من مختلف الأماكن تدلُّ على أنَّ هنالك بداية انتفاضة في داخل الأُمَّة، ضدّ الانحراف عن منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وضد الظلم، والطغيان، ومحاولات إفراغ الدِّين من محتواه، وتجاهل أُصوله، مع الحفاظ على بعض مظاهره.

وكان اتخاذ الحسين عليه السلام قراره بنهضته قد أسرع في وتيرة الأحداث، ومن ثمَّ بدأت الأخبار تتوارد بما يدلُّ على أنَّ هنالك حوادث كبرى على وشك الوقوع.

❋

كان الزمان منتصف شهر شوَّال، وكان كلّ من عبد الرحمن الصالح وعبد الله بن مسلم يجتمعان بين فترة وأُخرى بعد صلاة العشاء في فناء الكعبة.

قال عبد الرحمن لعبد الله: ما هي أخبار مسلم بن عقيل ورحلته إلى الكوفة؟

قال عبد الله: نعم؛ إنَّ مسلم بن عقيل خرج من مكَّة نحو

---

(1) أنساب الأشراف، ج2، ص78؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص357؛ ومقتل أبي مخنف، ص24.

المدينة في النصف من شهر رمضان متخفِّياً، لئلَّا يعلم به أحد من بني أُميَّة[1].

وذهب عن طريق المدينة باتجاه الكوفة، وذلك ليرتِّب أُموره هناك ويلمّ بأهله، ثمَّ استأجر دليلين من قبيلة قيس وسار بهما، ولكنَّهما ضيَّعا الطريق ذات ليلة، وأصبحا وقد اشتدَّ بهم العطش والحرّ، فانقطعا ولم يستطيعا المشي، فقالا لمسلم: عليك بهذا السمت (هذا الطريق والاتجاه)، فألزمه لعلَّك أن تنجو، وبقيا هما في الصحراء.

فمضى «مسلم» بذاك الاتجاه، ولولا قوَّة في بدنه لما نجى من الموت، كما أنَّ الدليلان ما لبثا أن ماتا، لكنَّ مسلم ومعه قيس بن مسهَّر الصيداويّ نجيا بحشاشة الأنفس حتَّى وردوا الماء ووجدوا الطريق، فأقام مسلم هناك، وكتب رسالة إلى الحسين عليه السلام وقد تطيَّر من الوجه الذي توجَّه إليه، وأرسله مع قيس بن مسهَّر وكتب فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن عليّ، من مسلم بن عقيل».

أمَّا بعد، فإنِّي خرجت من المدينة مع دليلين استأجرتهما، فضلَّا عن الطريق وماتا عطشاً، ثمَّ إنَّا صرنا إلى الماء بعد ذلك وكدنا أن نهلك، فنجونا بحشاشة أنفسنا. وأخبرك يابن رسول الله إنَّا أصبنا الماء بموضع يُقال له المضيق، وقد، تطيَّرت من وجهي هذا، فإن رأيت أعفيتني منه، وبعثت غيري، والسَّلام[2].

---

(1) مروج الذهب، للمسعودي، ج3، ص64؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص196.

(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص354؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص54.

فكتب الحسين عليه السلام في الجواب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ، إلى مسلم بن عقيل».

«أمَّا بعد، فإنِّي سمعت رسول الله يقول: ما منَّا أهل البيت من يتطيَّر ولا يُتطيَّر به، فإذا قرأت كتابي فامض على ما أمرتك به، والسَّلام.

ولمَّا وصل الجواب إلى مسلم سار من وقته، ولم يتأخَّر[1].

فقال عبد الرحمن: وفي الكوفة أين نزل ومتى وصل إليها؟

قال عبد الله: وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة لخمس خلون من شوَّال، وتنقَّل من مكان إلى مكان. ففي البداية نزل في دار المختار بن أبي عبيدة الثقفي، ثمَّ انتقل بعد ذلك إلى دار مسلم بن عوسجة، ومع وصول مسلم إلى هناك بدأ المؤمنون ينهالون عليه، مرحّبين به، وكان كلَّما جاءه جمع منهم يقرأ لهم كتاب الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة، فيبادرون إلى بيعته جماعات وأفراداً.

فأحياناً كان يأتيه رئيس القبيلة ويبايعه نيابة عن قبيلته، وفي أكثر الأحيان كان الناس يبايعون عن أنفسهم.

سأل عبد الرحمن: وهل كل ذلك كان يجري في العلن، أم في الخفاء؟

قال عبد الله بن مسلم: لم يكن في العلن بشكل مطلق، ولا

(1) مقتل أبي مخنف، ص20.

في الخفاء بشكل كامل، وإنَّما كان بين العلن والخفية، حيث كان يأتي إليه من يوثق به.

قال عبد الرحمن: كيف كانت الجموع ترحِّب به، وماذا كانوا يقولون؟

قال عبد الله بن مسلم: في بداية وصول مسلم إلى الكوفة كان عندما يقرأ على الناس كتاب الحسين يبكون وينتحبون شوقاً .

وكان عابس بن شبيب الشاكري من أوائل من التقى بمسلم، وقال في جمع من الناس، بعد حمد الله وثنائه والصَّلاة على النبيّ وآله:

«أمَّا بعد، فإنِّي لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، ولا أغرّك منهم، والله لأحدِّثنَّك عمَّا أنا موطِّن نفسي عليه، والله لأجيبنَّكم إذا دعوتم، ولأقاتلنَّ معكم عدوّكم، ولأضربنَّ بسيفي دونكم حتَّى ألقى الله، لا أريد بذلك إلَّا ما عند الله».

وكان لعابس بن شبيب صديق قديم يجتمعان معاً، ولهما مواقف متشابهة، وهو حبيب بن مظاهر الأسدي. فلمَّا تكلَّم عابس بكلامه هذا التفت إليه حبيب وقال: «رحمك الله، قد قضيت ما في نفسك بواجز من قولك.

ثمَّ التفت إلى مسلم بن عقيل وقال: «وأنا، والله الذي لا إله إلَّا هو، على مثل ما هذا عليه»[1].

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص355.

فقال عبد الرحمن الصالح: وهل بقي خبر مسلم مستوراً عن رجال الدولة؟

قال عبد الله بن مسلم: لا، فلكثرة اختلاف المؤمنين إليه ذاع خبره، وعرفه الجميع، فانتقل إلى دار هاني بن عروة، وهناك بايعه ثمانية عشر ألف رجل[1].

قال عبد الرحمن: وماذا عن موقف السلطة منه، أليس للكوفة والٍ من قِبل يزيد؟

قال عبد الله بن مسلم: بلى؛ إنَّه نعمان بن بشير الأنصاري، وهو أساساً ممَّن يكره عليّاً عليه السلام، ويبغض أهل الكوفة لأنَّهم يوالون عليّاً. وكان ممَّن شهد مع معاوية معركة صفِّين، وكان مقرَّباً إليه، وهو الآن والٍ من قِبل يزيد، إلَّا أنَّ الرجل يبحث عن الجاه والسلطان، وليس من أهل القتل والقتال، ويحاول تهدئة الأوضاع لمصلحة يزيد بالكلام اللطيف والتودُّد إلى الناس تارة، وبتهديدهم تارة أُخرى، وإغرائهم بالأموال تارة ثالثة وكلّ الموقف الذي اتخذه بعد انتشار خبر وصول مسلم إلى الكوفة وبيعة الناس له، هو أنَّه دعى إلى الصلاة جامعة، وخطب في المسجد وقال فيما قال: «أمَّا بعد، فاتقوا الله.. عباد الله، ولا تسارعوا للفتنة والفرقة، فإنَّ فيهما يهلك الرجال، وتسفك الدماء، وتغصب الأموال، ألا وإنِّي لا أقاتل من لا يقاتلني، ولا أثب على من لم يثب عليَّ، ولا أشاتمكم، ولا أتحرَّش بكم، ولا آخذ بالقرف، ولا الظنَّة ولا التهمة، ولكنَّكم إن

(1) السيرة النبويَّة، لابن حبَّان، ج2، ص307؛ ومروج الذهب، للمسعودي، ج3، ص64.

أبديتم صفحتكم لي، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالذي لا إله غيره لأضربنَّكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر. أما إنِّي أرجو أن يكون من يعرف الحقّ منكم أكثر ممَّن يرديه الباطل».

فقام إليه عبد الله بن مسلم الحضرمي وهو من حلفاء بني أُميَّة، فقال: إنَّه لا يصلح ما ترى إلَّا الغشم، إنَّ هذا الذي أنت عليه ما بينك وبين عدوّك رأي المستضعفين.

فقال النعمان: أن أكون من المستضعفين في طاعة الله، أحبّ إليَّ من أن أكون من الأعزّين في معصية الله، وما كنت لأهتك ستراً ستره الله[1].

❁

قال عبد الرحمن الصالح: يبدو ممَّا ذكرت أنَّ حلفاء بني أُميَّة في الكوفة منقسمين على أنفسهم فيما يرتبط بمسلم بن عقيل، وأنَّ بعضهم يطالب بالشِّدَّة وسفك الدماء، وبينما البعض الآخر لا يرى ذلك حتَّى الآن.

قال عبد الله: هو كذلك، وأساساً من هم مع بني أُميَّة إنَّما يطلبون العافية والمغانم والجاه والسلطان، فليس أحد منهم مقتنعاً بأنَّ بني أُميَّة يُمثِّلون الحقّ، ولكن هنالك أشخاص يدفعهم الحقد على أهل البيت عليهم السلام لكي يتخذوا موقفاً متشدِّداً ويقضوا عليهم؛ أي يستخدموا السيف بلا تأخير.

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص348 و355؛ والأمالي، للشجري، ج1، ص190؛ وتهذيب الكمال، للمزّي، ج6، ص423.

قال عبد الرحمن: وهل ترى أنَّ المتشدِّدين هم الذين سيغلبون على أمثال نعمان بن بشير؟

قال عبد الله: بالنسبة إلى نعمان هو لا يختلف عن غيره في أنَّه ضدّ أهل البيت، إنَّما يختلف في أنَّه يطلب العافية، كما ذكرت لك، ويريد السلطان والبهجة والراحة والمغانم.. ولا أعتقد أنَّه سيتخذ موقفاً متشدِّداً، خاصَّة وأنَّه كان قد قال لأحد المتشدِّدين: إنَّ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحبّ إليَّ من ابن بنت بحدل[1].

فقال عبد الرحمن: وماذا يقصد بقوله ابن بنت بحدل؟

قال عبد الله: يقصد يزيد بن معاوية، فإنَّ أُمّه ميسون هي بنت بحدل الكلبيَّة.

قال عبد الرحمن: وهل يجرأ النعمان على أن يقول مثل هذا الكلام بالنسبة إلى يزيد؟

قال عبد الله: أنت تعرف أنَّ كبار بني أُميَّة، من ولاة معاوية، لم يكونوا راضين عن بيعة يزيد، وكثير منهم يرون أنفسهم أولى بالخلافة منه، وبعضهم لا يرجو خيراً في خلافته، ولذلك فهم في الوقت الذي لا يرغبون في أهل البيت، وقد سلبتهم معصية الله، وظلمهم وطغيانهم، توفيق التمسُّك بأهل البيت، فإنَّهم مع يزيد بن معاوية ليس حبّاً له، وإنَّما بغضاً لعليّ وآل عليّ. وقد يصدر منهم كلام مثل هذا في لحظة من لحظات الغضب.

قال عبد الرحمن: وهل يمكن أن يصل خبر ما قاله النعمان إلى يزيد؟

---

(1) نهاية الإرب، للنويري، ج20، ص388.

قال عبد الله بن مسلم: قطعاً؛ فإنَّ لبني أُميَّة عيونهم وجواسيسهم ومرتزقتهم، الذين على أيديهم يظلمون الناس اعتماداً على سلطانهم، بل إنَّ هذا الكلام بالذات قد وصل إلى يزيد، ولذلك فإنَّه قال: قد بلغني عن النعمان ضعف وقول سيِّىء[1].

قال عبد الرحمن: كيف ترى الموقف الآن في الكوفة؟

قال عبد الله بن مسلم: لو استمرَّ الأمر على ما هو عليه الآن، فإنَّ مسلم بن عقيل سوف يحكمها، لأنَّ المعادلة هي لمصلحته، فالناس يريدون التغيير، والمؤمنون حصلوا على قائد لحركتهم، والحاكم هناك لا يرغب في اتخاذ قرار بالقمع، وأنت تعرف أنَّه في الصراع بين المنطق والمنطق فإنَّ الحقّ يغلب، وأهل البيت هم أهل الحقّ، وكلامهم نور، وأمرهم رشد، ووصيَّتهم التقوى، وجبلت النُّفوس على حبّ الخير.

لكن إذا تغيَّرت المعادلة واستخدم أولياء بني أُميَّة السيف، وباشروا القتل والقتال، وعملوا بسياسة معاوية في استخدام الحيلة والمكر والخداع، والاغتيال وسفك الدماء والتنكيل، فلربَّما تنقلب الآية، ومن ثمَّ فلا تصبح الكوفة قاعدة آمنة لأهل الحقّ.

قال عبد الرحمن: وهل تعني أنَّ الناس يمكن أن ينقلبوا على أنفسهم، بعد بيعة هذا العدد الكبير لمسلم بن عقيل؟

قال عبد الله: لا يزال هذا العدد قليلاً بالقياس إلى نفوس أهل الكوفة، الذين يتجاوز عددهم هناك أربعة آلاف ألف نسمة، وهو لا يشكِّل نسبة كبيرة. نعم؛ لو كان الذين بايعوا مسلماً كُلّهم من

---

(1) نفس المهموم، للقمّي، ص86.

السيَّافين وعلى شاكلة عابس بن شبيب، وحبيب بن مظاهر، فهذا العدد يكفي، غير أنَّ الأمر ليس كذلك.

ثمَّ إنَّ بعضهم ربَّما ينقلب على نفسه، لأنَّ الهمج الرعاع هم أتباع كل ناعق، يميلون مع كلّ ريح. ولكن أن يغلب أهل الباطل، لا يعني أنَّ أهل الحقّ ينقلبون على أنفسهم، فإذا كان المؤمنون هم الذين نشطوا وتحرَّكوا الآن، فإذا استخدم بنو أُميَّة ما كان يستخدمه معاوية، ومن ثمَّ دفعوا المنافقين إلى العمل والنشاط وأغروهم بالمال والسّلاح، ورتَّبوا أُمورهم، فربَّما تنقلب الآية. ولا يعني ذلك أنَّ المؤمنين انقلبوا على أنفسهم، بل يعني أنَّ المعادلة تغيَّرت هناك.

قال عبد الرحمن الصالح: إذن أنت لست متفائلاً حتَّى الآن؟

قال عبد الله بن مسلم: لا نعرف النتيجة حتى اللحظة، فالأُمور مرهونة بتطوُّراتها، ولا زال الناس يعيشون في دوَّامة بني أُميَّة وفي ظلِّ سلطتهم، وموارد الدولة كُلّها بأيديهم، وجيوشهم وشرطتهم لا تزال مسيطرة على الأوضاع، والتغيير في ظلِّ الوضع القائم ليس أمراً سهلاً، خاصَّة وأنَّ الناس افتتنوا بالدُّنيا، ولم يعودوا كما كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ألم نجد كيف أنَّ بعض صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، الذين عاشوا في شظف من العيش، حينما فتحت عليهم أبواب الدُّنيا واستغنوا، تغيَّروا، وتكالبوا على الدُّنيا وتقاتلوا على المغانم؟

ألم تسمع ما قاله عليّ عليه السلام حينما خطب ذات يوم وشكى مواقف الآخرين منه، فقال: «فلمَّا نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أُخرى، وقسط آخرون، كأنَّهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. بلى؛ واللّهِ لقد سمعوها ووعودها، ولكن حَليتْ الدُّنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها»[1]؟

ولا أعتقد أنَّ من السهولة أن تتبدَّل النُّفوس، بحيث يتوب عبدة الدُّنيا في ليلة وضحاها، ويبدأوا البحث عن ما يقرّبهم إلى الله، ويقبلوا بالتضحية بالمغانم التي عندهم. فليست الأكثرية من الناس مثل أهل البيت عليهم السلام الذين زهدوا في الدُّنيا، ولا يريدون إلَّا الخير للآخرين، ولا يطلبون لأنفسهم شيئاً.

فالأُمور لا تُعرف عاقبتها بعد.

❋ ❋ ❋

(1) نهج البلاغة، خطبة رقم 3.

انقلاب الكوفة

عندما شعر رجال بني أُميَّة في الكوفة، أنَّ الأرض أخذت تميد من تحت أقدامهم، بعد التفاف رجال كبار، من أمثال المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وهاني بن عروة المذحجي، وعابس بن شبيب الشاكري، وحبيب بن مظاهر الأسدي وغيرهم، حول مسلم بن عقيل، مع احتمال أن يهاجر الحسين عليه السلام إليهم، أخذوا يكاتبون يزيد، ويطلبون منه أن يقوم بانقلاب في أعلى هرم السلطة في الكوفة.

فقد كتب كلٌّ من عبد الله بن مسلم الباهلي، وعمر بن سعيد بن أبي وقَّاص الزهري، ومحمَّد بن الأشعث الكندي، ومسلم بن سعيد الحضرمي، وهم من رجال بني أُميَّة، كتبوا رسالة إلى يزيد بن معاوية هذا نصّها: «لعبد الله يزيد أمير المؤمنين، من شيعته من أهل الكوفة، أمَّا بعد، فإنَّ مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة وبايعته الشيعة للحسين بن عليّ، وهم خلق كثير، فإن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قويّاً ينفّذ أمرك، ويعمل مثل عملك في عدوّك، فإنَّ نعمان بن البشير رجل ضعيف، أو هو يتضعَّف، والسَّلام[1].

---

(1) التاريخ للطبري، ج5، ص356؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص198؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص233.

فلمَّا وصلت الرسالة إلى يزيد دعى رجلاً كان يعمل مستشاراً عند أبيه، وهو من أهل الروم واسمه السيرجون، دعاه وقال له: «إنَّ مسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين، وقد بلغني عن النعمان بن البشير ضعف وقول سيِّيء فما ترى؟ ومَن أستعمل على الكوفة؟[1].

ولم يكن مستغرباً أن يستشير يزيد هذا الرجل، فقد كان صاحب نفوذ حقيقي يعمل في دولة المسلمين لصالح الرومان، ويعزل وينصب الولاة بناءً على هواه، وهذا ديدن كل حاكم يبتعد عن مصالح المسلمين، فيلتمس العون من الأجانب، وهؤلاء يشيرون عليه بما ليس في مصلحة دين الناس، لأنَّهم أساساً أعداء ذلك الدِّين.

فقال السيرجون: أشير عليك بما تكره؟

قال يزيد: وإن كرهت!

قال السيرجون: استعمل عبيد الله بن زياد على الكوفة.

وكان يزيد يكره عبيد الله بن زياد، ويريد أن يعزله عن ولاية البصرة.

فقال يزيد: إنَّه لا خير فيه، فأشرْ عليَّ بغيره.

قال سيرجون: تُرى، لو كان معاوية حيّاً أكنت تقبل قوله، وتعمل بما يشير عليك؟

قال يزيد: نعم.

قال سيرجون: فهذا عهد عبيد الله على الكوفة، أمرني معاوية أن أكتبه، وخاتمه عليه، فمات وبقي العهد عندي، ولم يمنعني أن أعلمك به إلَّا معرفتي ببغضك له.

---

(1) تاريخ الطبري، ج5، ص356.

فقال يزيد: إذن أمضه.

وأخذ برأيه وضمَّ البصرة والكوفة إلى سلطة عبيد الله، وبعث إليه بعهده على الكوفة.

فكتب له: «من عبد الله يزيد أمير المؤمنين، إلى عبيد الله بن زياد، سلام عليك، أمَّا بعد، فإنَّ الممدوح مسبوب يوماً، وإنَّ المسبوب يوماً ممدوح، ولك ما لك، وعليك ما عليك، ولقد سُمِّي بك إلى غاية أنت فيها كما قال الأوَّل:

رُفعتَ فجاوزت السحاب وفوقه فما لك إلَّا مقعد الشمس مقعدُ

«وقد ابتلي بالحسين زمانك من بين الأزمان، وابتلي به بلدك من بين البلدان، وابتليت به أنت من بين العمَّال، وفي هذه تُعتق، أو تعود عبداً كما تعتبد العبيد، وقد أخبرني شيعتي من أهل الكوفة أنَّ مسلم بن عقيل فيها يجمع الجموع ويشقّ عصى المسلمين، وقد اجتمع إليه خلق كثير من شيعة أبي تراب، فإذا أتاك كتابي هذا فسرْ حتَّى تقدم الكوفة فتكفيني أمرها، فقد ضممتها إليك، وجعلتها زيادة في عملك، وأنظر أن تطلب مسلم بن عقيل، كطلب الخرزة حتَّى تثقفه، فتوثقه أو تقتله أو تنفيه، واعلم أنَّه لا عذر لك عندي وما أمرتك به، فالعجل العجل، والسَّلام»[1].

ثمَّ دفع بهذه الرسالة إلى مسلم بن عمرو الباهلي، وأمره أن يسرع السير إلى البصرة، ليُسلِّمها إلى عبيد الله[2].

❋

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص199؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص357.
(2) المصدر نفسه.

من جديد التقى عبد الرحمن الصالح مع عبد الله بن مسلم وتذاكرا ما يجري في الكوفة، فقال عبد الله: هل سمعت بما جرى في البصرة؟

قال عبد الرحمن: لا.

قال عبد الله: إنَّ رسائل الحسين عليه السلام وصلت إلى من كتب إليهم، وهم زعماء القوم.

فقال عبد الرحمن: وما كانت ردَّة فعلهم؟

قال عبد الله: إنَّ بعضهم قام بالواجب؛ فمثلاً حينما وصلت رسالة الحسين إلى يزيد بن مسعود النهشلي، قام بجمع كلّ من بني تميم وبني حنظلة وبني سعد في داره، فلمَّا حضروا قال لهم: يا بني تميم، كيف ترون موضعي منكم، وحسبي فيكم؟

فقالوا: بخ بخ، أنت والله فقرة الظهر، ورأس الفخر، حللت في الشرف وسطاً، وتقدَّمت به فرطاً.

فقال ابن مسعود: فإنِّي قد جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركم فيه، وأستعين بكم عليه.

فقالوا: إنَّا واللَّهِ نمنحك النصيحة، ونجهد لك الرأي، فقل حتَّى نسمع.

فقال: «إنَّ معاوية هلك، فأهون به هالكاً ومفقوداً، ألا وإنَّه قد انكسر باب الجور والإثم، وتضعضعت أركان الظلم، وقد كان أحدث بيعة عقد بها أمراً، ظنَّ أنَّه قد أحكمه، اجتهد والله ففشل، وشاور فخذل، وقد قام يزيد شارب الخمور، ورأس الفجور يدَّعي الخلافة على المسلمين، ويتأمَّر عليهم بغير رضىً

منهم، مع قصر حلم، وقلَّة علم، لا يعرف من الحقّ موطىء قدميه، فأقسمُ بالله قسماً مبروراً لجهاده على الدِّين أفضل من جهاد المشركين.

«وهذا الحسين بن عليّ ابن بنت رسول الله، ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، له فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنّه وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير ويحنو على الكبير، فأكرم به راعي رعيَّة، وإمام قوم، وجبت لله به الحجَّة، وبلّغت به الموعظة، فلا تعشوا عن نور الحقّ، ولا تسكّعوا في وهدة الباطل، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل، فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونصرته».

«والله لا يقصِّر أحد عن نصرته إلَّا أورثه الله الذلّ في ولده، والقلَّة في عشيرته، وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها، وأدرعت لها بدرعها.. من لم يُقتل يمت، ومن يهرب لم يفت، فأحسنوا رحمكم الله ردّ الجواب».

فتكلَّم بنو حنظلة وقالوا: «يا أبا خالد؛ نحن نبل كنانتك، وفرسان عشيرتك، إن رميت بنا أصبت، وإن غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرةً إلَّا خضناها، ولا تلقي والله شدَّة إلَّا لقيناها، ننصرك بأسيافنا ونقيك بأبداننا، إذا شئت فافعل.

وتكلَّم بنو سعد بن يزيد، فقالوا: «يا أبا خالد؛ إنَّ أبغض الأشياء إلينا خلافك، والخروج من رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال، فحمدنا أمرنا وبقي عزّنا فينا، فأمهلنا نراجع الرأي ونأتيك به.

وتكلَّم بنو عامر بن تميم، فقالوا: «يا أبا خالد؛ نحن بنو

أبيك وخلفاؤك، لا نرضى إن غضبت، ولا نوطن إن طعنت، والأمر إليك، فادعنا نجبك، ومرنا نطعك، والأمر لك إذا شئت.

ثمَّ إنَّ يزيد بن مسعود، بعدما سمع منهم مقالتهم، كتب إلى الحسين رسالة يقول فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«أمَّا بعد، فقد وصل إليَّ كتابك، وفهمت ما ندبتني إليه، ودعوتني له من الأخذ بحظِّي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك، وإنَّ الله لا يُخلي الأرض قطّ من عامل عليها بخير أو دليل على سبيل نجاة، وأنتم حجَّة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرَّعتم من زيتونة أحمديَّة هو أصلها، وأنتم فرعها، فأقدم سعدتُ بأسعد طالع، فقد ذلَّلت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشدّ تتابع في طاعتك من الإبل الظمَّاء لورود الماء، وقد ذلَّلت لك بني سعد وغسلت درن صدورها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع».

فلمَّا قرأ الحسين رسالته، قال: «ما لك، آمنك الله يوم الخوف، وأعزَّك، وأرواك يوم العطش الأكبر[1].

❁

قال عبد الرحمن: إنَّك قلت أنَّ ردود أفعال الذين وصلت إليهم الرسائل مختلفة، فهل هنالك من لم يستجب لرسالة الحسين؟

قال عبد الله بن مسلم: نعم؛ فالمنذر بن الجارود، وهو من

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص160؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص189.

الذين كتب له الحسين، قام بإفشاء رسالة الحسين إلى عبيد الله بن زياد، وكان لا يزال في البصرة، والسبب في ذلك أنَّ ابنة الرجل كانت زوجة لعبيد الله بن زياد، بالإضافة إلى أنَّه خشي أن يكون ما وصل إليه من الرسالة دسيسة له من عبيد الله ليمتحنه، فجاء بالرسالة إليه، فغضب ابن زياد وقال: من رسول الحسين إلى أهل البصرة؟

قال المنذر: إنَّ رسوله إليهم مولىً يُقال له سليمان.

فقال عبيد الله: عليَّ به.

وكان الرجل مختفياً عند بعض الموالي بالبصرة، فجاء به المنذر إلى عبيد الله، فلم يُكلِّمه في شيء، وإنَّما قدَّمه وضرب عنقه صبراً، ثمَّ أمر بصلبه، وكان أوَّل رسول قُتل في الإسلام[1].

أمَّا الأحنف بن قيس فإنَّه لم يفعل شيئاً، إلَّا أنَّه كتب رسالة إلى الحسين يقول له فيها: أمَّا بعد ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[2].

وكان هنالك أيضاً جماعة من الموالين في البصرة تحرَّكوا باتجاه الحسين، ومنهم امرأة مؤمنة صالحة تُسمَّىٰ مارية بنت سعد العبدية، كانت توالي أهل البيت، فإنَّها حوَّلت منزلها إلى محل تجمُّع للمؤمنين، وكانوا يتذاكرون فيه أمر الأُمَّة والإمامة، وما آل إليه أمر الناس، فأجمع رأي البعض على الخروج إلى مكَّة للالتحاق

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص199؛ ومقتل أبي مخنف، ص24؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص358.

(2) سورة الرُّوم، الآية الأخيرة؛ انظر: سيرة أعلام النبلاء، للذهبي، ج3، ص200.

بالحسين عليه السلام. وبالفعل فقد خرج بعضهم، وكتب بعضهم رسائل إلى الحسين يطلبون منه القدوم إليهم[1].

كما أنَّ أحد الصالحين في البصرة واسمه يزيد بن نبيط العبدي، جمع أبنائه وكانوا عشرة، فقال لهم: أيّكم يخرج معي، فإنَّني خارج إلى الحسين؟

فانتدب معه ابنان له اسمهما عبد الله وعبيد الله، فقال لأصحابه: إنِّي قد أزمعت على الخروج إلى الحسين، وأنا خارج.

فقالوا له: إنَّا نخاف عليك أصحاب ابن زياد.

فقال: إنِّي والله لو قد استوت أخفافها بالجدد، لهان عليَّ طلب من طلبني[2].

وهكذا يتبيَّن أنَّ عدوى حوادث الكوفة، والتململ الواسع هناك، وتحرُّك المؤمنين، قد انتقل إلى البصرة أيضاً، فأخذ الصالحون ينشطون فيها، وقرَّر بعضهم الخروج إلى الحسين، وبعض آخر طلب منه القدوم إلى البصرة، كما فعل بعض أهل الكوفة.

قال عبد الرحمن الصالح: في مواجهة كلّ ذلك، ألم تتحرَّك السلطة هناك؟

قال عبد الله بن مسلم: بل إنَّها تحرَّكت بأوسع ما يكون، فعندما وصلت رسالة يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد يأمره بالتوجُّه إلى الكوفة، وجعلها تحت سلطته مع البصرة، والذي كان يعني أنَّ العراق وإيران أصبحت تحت سلطة الرجل الذي

---

(1) إبصار العين، للسماوي، ص4؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص353.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص353.

تأصَّلت فيه أحقاد بني أُميَّة، وهو ابن زياد ابن أبيه المقرَّب من الأمويِّين، هذا الطاغوت عندما أراد أن يخرج من البصرة، جمع الناس في المسجد وخطب فيهم، فأرعد وأبرق وتهدَّد وتوعَّد[1].

ثمَّ قال: «أمَّا بعد، فوالله ما تقرن بي الصعبة، ولا يقعقع لي بالشنآن، وإنِّي لنكلٌ لمن عاداني، وسمّ لمن حاربني، أنصف القارة من رماها.

ثم سكت هنيئة، قال بعدها: «يا أهل البصرة؛ إنَّ أمير المؤمنين قد ولَّاني مع البصرة الكوفة، وأنا غادٍ إليها الغداة، وقد استخلفت عليكم أخي عثمان بن زياد بن أبي سفيان، فإيَّاكم والخلاف والإرجاف، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني أنَّ رجلاً منكم خالف لأقتلنَّه، وأقتلنَّ عريفه ووليّه، ولآخذنَّ الأدنى بالأقصى حتَّى تستقيموا لي، فلا يكون فيكم مخالف ولا مشاقّ. أنا ابن زياد، أشبهه من بين من وطأ الحصى، فلم ينتزعني شبه خالٍ ولا عمّ»[2].

قال عبد الرحمن الصالح: هل كان ذلك مجرَّد تهديد للتخويف، أم أنَّ الرجل كان جادّاً فيما يقول؟

قال عبد الله بن مسلم: لم يكن الأمر مجرَّد تهديد، وإنَّما قرن الرجل القول بالفعل، بل سبقه الفعل، فقد زاد من أُعطيات الشرطة، وجمع رجاله وأمرهم بالعودة إلى سياسة معاوية بن أبي سفيان:

---

(1) أنساب الأشراف، ج2، ص78.

(2) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص268؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص199.

خذوهم بالتهمة واقتلوهم بالظنَّة، وبثَّ الجواسيس في كلِّ مكان، ووضع الحراسات على مداخل البصرة ومخارجها، كما أمر أخاه بأن ينكِّل بالناس، وأن يقوم بتفتيش عقائدهم ويأخذ البريء منهم بالمتَّهم، وبذلك فقد نشر رعباً لا مثيل له على مدينة البصرة.

فقال عبد الرحمن: بعد رسالة يزيد إليه، هل أبطأ عبيد الله في الشخوص إلى الكوفة، أم أسرع؟

قال عبد الله: ما إن وصلت إليه رسالة يزيد حتى أمر بالتجهيز، ليخرج إلى الكوفة من غد[1].

قال عبد الرحمن: إنَّ سياسة عبيد الله في البصرة تشبه سياسة فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[2]، أليس كذلك؟

قال عبد الله: معلِّم جميع الطغاة واحد، وهو إبليس، ولذلك فإنَّ سياسة الطغاة واحدة على مرِّ التاريخ، إمَّا أن تكون معنا أو أنت ضدّنا، فلا حياد في نظرهم، فما يرونه لابُدَّ أن يراه الناس، كما قال فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[3].

قال عبد الرحمن: لكن هؤلاء يتحدَّثون عن الله وكأنَّهم وكلاؤه، والناطقون باسمه وأُمنائه في أرضه، فما يقدمون عليه ينسبونه إلى إرادة الله، وما من كلمة وأُخرى إلَّا ويحلفون بالله عزَّ وجلَّ، كما أنَّهم أحياناً ينطقون باسم الناس، ويعتبرون يزيد الذي

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص268.
(2) سورة طٰه، آية 71.
(3) سورة غافر، آية 29.

عيَّنه أبوه واستخدم السيف والذهب لتثبيت حكمه أميراً للمؤمنين، والمؤمنون لم يعيِّنوه ولا انتخبوه، أليس ذلك ما فعله فرعون؟

قال عبد الله: فرعون كان يعتبر نفسه ربّهم الأعلى. فالطاغوت إمَّا أن يرى نفسه ربّاً، أو على الأقل ناطقاً باسم الرَّبّ، ولو كان باستطاعة هؤلاء أن يصرِّحوا بما صرَّح به فرعون لفعلوا، لكنَّهم منافقون يضمرون ما أظهره فرعون، ويظهرون ما نطق به الأنبياء، فهم في قلوبهم يقولون للناس نحن ربّكم الأعلى، وبالفعل يتصرَّفون كأنَّهم كذلك، ولكنَّهم في الظاهر يلهجون بذكر الله.. إنَّهم يقتلون أولياء الله ويتحدَّثون بكلام الأنبياء.

قال عبد الرحمن: إذن خطر هؤلاء على الدِّين أكثر من خطر المشركين والكفَّار؟

قال عبد الله: لم يكن اعتباطاً أنَّ ربّنا أنزل سورة كاملة في القرآن حول المنافقين، وقال عنهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾[1]، لأنَّ خطر المنافقين خطر مزدوج، فأنت ترى أنَّ الدولة يديرها رجل أجنبي يعمل كمستشار لدى يزيد، ومن قبله لدى أبيه، وهو السيرجون الرومانيّ الأصل، الذي لا يدين بدين الله، ويزيد لا ينصب ولا يعزل إلَّا باستشارته وأمره، ألم تر أنَّه حينما رفض في البداية أن ينصب عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة، قال له: أشر عليَّ بغيره، يعني إمَّا هذا، وإمَّا من ترشِّحه أنت.

المهم أنَّ الخيار على كلِّ حال كان بيد هذا المستشار الأجنبي، فإذا لم يكن راضياً عن هذا فله أن يختار شخصاً آخر.

---

(1) سورة المنافقون، آية 4.

والخطورة هنا هو أنَّ هؤلاء يحاولون القضاء على كُلّ ما بناه رسول الله، ولذلك فقد ظهرت البدعة وأميتت السُّنَّة.

إنَّ البدعة الحقيقيَّة هي أن تتحوَّل خلافة رسول الله ﷺ إلى ملك عضوض، وأن يكون أهواء الحاكم هي موازين الحقّ والباطل، لا ما جاء به الأنبياء. إذن الخطورة مزدوجة بمعنى أنَّهم من جهة يبدِّلون الدِّين من داخل الدِّين، ومن جهة أُخرى فهم يحاولون القضاء على كلّ ما تبقَّى ممَّا بناه رسول الله.

قال عبد الرحمن: هل أنَّ هؤلاء يريدون الانتهاء بالدِّين إلى إنكاره، أم سيستمر وضعهم على التظاهر بالدِّين، ثمَّ تخريبه من الداخل؟

قال عبد الله: لا أشكّ أنَّهم يبغون القضاء عليه، وعلى كلّ ما يمتُّ إليه بصلة صغيراً كان أم كبيراً، وهذا ما صرَّح به معاوية ذات يوم.

قال عبد الرحمن: ومتى؟

قال عبد الله: اسمع؛ لقد ذكر مطرف بن المغيرة بن شعبة، قال: «وفدت مع أبي إلى معاوية، وكان أبي يأتي ويتحدَّث معه ثمَّ ينصرف، وجاء أبي ذات ليلة من عنده فأمسك عن العشاء، فرأيته مغتمّاً، فظننت أنَّه لشيء حدث فينا أو في عملنا، فقلت لأبي: ما لي أراك مغتمّاً هذه الليلة؟

فقال يا بُنيَّ؛ إنِّي جئت من عند أخبث الناس.

قلت له: ومن هو؟

قال: معاوية.

قلت: وما ذاك، أي ما الذي حدث؟

قال أبي: «لقد قلت لمعاوية، بعد أن خلوت به، إنَّك قد بلغت مُناك يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنَّك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه منهم.

فقال لي: «هيهات هيهات، مَلَكَ أخو تيم ـ يقصد أبا بكر ـ وفعل ما فعل، فوالله ماعدا أن هلك، فهلك ذكره، إلَّا أن يقول قائل: أبوبكر.. ثمَّ ملك أخو عدي ـ يقصد عمر ـ فاجتهد وشمَّر عشر سنين، فوالله ما عدا أن هلك، فهلك ذكره إلَّا أن يقول قائل: عمر.. ثم ملك أخونا عثمان، فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه، فعمل ما عمل وعُمل به، فوالله ما غدا أن هلك، فهلك ذكره وذكر ما فُعل به. وإنَّ أخا هاشم ـ يقصد رسول الله ـ يصرِّح به في كلّ يوم خمس مرَّات: أشهد أنَّ محمَّداً رسول الله، فأيّ عمل يبقى مع هذا؟!

ثمَّ قال: «لا والله، إلَّا دفناً دفناً، (أي دفناً لذكر رسول الله)[1].

قال عبد الرحمن الصالح: الآن أفهم عمق الجراح الذي يحمله الحسين، وشعوره بأنَّ عليه مسؤولية إحياء دين الإسلام، وإقامة شرعة الله، وبعث الرسالة من جديد، فهل أنَّ هدف الحسين من رفض البيعة هو إسقاط حكومة بني أُميَّة، وإقامة حكومة أهل البيت؟

---

(1) مروج الذهب، للمسعودي، ج4، ص49.

قال عبد الله بن مسلم: القضيَّة أكبر من مسألة إقامة حكومة. من الطبيعي أنَّ الحسين يريد إقامة الحقّ، وبسط العدل، ولكن ذلك لا يعني تحقيق ذلك فقط من خلال الحكومة. فأنبياء الله جميعاً كانوا يريدون إقامة الحقّ، وبسط العدل، وتنفيذ حكم الله في الأرض، ولكن ليس عبر إقامة سلطة يكونوا هم على رأسها، وإنَّما عبر هداية الناس، ودفعهم لتحمُّل مسؤولياتهم، وأداء دورهم بأنفسهم، ومنع الظالم من ظلمه، ومواجهة الأشرار ومساعدة الأخيار.. وبالطبع فإنَّ هذا لا يتم إلَّا من خلال الناس.

قال عبد الرحمن: ولكن في النهاية لابُدَّ أن تتبلور حركة الناس في سلطة مَّا؟

قال عبد الله: نعم؛ لابُدَّ أن تتبلور حركتهم في إقامة نظام عادل، وليس بالضرورة في إقامة سلطة، أو تبديل رئيس بآخر.

فلم يكن أبداً هدف رسول الله ﷺ أن يسلب أبا سفيان سلطته في مكَّة، ليعيِّن نفسه، أو واحداً ممَّن يرضاه، في مكانه، إنَّما كان هدف رسول الله ﷺ هداية الناس، ومن ثمَّ تغيير حياتهم في جميع أبعادها.

إنَّ الفرق بين الحسين وبين يزيد هو أنَّ يزيد لا يريد إلَّا السلطة وليس غير ذلك، أمَّا الحسين فإنَّه يريد هداية الناس.

قال عبد الرحمن: أتريد أن تقول إنَّ يزيد ليس له أيّ مشروع؟

قال عبد الله: لا أقصد ذلك، فيزيد عنده مشروع محدَّد ومشروعه هو نفسه، ولا يملك رسالة إلَّا رسالة النفاق، فهو يريد السلطة فقط.

فقال عبد الرحمن: ألم تقل إنَّهم يريدون القضاء على الدِّين، فإذن هذا هو مشروعهم؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ يزيد، وكلّ الطغاة في التاريخ يريدون السلطة المطلقة، وهذه السلطة المطلقة تتناقض بالطبع مع الخضوع لسلطة الله التي هي جوهر رسالة الأنبياء، كما تتناقض مع حقوق الناس، ولأنَّهم يريدون سلطة مطلقة فإنَّ مشروعهم هو القضاء على الرأي الآخر، وسحق كلّ من ينادي بشيء مختلف عن آرائهم.

ففرعون كان ضدّ موسى، لماذا؟ لأنَّه كان يريد أن تكون سلطته هي سلطة الرَّبّ الأعلى، ولأنَّ بني إسرائيل لم يقبلوا به كربّ، فقد عذَّبهم، ولمَّا قال له موسى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾[1]، فقد صمَّم على قتله.

إنَّ فرعون كان يريد بني إسرائيل عبيداً له، وأن لا يروا إلَّا ما يراه، وأن يقبلوا منه كلّ ما يدَّعي، بما في ذلك أنَّه ربّهم الأعلى. هذه هي رسالة جميع الطغاة في التاريخ، وهذا هو مشروعهم.

أمَّا مشروع الأنبياء والأولياء فهو مشروع كامل شامل، وليس الحكومة الصالحة إلَّا جزءاً من ذلك المشروع، وليس ذلك هو الهدف النهائي لهم ولا المقصود، كما قال الحسين نفسه في وصيَّته إلى محمَّد ابن الحنفيَّة: «وأنِّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمَّة جدِّي صلى الله عليه وآله وسلم»[2]. فلا هو «أشر» يريد إثارة الفتن، ولا هو «بطر» يبحث

(1) سورة طه، آية 47.

(2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج44، ص329.

عن السلطة والمقام والجاه، إنَّما يريد الإصلاح في أُمَّة جدّه. وهذا الإصلاح له معنى شامل، جزء منه يرتبط بإيمانهم وتقواهم وتهذيب نفوسهم، وجزء منه يرتبط بمنع الظلم والطغيان وإقامة نظام عادل.

أمَّا حصر القضيَّة في تغيير الحكومة القائمة واستبدالها بأُخرى، فهذا ليس من أهداف الحسين، كما لم يكن ذلك هدفاً لجدّه وأبيه وجميع الأنبياء والأولياء. إنَّ هؤلاء لم يكونوا يرغبون في السلطة، ونهضتهم إذا كانت تنتهي إلى سلطتهم، فهم كانوا يقيمون الحقّ بالسلطة، وإذا لم تكن تنتهي إلى الانتصار السياسي والعسكري على العدوّ فكانوا يكتفون بما يحقّقونه من هداية الناس وإصلاحهم.

من هنا فإنَّ الأنبياء في الوقت الذي بُعثوا: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[1]، كما يقول القرآن الكريم فإنَّهم كانوا مستعدّين في ذات الوقت أن يُقتلوا في سبيل الله، كما يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[2]، فبالنسبة إليهم الأمر سيَّان: أن ينتصروا، أو يُقتلوا.

قال عبد الرحمن: أتريد أن تقول إنَّ الأمر الآن بالنسبة إلى الحسين سيَّان أيضاً، وأنَّ رفضه البيعة حالياً واستجابته لأهل الكوفة، وإرساله الرسائل إلى زعماء المؤمنين، لا يعني أنَّه يبحث بالضرورة عن النصر على بني أُميَّة وإسقاط سلطتهم؟

قال عبد الله: تماماً؛ فالحسين يريد ما أراده الأنبياء، وهدفه هو أهدافهم في إحقاق الحقّ، وإماتة الباطل، والعمل بالعدل،

(1) سورة الحديد، آية 25.
(2) سورة التوبة، آية 52.

وإحياء النُّفوس، وهداية الناس، ورفع الأخيار، ودفع الأشرار، وحمل المؤمنين على أداء واجباتهم في الدفاع عن الحقّ، ومساعدة المظلومين والمضطهدين، ومعاقبة الظالمين.

فعلى عكس الطغاة الذين يتصرَّفون بدلاً عن الناس، ويقرّرون نيابة عنهم، بل ونيابة عنهم يفكِّرون، ونيابة عنهم يأكلون ويشربون ويتمتَّعون في الحياة، من دون أن يكون أي خيار للناس، فإنَّ أولياء الله بالعكس من ذلك لا يريدون أن يكونوا بدائل عن الناس. فحينما يقول لهم البعض بأن تعالوا واستلموا السلطة وقرِّروا ما تريدون، وافعلوا ما ترغبون، فإنَّهم يطلبون منهم أن يشاركوهم في العمل، ومن ثمَّ فإنَّهم يحرِّمون على أنفسهم متاع الدُّنيا لكي يتمتَّع به الناس، وشعارهم هو: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، لأنَّ الله اشترط عليهم الزهد في درجات هذه الدُّنيا الدنيَّة، فشرطوا له ذلك.

فإذا بويع أحدهم إماماً للأُمَّة، وأصبحت السلطة كُلّها في يده، فإنَّه لا يكتفي بإصدار القرارات، ولا يجبر أحداً على إطاعته، بل يفرض على نفسه أن يتساوى مع ضعفة خلق الله، لكي لا يتبيَّغ بالفقير فقره. وهذا يشمل كُلّ مناحي الحياة بما في ذلك السلطة؛ أي أنَّهم لن يستغنوا حتَّى يبتلوا بالطغيان، حيث: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[1]. وفي سلطتهم يبقى القرار هو قرار الجميع، وليس قرار الفرد، والمال مال الجميع وليس الفرد، والسلطة سلطة الجميع وليس الفرد، والحقّ حقّ الجميع وليس حقّ الفرد، ولذلك لا يسمح أحد من أولياء الله لنفسه أن يظلم إنساناً واحداً، بل ولا نملة، كما

(1) سورة العلق، الآيتان 6 ـ 7.

قال عليّ عليه السلام من قبل: «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت»[1].

❋ ❋ ❋

(1) نهج البلاغة، خطبة رقم 224.

حاكم العراقين يصل الكوفة متعطشاً للدَّم والانتقام

تعيين ابن زياد حاكماً على الكوفة والبصرة كان يعني أمراً واحداً، وهو عزم السلطة على استخدام العنف وإراقة الدم الحرام.

وكان ابن زياد يعرف مهمَّته تماماً، فالمطلوب منه أن يشنّ حرباً لا هوادة فيها على أهل بيت رسول الله ﷺ، ولعلَّ أركان السلطة كُلّها كانوا يرونها اللحظة المناسبة للقضاء على أهل بيت النَّبيّ، جسديّاً واجتماعياً وسياسياً. فرسول الله ﷺ كان قد ارتحل عن هذه الحياة قبل نصف قرن، والإمام عليّ عليه السلام كان قد قُتل، وعدوّه معاوية عمل على تغيير النسيج الاجتماعي خلال عشرين عاماً، بما يتلاءم مع مشروع بني أُميَّة في إفراغ هذا الدِّين من محتواه، وجعل الصلاة ضدّ الصلاة، والصوم ضدّ الصوم، والحجّ ضدّ الحجّ، من خلال التظاهر بشعاراته والعمل ضدّ قراراته، ولم يبق من أهل البيت إلَّا الحسين عليه السلام وعدد قليل من إخوته وأولاده وأبناء عمومته، ولذلك فإنَّ القضاء عليهم، عبر استغلال رفضه للبيعة، بعد أن خيَّروه بين السلَّة والذلَّة، ذريعةً لقتله وقتل من معه، كان ذلك يعني إتمام الفصل الأخير من مشروع بني أُميَّة، وهو

القضاء على رسالة النَّبي ﷺ من خلال القضاء على أهل بيته المدافعين عنها، ثمَّ بعد ذلك القضاء على الدِّين كُلّه.

وكما نعرف فإنَّ قيام أيّة سلطة ظالمة بتصفية خصم من الخصوم جسديّاً لن يقتصر على إراقة دمه وقتله، وإنَّما يمتد ليشمل شن حرب إعلاميَّة واسعة ضد أهدافه أيضاً، ومن ثمَّ القضاء على مشروعه.. وهذا ما كان يفعله معاوية بن أبي سفيان. فبعد مقتل الإمام عليّ سنَّ سبَّ الإمام على المنابر، ومنع الحديث عنه ومنه، وكان مجرَّد التسمية باسمه يُعدُّ جريمة كبرى يُعاقب عليها صاحبها، ولذلك فإنَّ الإمام الحسين سلام الله عليه سمَّى كُلّ أولاده عليّاً: عليّ الأكبر، وعليّ الأوسط، وعليّ الأصغر، لأنَّ الإمام هو وحده الذي كان قادراً على أن يُسمِّي أولاده باسم عليّ، وإلَّا فإنَّ الدولة قد منعت هذا الاسم من التداول.

وهكذا فإنَّ القضاء على الحسين لم يكن ليقتصر على قتله وإراقة دمه، وإنَّما سيشمل القضاء على هذه البصيرة في الدِّين والرؤية للرسالة، ومن ثمَّ القضاء على امتداد الرسالات السماوية بكلّ ما تعني الكلمة.

❋

في لقائهما اليومي تداول عبد الرحمن الصالح وعبد الله بن مسلم الأخبار عمَّا يجري في الساحة، بعد أن بدأت السلطة تتحرَّك على طريقة الطغاة في ردّ الكلمة بالسيف، واستخدام البطش بمن يخالفهم والتنكيل بهم، فجرى الحديث عمَّا يجري في البصرة والكوفة.

فقال عبد الرحمن لصاحبه: ما هي أخبارك من هناك؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ ابن زياد بعد أن عيَّن أخاه عثمان بن زياد نائباً له على البصرة، خرج هو ومعه إثنا عشر من كبار القوم، منهم المنذر بن الجارود العبدي، وشريك بن الأعور الحارثي، ومسلم بن عمر الباهلي، ومعه مئات من الحراس والخدم والحشم والغلمان والحرَّاس، حتَّى قيل أنَّ عددهم تجاوز خمسمائة شخص[1].

وأخذ يجدّ السير حتَّى يصل في أقرب وقت ممكن إلى الكوفة، ويصفِّي ما فيها من جيوب الموالين لأهل البيت سلام الله عليهم، ومن ثمَّ يستعد لمواجهة الحسين عليه السلام من هناك.

وبما أنَّ الجبهات لم تكن قد فرزت بعد، فإنَّ بعض من خرج مع عبيد الله بن زياد لم يكن في الحقيقة موالياً لبني أُميَّة، بل العكس من ذلك. فمثلاً كان شريك بن الأعور الحارثي، ممَّن يرجو أن يصل الحسين إلى الكوفة قبل ابن زياد، وأن يستتب الأمر له.

قال عبد الرحمن الصالح: أليس هذا أمراً غريباً، أن يكون حول عبيد الله بن زياد رجال يوالون أهل البيت؟

قال عبد الله: ليس هذا بغريب، فقد جُبلت النُّفوس على حبّ الخير وبغض الشرّ، إلَّا أنَّ هذا لا يعني أنَّ مواقف الرجال تتبع ما جُبلت عليه نفوسهم، فربَّما يكون حول الطاغوت من يكرهه أشدّ الكره، ويحبّ أعدائه، لكنَّه يتصرَّف بخلاف ما يحبّ ويكره.

وعلى كلِّ حال، فإنَّ الذين خرجوا مع عبيد الله بن زياد لم يكونوا مثله يحثّون السير إلى الكوفة، بل إنَّ بعضهم كان ـ كما قلت ـ

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص359.

يتمنَّى أن يتأخَّر ابن زياد حتَّى يصل الحسين أوَّلاً إلى هناك، وتستتب له الأُمور.

ولشدَّة السعي من قِبل ابن زياد، الذي كان يتمتَّع بصحَّة جيِّدة حينئذٍ، فإنَّ كثيرين من الذين كانوا معه سقطوا في الطريق، وأوَّل من سقط هو شريك بن الأعور، وكان هؤلاء يتوقَّعون أن يقف ابن زياد عليهم، وينتظرهم حتَّى يصحو صاحبهم ويتحرَّكوا معه، رغبة منهم في أن يسبقه الحسين إلى الكوفة، لكن ابن زياد لم يقف على أحد منهم[1].

ويُقال أنَّ بعض من كانوا معه من الرجال كان ربَّما يتمارض في الطريق، ليحبس ابن زياد عن الجدّ في المسير، ولكنَّه لم يكن يأبه بمن معه. وحتَّى الذين كان يعتمد عليهم عندما سقطوا لم يتوقَّف، فهذا مولاه «مهران» سقط في منطقة القادسيَّة، فقال له ابن زياد: «إن أمسكت على هذه الحال، وجئت معنا فتنظر في القصر ـ أي تستريح هناك ـ فلك مائة ألف.

قال مهران: والله لا أستطيع، فتركه عبيد الله في مكانه، وتأخَّر مهران عنه هناك[2].

❋

قال عبد الرحمن: وماذا عن وصول عبيد الله بن زياد إلى الكوفة؟

قال عبد الله بن مسلم: وصلتنا أخباره، فإنَّه تحايل على

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص268.
(2) مقتل الحسين، للمقرّم، ص170؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج20، ص389.

الناس، فقد دخل الكوفة بطريقة توحي وكأنَّه هو الحسين بن عليّ عليه السلام الذي ينتظره المؤمنون، إذ دخلها ممَّا يلي البرَّ، وهو الطرف الذي يأتي منه أهل الحجاز، وكانت عليه ثياب بيض وعمامة سوداء، وكان متلثِّماً على طريقة أهل الحجاز. وكان يركب بغلة شهباء وبيده قضيب من خيزران، وكان أصحابه الخمسمائة من خلفه، واختار أن يكون دخوله الكوفة عند العشيَّة، كما دخل إخوة يوسف عليه السلام على أبيهم عشاءاً يبكون، حتَّى لا تعرف ملامحمهم إن كانوا يبكون أو يتباكون، فصار ابن زياد لا يمرُّ على ملأ من الناس إلَّا ويُسلِّم عليهم بقضيبه وهم يظنّون أنَّه الحسين، فيقولون له: قدمت خير مقدم يابن بنت رسول الله[1].

وكان بعض الناس يقبِّلون يده ورجله[2].

ولمَّا رأى ابن زياد استبشار الناس بالحسين ساءه ذلك، وقال لمن حوله: ما أشدّ ما فسد هؤلاء.

فلمَّا قرب من قصر الإمارة التفت مسلم بن عمرو الباهلي إلى الناس الذين جاؤوا إليه ظنّاً منهم أنَّه الحسين، وقال لهم: تأخَّروا، يا ويلكم عن وجه الأمير، فليس هو ظنّكم ولا طلبتكم ـ أي أنَّه ليس هو الحسين الذي تطلبون ـ.

فتوجَّه ابن زياد إلى قصر الإمارة، وكانت الأخبار قد وصلت

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص348؛ وتهذيب التهذيب، لابن حجر، ج2، ص349.

(2) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج3، ص201.

إلى النعمان بن البشير، والي الكوفة، بأنَّ الحسين قد قدم ومعه خلق كثير.

فلمَّا انتهى إلى باب القصر ظنَّه النعمان أنَّه الحسين، فأغلق باب القصر وقال: ما أنا بمسلِّم إليك أمانتي، وما لي في قتالك من حاجة[1].

فأسفر ابن زياد عن وجهه وقال: يا نعمان؛ حصَّنت قصرك، وتركت مصرك. افتح الباب، لا فتحت، فقد طال ليلك[2].

فتأكَّد الناس الذين ظنّوه الحسين أنَّه ابن زياد، ونادوا: إنَّه ابن مرجانة، والذي لا إله غيره.

فقال بعض الحاضرين: ويحك؛ إنَّما هو الحسين.

قال: لا؛ إنَّه ابن مرجانة.

ففتح له النعمان ابن بشير باب القصر، فدخل وضربوا الباب في وجوه الناس فانفضوا[3].

❋

قال عبد الرحمن: وما الذي جرى للناس؟

قال عبد الله بن مسلم: خيبة أمل، فقد دخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد[4].

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص269.
(2) مقتل أبي مخنف، ص25.
(3) التاريخ، للطبري، ج5، ص360.
(4) التاريخ للطبري، ج5، ص358.

فقال عبد الرحمن ما عدا إظهار الحزن، هل قام أحد منهم بأيٍّ فعل؟

قال عبد الله: نعم، فإنَّ بعض الذين ظنّوه الحسين في البداية ثمَّ اكتشفوا أنَّه ابن مرجانة حصبوه بالحصباء[1].

لكنَّه لم يصب بأذىً كبير.

أمَّا في داخل القصر فقد جرى التبديل والتبادل بهدوء، حيث استلم عبيد الله بن زياد الولاية من نعمان بن بشير، بعد أن عاتبه عتاباً شديداً على عدم أخذ الناس بالعنف والشِّدَّة، كما كان يتوقَّع يزيد بن معاوية منه.

وفي اليوم التالي نادوا في الناس، حتَّى يحضروا في المسجد الأعظم، وحينما امتلأ المكان بهم خرج عبيد الله بن زياد إلى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أمَّا بعد، فإنَّ أمير المؤمنين ولَّاني مصركم وثغركم، وأمرني بقسم فيئكم فيكم، وإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشِّدَّة على مريبكم وعاصيكم، وأنا متّبع فيكم أمره، ومنفّذ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البرّ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري، وخالف عهدي، فليبق امرىء على نفسه، الصدق ينبأ عنك لا الوعيد»، ثمَّ نزل[2].

وبهذه الخطبة كشف للناس أنَّ يده مفتوحة لاستخدام السيف والمال، فهو سيقسِّم الفيء فيهم، ويحسن إلى مطيعهم، ويأخذ

(1) مروج الذهب، للمسعودي، ج3، ص67.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص358.

مريبهم بشدَّة، وفي كلامه «ليبق امرىء على نفسه»، تهديد صريح بالقتل والموت لكلّ من يخالف سلطة بني أُميَّة.

أمَّا النعمان بن البشير فقد ارتحل نحو وطنه بالشام[1].

❋

من جانبه، لم يكتف ابن زياد بإلقاء الخطاب في المسجد الكبير، وتهديد الناس بالموت، وتطميعهم بالمال، وإنَّما قام بمجموعة من الخطوات العمليَّة، فأوَّلاً أخذ العرفاء أخذاً شديداً واجتمع بهم وقال: «اكتبوا إليَّ الغرباء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الخوارج، وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتب منهم لنا فبريء، ومن لم يكتب لنا أحداً فيضمن لنا ما في عرافته أن لا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علينا منهم باغ، فمن لم يفعل برئت منه الذمَّة، وحلال لنا مالُه، وسفكُ دمه، وأيّما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد، لم يرفعه إلينا صُلب على باب داره، وألغيت تلك العرافة من العطاء، وسيّر إلى موضع بعمَّان الزارة»[2].

وثانياً، زاد من أعطيات الشرطة، وزاد من عدد الجنود والحرس أكثر بكثير ممَّا كانوا موجودين في الدولة، وبثَّ الكثير منهم لتفتيش البيوت، ومن ثمَّ بسط الرعب في النُّفوس، كما بدأ حرباً نفسيَّة من خلال بثّ الدعايات يومياً بأنَّ جيش الشام قادم، حيث كان يأمر مناديه أن ينادي في قبائل العرب: أن أثبتوا على بيعة يزيد،

---

(1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص234.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص359.

قبل أن يبعث إليكم من الشام رجالاً يقتلون رجالكم، ويسبون حريمكم[1].

وهكذا فإنَّ عبيد الله بن زياد بدأ الهجوم على كلّ من يعارض بيعة يزيد، أو يؤيد مسلم بن عقيل، أو كتب رسالة إلى الحسين، وأمر بزيادة الأعطيات لرؤساء القبائل وزعماء الجند، وشكَّل بالإضافة إلى ذلك مجموعات صغيرة، وأمرهم بأن يذهبوا إلى القبائل ويتظاهروا بأنَّهم مع الحسين بن عليّ، ويطلبوا منهم البيعة للحسين، فمن بايع منهم كتبوا إلى ابن زياد باسمه واسم من معه، ومن رفض البيعة قتلوا منهم واحداً أو اثنين ليزيد حقدهم على أهل البيت عليهم السلام.

❋ ❋ ❋

(1) مقتل أبي مخنف، ص25.

بداية المواجهة بين مبعوث الحسين عليه السلام ووالي يزيد

اضطرب أمر الناس في الكوفة بعد نشر الرعب فيها بقيام عبيد الله بن زياد بإعلان الأحكام العرفيَّة، حيث نصب على مفارق الأزقَّة رجالاً يفتشون الناس، ومعهم قوائم بأسماء من تطلبهم السلطة، كما أمر بأخذ الغرباء ووضع حراسات على مداخل المدينة ومخارجها، وكان يجتمع على مدار اليوم بمن له هوى في بني أُميَّة، ويصدِّر لهم الأوامر بما يجب عليهم أن يفعلوه، كما عمد إلى بيت المال وفرَّغه على الزعماء ورؤساء القبائل وكبار القوم، وزاد من عدد السجون.

وكانت أوامره الأوَّلية تقضي باعتقال كلّ من يظن فيه الخطر، فأخذت البيوت تمتلأ واحدة بعد أُخرى بالمسجونين.

من جانبه سمع مسلم بن عقيل بكلّ ما كان يجري، فخرج من الدار التي كان فيها في جوف اللَّيل، حتَّى أتى دار هاني بن عروة المذحجي، وكان من أشراف أهل الكوفة، وشيخ قبيلة مراد وزعيمها، فدخل عليه، فلمَّا رآه هاني قام إليه وقال: ما وارئك؟

قال مسلم: ورائي ما علمت، هذا عبيد الله بن زياد قد قدم الكوفة، وقد أقبلتُ إليك لتجيرني، وتأويني حتَّى أنظر إلى ما يكون.

فقال هاني بن عروة: «رحمك الله؛ لولا دخولك داري وثقتك لأحببت أن تخرج عنِّي، غير أنَّه يأخذني من ذلك ذمام، فأنزلْ على بركة الله».

فدخل مسلم واستقرَّ به الدار، لكنَّه لم يكتف بانتقاله إلى هناك، فلم يكن قد اختفى في دار هاني بن عروة حفاظاً على نفسه، بل جاء إلى هناك لكي يستمرّ في عمله، فكان يأتي إليه من يوثّقه أصحابه المقرَّبون إليه، فيبايع الحسين من خلاله[1].

وبلغ مجموع من بايع مسلم منذ دخوله الكوفة أكثر من ثمانية عشر ألفاً[2].

ومع بيعة هذا العدد الكبير من الناس الذين أتوه فرادى وجماعات، والإعلان عن ولائهم للحسين عليه السلام واستعدادهم للدفاع عن أهل البيت، فإنَّ مسلم بن عقيل كتب رسالة أرسلها مع عابس بن شبيب الشاكري إلى الحسين يقول له فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«أمَّا بعد، فإنَّ الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجِّل الإقبال حين يأتيك كتابي، فإنَّ الناس معك، ليس لهم في آل أبي سفيان رأي، والسَّلام»[3].

❋

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص68؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص200.
(2) العوالم، للبحراني، ج17، ص192؛ والسيرة النبويَّة، لابن حبَّان، ج2، ص307.
(3) الأخبار الطوال، للدينوري، ص243؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص375.

في فناء الكعبة التقى عبد الرحمن الصالح بعبد الله بن مسلم وأخذا يتدارسان الأوضاع، فقال عبد الله: هل تعرف ماذا يحدث الآن في الكوفة؟

قال عبد الرحمن: لا.

قال عبد الله بن مسلم: لقد أصبحت هنالك حكومتان في الكوفة، واحدة ظاهرة يرأسها عبيد الله بن زياد، ويسخِّر فيها كلّ موارد الدولة لمواجهة حركة أهل البيت، والأُخرى هي لمسلم بن عقيل، بعد بيعة عدد كبير له، ففي الخفاء هناك حركة نشطة من المؤمنين في جمع أكبر عدد ممكن من البيعة للإمام الحسين من خلال مسلم بن عقيل.

قال عبد الرحمن: وهل ستقع المواجهة بين هاتين الحكومتين؟

قال عبد الله بن مسلم: بحسب ظاهر الأُمور، فإنَّ مسلم بن عقيل لا يعد العدَّة للمواجهة بالسلاح مع عبيد الله بن زياد، إنَّما مهمَّته أن يستطلع الأوضاع، وأن يكتب إلى الإمام الحسين ما يجري هناك، فلم يُكلَّف، بحسب رسالة الحسين له ولأهل الكوفة، بالقيام بالمواجهة.

قال عبد الرحمن: ماذا لو أنَّ عبيد الله بن زياد هو الذي قرَّر الهجوم على مسلم؟

قال عبد الله: لكلّ حادثة حديث، وأظن أنَّ مسلم سيدافع عن نفسه شخصيّاً، فهو لم يذهب إلى هناك ليجمع المال والسلاح، ولم يرشح أيّ خبر بأنَّه يهيَّأ رجاله لمواجهة مسلَّحة مع السلطة القائمة، لأنَّ أهل البيت سلام الله عليهم، مثل الأنبياء لا يجعلون الحرب في

أولويات عملهم، ولا القتال وسيلة لهداية الناس، إنَّما السيف عندهم في مواجهة السيف، والقوَّة لمواجهة القوَّة.

قال عبد الرحمن: ولكن رسول الله حارب أعداءه، وكذلك فعل الإمام علي؟

قال عبد الله: ومن قبلهما فإنَّ الأنبياء أيضاً قاتلوا. ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[1]، لكنَّهم لم يقاتلوا الناس لكي يؤمنوا بالله وشرائعه. وحتَّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يفرض على أهل المدينة حينما هاجر إليها أن يؤمنوا به، ولا فرض على أهل مكَّة بعد أن فتحها أن يؤمنوا بدينه، وحتَّى أولئك الذين وقفوا على الحياد وتركوا قتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم اعتبرهم من المؤلَّفة قلوبهم، ووزع عليهم الغنائم لكي يكسب قلوبهم، لعلَّهم يميلوا إلى دين الله باختيارهم.

غير أنَّ هذا لا يعني أنَّ الأنبياء والأولياء يخضعون لمنطق القوَّة من قِبل أعدائهم، بل أنَّهم يدفعون الشرّ بمثله، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2]. فكما يقول الإمام عليّ عليه السلام: «ردّوا الحجر من حيث جاء، فإنَّ الشرّ لا يدفعه إلَّا الشرّ»[3]. فهم يسالمون من يسالمهم، ويقاومون من يريد أن يفرض عليهم الكفر والشِّرك والظلم والطغيان والعصيان. وليس مسلم بن عقيل مستثنى منهم، فالأخبار التي تأتي من هناك تقول إنَّ مسلم بن عقيل لم يستخدم السلاح في أفضل الحالات التي كان فيها، في الوقت الذي

(1) سورة آل عمران، آية 146.

(2) سورة البقرة، آية 194.

(3) نهج البلاغة، حكمة 314.

كانت السلطة في أضعف حالاتها؛ فلا هو حاول أن يقتحم دار الإمارة، ولا أعلن الحرب على عبيد الله بن زياد في بداية دخوله الكوفة، مع أنَّه كان يملك الكثير من السلاح والرجال، لأنَّ أولياء الله يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقتلون في سبيل الطاغوت. وأولياء الله ملتزمون بقيمهم ومبادئهم حتى في أحلك الظروف، ويرفضون مبدأ «أنَّ الغاية تبرِّر الوسيلة»، بل يرون أنَّ الغاية تُحدِّد الوسائل وتقيّدها.

ألم تر كيف أنَّ الإمام عليّ عليه السلام فوَّت على نفسه فرصاً كثيرة للانتصار، لأنَّه رفض أوَّلاً البدأ بالقتال، وثانياً التزم بالأخلاقيات في أشدّ الحالات، وقدم مبادئه وقيمه على إحراز الانتصار، وكان يصرِّح قائلاً:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور»[1]؟ ويقول: «ما ظفر من ظفر الإثم به»[2].

ففي معركة صفِّين سنحت له فرصة أن يقضي على واحد من أشدّ أعدائه، وأكثرهم حيلة ومكراً، وهو عمرو بن العاص، لكنَّ الرجل كشف عن عورته فالتزم الإمام عليّ عليه السلام بالحياء وترك عمرو بن العاص يهرب من تحت سيف ذي الفقار، بادياً سوأته للريح. ولو أنَّ الإمام عليه السلام كان يبادره بضربة من سيفه، الذي ما ضرب به أحداً إلَّا وسقى الأرض من دمه، وشقَّه من رأسه إلى عورته، لما كان عند أحد ملوماً، لكن عليّاً يختلف

(1) نهج البلاغة، خطبة رقم 126.
(2) نهج البلاغة، حكمة رقم 327.

عن غيره في أخلاقيَّاته، ومناقبيَّاته، والتزاماته، وكرمه، وشجاعته، وعطائه.

وعندما كان يقول لأصحابه أنَّ ابن ملجم هو الذي سوف يقتله، فيقولون له: فلِمَ لا تقتله؟ يقول: إنَّ الله لا يعذِّب العبد حتى تقع منه المعصية.

وتارة يقول: فمن يقتلني؟[1] أو يقول: أقصاص قبل الجناية؟

وحينما قال له بعضهم: يا أمير المؤمنين، أخبرنا بالذي يخضب هذه من هذه (أي قاتلكُّ) نبيد عشيرته. فقال عليه السلام: إذاً والله تقتلون به غير قاتلي[2].

وهكذا هو مسلم بن عقيل، فهو يرفض أن يطلب النصر بالجور، فلا يبادر إلى قتال أحد، ولا يتوسَّل بوسائل مثل الغدر والاغتيال.

وهذا بالفعل ما حدث عندما سنحت له الفرصة، لكي يغتال ابن زياد ولم يفعل.. فقد تعرَّض شريك بن الأعور البصري، الذي صحب عبيد الله بن زياد في طريقه من البصرة إلى الكوفة، للمرض فنزل عند هاني بن عروة، وكان متوقّعاً أن يقوم عبيد الله بن زياد بزيارته في دار هاني، حيث كان مسلم بن عقيل نازلاً عنده متخفّياً.

وعندما أرسل ابن زياد من يذكر له أنَّه سيأتيه عائداً، قال شريك بن الأعور لمسلم بن عقيل: «إنَّما غايتك هلاك هذا الطاغية، وقد أمكنك الله منه، فهو يأتي إليَّ ليعودني، فقم، فادخل الخزانة

---

(1) مدينة المعاجز، للسيِّد هاشم البحراني، ج3، ص42.
(2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج42، ص196.

حتَّى إذا اطمأن عندي فاخرج إليه فاقتله، ثمَّ اذهب إلى قصر الإمارة فاجلس فيه، فإنَّه لا ينازعك فيها أحد من الناس، فإن رزقني الله العافية ذهبت إلى البصرة فكفيتك أمرها، وبايع لك أهلها».

فقال هاني بن عروة: ما أحبّ أن يُقتل ابن زياد في داري.

فقال له شريك بن الأعور: ولماذا؟ فوالله إنَّ قتلَه لقربانٌ إلى الله.

ثمَّ التفت إلى مسلم وقال: لا تقصِّرنَّ في ذلك.

فبينما كانوا هم يتحدَّثون في هذا الموضوع، إذ قيل لهم: إنَّ الأمير بالباب.

فدخل مسلم بن عقيل الخزانة، وجاء عبيد الله بن زياد ودخل على شريك، فسلَّم عليه، وبدأ يسأله عمَّا يشتكي منه.

فلمَّا طال سؤاله إيَّاه استبطأ شريك بن الأعور خروج مسلم بن عقيل لقتله، فجعل يقرأ أبياتاً من الشعر يقول فيها:

ما الانتظارُ بسلمى لا تحيِّيها   حيّوا سليمى وحيّوا من يحيِّيها
هل شربةٌ عذبةٌ تُسقى على ظمأ   ولو تلفتُ وكانت منيَّتي فيها
فإن أحسَّت سليمى منك داهية   فلست تأمن يوماً من دواهيها

وجعل يُردِّد هذه الأبيات، ويخلع عمامته ويضعها على الأرض، ثمَّ يضعها على رأسه، ثمَّ يضعها على الأرض، ويقول: «إسقنيها وإن كانت فيها نفسي»، وكرَّر ذلك مرَّتين أو ثلاثة.

فقال عبيد الله لهاني بن عروة: أترونه يهجر؟

فقال له هاني: نعم، أصلحك الله، ما زال هذا ديدنه منذ الصباح.

ثمَّ إنَّ عبيد الله قام وانصرف، فخرج مسلم من الخزانة، فقال له شريك معاتباً: ما منعك من قتله؟

قال مسلم: «منعني من ذلك خلَّتان، إحداهما قول رسول الله: «إنَّ الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن».. والثانية، كراهة هاني أن يُقتل الرجل في داره.

فقال شريك بن الأعور: «أما والله، لو قتلتَه لقتلتَ فاسقاً فاجراً غادراً، ولاستقام لك أمرك».

وأضاف: «ما رأيت أحداً أمكنته فرصة فتركها إلَّا أخذته ندماً وحسرة، وأنت أعلم»[1].

✽

وهكذا فإنَّ مسلم بن عقيل رفض أن يقتل عدوّه بطريقة الفتك والاغتيال، مع أنَّها كانت ضربة سهلة بالنسبة إليه، وعظيمة التأثير بالنسبة إلى مصيره. فعبيد الله بن زياد، كما قال شريك بن الأعور، كان رجلاً غادراً وفاسقاً، لا يرقب في الله إلّاً ولا ذمَّة، غير أنَّ الأيمان قيد الفتك عند مسلم بن عقيل، ولا يُطلب النصر بالجور.

قال عبد الرحمن الصالح: وما الذي حدث لشريك بن الأعور؟

قال عبد الله: إنَّ الرجل مات بعد ذلك بثلاثة أيَّام، فصلَّى عليه عبيد الله بن زياد، ودفنه إلى جنب أبيه في المقبرة[2].

---

(1) أنساب الأشراف، للبلاذري، ج2، ص79؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص236؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص65.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص364.

قال عبد الرحمن: يوماً بعد يوم يكتشف الناس فعلاً أنَّ لهذا الدِّين معركتين: معركة ضدّ الكفر والشرك، والتي قادها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأبت إرادة الله إلَّا أن ينتصر فيها نبيّه الكريم. ومعركة أُخرى مع النفاق والكفر المبطَّن، والتي يقودها أهل البيت منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال عبد الله: والمعركة الأولى أيضاً كان أهل البيت هم الذين وقفوا فيها مع النبيّ، فكان عليّ عليه السلام سيف رسول الله المسلول، وعضده المفتول، وسنده الأوّل، وبه نجَّاه الله في ليلة الهجرة، وبه دفع الله شرّ قريش في معركة بدر، وبه كفى الله المؤمنين القتال في معركة الأحزاب.. فأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هم الذين يعرفون قدر نبيّهم وقدر هذا الدِّين، ويقفون معه، ويضحّون من أجله، لا يريدون أجراً على ما يتحمَّلون، فلم يحصلوا في مقابل ما تحمَّلوه إلَّا العنت والعذاب والهجرة والقتل، هم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدَّلوا تبديلاً.

وبينما كان عبد الله بن مسلم وعبد الرحمن الصالح يتحدَّثان عن ذلك، وإذا بشخص كان يجلس ورائهم ويسمع كلامهم التفت إليهما، وقال: بالله عليكما، وبحقِّ هذه الكعبة، عمَّا تتحدَّثان؟

فقال عبد الله بن مسلم: لا حاجة إلى الحلف، نتحدَّث عن الحسين ويزيد، وعن أهل البيت وبني أُميَّة، وعن المؤمنين حقّاً وعن المنافقين.

قال الرجل: يا هذا، إنَّه خلاف في داخل الأُمَّة ما بين مسلم وآخر، فهذا من مصاديق ما قال عنه ربّنا في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾[1].

قال عبد الله بن مسلم: ليس هذا من مصاديق الآية.

قال الرجل: ألا تعتبر أنَّ أبا سفيان ومعاوية ويزيد هم من المؤمنين؟

قال عبد الله بن مسلم: انظر يا رجل، لوأخذنا تاريخ هؤلاء الثلاثة الذين ذكرتهم، وتاريخ النبيّ وعليّ، ثمَّ الحسن، والآن الحسين، فما الذي نرى؟

حينما بعث الله نبيّه برسالة هذا الدِّين وقف في وجهه أبو سفيان بن حرب، وكان هو شيخ المؤلِّبين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزعيم المحاربين لدعوته، ولم تكن هنالك غزوة من الغزوات إلَّا وكان لأبي سفيان دور أساسي في تأليب القبائل ضدّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وجمع الأموال لمحاربته.

وقد استمر في قيادة قريش في حربها للنبيّ، ومنازلة المهاجرين والأنصار، إلى أن فتح الله مكَّة لنبيّه، وأعلن أبو سفيان إسلامه لكي يحقن دمه، ومع ذلك حينما نظر إلى جيوش المسلمين قال لعبَّاس بن عبد المطَّلب: والله يا أبا الفضل؛ لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً!

فقال له العبَّاس: إنَّها النُّبوَّة.

(1) سورة الحجرات، آية 9.

فهو حتى بعد إعلانه للإسلام يعتبره ملكاً لا نبوَّة، ولذلك قال: نعم، إذن[1].

أمَّا إسلام ابنه معاوية فكان كإسلام أبيه بعد فتح مكَّة، وكان أقصر إسلام عرفه المسلمون بعد فتح مكَّة، حتَّى أنَّ أمّ معاوية هند بنت عتبة كانت تصيح في القوم بعد إسلام أبي سفيان: «أُقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه، قبح من طليعة قوم، هلَّا قاتلتم، ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم»[2]؟

وبقي أبو سفيان إلى ما بعد إسلامه زمناً يعتبر غلبة الإسلام على الجاهليَّة يعتبرها غلبة على نفسه، فقد نظر إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مرَّة وهو في المسجد، وقال: ليت شعري، بأيِّ شيء غلبني؟

فلم يخف على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم معنى كلامه، فأقبل عليه حتَّى ضرب بين كتفيه وقال له: بالله غلبتك يا أبا سفيان[3].

وحتَّى في غزوة حنين حينما انهزم المسلمون في البداية أخذ أبو سفيان يقول: ما أراهم يقفون دون البحر؟ متمنّياً هزيمة المسلمين[4].

وكان في حروب الشام يهتف كلَّما تقدَّم الرُّوم: إيهٍ يا بني الأصفر.. فإذا تراجعوا عاد فقال: ويلٌ لبني الأصفر[5].

---

(1) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج2، ص166؛ والسيرة النبويَّة، لابن هشام، ج4، ص53.

(2) أعلام الورى، ج2، ص223؛ والبداية والنهاية، ج4، ص291.

(3) البداية والنهاية، ج4، ص304.

(4) التاريخ، لليعقوبي، ج2، ص62؛ والنصائح الكافية، ص110.

(5) الأغاني، لأبي الفرج، ج6، ص333.

قال الرجل: ولكن النبيّ في فتح مكَّة قال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن[1].

قال عبد الله بن مسلم: هذا فضل لرسول الله، وليس فضلاً لأبي سفيان. فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن ينظر إلى خصومته مع أبي سفيان نظرة شخصيَّة ولم يكن يدافع فيها عن مصالح قومه، بل كان يدافع عن دين الله، ومن ثمَّ فاعتبر كلّ من يذهب إلى دار هذا الرجل، أو يغلق على نفسه الدار، أو يذهب إلى بيت الله فهو آمن. لم يكن النبيّ يريد أن يقاتل أساساً، وقد أمر عليّاً عليه السلام أن ينادي: اليوم يوم المرحمة، اليوم تُحمى الحرمة.

فأقام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أبا سفيان على رأس المؤلَّفة قلوبهم، الذين زاد لهم العطاء عسى أن يذهب ما في نفوسهم من كراهيَّة لغلبة الإسلام، ومع هذا كان المسلمون يتوجّسون خيفة من أبي سفيان، فلا ينظرون إليه ولا يقاعدونه، حتَّى برم من ذلك وتوسَّل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعل معاوية كاتباً بين يديه.

وبعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومبايعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، كان أبو سفيان يحاول أن يدفع المسلمين إلى الاقتتال فيما بينهم، فقد جاء إلى عليّ والعبَّاس وقال: «يا عليّ وأنت يا عبَّاس، ما بال هذا الأمر في أذلّ قبيلة من قريش وأقلّها؟ والله لو شئت لأملأنَّها عليه ـ ويقصد أبا بكر ـ خيلاً ورجلاً، وآخذنَّها عليه من أقطارها.

كان يريد أن تشبّ الحرب حتى ينفتح الباب لزعامة بني أُميَّة

---

(1) النزاع والتخاصم، ص54.

من جديد، ولذلك فقد رفض عليّ عليه السلام هذا الأمر، وقال: لا والله، لا أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجلاً.

وأضاف عليه السلام: «يا أبا سفيان، إنَّ المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض، وإنَّ المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض، متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم»[1].

وبعد أن قامت خلافة عثمان بن عفَّان، وانتصر الأمويّون فيها، باعتبار أنَّ الخليفة كان منهم، وابن عمّ قريب لزعماء بيوتهم، أصبحت الدولة أمويَّة لا يطمع فيها خيراتها ولا يأتها إلَّا من كان من أُميَّة أو من حزبهم. فمروان بن الحكم كان وزير الخليفة الأوَّل، يغدق العطاء على الأقرباء ويحبسها عن سائر الناس، وأقرَّ الخليفة معاوية بن أبي سفيان والياً على بلاد الشام، وأضاف إلى سلطته مناطق أُخرى، فلم يكن يعمل إلَّا على اجتذاب الأقرباء والأولياء، ومن يرجو منهم العون ويخشى منهم الخلاف.

ولمَّا قُتل عثمان تبيَّن أنَّ جميع المنتفعين بمناصب الدولة وأموالها هم من الأمويِّين أو من صنائعهم.

ثمَّ حينما بايع الناس عليّ بن أبي طالب كانت الدولة بكلّ إمكانياتها في يد الأمويِّين، فأخذ معاوية يستخدم كلّ ما تحت يديه من أموال، ويحشد من كان على قرابة منه هنا وهناك لمواجهة عليّ، وشنّ الحروب عليه، وانتهت القضيَّة إلى مقتله.

ثمَّ بايع الناس في العراق وفارس الحسن بن عليّ، لكن معاوية اغتال البعض واشترى ضمائر البعض الآخر، فلم يستقم

(1) التاريخ، لليعقوبي، ج2، ص126؛ والنصائح الكافية، ص110.

للحسن أمره، وصالح معاوية على شروط أوَّلها ـ تسليم الأمر إلى معاوية بشرط أن يعمل بالكتاب والسُّنَّة وسيرة الخلفاء الصالحين. وثانيها ـ أن يكون الأمر للحسن من بعده، ومن بعد الحسن للحسين، وليس لمعاوية العهد به لأحد. ثالثها ـ أن لا يذكر عليّاً إلَّا بخير، وترك سبَّه والقنوت عليه بالصَّلاة. رابعها ـ الأمان لأصحاب عليّ وشيعته، وأن لا يبري معاوية لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة.

لكن معاوية لم يلتزم بأيّ شيء من شروط هذا الصلح إلَّا الشرط الأوَّل وهو تسليم الأمر إليه، ثمَّ زاد على ذلك أنَّه أغرى امرأة الحسن «جعدة بنت الأشعث» بإعطاء السُّمّ لزوجها وقتله، ووعدها بأن يزوِّجها من يزيد، ويعطيها مائة ألف درهم، فوفَّى بوعد المال، ولم يوفِّ بوعد الزواج[1].

وقد وصل بالأمويين الأمر أن منعوا دفن الحسن بن عليّ إلى جنب قبر جدّه، كما أوصى، حيث قاد مروان بن الحكم لمَّة من الغواة، ومنعوا مشيعي الحسن من الاقتراب من قبر رسول الله، ورموا جنازته بالسهام، ممَّا اضطرَّ الحسين إلى أن يدفن أخاه في البقيع. هكذا ضيَّقوا الدُّنيا على أهل بيت رسول الله أحياءً وأمواتاً.

قال الرجل: إنَّ الجميع قد ذهبوا إلى ربّهم، فلنترك الحديث عنهم.

فقال عبد الله بن مسلم: الجميع ذهبوا إلى ربّهم، ولكن أليس

---

(1) التاريخ، لليعقوبي، ج2، ص225؛ وتاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، ج13، ص300؛ وتذكرة الخواص، ص211؛ ودلائل الإمامة، ص61.

فرعون وموسى أيضاً ذهبا إلى ربّهم؟ فلماذا علينا أن نقرأ في القرآن الكريم حديث الصراع بينهما، وأن نعرف الحقّ لأهله، وأن نلعن الظالمين.. ونمرود وإبراهيم أيضاً ذهبا إلى ربّهم، وهابيل وقابيل من قبل ذهبا إلى ربّهم.. فهل ترك الله أمر هؤلاء، لأنَّهم ذهبوا إلى ربّهم؟

ثمَّ إنَّ المشكلة ليست في الذين ذهبوا، وإنَّما المشكلة أنَّ معاوية مهَّد لبيعة ابنه يزيد منذ سبع سنوات، وتوصَّل إلى ذلك باستخدام السيف تارة، والاغتيال تارة أُخرى، وإغداق الأموال وشراء الضمائر في الأغلب، وهو يعرف ابنه، شابّاً نزقاً عربيداً سكِّيراً، لا يصلح لكي يكون مجرَّد شرطي، فكيف أن يكون خليفة المسلمين، ويتبوَّأ مقعد رسول الله؟.

فالصراع الذي بدأ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حينما أعلن الدعوة مع أبي سفيان، لا يزال ممتدّاً، وكما يقول الشاعر:

عبدُ شمسٍ قد أضرمتْ لبني هاشمَ   حرباً يشيبُ منها الوليدُ
فابنُ حربٍ للمصطفى، وابنُ   هندٍ لعليٍّ، وللحسينِ يزيدُ[1]

قال الرجل: أتريد أن تقول بأنَّ الحقّ مع أهل البيت؟

قال عبد الله بن مسلم: وأنت، أتريد أن تقول إنَّ الحقّ مع أعدائهم؟ إنَّني أسألك سؤالاً واحداً: ألم يوصِّ رسول الله بأهل بيته خيراً؟ وهل أنَّه أوصى بأن يؤخذ من فاطمة الزَّهراء عليها السلام نحلتها التي نحلها أبوها؟

هل أوصى بأن يُقتل عليّ في محرابه؟

---

(1) النزاع والتخاصم، ص59.

هل أوصى بأن يُسقى الحسن السُّمّ؟

هل أوصى بأن يحاصر الحسين؟

ألم يقل: «**فاطمة بضعة منِّي، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله**»[1]؟

ألم يقل لعليّ: «**حبّك تقوى وإيمان، وبغضك كفر ونفاق**»[2]؟

ألم يقل: «**الحسن والحسين ريحانتاي من الدُّنيا**»[3]؟

ألم يقل: «**الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنَّة**»[4]؟

ألم يقل: «**حسين منِّي وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً**»[5]؟

ألم يقل: «**الأئمَّة من أهل بيتي كالنُّجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم**»[6]؟

ألم يقل: «**مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلَّف عنها غرق**»[7]؟

تُرى، لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أوصى بالوقيعة في أهل بيته، فهل كان من الممكن أن يفعلوا بهم أكثر ممَّا فعلوا؟ وربّنا يقول في

(1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج30، ص353.
(2) الأمالي، للصدوق، ص77.
(3) مناقب آل أبي طالب، لابن شهرآشوب، ج3، ص154.
(4) الأمالي، للصدوق، ص187.
(5) الإرشاد، للمفيد، ج2، ص. 28
(6) دعائم الإسلام، للقاضي النعمان المغربي، ج1، ص87.
(7) خاتمة المستدرك، للميرزا النوري، ج1، ص356.

كتابه الكريم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[1]، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة على أهل بيته جزءاً من الصلاة الواجبة؟

قال الرجل: ومن المسؤول عن ذلك؟

قال عبد الله بن مسلم: إبحث أنت، عمَّن هو المسؤول عن ذلك، فإذا كان رسول الله وأهل بيته هم موازين الحقّ والعدل، فمن تخلَّف عن ذلك الميزان فهو مسؤول عن كلّ ما جرى ويجري.

سكت الرجل وسكت عبد الله، وقاموا، وانفضَّ المجلس.

❋ ❋ ❋

(1) سورة الشورى، آية 23.

مسلم بن عقيل وحيداً
في مواجهة إمبراطوريَّة الشرّ

بعد أن نجى عبيد الله بن زياد من قتل محقَّق بسبب التزام مسلم بن عقيل بشروط الإيمان، فلم يقبل أن يقضي عليه بالفتك، بدأت الحوادث تأخذ منحى آخر. فبعد أن كان مسلم بن عقيل محوراً لحركة المؤمنين الذين نشطوا من عقال، في تنظيم أُمورهم وجمع الموالين لهم، وأخذ البيعة منهم للحسين بن عليّ، أصبح الوضع مختلفاً بعد أن أفرغ عبيد الله بن زياد بيت المال في جيوب رؤساء القبائل والعشائر، وأرسل أنصاره إلى كلّ بيت في الكوفة يعدون ويتوعَّدون، فانطلقوا يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من جيش الشام، وينذرون الناس بقطع العطاءات وأخذ البريء بالمذنب، والغائب بالشاهد، ويهدِّدون بالموت كلّ من لم ينفع معه الرشاء بالمال، ويتوسَّلون بكلّ وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم بن عقيل، حتَّى أنَّهم كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها، والأُمّ وراء ولدها، والأخ وراء أخيه، فيتعلَّقون بهم حتَّى يقفلوا راجعين إلى دورهم، أو يدفعوهم للانخراط في زمرة عبيد الله، وعلى أقل التقادير كانوا يقولون لبعض ضعاف النُّفوس إنَّ هذه معركة بين سلطتين، سلطة قائمة وسلطة تريد أن تقوم، فمن الأفضل أن

تكونوا أحلاس بيوتكم، فإذا انتصر هؤلاء على أولئك فعندكم الفرصة لكي تتقرَّبوا إليهم، وإذا كان العكس كنتم في سلامة ودعة، وكان الشعار الذي رُفع: «ما لنا والدخول بين السلاطين».

وهكذا تغيَّر وضع مسلم بن عقيل، فأصبح من قائد للألوف، إلى مطلوب للسلطات، وكان عبيد الله بن زياد يزيد على مدار الساعة من عدد جنوده وشرطته، ويصدِّر لهم الأوامر فيما يجب عليهم أن يفعلوا. بينما كان في الجهة الأُخرى يتفتَّت أصحاب مسلم وينقسمون على أنفسهم، حتى ذهب أكثرهم إلى بيوتهم، أمَّا الذين جاؤوا من أجل حطام الدُّنيا فقد انقلبوا على أنفسهم، وانضمّوا إلى جبهة عبيد الله بن زياد. فاختفى مسلم بن عقيل عن الأنظار، وأصبح الشغل الشاغل لعبيد الله أن يعرف أين يختفي، وكان يعرف أنَّ اعتقال مسلم أو قتله سوف يجعل الموالين لأهل البيت في وضع ضعيف، وربَّما تتلاشى قوَّتهم في مدينة الكوفة.

أمَّا مسلم بن عقيل فقد اختفى في بيت هاني بن عروة، وكان هاني، بالإضافة إلى كبر سنّه وعظم مقامه، زعيم قبيلة مذحج الذين كان لهم أربعة آلاف مقاتل إذا تمَّت تعبئتهم، وبما أنَّ مسلم بن عقيل قد غيَّر مكانه عدَّة مرَّات، فقد خفي على عبيد الله مكان وجوده، وقبل أن يقدم الرجل على اقتحام أي بيت من البيوت، كان عليه أن يتأكَّد أين يكون مسلم، هل هو في بيت سليمان بن صرد الخزاعي، أم في بيت مختار بن أبي عبيدة الثقفي، أم في بيت مسلم بن عوسجة، أم في بيت هاني بن عروة أم في مكان آخر.

وهنا توسَّل ابن زياد بالحيلة، كما كان يفعل طغاة بني أُميَّة،

فلا هم كانوا في حروبهم يلتزمون بأُصول المواجهة والحرب، ولا في حالة السلم والضعف كانوا يتركون الحيلة والمكر.

وكان في رجال ابن زياد رجل مغمور من أهل الشام يُسمَّى بـ«معقل»، لا يعرفه أهل الكوفة، فطلبه ابن زياد وأعطاه ثلاثة آلاف درهم وقال له: «خذ هذا المال وانطلق، فالتمس لي مسلم بن عقيل، وأوصاه بأن لا يستعجل في أمره، ويتحرَّك بغاية التأنِّي والحذر.

فجاء الرجل حتَّى دخل المسجد الأعظم، ولكنَّه لم يكن يعرف من أين يبدأ، فنظر إلى من هو حاضر هناك، فرأى رجلاً عليه سيماء الصالحين، يكثر من الصَّلاة بوقار وإخلاص، فقال لنفسه: «ربَّما يكون هذا من موالي عليّ، فهم يكثرون الصَّلاة، ويخلصون فيها، وأحسب أنَّ هذا منهم».

فجلس إليه حتَّى إذا انفتل من صلاته دنى منه وقال: «جعلت فداك؛ إنِّي رجل من أهل الشام، وأنا مولىً لذي الكلاب، وقد أنعم الله عليَّ بحب أهل بيت رسول الله، ومعي ثلاثة آلاف درهم أحبّ إيصالها إلى رجل منهم، وقد بلغني أنَّ رجلاً قدم هذا المصر داعية للحسين بن عليّ، فهل لك أن تدلّني عليه ليوصل هذا المال إليه، ليستعين به على بعض أُموره، أويضعه حيث يُحبّ»؟

فقال له الرجل: ولماذا قصدتني بالسؤال عن ذلك، دون غيري ممَّن هو في المسجد؟

قال معقل: لأنِّي رأيت عليك سيماء الخير، فرجوت أن تكون ممَّن يتولَّى أهل بيت رسول الله.

فقال له الرجل: «لقد وقعت عليَّ بعينك، أنا واحد من

إخوانك، واسمي مسلم بن عوسجة، وقد سررت بك، وساءني ما دخلني من سوء الظنّ بك، فأنا رجل من محبِّي أهل هذا البيت، فأعطني ذمَّة الله وعهده أن تكتم هذا الأمر من جميع الناس».

فأعطاه معقل من ذلك ما أراد.

فقال له مسلم بن عوسجة: انصرف يومك هذا، فإذا كان غد فاتني في منزلي، حتى أنطلق معك إلى صاحبنا ـ ويقصد مسلم بن عقيل ـ فأوصلك إليه.

فمضى معقل ليلته، فلمَّا أصبح في غد جاء إلى مسلم بن عوسجة في منزله، فانطلق به حتَّى أدخله على مسلم بن عقيل، فأخبره بأمره، ودفع إليه ذلك المال وبايعه.

وبقي يغدو إلى مسلم في كلّ يوم، فلا يحجب عنه أخباره، ويتعرَّف على من يأتي إليه، فإذا أمسى وأظلم دخل على عبيد الله بن زياد فأخبره بجميع ما كان يرى ويسمع، وبالطبع فإنَّه أخبره بأنَّ مسلماً في بيت هاني بن عروة لم يغيِّر مكانه[1].

ومع معرفة ابن زياد بمكان مسلم بن عقيل، وعلمه بالذين يختلفون إليه ويجتمعون به، قام بعملية مزدوجة، فمن جهة دعا هاني بن عروة إليه، ولكن من دون أن يُبيِّن قصده من ذلك، ولم يخبر أحداً بأنَّه عرف مكان مسلم بن عقيل، ومن جهة ثانية جعل المراصد على بيوت أولئك الذين يجتمعون معه، ليتمّ سجنهم في وقت واحد، بعد معالجته لقضيَّة هاني.

أما كيف أتى بهاني بن عروة، فإنَّه طلب محمَّد بن الأشعث

(1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص237؛ التاريخ، للطبري، ج5، ص348.

وأسماء بن خارجة وقال لهما: ما لي أرى أنَّ هاني بن عروة لم يأتني فيمن أتى؟

فقالا: أيُّها الأمير؛ إنَّه عليل منذ أيَّام.

فقال ابن زياد: كيف، وقد بلغني أنَّه يجلس على باب داره عامَّة نهاره، فما يمنعه من إتياننا، وما يجب عليه من حقّ التسليم؟ فاذهبا إليه وقولا له أن لا يدع ما عليه في ذلك من الحقّ، فإنَّه لا أحبّ أن يفسد عندي مثله من أشراف العرب.

فأتوه وأخبروه بأنَّ ابن زياد قد ذكره، فقال لهما: إنَّ الشكوة تمنعني.

فقالا له: يبلغه أنَّك تجلس كلّ عشيَّة على باب دارك وقد استبطأك، والجفاء لا يحتمله السلطان.

ثمَّ أقسما عليه أن يركب معهما إليه، فدعا هاني بثيابه فلبسها، ثمَّ دعا ببغلة له فركبها، وكان يومئذٍ ابن بضع وتسعين سنة، وكان أعرج، فجعل يسير قليلاً ويقف، حتَّى ركب بغلته وذهب معهما إلى القصر، ولمَّا صارا إلى الباب كأنَّ نفسه أحسَّت بالشرّ، فالتفت إلى حسَّان بن أسماء بن خارجة وقال له: يابن أخي، إنَّ نفسي تحدِّثني بالشرّ.

فقال له حسَّان: سبحان الله يا عمّ، لا أتخوَّف عليك، فلا تُحدِّثك نفسك بشيء من هذا، وأنت بريء الساحة[1].

(1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص238؛ والإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج2، ص15، والأمالي، للشجري، ج1، ص191؛ والتفوح، لابن أعثم، ج5، ص80.

وما إن دخل على ابن زياد، حتى أنشأ ابن زياد يقول متمثِّلاً:

أريدُ حياتَه ويريدُ موتي عَذيرُك من خليلكَ مِن مراد

فقال هاني: وما ذاك أيُّها الأمير؟

قال ابن زياد: وما يكون أعظم من مجيئك بمسلم بن عقيل، وإدخالك إيَّاه منزلك، وجمعك له الرجال ليبايعوه؟

فقال هاني: ما فعلت، وما أعرف من هذا شيئاً.

فدعا ابن زياد غلاماً له وقال: يا غلام ادع لي معقلاً، فدخل عليه معقل، فقال ابن زياد لهاني بن عروة: أتعرف هذا؟

فلمَّا رآه هاني، علم أنَّه كان عيناً عليهم ويتجسَّس لابن زياد.

فقال هاني: «أصدقك والله، إنِّي ما دعوت مسلم بن عقيل، ولا علمت بشيء من أمره حتَّى رأيته جالساً على باب داري، فسألني النزول عليَّ، فاستحييت من ربّه ودخلني من ذلك ذمام، فأدخلته داري وآويته، وقد كان من أمره الذي بلغك، فإن شئت آمره أن يخرج من داري إلى حيث شاء من الأرض، فأخرج من ذمامه وجواره».

فخاف ابن زياد إن ترك هاني بن عروة إن ينفلت مسلم بن عقيل من قبضته.

فقال له: لا والله، لا تفارقني أبداً حتَّى تأتيني به.

فقال هاني: لا والله، لا أجيئك به أبداً؛ أأنا آتيك بضيفي لكي تقتله؟

فقال ابن زياد: والله لتأتينِّي به.

فقال هاني: والله لا آتيك به.

وكان في المجلس كلّ من مسلم بن عمرو الباهلي، وشريح القاضي. فقال مسلم بن عمرو لعبيد الله: خلِّني وإيَّاه حتَّى أُكلِّمه، ثمَّ التفت إلى هاني وقال: قم إلى ههنا حتَّى أُكلِّمك. فتخلَّى به في ناحية من المنزل، وكانا قريبين منه بحيث يراهما ابن زياد، فإذا رفعا أصواتهما سمع ما يقولان، وإذا خفضا خفي عليه ما يقولان.

فقال الباهلي: يا هاني؛ إنِّي أنشدك الله أن تقتل نفسك، وتدخل البلاء على قومك وعشيرتك، وأنت تعلم أنَّ مسلم بن عقيل ابن عمّ القوم، وهم ليسوا بقاتليه ولا ضائريه، فادفعه إلى ابن زياد، فإنَّه ليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة، إنَّما تدفع طلبة السلطان إلى السلطان.

فقال هاني بن عروة: «بلى؛ والله إنَّ عليَّ في ذلك الخزي والعار، أنا أدفع جاري وضيفي، وأنا حيّ صحيح أسمع وأرى، شديد الساعد، كثير الأعوان. والله لو لم أكن إلَّا واحداً وليس لي ناصر، لم أدفعه حتَّى أموت دونه».

فأخذ الباهلي يناشده وهو يقول: لا والله لا أدفعه إليه.

فسمع ابن زياد كلامه، فقال: أدنوه منِّي، فأدنوه منه.

فقال: والله لتأتيني به، أو لأضربنَّ عنقك.

قال هاني بن عروة: إذن تكثر البارقة حول دارك، (ويقصد أنَّ قبيلته مذحج ستتحرَّك بسيوفها التي تبرق لتنتقم له).

فقال ابن زياد: والهفي عليك، أبالبارقة تخوِّفني؟

ثمَّ أمر جلاوزته بأن يكتّفوه ويشدوا يديه، فكتَّفوه، ثمَّ قرَّبوه

إليه، فأخذ يضرب وجهه بالقضيب. فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخدَّه حتَّى كسر أنفه، وسالت الدماء على ثيابه، وانتثر لحم خدَّيه وجبينه على لحيته، إلى أن انكسر ذلك القضيب.

ورغم كبر سنّه فإنَّ هاني فكَّ يده وقفز إلى شرطي كان يقف هناك وبيده قائم سيفه، وحاول أن يأخذ السيف منه، لكن شرطة ابن زياد انهالوا عليه وأمسكوا به.

فقال ابن زياد لشرطته: خذوه، فألقوه في بيت من بيوت الدار، وأغلقوا عليه الباب، واجعلوا عليه حرساً.

ولمَّا أخرجوا هانياً من غرفة ابن زياد قام أسماء بن خارجة، وهو الذي جاء به مع محمَّد بن الأشعث إلى ابن زياد، فقال لابن زياد: أرسُل غدرٍ كنَّا نحن؟ أمرتنا أن نجيئك بالرجل، حتَّى إذا جئناك به، وأدخلناه عليك هشَّمت وجهه، وسيَّلت دمه على لحيته، وزعمت أنَّك تقتله، لأنَّه رفض أن يُسلِّمك ضيفه؟

فقال له عبيد الله: وإنَّك لهاهنا؟

فأمر به، فضربوه، ثمَّ حبسه في ناحية من القصر، وهو يقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، إلى نفسي أنعاك يا هاني[1].

أمَّا محمَّد بن اشعث فقد انحاز إلى ذاته الخبيثة وقال: قد رضينا بما رأى الأمير، لنا كان أم علينا، إنَّما الأمير مؤدِّب[2].

وانتشر خبر اعتقال هاني بن عروة، وسرت إشاعة بأنَّ عبيد الله بن زياد قد قتله. فقام رجال من قبيلة مذحج، فحملوا

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص84؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص367.
(2) الإرشاد، للمفيد، ج2، ص49.

سيوفهم، وأحاطوا بقصر الإمارة. فأمر عبيد الله شريح القاضي، وكان وجيهاً عند أهل الكوفة، أن يذهب ويرى هاني بن عروة بنفسه، ثمَّ يخبر القوم بحياته، فدخل شريح عليه، فقال له هاني: يا شريح، قد ترى ما يُصنع بي؟

فقال شريح: أراك حيّاً.

فقال هاني: أوَحيٌّ أنا، مع ما ترى؟

ثمَّ طلب من شريح أن يخبر مذحج بأن لا ينصرفوا من حول القصر، لأنَّهم إن انصرفوا فسوف يقتله ابن زياد.

لكن شريح خرج إلى عبيد الله وقال له: قد رأيتُ هاني حيّاً، ولكنِّي رأيت أثراً سيِّئاً عليه.

فقال عبيد الله: أوَ تنكر أن يعاقب الوالي رعيَّته؟ أخرج إلى هؤلاء القوم، فأخبرهم بأنَّ صاحبهم حيّ ولا تخبرهم بغير ذلك.

وأطاع شريح أمر عبيد الله، وخرج إلى مذحج وقال لهم: إنَّ الأمير لمَّا بلغه مكانكم ومقالتكم في صاحبكم أمرني بالدخول إليه، فأتيته، فنظرت إليه. فأمرني هاني أن ألقاكم وأن أعلمكم أنَّه حيّ، وأنَّ الذي بلغكم من قتله كان باطلاً.

فقال له عمر وابن الحجَّاج وأصحابه: أمَّا إذا لم يُقتل هاني فالحمد لله، ثمَّ انصرفوا[1].

وبعد وقوع هذه الحوادث ورجوع مذحج إلى بيوتهم نادى عبيد الله بن زياد الصلاة جامعة، وخرج ومعه الشرطة والحشم

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص361 و368؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، 50.

ورجال من حرسه، فصعد المنبر وقال: «أمَّا بعد يا أهل الكوفة، فاعتصموا بطاعة الله، وطاعة رسول الله، وطاعة أئمَّتكم، ولا تختلفوا وتفرَّقوا فتهلكوا، وتندموا، وتذلّوا، وتحرموا، ولا يجعلنَّ أحد على نفسه سبيلاً، وقد أعذر من أنذر».

ولم يكمِّل خطبته حتَّى سمع هرجاً ومرجاً وصيحة، فقال: ما هذا؟

فقيل له: أيُّها الأمير؛ الحذر الحذر، فهذا مسلم بن عقيل قد أقبل في جمع ممَّن بايعه. فنزل عبيد الله عن المنبر مسرعاً وهرب من المسجد، ودخل قصر الإمارة، الواقع إلى جنب المسجد، وأغلق الأبواب[1].

❋

مرَّة أُخرى التقى عبد الرحمن الصالح وعبد الله بن مسلم في فناء الكعبة، وكان ذلك في أواخر شهر ذي القعدة، فسأل عبد الرحمن صاحبه عن آخر الأخبار؟

قال عبد الله: إنَّ الوضع في الكوفة بينَ بين.

قال عبد الرحمن: وماذا تقصد بقولك بينَ بين؟

قال عبد الله: قد تنقلب الكوفة لمصلحة ابن زياد في ساعة أو أُخرى، وقد تتطوَّر الأُمور لمصلحة أهل البيت، فلا زال عبيد الله بن زياد يمسك بالسلطة، ومعه من كلّ قبيلة مجموعة من الرجال، يمدّهم بالأموال والعتاد لساعة المواجهة، ولا زال الذين بايعوا

(1) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص66؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص86؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص206.

مسلم بن عقيل لم يظهروا ما يخالف بيعتهم، إلَّا أنَّ حبس هاني بن عروة لدى عبيد الله بن زياد، وعدم تحرُّك مذحج لإنقاذ شيخهم لا يبشِّر بخير. فإذا كانت قبيلة كبيرة كقبيلة مذحج ذات رجال مقاتلين لا تتحرَّك لإنقاذ شيخها، وتتراجع أمام حيل ابن زياد وخدعه وأكاذيبه، فهذا يعني أنَّ الآخرين أيضاً يمكن أن يفعلوا مثلهم.

قال عبد الرحمن: أترى أنَّ من الممكن أن يتخلَّف من بايعوا مسلم بن عقيل عن نصرته؟

قال عبد الله بن مسلم: نعم؛ هذا ممكن، لأنَّ ابن زياد يتصرف بطريقة معاوية، يستخدم المال والسيف، ولا زالت عنده الشرطة والرجال، وقد وصلتنا أنباء بأنَّه قد أودع سجونه أربعة آلاف ممَّن يتوقَّع أن يساعدوا مسلم بن عقيل، ويعينوه في أمره.

قال عبد الرحمن: وماذا عن مسلم بن عقيل؟ لماذا لا يأخذ زمام المبادرة ويتحرَّك؟

قال عبد الله بن مسلم: أتقصد لماذا لا يُجرِّد السيف ويقاتل؟

قال عبد الرحمن: نعم.

قال عبد الله: إنَّك لا تعرف أهل البيت، فهم على شجاعتهم التي لا مثيل لها، إلَّا أنَّهم لا يبدأون أحداً، حتى من الكافرين، بقتال، فكيف بأن يبدأوا من يتظاهر بالإسلام بذلك، إلَّا أنَّني أرى أنَّ حبس هاني بن عروة هو حجَّة شرعيَّة لقيام المسلمين من أجل إنقاذه، تماماً كما أنَّ إبراهيم الخليل قاتل لإنقاذ لوط النبيّ، ولكن لننتظر ونرى.

❋

بعد اعتقال هاني وما شاعت من الأخبار حوله، أمر مسلم بن عقيل أن ينادي في أصحابه، فاجتمع إليه أربعة آلاف رجل، وملأوا الدور التي حول بيته، فعبَّأهم ثمَّ زحف نحو القصر، وكان هدفه إنقاذ هاني بن عروة، فأغلق عبيد الله بن زياد أبوابه، ولم يكن معه في القصر إلَّا ثلاثون من الشرطة وعشرون من أهل الكوفة، فخامره اليأس، وظنَّ أنَّه هالك قبل أن يدركه الغوث من الشام، ولكنَّه تحايل بما وسع المستميت من حيلة، فأرسل جماعته إلى كلّ صوب من المدينة يعدون الناس بالأموال والمناصب، ويتوعَّدونهم بالخيل والرجال القادمين من الشام.

فوجَّه محمَّد بن الأشعث بن القيس، وكثير بن شهاب الحارثي، وعدَّة من الوجوه ليخذلوا الناس عن مسلم بن عقيل، ويتوعَّدونهم بقرب وصول خيول أهل الشام، ويمنع الأعطيات، وأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب[1].

وأمر من كان معه لكي يطلّوا من سور القصر، ويرموا القوم بالنبل والنشاب، ويمنعونهم من الدنوِّ إلى باب القصر، فلم يزالوا بذلك حتَّى حلَّ المساء، فقال لمن كان عنده من الرجال: ليشرف كلّ رجل منكم في ناحية من السور، وليخوِّف القوم.

فأشرف القعقاع بن شور، وشبث بن ربعي، وحجَّار بن أبجر، وشمر بن ذي الجوشن، فأخذوا ينادون: «يا أهل الكوفة، اتقوا الله، ولا تستعجلوا الفتنة، ولا تشقّوا عصى هذه الأُمَّة، ولا توردوا على أنفسكم خيول الشام، فقد ذقتموهم وجرَّبتم شوكتهم».

---

(1) مروج الذهب، ج3، ص67؛ وأنساب الأشراف، للبلاذري، ج2، ص81.

وقالوا أيضاً: «أيُّها الناس؛ إلحقوا بأهاليكم ولا تعجِّلوا الشرّ، ولا تعرِّضوا أنفسكم للقتل، فإنَّ هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت من الشام، وقد أعطى الله للأمير عهداً لئن أنتم أقمتم على حربه، ولم تنصرفوا من عشيّتكم، أن يحرم ذرِّيَّتكم العطاء، ويفرِّق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام، وأن يأخذ البريء منكم بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتَّى لا يبقى له فيكم بقيَّة من أهل المعصية إلَّا أذاقها وبال ما جرَّت أيديها»[1].

فلمَّا سمع أصحاب مسلم مقالتهم فتروا بعض الفتور[2].

وكان الرجل من أهل الكوفة يأتي ابنه وأخاه وابن عمِّه، فيقول: انصرف يا هذا، فإنَّ الناس يكفونك.

وتجيء المرأة إلى ابنها وزوجها وأخيها، فتتعلَّق به حتَّى يرجع.

فلمَّا غربت شمس ذلك اليوم نظر مسلم حوله، فإذا هو في خمسمائة، أمَّا بقيَّة الأربعة آلاف فقد تفرَّقوا عنه تحت جنح الظلام. ثمَّ صلَّى المغرب فلم يكن ورائه في الصَّلاة غير ثلاثين، أمَّا البقيَّة فقد تسلَّلوا من حوله، فلمَّا رأى ذلك ترك المسجد منصرفاً ماشياً، ومشوا معه، فأخذ نحو باب كندة، فلمَّا مضى قليلاً التفت، فلم يرى منهم أحداً، ولم يجد شخصاً واحداً يدلّه على الطريق[3].

فوقف يلتفت يميناً ويساراً، وقد تخلَّف عنه الناس، فقال:

---

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص232.

(2) الأخبار الطوال، للدينوري، ص239.

(3) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج13، ص272.

يا سبحان الله؛ غرَّنا هؤلاء بكتبهم، ثمَّ أسلمونا إلى أعدائنا هكذا[1].

كان ذلك في يوم الاثنين، اليوم السابع من ذي الحجَّة، سنة ستِّين للهجرة النبويَّة الشريفة، وكان قبل يوم واحد من خروج الحسين من مكَّة المكرَّمة باتجاه الكوفة؛ أي بعد ستّة وعشرين يوماً من كتابة مسلم للرسالة التي قال فيها للحسين: «أمَّا بعد، فإنَّ الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجِّل الإقبال حين يأتيك كتابي، فإنَّ الناس كُلّهم معك، ليس لهم في آل أبي سفيان رأي ولا هوى[2].

❋

لمَّا تفرَّق الناس عن قصر عبيد الله بن زياد وخرج مسلم من المسجد وحيداً، تسمَّع أصحاب عبيد الله ما يجري هناك، فوجدوا أنَّ الجلبة قد سكنت، فأشرفوا ليروا من بقي من تلك الجموع، فلم يروا أحداً ولم يسمعوا صوتاً. وفي البداية ظنّوا أنَّها مكيدة حرب، وأنَّ القوم متخفّون وراء الجدران والأعمدة، فأدلوا بالقناديل والمشاعل حتَّى اطمأنوا إلى خلوّ المسجد من مسلم وأتباعه، فبادر ابن زياد إلى الدُّعاء إلى الصلاة جامعة، وأمر المنادين في أرجاء الكوفة: ألا برئت الذمَّة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب، ورؤوس العرفاء والمقاتلة صلِّ العشاء إلَّا في المسجد[3].

---

(1) السيرة النبويَّة، لابن حبَّان، ج2، ص308؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص67.
(2) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص272.
(3) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص68؛ والكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج3، ص272.

وبالفعل استجاب رجال الشرطة والعرفاء وجماعة بني أُميَّة لندائه، وتجمَّعوا في المسجد حتَّى امتلأ بهم، فأقبل ابن زياد ومعه حرَّاسه، وصلَّى بهم صلاة العشاء، ثمَّ خطبهم بعد الفراغ قائلاً: برئت ذمَّة الله من رجل وجدنا ابن عقيل في داره.

ثمَّ صاح في رئيس شرطته، وهو الحصين بن نمير، قائلاً: «يا حصين، ثكلتك أُمّك، إن ضاع باب سكَّة من سكك الكوفة، وخرج هذا الرجل ولم تأتني به، وقد سلَّطتك على دور أهل الكوفة، فابعث مراصدك على أفواه السكك، وأصبح غداً فاستبرىء الدور، وجسّ خلالها حتَّى تأتيني به»[1].

ومع هذا الوعد والوعيد، وإصدار الأوامر بوضع العيون على الأزقَّة، وتفتيش البيوت، وانتشار الشائعات بقرب وصول جيش الشام، التزم الناس دورهم، وأصبحت الشوارع خالية تماماً من المارَّة.

أمَّا مسلم بن عقيل فأخذ يمشي في ظلمة تلك الليلة هائماً على وجهه، لا يدري إلى أين يذهب، ولم يكن يعرف سكك المدينة، ولا مكان بيت أحد من الرجال المخلصين لأهل البيت، لأنَّ الكوفة كانت كبيرة، وقد دخلها متخفّياً منتقلاً من بيت إلى بيت. فمضى على وجهه يتلدَّد في الأزقَّة، وقيل كان مثخناً بالجراحات، حيث حدثت له مواجهة قصيرة مع أتباع عبيد الله بن زياد وشرطته، إلَّا أنَّ ذلك لم يثبت، ولكنَّه حتماً كان مثقلاً بخيبة أمل، فبالأمس كان أميراً في هذه المدينة، واليوم غريب لا يدري إلى أين يذهب؟

---

(1) أبو الشُّهداء الحسين بن عليّ، لعبَّاس محمود العقَّاد، ص181.

فخرج إلى دور بني جبلة من كندة، فمشى حتَّى انتهى إلى باب بيت، فوقف هناك ليستريح، وليفكِّر في ما يجب عليه أن يفعل، وكان جائعاً، وعطشاناً، وتعباناً.

كانت صاحبة البيت امرأة تُسمَّى «طوعة»، وهي أُمّ ولد كانت للأشعث بن قيس، فأعتقها، فتزوَّجها أسيد الحضرمي، فولدت له ولداً سمَّته بلالاً، وكان بلال هذا شابّاً فاسقاً، يشرب الخمر مع أصحابه[1].

ولأنَّ بلال كان في ذلك الوقت خارج البيت، فقد خرجت أُمّه تستطلع خبره، فسَّلم عليها ابن عقيل، فردَّت عليه، فقال لها: يا أمة الله، إسقيني ماءً.

فدخلت البيت، وأخرجت له ظرف الماء وسقته، ثمَّ دخلت البيت لتضع الإناء، فجلس مسلم عند الباب. ولمَّا خرجت مرَّة أُخرى، رأته لا يزال على باب دارها، فقالت: يا عبد الله؛ ألم تشرب الماء؟

فقال مسلم: بلى.

قالت طوعة: فاذهب إلى أهلك.

فسكت مسلم: ثمَّ عادت فقالت مثل ذلك، فسكت، ثمَّ قالت له: سبحان الله؛ يا عبد الله، قم واذهب إلى أهلك عافاك الله، فإنَّه لا يصلح لك الجلوس على باب داري، ولا أحلّه لك.

فقام مسلم من مكانه، وقال: يا أمة الله، ما لي في هذا

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص371.

المصر منزل ولا عشيرة، فهل لكِ أن تستضيفني إلى أجل معروف، ولعلّي مكافئكِ به بعد اليوم؟

فقالت: يا عبد الله، وما ذاك؟

قال: أنا مسلم بن عقيل، كذّبني هؤلاء القوم وغرّوني.

فأصيبت بالدهشة، فقالت: بالله عليك أنت مسلم بن عقيل؟

قال: نعم.

قالت: أُدخل على الرحب والسّعة.

فأدخلته في غرفة في دارها، غير التي كانت تسكن فيها، وفرشت له وعرضت عليه العشاء، فلم يتعشّ. ولم تمرّ إلَّا ساعة حتَّى جاء ابنها بلال، فرآها تكثر الدخول في الغرفة التي فيها مسلم وتخرج منه، فقال لها: والله إنَّه ليريبني كثرة دخولكِ هذا البيت منذ الليلة، إنَّ لكِ لشأناً؟

فقالت له طوعة: يا بُنيَّ، أعزب عن هذا، فما عليك.

قال لها: والله لتخبريني.

قالت: إقبل على شأنك، ولا تسألني عن شيء.

فألحَّ عليها، فأخذت منه المواثيق وقالت: لا تحدثنَّ أحداً من الناس ما أخبرك به.

فحلف لها أن لا يخبر أحداً. فأخبرته بأنَّ مسلم بن عقيل نازل في تلك الغرفة[1].

---

(1) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص67 و68؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص372.

وكان عبيد الله بن زياد قد أعلن عن جائزة كبرى لمن يأتي له بخبر مسلم، وكان بلال يبحث عن المال لكي يشرب المزيد من الخمر مع زملائه ورفقته، فأخذ الشيطان يوسوس له في أن يخبر السلطة بأمر مسلم ويحصل على الجائزة، وسرعان ما نام على هذه الفكرة، وانتظر الصبح لكي يذهب إلى قصر الإمارة[1].

أمَّا مسلم بن عقيل فقد بات ليلته في تلك الدار وهو بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، يناجي ربّه ويتضرَّع إليه حيناً ويتلو القرآن حيناً آخر، ولم يكن يُفكِّر في نفسه في تلك الحال، بل كان يفكِّر في الحسين والرسالة التي كتبها إليه، وانقلاب الوضع في الكوفة، وتفرّق الكثير ممَّن بايعوه، وخيانة بعضهم.

في تلك الليلة تذكَّر ما آل إليه أمرعمّه عليّ عليه السلام مع أهل الكوفة، وما آل إليه أمر ابن عمّه الحسن عليه السلام، سبط النبيّ الأكبر هناك، وكان جلّ تفكيره في الحسين، وكيف يمكنه إيصال رسالة إليه ليُبيِّن له انقلاب الأوضاع في الكوفة.

وما أن أشرقت الشمس في اليوم الثامن من ذي الحجَّة، أي قبل يوم واحد من يوم عرفة، إلَّا وأسرع بلال إلى عبد الرحمن بن محمَّد بن الأشعث، وأخبره أنَّ مسلم بن عقيل موجود في دار أُمّه.

فقام عبد الرحمن ودخل على أبيه محمَّد بن الأشعث، وكان جالساً في مجلس ابن زياد، فأسرَّ إليه بالخبر، فرأى ابن زياد المسرَّة في وجه محمَّد، فقال: ما الذي أخبرك به ابنك؟

(1) تجارب الأُمم، لأبي علي مسكويه، ج2، ص50.

قال ابن الأشعث: أخبرني أنَّ مسلم بن عقيل موجود في دورنا.

فلم يتأخَّر ابن زياد في اتخاذ القرار، فقال له: انطلق الآن فأتني به الساعة.

ثمَّ أرسل إلى عمرو بن هريس الذي كان ينوب عنه في إقامة الصلاة في المسجد، أرسل إليه يقول: ابعث مع ابن الأشعث ستّين أو سبعين رجلاً، كُلّهم من قبيلة قيس، حتَّى لا يكون أحد منهم من قريش، خوفاً من العصبيَّة أن تقع(1).

وكان أمره واضحاً، وهو أن يأتي ابن الأشعث بمسلم بن عقيل، قتيلاً أو أسيراً(2).

وهكذا فإنَّ جيشاً من المسلّحين ركبوا خيولهم باتجاه بيت طوعة، وكان مسلم بن عقيل مستيقظاً في تلك الساعة، فلمَّا سمع وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرف أنَّهم على وشك الهجوم عليه، فحمل سيفه ليخرج إليهم، ولكنَّهم عاجلوه واقتحموا عليه الدار، فشدَّ عليهم يضربهم بالسيف حتَّى أخرجهم منها، ثمَّ عادوا إليه ودخلوا الدار، فشدَّ عليهم كذلك، وكان في مقدِّمة من هجم عليه بكير بن حمران الأحمري، حيث تبادل مع مسلم ضربتين، فضرب بكير فم مسلم، فقطع شفته العليا، وأشرع السيف في شفته السفلى، ونصلت لها ثنيتاه، فضربه مسلم وهو مجروح ضربة

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص373؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص241؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص69.

(2) مقتل أبي مخنف، ص33.

منكرة في رأسه، وثنَّى بأُخرى على حبل عاتقه كادت تطلع على جوفه.

فلمَّا رأوا شدَّة بأسه وضرباته المنكرات، أشرفوا عليه من فوق ظهر البيوت، وأخذوا يرمونه بالحجارة، ويشعلون النار في حزمات القصب، ثمَّ يرمونها عليه من فوق السطوح، فخرج عليهم في السكَّة، فقاتلهم كأنَّه أسد مغضب، وبحسب شهود عيان فقد استطاع أن يصرع منهم جماعة[1].

فنادى محمَّد بن الأشعث: يا مسلم لك الأمان، لا تقتل نفسك.

لكن مسلماً استمرَّ يهاجمهم ويقاتلهم، ويتعقَّب فلولهم في سكك الكوفة، وكان يرتجز ويقول:

أقسمتُ لا أُقتل إلَّا حُرّا — وإن رأيتُ الموتَ شيئاً نُكرا
كلّ امرىء يوماً ملاقٍ شرّا — أو يخلُط البارد سخناً مرّا
ردَّ شعاع الشمس فاستقرَّا — أخاف أن أُخدع أو أغرّا

فقال محمَّد بن الأشعث: إنَّك لا تُكذب، ولا تُغرّ، إنَّ القوم ليسوا بقاتليك ولا ضاربيك، فلا تقتل نفسك.

فلم يلتفت إلى كلامه، وجعل يقاتلهم حتَّى أثخن بالجراح، وضعف عن القتال، وجعلوا يرمونه بالنبل والحجارة. فقال لهم: «ويلكم، ما لكم ترمونني بالحجارة كما تُرمى الكفَّار، وأنا من أهل بيت الأنبياء الأبرار. ويلكم، أما ترعون حقّ رسول الله وذرِّيته»؟!

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص92.

وحمل عليهم على ضعفه، فكسرهم وفرَّقهم في الدروب، ثمَّ رجع وأسند ظهره إلى باب إحدى الدور، فصاح بهم محمَّد بن الأشعث: ذروه حتَّى أُكلِّمه بما يريد. ثمَّ دنا منه حتَّى وقف قبالته، وقال: يابن عقيل؛ لا تقتل نفسك، أنت آمن ودمك في عنقي.

فقال له مسلم: أتظنُّ يابن الأشعث أنِّي أعطي بيدي، وأنا أقدر على القتال؟ لا والله لا كان ذلك أبداً.

ثمَّ حمل عليه حتَّى ألحقه بأصحابه، ثمَّ رجع إلى موضعه، وقال: اللَّهمَّ إنَّ العطش قد بلغ منِّي(1).

ومع ثبات مسلم، وشدَّة بأسه، وقوَّته التي ذكَّرتهم ببأس عمّه أمير المؤمنين، هرب الكثير من الذين جاء بهم محمَّد بن الأشعث، فأرسل هذا الأخير إلى ابن زياد يطلب منه المدد، فأرسل ابن زياد إليه يلومه، قائلاً له: «إنَّما بعثناك لرجل واحد لتأتينا به، فثلم في أصحابك هذه الثلمة العظيمة، فكيف إذا أرسلناك إلى غيره ـ ويقصد الحسين ـ؟

فأجابه ابن الأشعث: أيُّها الأمير؛ أتظنُّ أنَّك بعثتني إلى بقَّال من بقاقيل الكوفة، أو جرمقاني من جرامقة الحيرة، أوَلم تعلم أنَّك بعثتني إلى سيف من أسياف محمَّد بن عبد الله، أسد ضرغام، وسيف حسام، في كفّ بطل همام(2).

ولمَّا جاء المدد إلى محمَّد بن الأشعث صرخ بأصحابه قائلاً:

---

(1) الفتوح، لابن الأعثم، ج5، ص94.

(2) المناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص93؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص184.

«إنَّ هذا لهو العار والشنار، أتجزعون من رجل واحد هذا الجزع، إحملوا عليه بأجمعكم حملة رجل واحد»[1].

فلمَّا رأى مسلم ذلك قال متعجّباً: «أكلّ ما أرى من الإجلاب لقتل مسلم بن عقيل؟ يا نفس أخرجي إلى الموت الذي ليس عنه محيص».

فحمل عليهم وهو يقول:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانعُ
فأنت لكأس الموت لا شكَّ جارعُ
فصبراً لأمر اللَّه جلَّ جلالُه
فحكمُ قضاءِ اللَّهِ في الخلق ذائعُ

ولكنَّهم هربوا من بين يديه، فجاء وأسند ظهره إلى الحائط ليستريح، فأرسل عبيد الله بن زياد إلى محمَّد بن الأشعث من يقول له: يا ويلكم، أعطوه الأمان، وإلَّا أفناكم عن آخركم.

فنادوه بالأمان، لكنَّه رفض أمانهم، فاحتالوا عليه وحفروا له حفرة في وسط الطريق، وأخفوا رأسها بالدغل والتراب، ثمَّ هربوا من بين يديه، ولما تعقبهم، وقع في تلك الحفرة وأحاطوا به، فضربه ابن الأشعث على محاسن وجهه ومحاجر عينيه[2].

فأعادوا عليه مسألة الأمان وقالوا له: لك الأمان. فأخذ منهم العهد على ذلك، وقال للذين اجتمعوا حول الحفرة: هل لي الأمان؟

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص208.
(2) المنتخب، للطريحي، ج2، ص427.

قال القوم: نعم.

فلم يقاوم، فأخذوه وجاؤوا ببغلة وحملوه عليها[1].

وبمجرَّد أن أصبح في أيديهم نزعوا منه سيفه، فقال مسلم: هذا أوَّل الغدر، أين أمانكم، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ثمَّ دمعت عيناه، فقال له أحد جلاوزة ابن زياد واسمه عبيد الله بن العبَّاس السلمي: إنَّ الذي يطلب ما تطلب، لا يبكي إذا وقع فيما وقعت فيه؟

فقال مسلم: «والله إنِّي ما لنفسي بكيت، ولا لها من القتل أرثيت، وإن كنت لم أحبّ لها طرفة عين تلفاً، ولكن أبكي لأهلي المقبلين عليكم، أبكي للحسين وآل الحسين».

ثمَّ أقبل على محمَّد بن الأشعث، فقال: إنِّي أراك والله ستعجز عن أماني، (أي لن تستطيع الوفاء بأمانك)، فإنَّ عبيد الله بن زياد غدَّار، فهل عندك من خير؟

قال محمَّد بن الأشعث: وما هو؟

قال مسلم: «أن تبعث مِن عندك رجلاً يبلِّغ حسيناً بما جرى، فإنِّي لا أراه إلَّا وقد خرج اليوم أو هو خارج غداً ومعه أهل بيته، ليقول له إنَّ ابن عقيل بعثني إليك وهو أسير في يد القوم، لا يرى أنَّه يمسي حتَّى يُقتل، وهو يقول: إرجع، فداك أبي وأُمِّي مع أهل بيتك، لا يغرُّك أهل الكوفة، فإنَّهم أصحاب أبيك الذين كان يتمنَّى

(1) روضة الواعظين، للفتَّال، ص150.

فراقهم بالموت. إنَّ أهل الكوفة قد كذبوني، فكتبت إليك، وليس لمكذوب رأي»[1].

فقال له محمَّد بن الأشعث: والله لأفعلنَّ، ولأعلمنَّ ابن زياد أنِّي قد أمَّنتك[2].

كان مسلم بن عقيل في تلك الحالة يعاني من التعب والعطش، خاصَّة وأنَّ دمائه كانت تسيل من جروحه المتعدِّدة والتي كان أشدّها في فكِّه وشفتيه، وحينما أوصلوه إلى باب قصر الإمارة وجد هنالك شخصاً بيده قلَّة ماء باردة، وقد وضعها على الباب، فقال مسلم: إسقوني من هذا الماء.

فقال له أحد جلاوزة ابن زياد واسمه مسلم بن عمرو، وكأنَّه وكيل الله على الجنَّة والنار، قال: يابن عقيل؛ أتراها ما أبردها، لا والله لا تذوق منها قطرة أبداً، حتَّى تذوق الحميم في نار جهنَّم!.

فقال له مسلم بن عقيل: ويحك، من أنت؟

قال ابن عمرو: أنا من عرف الحقّ إذ أنكرته، ونصح لإمامه إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيته وخالفت، أنا مسلم بن عمرو الباهلي.

فقال مسلم بن عقيل: لأُمّك الثكل، ما أجفاك، وما أفظَّك

---

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص240؛ ومثير الأحزان، للجواهري، ص26؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج20، ص401.
(2) مقتل الحسين، لبحر العلوم: ص240.

وأقسى قلبك وأغلظك؟ أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنَّم منِّي[1]، إذ آثرت طاعة بني سفيان على طاعة آل محمَّد[2].

ويبدو أنَّ حالة مسلم بن عقيل أثارت بقايا ضمير كانت عند واحد منهم واسمه عمرو بن حريث، فبعث غلاماً له، فجاء بالماء في «قلَّة» ومعه قدح، فصبَّ الغلام الماء في القدح وأعطاه لمسلم، فأخذه حتَّى يشرب، فامتلأ القدح دماً، فصبَّه على الأرض ولم يشرب، ثمَّ ملأه مرَّة أُخرى ليشرب، فامتلأ القدح دماً مرَّة أُخرى، فصبَّه على الأرض. وفي المرَّة الثالثة ذهب ليشرب فسقطت ثنيتاه فمه، فأبعد القدح من فيه وقال: الحمد لله، لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته[3].

من جانبه جلس عبيد الله بن زياد متبختراً، متكبِّراً، مغروراً، على كرسيّ رفيع له في دار الإمارة، وقد جمع حوله قوَّاد جيشه ورجال سلطته وحرسه وقد رفعوا السيوف، فأذن لإدخال مسلم عليه حتَّى يُبيِّن عظمة نفسه أمام ابن عقيل الأسير الجريح. فلمَّا دخل مسلم لم يُسلِّم عليه، فقال له أحد الحرَّاس: سلِّم على الأمير.

فقال له مسلم: أُسكت، لا أُمّ لك، ما لك وللكلام؟ والله ليس لي أمير غير الحسين، أمَّا هذا فيسلِّم عليه من يخاف منه[4].

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص375.
(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص210.
(3) التاريخ، للطبري، ج5، ص367.
(4) المنتخب، للطريحي، ج4، ص127.

وأضاف: وما ينفعني السَّلام عليه وهو يريد قتلي؟

فقال له عبيد الله بن زياد: سلَّمت أم لم تُسلِّم، فإنَّك مقتول.

فقال مسلم بن عقيل: إن قتلتني، فقد قتل مَن هو شرّ منك، مَن كان خيراً منِّي.

فقال ابن زياد: يا شاقّ، خرجت على إمامك، وشققت عصى المسلمين، وألقحت الفتنة؟

فقال مسلم: «كذبت يابن زياد، والله ما كان معاوية خليفة بإجماع الأُمَّة، بل تغلَّب على وصيّ النبيّ ﷺ بالحيلة، وأخذ عنه الخلافة بالغصب، وكذلك ابنه يزيد. وأمَّا الفتنة فإنَّك ألقحتها أنت وأبوك زياد بن علاج من بني ثقيف، وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يدي شرّ بريّته. فوالله ما خالفتُ ولا كفرتُ ولا بدَّلتُ، وإنَّما أنا في طاعة أمير المؤمنين الحسين بن عليّ ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ونحن أولى بالخلافة من معاوية وابنه وآل زياد».

لقد جاء جواب مسلم صريحاً قاطعاً، قويّاً، كسر شوكة عبيد الله بن زياد أمام جماعته، فتوسَّل بالكذب، فقال لمسلم: يا فاسق؛ ألم تكن تشرب الخمر في المدينة؟

فقال مسلم بن عقيل: «إنَّ من يقتل النفس التي حرَّم الله قتلها، ويسفك الدم الحرام على الغضب والعداوة وسوء الظنّ، وهو في ذلك يلهو ويلعب، كأنَّه لم يسمع شيئاً، أولى بشرب الخمر منِّي».

فقال ابن زياد: لقد منَّتك نفسك أمراً (يعني الخلافة) أحالك الله دونه، وجعله لأهله.

قال مسلم بن عقيل: ومن أهله يابن مرجانة؟

قال ابن زياد: أهله يزيد ومعاوية.

فقال مسلم بن عقيل: الحمد لله، كفى بالله حَكَماً بيننا وبينكم.

فقال ابن زياد: أنظن أنَّ لك من الأمر شيئاً؟

فقال مسلم بن عقيل: لا والله ما هو الظنّ، ولكنَّه اليقين.

فقال ابن زياد: قتلني الله إن لم أقتلك شرّ قتلة.

فقال مسلم: «إنَّك لا تدع سوء القتلة، وقبح المثلة، وخبث السريرة، ولؤم الغلبة، فاقض ما أنت قاض يا عدوّ الله».

وأضاف: «والله لو كان معي عشرة ممَّن أثق بهم، وقدرت على شربة من ماء لطال عليك أن تراني في هذا القصر، ولكن إن كنت عزمت على قتلي، ولابُدَّ لك من ذلك، فدعني حتَّى أوصي».

فقال عبيد الله بن زياد: أوصي ما بدا لك.

فنظر مسلم في وجوه الناس فرأى عمر بن سعد فقال له: «إنَّ بيني وبينك رحم، فليس هاهنا رجل من قريش غيرك، فادنو منِّي حتَّى أُكلِّمك».

فنظر عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد كأنَّه يستأذن منه، فقال له ابن زياد: أنظر في حاجة ابن عمّك.

فدنا منه عمر بن سعد، فقال له مسلم: «إنَّ عليَّ بالكوفة سبعمائة درهم دَيناً، فخذ من هؤلاء سيفي وبعه واقضها عنِّي، وانظر جثَّتي، فاطلبها من ابن زياد فوارها التراب، وابعث إلى الحسين بن عليّ من يخبره بما صنعوا بي، فإنَّ الحسين ومن معه، وهم تسعون

بين رجل وامرأة في الطريق، فارددهم، واكتب إليهم بما أصابني، حتَّى لا يقدم إلى هنا، فينزل به ما نزل بي»[1].

كان الكلام بين مسلم بن عقيل وعمر بن سعد في ناحية من المجلس، لا يسمع أحد ما يدور بينهما، وقد أراد مسلم أن يكون كذلك، ولكن عمر بن سعد قام وجلس إلى عبيد الله بن زياد وقال له: أتدري ماقال؟ وكأنَّه يريد أن يفشي سرّه.

فقال عبيد الله بن زياد: أكتم على ابن عمّك.

قال عمر بن سعد: هو أعظم من ذلك.

فقال ابن زياد: فأيّ شيء هو؟

قال عمر بن سعد: أخبرني أنَّ الحسين ومن معه قد أقبلوا، وهم تسعون إنسان بين رجل وامرأة.

فقال ابن زياد: قد أسأت في إفشاء ما أسرَّه إليك، أما والله إذ أنَّك دللت عليه، فلا يقاتلهم أحدٌ غيرك[2].

وأضاف: أمَّا مالُه فلسنا نمنعه أن تدفع فيه ما أحبّ، وأمَّا الحسين فإنَّه إن لم يردنا لم نرده، وإن أرادنا لم نكفّ عنه، وأمَّا جثَّته فإنَّا لم نشفّعك فيها، إنَّه ليس بأهل منَّا لذلك، قد جاهدنا وخالفنا وجاهد على هلاكنا!

ثمَّ إنَّ ابن زياد التفت مرَّة أُخرى إلى مسلم بن عقيل وقال: إيهٍ

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص97 و8ج؛ وجواهر المطالب، للباعوني، ج2، ص268.

(2) الأخبار الطوال، للدينوري، ص241؛ والإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج2، ص5.

يابن عقيل؛ أخبرني بماذا أتيت إلى هذا البلد، فشتَّت أمرهم، وفرَّقت كلمتهم، ورميت بعضهم على بعض؟

فقال مسلم بن عقيل: «ليس لذلك أتيت هذا البلد، ولكنَّكم أظهرتم المنكر، ودفنتم المعروف، وتأمَّرتم على الناس من غير رضى، وحملتموهم على غير ما أمركم الله به، وعملتم فيهم بأعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر فيهم بالمعروف، وننهاهم عن المنكر، وندعوهم إلى حكم الكتاب والسُّنَّة، وكنَّا أهل ذلك، ولم تزل الخلافة لنا منذ قُتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ولا تزال الخلافة لنا. فإنَّا قُهرنا عليها، لأنَّكم أوَّل من خرج على إمام الهدى، وشقَّ عصى المسلمين، وأخذ هذا الأمر غصباً، ونازع أهله بالظلم والعدوان، ولا نعلم لنا ولكم مثلاً إلَّا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

فجعل ابن زياد يشتم عليّاً والحسن والحسين.

فقال له مسلم: أنت وأبوك أحقّ بالشتيمة منهم، إنَّا أهل بيت موكّل بنا البلاء[1].

فنادى ابن زياد: أين هذا الذي ضربه ابن عقيل على رأسه بالسيف؟

فجاؤوا ببكير بن حمران الأحمري، وهو الذي تبادل الضربات في بداية المواجهة مع مسلم بن عقيل وتلقَّى منه ضربة على رأسه،

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص103؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص376 والعقد الفريد، لابن عبد ربّه، ج4، ص379.

فلمَّا أتوا به، قال له عبيد الله: خذ ابن عقيل واصعد به إلى أعلى القصر، واضرب عنقه بيدك، ليكون ذلك أشفى لصدرك[1].

ولمَّا صرَّح ابن زياد بقتل مسلم، قام محمَّد بن الأشعث الذي أعطاه الأمان، وقال: أيُّها الأمير، إنِّي آمنته.

فقال ابن زياد: وما أنت والأمان؟ كأنَّما أرسلناك لتؤمِّنه؟ إنَّما أرسلناك لتأتينا به[2].

وفيما كان ابن حمران يجرُّ مسلماً إلى أعلى القصر ليقتله، التفت مسلم إلى ابن زياد وقال: «أما والله لو كنت من قريش، أو كان بيني وبينك رحم لما قتلتني، ولكنَّك ابن أبيك، فاقض ما أنت قاض يا عدوّ الله»[3].

فلمَّا صعدوا به قال مسلم لقاتله: دعني أُصلِّي ركعتين وافعل ما بدا لك. فلم يسمح له بأن يُصلِّي، وقال: ليس إلى ذلك سبيل[4].

وكان مسلم في تلك الحالة يكبِّر، ويستغفر، ويصلِّي على النبي وآله وعلى ملائكة الله ورسوله، ويقول: اللَّهمَّ احكم بيننا وبين قومٍ غرّونا وكذبونا وأذلّونا.

وجاء القاتل به إلى موضع يشرف على مكان الحذَّائين،

(1) روضة الواعظين، للفتَّال، ص151؛ والفتوح، لابن الأعثم، ج5، ص103.
(2) تجارب الأُمم، لأبي علي مسكويه، ج2، ص52.
(3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص213.
(4) معاني السبطين، للمازندراني، ج1، ص238.

فضرب عنقه، ورمي بجسده من أعلى القصر، ثمَّ أتبع رأسه بجسده، ثمَّ نزل إلى عبيد الله بن زياد، فسأله عبيد الله: هل قتلته؟

فقال الرجل: نعم.

قال عبيد الله: هل كان يقول شيئاً وأنتم تصعدون به؟

قال بكير: نعم؛ كان يكبِّر ويسبِّح ويستغفر، فلمَّا أدنيته لأقتله قال: اللَّهمَّ أُحكم بيننا وبين قوم كذبونا وغرّونا وخذلونا وقتلونا.

فقلت له: أدنو منِّي، الحمد لله الذي أقادني منك. فضربته ضربة لم تغن شيئاً، ولم يمت.

فقال: أما ترى في خدش تخدشينه وفاءً من دمك أيُّها العبد، أهي لا تكفي بما فعلت بي وفاءً لدمك؟

فقال ابن زياد: أوَ فخراً عند الموت؟

قال الرجل: ثمَّ ضربته الثانية، فقتلته[1].

وكان في ذلك الوقت أُناس كثيرون قد اجتمعوا خارج القصر وهم ينتظرون ما يُفعل بمسلم وما يؤول إليه أمره، وكان بعضهم يقول: سوف يبقى هناك حتَّى يأتيهم أمر يزيد، وآخرون يقولون: إنَّه مقتول لا محالة. وإذا بقاتليه يرمون بجثَّته من أعلى القصر إلى الناس، وبعدها أتبعوها بالرأس الشريف[2].

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص378؛ ومروج الذهبي، للمسعودي، ج3، ص69؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص71.

(2) مع الحسين في نهضته،، لأسد حيدر، ص224.

وكان اليوم الذي قُتل فيه هو يوم الأربعاء من أيَّام الأسبوع، التاسع من شهر ذي الحجَّة، أي يوم عرفة عام 60 للهجرة النبويَّة الشريفة[1].

❋ ❋ ❋

(1) البحار، للمجلسي، ج44، ص363؛ والعوالم، ج17، ص213.

إلى جنَّة الله هاني بن عروة

بعد أن قضى عبيد الله بن زياد على مسلم بن عقيل، قام محمَّد بن الأشعث إليه وكلَّمه في هاني بن عروة، وقال فيما قال:

«إنَّك قد عرفت منزلة هاني بن عروة في هذا المصر، وبيته في العشيرة، وقد علم قومه أنِّي وصاحبي أسماء بن خارجة سقناه إليك، فأنشدك الله أيُّها الأمير لمَّا وهبته لي، فإنِّي أكره عداوة قومه، فهم أعزّ أهل المصر، وعُدد أهل اليمن»[1].

فسكت عبيد الله بن زياد هنيئة كأنَّه قد قبل ذلك، إلَّا أنَّه عاد وزبر ابن الأشعث وأمر بقتل هاني في السوق، وقال: أخرجوه إلى السوق فاضربوا عنقه.

فأخرجوه إلى سوق كان يباع فيها الغنم وهو مكتوف اليدين، فجعل يقول: وآمذحجاه، ولا مذحج لي اليوم.. وآمذحجاه، وأين منِّي مذحج؟

فلمَّا رأى أنَّ أحداً لا ينصره جذب يده فنزعها من الكتَّاف، ثمَّ

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص378.

أخذ يبحث عن شيء ما يدافع به عن نفسه، قائلاً: أما من عصى، أو سكّين، أو حجر، أو عظم يدافع به رجل عن نفسه؟

فوثب عليه الشرطة، فشدّوه وثاقاً، ثمَّ جاءه القاتل وهو عبد تركي، كان مولىً لعبيد الله بن زياد يُقال له رُشيد، وقال له: أُمدد عنقك.

فقال هاني: ما أنا سخي به، وما أنا بمعينك على نفسي.

فضربه رشيد، فلم ينفع سيفه شيئاً.

فقال هاني: «إلى الله المعاد، اللَّهمَّ إلى رحمتك ورضوانك، اللَّهمَّ اجعل هذا اليوم كفَّارة لذنوبي، فإنِّي إنَّما غضبت لابن بنت نبيّك محمَّد[1].

ثمَّ انهال عليه السيَّاف وضربه حتَّى قتله[2].

❁

ثمَّ إنَّ ابن زياد أمر أن يؤتى برأسي مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، وأعطاهما لاثنين من جلاوزته، وهما هاني بن أبي حيَّة، والزبير بن أروح، ليحملانهما إلى الشام وكتب رسالة إلى يزيد يقول له فيهما:

«أمَّا بعد، فالحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقِّه، وكفاه مؤونة عدوّه، أُخبر أمير المؤمنين، أكرمه الله، أنَّ مسلم بن

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص214؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص379؛ والفتوح، لابن الأعثم، ج5، ص105.
(2) العبرات، للمحمود، ج1، ص338؛ واللهوف، لابن طاوس، ص58.

عقيل لجأ إلى دار هاني بن عروة المرادي، وإنِّي جعلت عليهم العيون، ودسست إليهم الرجال، وكدتهما حتَّى استخرجتهما، وأمكن الله منهما فقدَّمتهما، فضربت أعناقهما وقد بعثت إليك برؤوسهما مع هاني بن حيَّة الهمداني والزبير بن أروح التميمي، وهما من أهل السمع والطاعة، فليسألهما أمير المؤمنين عمَّا أحبّ من أمر، فإنَّ عندهما علماً وصدقاً وفهماً وورعاً، والسَّلام»[1].

وكان رأس مسلم أوَّل رأس حمل من رؤوس بني هاشم إلى دمشق[2].

ولمَّا وصل الرأسان والكتاب إلى يزيد، قرأ الكتاب مستبشراً، وأمر بالرأسين، فنصبا على باب مدينة دمشق[3].

أمَّا جُثَّتا مسلم وهاني فقد تمَّ سحبهما في الأسواق من أرجلهما طوال ذلك النهار، إلى أن أمر عبيد الله بن زياد فصلبتا منكّستين بسوق الكوفة في منطقة الكنَّاسة، وكانت جثَّة مسلم أوَّل جثَّة صلبت من بني هاشم[4].

وبقيت الجثَّتان مصلوبتين في السوق إلى أن قامت زوجة ميثم

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص308.

(2) مروج الذهب، للمسعودي، ج3، ص70؛ وأعلام الورى، للطبرسي، ص229.

(3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص215؛ مثير الأحزان، للجواهري، ص28؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص108.

(4) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص139؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص157؛ والإصابة، لابن حجر، ج1، ص332؛ ومروج الذهب، للمسعودي، ج3، ص70.

التمَّار، في منتصف ليلة من الليالي بإنزالهما من هناك، ودفنتهما بدمائهما في جنب المسجد الأعظم، حيث مقامهما الآن، ولم يعلم بذلك إلَّا زوجة هاني بن عروة[1].

وقيل أنَّ قبيلة مذحج هم الذين ركبوا خيولهم وجاؤوا إلى مكان صلبهما وأنزلوا الجثَّتين ودفنوهما[2].

ولم يكتف عبيد الله بن زياد بقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، وإنَّما عمد بعد ذلك إلى كلّ الرجال الذين ساندوا مسلماً ونصروه، فأمر بسجنهم، وقَتلَ منهم أُناساً كثيرين[3].

فقد كان يجلس كلّ يوم في مجلس عام ويأمر أن يُؤتى بكل رجل متَّهم بأنَّه حاول أن ينصر مسلم بن عقيل فيطلب منه أمرين: الأوَّل ـ أن يحلف بالأيمان المغلَّظة بأنَّه لم يفعل، والثاني ـ أن ينخرط مع جيشه الذين كان يعبأهم لمواجهة الحسين، ومن يأبى ذلك كان يضرب عنقه.

وممَّن جيء به إليه رجل اسمه عبد الأعلى الكلبي، وشخص آخر اسمه عمارة الأزدي، وكان قد أخذهما صاحب شرطته كثير بن شهاب، فحقَّق معهما عبيد الله بن زياد، ومن جملة ما سألهما: ما الذي أخرجكما؟

فقالا: خرجنا لننظر ما يسمع الناس، فأخذنا صاحبك كثير بن شهاب.

---

(1) معالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص245.
(2) المقتل، لأبي مخنف، ص38.
(3) البداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص157.

فطلب منهما ابن زياد أن يحلفا على ذلك بالأيمان المغلَّظة، فلم يحلفا، فأمر بعبد الأعلى الكلبي أن يذهبوا إلى جبَّانة السبيع ويضربوا عنقه، فانطلقوا به إليها وقتلوه، ثمَّ أمر بعمارة الأزدي أن يذهبوا به إلى قومه، يضربوا عنقه فيهم[1].

❁

ولقد رثى الفرزدق كُلّاً من مسلم بن عقيل وهاني بن عروة في أبيات من الشعر، فقال:

إذا كنتِ لا تدرينَ ما الموت فانظري
إلى هانيءٍ في السوق وابن عقيلِ
إلى بطلٍ قد هشَّم السيفُ وجهه
وآخر يهوي من طمارِ قتيلِ
أصابهما ريبُ الزمانِ فأصبحا
أحاديثَ من يمشي بكلّ قبيلِ
تَرى جسداً قد غيَّر الموتُ لونه
ونضح دمٍ قد سال أيّ مسيلِ
فتىً كان أحيا من فتاةٍ حييَّة
وأقطع من ذي شفرتين صقيلِ
تطوف حواليه مراد وكلّهم
على رفقة من سائل ومسولِ

---

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص181؛ ولواعج الأشجان، للسيِّد الأمين، ص68.

أيـركـب أسـمـاء الـهـمـالـيـج آمـلاً
وقـد طـالـبـتـه مـذحـج بـذحـولِ
فـإن أنـتُـمُ لـم تـثـأروا بـأخـيـكُـمُ
فـكـونـوا بـغـايـا أُرضيـت بـقـلـيـلِ[1]

❁ ❁ ❁

(1) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص72.

تتابع فصول المواجهة

مع مصرع مسلم بن عقيل بدأ فصل جديد من فصول نهضة الحسين، وانفتحت الأبواب على جميع الاحتمالات.

فمع أنَّ عبيد الله بن زياد استطاع في الظاهر أن يقضي في الكوفة على حركة المؤمنين بقيادة مسلم، إلَّا أنَّه في الحقيقة لم يستطع إخماد ثورتهم، وإنَّما وضع الرماد على النار.

صحيح أنَّه ارتكب جرائم، وقتل رجالاً وحبس آخرين، إلَّا أنَّه ما استطاع أن يخمد النيران المشتعلة في نفوس الناس، خاصَّة وأنَّ الطريقة التي قتل بها كُلّاً من مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وغيرهما من سُراة القوم، واستخدامه أسلوب الخداع والمكر والاغتيال، في الوقت الذي رفض مسلم بن عقيل أن يغتال ابن زياد نفسه حينما أتيحت له الفرصة أكثر من مرَّة، كلّ ذلك زاد من تنفّر المؤمنين من الحكم الأموي برمَّته، وأصبحت الأُمَّة منقسمة على نفسها أكثر من أيِّ يوم آخر، رغم أنَّ المظاهر لم تكن تدلُّ كثيراً على ذلك، فالمؤمنون أصبحوا فعلاً في جبهة، وأعدائهم في جبهة أُخرى.

ولم يعد الحياد ممكناً بعد ارتكاب ابن زياد جرائم قتل بحقِّ المؤمنين، وقيامه بالتنكيل بالناس، وأخذ البريء بجريرة غيره.

فكم من شباب أمر بإعدامهم أمام بيوت أقربائهم وعشيرتهم، حتى أصبح القتل هو المنطق الوحيد الذي كان يستخدمه مع المخالفين لسلطات بني أُميَّة.

✻

لقد مات معاوية وهو يعلم أنَّ بيعة يزيد، التي استخدم فيها السيف بإفراط، والمال بالتفريط، لا تؤمن عواقبها، خاصَّة مع وجود شخص كالحسين بن عليّ بن أبي طالب الذي تجمَّعت فيه كلّ الفضائل، وأصبح يُمثِّل في نظر الناس رسول الله ﷺ بكلّ ما كان في النبيّ من الفضائل والمناقب.

وفي الطرف الآخر كان يقف يزيد بن معاوية ابن الخامسة والثلاثين عاماً، لا يملك من تجارب الزعامة شيئاً، وليس حوله من المرشدين والنصحاء إلَّا مجموعة من المجرمين الذين تحرُّكهم الأحقاد الأمويَّة من أمثال عبيد الله بن زياد.

وهكذا وصل الصراع بين بني أُميَّة المنافقين وبين بني هاشم الصادقين إلى مفترق طريق، لا سبيل فيه إلى توفيق. فأصبحت الجبهتان في وضعية التصادم.

ففي جبهة الحق يقف الحسين بن علي بن أبي طالب كوارث آدم، وهابيل، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ورسول الله، وعليّ، ومعه أهل البيت ومجموعة من المؤمنين الصالحين الصادقين المخلصين. وفي جبهة الباطل يقف يزيد بن معاوية كوارث قابيل، ونمرود، وفرعون، وبني إسرائيل، وجدّه أبي سفيان، وأبيه معاوية صاحب الدواهي، ورجل الحيلة والمكر والخداع والاغتيال وقتل الأبرياء.

إنَّ الصراع بين الحسين ويزيد لم يكن صراعاً بين رجلين، إلَّا بمقدار ما كان كلّ واحد منهما يُمثِّل طريقةً ومنهجاً وسلوكاً متناقضاً مع الآخر، وذلك الصراع هو نفسه الذي كان على مرِّ التاريخ بين الأنبياء وبين خصومهم، وبين الشُّهداء وبين الجلَّادين.

فبمقدار ما كان الحسين غيوراً على دين الله وما فيه من المثُل والقيم كالعدل، والإحسان، والإيمان، ورعاية حقوق الناس، وبمقدار ما كان فيه من صفات كنصرة الحقّ والنجدة، والتعاون، بمقدار ما كان يزيد هائماً في عشق السلطة والزعامة، بعيداً عن الأُصول الأخلاقيَّة، لا يحترم أبسط المثُل الإنسانية، ولم تكن عنده من حرمة لدماء الناس وأموالهم وأعراضهم، مستخدماً الرياء والدهاء والعبث بمقدَّرات الأُمَّة.

وهكذا فإنَّ التقابل بين الحسين بن عليّ، ويزيد بن معاوية كان تقابلاً في الأخلاق، والسلوك، والمنهج، والطريقة، فالمعركة بين الطرفين كانت هي معركة الخير والشرّ، والصلاح والفساد، والإيمان والنفاق.. وهي ذاتها المعركة التي بدأت بين هابيل وقابيل، والتي ستستمر إلى نهاية الخليقة والتي يمثِّلها في كلّ زمان ومكان رجال هنا ورجال هناك: مؤمنون في مواجهة منافقين، صالحون في مواجهة فاسقين، علماء في مواجهة جهلة، صادقون في مواجهة كذبة، شهداء في مواجهة جلَّادين.

وبمقدار ما كان الحسين مستعدّاً للتضحية بنفسه، وبأقرب الناس إليه وأحبّهم إلى قلبه في سبيل الحقّ والعدل والخير والصلاح، بمقدار ما كان عدوّه مستعدّاً للتضحية بالناس، وإراقة

دمائهم، ومصادرهم حقوقهم، وسبي نسائهم، في مصلحة سلطته ومنافعه وشهواته.

وهذا أقلّ ما يُقال في حقّ أعداء الحسين، وإلَّا فإنَّهم في الحقيقة كانوا مجموعة من المجرمين الأفَّاكين.. وكما يحدث أحياناً أنَّ رئيس عصابة يصبح رئيس دولة، فيتصرَّف مع الناس كرئيس عصابة، مع فارق واحد وهو أنَّه يضفي على نفسه هالة من القدسيَّة باعتباره سلطاناً وزعيماً ورئيس دولة، كذلك كان الأمر مع يزيد وخلفاء بني أُميَّة.

إنَّ أعداء الحسين لا يمكن أن نسمّيهم زعماء ملك دنيوي بحت، حتَّى ولا يمكن وصف سياستهم بأنَّها لتدعيم سلطان في مواجهة أعدائهم، بل أقلّ ما يمكن تسميتهم به أنَّهم كانوا جلَّادين متنمّرين، يطيعون ما في نفوسهم من غلظة وحقد، ولا تهمّهم ارتكاب مذابح طائشة بحقّ أبرياء، وسفك الدماء كتلهية، يلتذّون بها أيما التذاذ. فبتلك الطريقة وحدها كانوا يشعرون بسلطانهم، وقوَّة دولتهم، وعظمة شوكتهم.. فإنَّ كلّ واحد من أعوان يزيد أولغ في دماء المسلمين، فيقتل النفس التي حرَّم الله قتلها على الغضب والعداوة وسوء الظنّ، وهو يلهو ويلعب كأنَّه لم يصنع شيئاً»[1]، كما قال مسلم بن عقيل.

من هنا لا نجد في التاريخ صورة أوضح للصراع بين الحقّ الصراح والباطل الواضح، والخير المطلق والشرّ المطلق، والإيمان الصادق والنفاق العميق مثل الصراع الذي حدث عام 61 هجريَّة بين

(1) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج4، ص35.

الحسين وبين أعدائه فلقد برزت في مجابهة الحسين مع أعدائه النفس الإنسانية في صورتين متناقضتين؛ صورة النفس المطمئنَّة بإيمانها، الملتزمة بأخلاقها، الصادقة مع الله في تصرُّفاتها، وبين النفس الأمَّارة بالسوء، التي لا تصدق في شيء، لا مع الله ولا مع الناس ولا مع النفس، وتنزع إلى الملذَّات، وتهوي الزعامات، ولا تتورَّع أبداً عن ارتكاب الموبقات.

وهاتان الصورتان المتناقضتان من النفس الإنسانية هم اللَّتان تتنازعان حوادث التاريخ بين الأفراد، والأُمم، والجماعات في كلّ عصر وكلّ مصر.

لقد كان الحسين يمثِّل كلّ أصحاب النُّفوس المطمئنَّة في التاريخ، ابتداءً من النبيّ آدم صفي الله، وانتهاءً إلى محمَّد حبيب الله، كما كان يزيد يُمثِّل كلّ أعداء الأنبياء، من قابيل قاتل الإخوان، إلى المتمرِّد على الحقّ معاوية بن أبي سفيان.

ولذلك لم يجد أحد في التاريخ ما يعيب به على الحسين حتَّى من قبل أعدائه. كما لم يجد أحد في التاريخ ما يمدح به يزيد حتَّى من قبل أحبَّائه، وكفى ذلك دليلاً على التقابل بين المنهجين والطريقتين، كما كان تقابلاً بين الشخصين، وحتى في أشكالهم وصورهم كانوا متقابلين. فقد كان كلّ أعداء الحسين خلقاً مشوَّهاً في الصورة، كما كانوا شرّاً مطلقاً في السيرة.

فمن يزيد بن معاوية المحفور وجهه بحفر الجدري، إلى عبيد الله بن زياد المجهول النسب، الذي كان ألكن اللِّسان، لا يجيد نطق العربيَّة، إلى شمر بن ذي الجوشن المصاب بالبرص، وقبح المنظر.

بينما على العكس، كان الحسين وأصحابه كأنَّهم البدور الطالعة في ليالي تمامها وكمالها، وكانت وجوههم أقرب إلى وجوه الملائكة، كما كانت مواقفهم هي نفسها مواقف الأنبياء، في مواجهة وجوه كأنَّها وجوه الأبالسة، ومواقف هي مواقف الشياطين.

❋ ❋ ❋

الطريق إلى كربلاء

قبل أن تصل أخبار نجاح الانقلاب الذي قاده عبيد الله بن زياد ضدّ مسلم بن عقيل في الكوفة، وتثبيت السلطة في يد بني أُميَّة هناك، كشفت الأحداث عن غليان كبير في حاضرة العالم الإسلامي؛ ففي مكَّة المكرَّمة كان أهل الحجاز والوافدون لأداء فريضة الحج يتجمَّعون يومياً عند الحسين، وما أن يخرج من داره إلَّا ويلتفُّ الناس حوله أينما ذهب. كما أنَّ البصرة بدأت تغلي أيضاً، حيث قام المؤمنون هناك بعقد اجتماعات لترتيب أُمورهم، استعداداً للمشاركة في أيّ تغيير قد يحدث.

كما أنَّ كبار المخالفين ليزيد أخذوا يتنقَّلون من مكان لمكان، فعبد الله بن الزبير استقرَّ في مكَّة، وأخذ أنصاره يجمعون الأتباع، وكلّ هذه الأُمور أصابت السلطة بالاضطراب، فقام يزيد بتغيير الولاة في البلدان، بما فيها ولاة المدينة ومكَّة، كما أنَّه بدأ حركة مضادَّة لاستباق الأحداث، تماماً كما يفعل كلّ الطغاة في التاريخ، فإنَّهم يبطشون جبَّارين ويعاقبون على الفعل الصغير عقاباً شديداً. وفي العادة هم الذين يتخذون قرار المواجهة وليس مخالفوهم، كما حصل بين قابيل وهابيل، وبين نمرود وإبراهيم، وبين فرعون وموسى، وبين بني إسرائيل وعيسى، وبين أبي سفيان ورسول الله.

فمن هو الذي اتخذ قرار المواجهة بالقتل: قابيل، أم هابيل؟

ومن هو الذي اتخذ قرار حرق الآخر بالنار: نمرود، أم إبراهيم؟

ومن هو الذي اتخذ قرار اعتقال موسى، أو قتله أو نفيه: فرعون، أم موسى؟

وكذلك فيما يرتبط ببني إسرائيل الذين حاولوا قتل عيسى ابن مريم، وقريش الذين أرادوا اغتيال رسول الله.

وهكذا فإنَّ يزيد هو الذي قرَّر مواجهة الحسين، فكتب الرسائل إلى ولاته يطالبهم بإجبار الحسين على البيعة أو مواجهة العقاب، كما كتب رسائل إلى بعض كبار الشخصيَّات من بني هاشم يطالبهم بمنع الحسين من الاستمرار في حركته، وفي كثير منها كان هنالك تهديد واضح للحسين عليه السلام.

وممَّن كتب إليهم بمجرَّد نزول الحسين في مكَّة هو عبد الله بن عبَّاس، باعتباره من صحابة أمير المؤمنين ومن العائلة ذاتها، وكان يسعى في رسالته إلى تأليب بني هاشم على الحسين، وتأليب من تبقى من الصحابة عليه.

يقول يزيد في رسالته هذه: «أمَّا بعد، فإنَّ ابن عمّك حسيناً، وعدوّ الله ابن الزبير، إلتويا ببيعتي، ولحقا بمكَّة مرصدين للفتنة، معرّضين أنفسهما للهلكة، فأمَّا ابن الزبير فإنَّه سريع الفناء وقتيل السيف غداً.

«وأمَّا الحسين فقد أحببت الإعذار إليكم أهل البيت ممَّا كان منه، وقد بلغني أنَّ رجالاً من شيعته من أهل العراق يكاتبونه

ويكاتبهم، ويمنّونه الخلافة، ويمنِّيهم الأمر، وقد تعلمون ما بيني وبينكم من الوصلة، وعظيم الحرمة، ووشائج الأرحام، وقد قطع ذلك الحسين وبتره، وأنت زعيم أهل بيتك، وسيِّد أهل بلادك، فألقه، فأردده عن السعي في الفرقة، وردّ هذه الأُمَّة عن الفتنة، فإن قبل منك وأناب إليك، فله عندي الأمان والكرامة الواسعة، وأجري عليه ما كان أبي يجريه على أخيه، وإن طلب الزيادة فأضمن له ما أراك الله، أَنفُذ ضمانك وأقوم له بذلك، وله عليَّ الأيمان المغلَّظة، والمواثيق المؤكَّدة بما تطمأن به نفسه، ويعتمد في كلّ الأُمور عليه، عجِّل بجوابي إليك، وبكلّ جاجة لك إليَّ وقبلي، والسَّلام.

وذيَّل رسالته بأبيات من الشعر، قائلاً:

يا أيُّها الراكبُ الغادي مطيَّته
على عذافرةٍ في سيرها قُحمُ
أبلغ قريشاً على نأي المزار بها
بيني وبين الحسين: اللَّهُ والرحمُ
وموقفٌ بفناء البيت أنشُدُه
عهد الإله وما توفى به الذممُ
عنيتم قومكم فخراً بأُمّكم
أُمٌّ لعمري حصانٌ بَرّةٌ كرمُ
هي التي لا يُداني فضلها أحدٌ
بنت الرسول وكلّ الناس قد علموا
إنِّي لأعلم أو ظنّاً كعالمه
والظنّ يصدق أحياناً فينتظمُ

أنْ سـوف يـتـركـكـم مـا تـدَّعـون بـه
قـتـلـى تـهـاداكـم الـعـقـبـان والـرّخـمُ
يا قومنا لا تشبّوا الحرب، إذ سكنت
وأمسكوا بحبال السلم، واعتصموا
قد جرّب الحرب من قد كان قبلكم
مـن الـقـرون وقـد بـادت بـهـا الأُمـمُ
فـانـصـفـوا قـومـكـم لا تـهـلـكـوا بـذخـاً
فـربّ ذي بـذخ زلّـت بـه الـقـدمُ[1]

وكما هو واضح من الرسالة فإنَّ يزيد اعتبر مجرَّد انتقال الحسين من المدينة إلى مكَّة، وكتابة الرسائل من أهل الكوفة إليه وإجابة الحسين لهم، جريمة لابُدَّ من أن يتخذ بنو هاشم موقفاً مضادّاً تجاهه، وكذلك اتهم الحسين بأنَّه يريد الفتنة، وهدَّده بالهلاك والموت. كما اعتبر نفسه محوراً لوحدة الأُمَّة، ومن ثمَّ فقد صنَّف حركة الحسين ضمن السعي إلى الفرقة والفتنة، وفي نهاية رسالته عرض على الحسين شراء موقفه بالمال، ظنّاً منه أنَّ معدن الحسين كمعدنه هو، يخضع للابتزاز والتهديد، ويمكن شراء ذمَّته بالأموال والمغريات. وأخيراً أعطى لابن عبَّاس الخيار في أن يزيد أو ينقص من المال للحسين، إذا رأى أنَّ ذلك سوف يحمله على طاعة يزيد.

أمَّا ابن عبَّاس فقد ردَّ على رسالة يزيد بالجواب التالي:

---

(1) مختصر ابن منظور، ج7، ص142؛ والبداية والنهاية، لأبن كثير، ج8، ص164؛ وتذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص136.

«أمَّا بعد، فقد ورد كتابك تذكر فيه لحاق الحسين وابن الزبير بمكَّة، فأمَّا ابن الزبير فرجل منقطع عنَّا برأيه وهواه، ومع ذلك يكاتمنا أضغاناً يسرّها في صدره، يوري علينا وري الزناد، فرأيي في أمره ما أنت راء.

«وأمَّا الحسين فإنَّه لمَّا نزل مكَّة، وترك حرم جدّه ومنازل آبائه سألت عن مقدمه، فأخبرني أنَّ عمَّالك بالمدينة أساؤوا إليه وعجَّلوا بالكلام الفاحش عليه، فأقبَلَ إلى حرم الله مستجيراً به، وسألقاه فيما أشرت إليه، ولن أدع النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة، ويطفىء به النائرة، ويخمد به الفتنة، ويحقن به دماء الأُمَّة.

«وأنا أأمرك بأن تتقي الله في السرّ والعلانية، ولا تُبيتنَّ ليلة وأنت تريد لمسلم غائلة، ولا ترصده بمظلمة، ولا تحفر له مِهوات، فكم من حافر لغيره حفراً وقع فيه، وكم من مؤمّل أملاً لم يؤت أمله، وخذ بحظك من تلاوة القرآن، وعليك بالصيام والقيام، لا تشغلك عنهما ملاهي الدُّنيا وأباطيلها، فإنَّ كلّ ما اشتغلت به عن الله يضرُّ ويفنى، وكلّ ما اشتغلت به من أسباب الآخرة ينفع ويبقى، والسَّلام»[1].

وواضح أنَّ ابن عبَّاس ردَّ على يزيد موقفه فيما يرتبط بانتقال الحسين من المدينة إلى مكَّة، واعتبر ذلك نتيجة موقف السلطة منه، وعلى رأسها الوالي، وموقف مروان بن الحكم وهم الذين أساؤوا إلى الحسين بالكلام الفاحش، وهدَّدوه بالقتل إن لم يبايع.

---

(1) الأمالي، للشجري، ج1، ص182؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص145؛ وموسوعة الإمام الحسين، ج2، ص22.

كما اعتبر أنَّ انتقال الحسين من مدينة جدّه إلى حرم الله أمر طبيعي، وحقّ من حقوق كلّ مسلم في الأرض، بالإضافة إلى ردّ تهديد يزيد بالقتل والهلاك، بأن نصحه بأن يتقي الله عزَّ وجلَّ ولا يتعجَّل في أمره.

✵

كان الحسين قد اتخذ قراره بالنهضة، بناءً على مجموعة من المعطيات:

أوَّلاً: قيام الحجَّة بوجود الناصر.

ثانياً: ما أخذ اللَّهُ على العلماء أن لا يقارّوا على كظَّة ظالم، ولا سغب مظلوم.

ثالثاً: وصيَّة أمير المؤمنين له وللحسن، قبيل رحيله عن هذه الحياة، حيث قال لهما: «أوصيكما بتقوى الله، وأن لا تبغيا الدُّنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، قولا بالحق واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»[1].

رابعاً: تمادي بني أُميَّة في الظلم والعدوان والطغيان، من خلال إجبار معاوية الناس على بيعة يزيد كخليفة للمسلمين، هذا الرجل الذي قال فيه الحسين: «وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأُمَّة براعٍ مثل يزيد»[2].

فمجمل هذه الأُمور دفعت الحسين لاتخاذ قرار النهضة، ليس من أجل أن يصبح حاكماً هنا أو هناك، وإنَّما لكي يؤدِّي مسؤوليته،

---

(1) نهج البلاغة، رسالة رقم 47.
(2) مثير الأحزان، لابن نما الحلِّي، ص15.

وهي نفسها التي كانت تدفع الأنبياء والأولياء والصالحين لكي يقوموا بالأمر وينهضوا في أُممهم.

❁

انتشر خبر عزم الحسين على التوجه نحو العراق بين الناس، وخاصَّة حجَّاج بيت الله الحرام، كانتشار النار في الهشيم، وعلى عجل قام عبد الرحمن الصالح بزيارة صاحبه عبد الله بن مسلم، فدخل عليه، فوجده حزيناً باكياً، فقال له: ماذا ترى فيما عزم عليه الحسين؟

قال عبد الله: لقد دقَّت ساعة الحقيقة، وأظن أنَّ الأيَّام حبلى بحوادث كبرى في هذه الأُمَّة.

فقال عبد الرحمن: كلّنا نعلم مكانة الحسين، ولا أحد يخفى عليه أمر يزيد، والسلطة بأكملها في يد هذا الرجل، فكيف يخرج الحسين إلى العراق، هل لكي يحكم هناك؟

قال عبد الله: يبدو أنَّك لا تعرف الحسين معرفة حقيقية، إنَّ هؤلاء رجال لا يبحثون عن الدُّنيا ومغانمها، ولو أتتهم على أبواب بيوتهم لأكبّوها على وجهها كما فعل أبوهم. هم أهل بيت النُّبوَّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعدن العلم، وأهل بيت الوحي.

أترى أنَّ رسول الله حينما صدع بالأمر في مكَّة كان يريد أن يكون أميراً على أهلها؟

لقد عرضوا عليه ذلك، ولكنَّه رفض.

أترى أنَّه كان يبحث عن الأموال؟

وقد عرضت عليه حليّ الكعبة، ولكنَّه رفض.

أم أنَّه كان يريد أن يتزوج أجمل بنات قريش؟

وقد عرض عليه ذلك ولكنَّه رفض أيضاً.

وقال لعمِّه أبي طالب جدّ الحسين: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتَّى يظهره الله، أو أهلك دونه»[1].

قال عبد الرحمن: لكن دين الله ظاهر الآن، فلماذا يخرج الحسين؟

قال عبد الله: يا هذا؛ إنَّ الناس افتتنوا ببني أُميَّة، وهم يأخذون دينهم من هؤلاء، وخاتمة الأديان على وشك أن يتحوَّل إلى مجرَّد مظاهر خالية من الجواهر، والديانات التي بعث الله الأنبياء لكي يقوم الناس بالقسط، على وشك أن يجعلها هؤلاء غطاء للظلم والطغيان والنفاق.

ولهذا قال عليّ عليه السلام: «ألا إنَّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أُميَّة»[2].

ترى لو أنَّ بني أُميَّة أعلنوا إعادة الأصنام إلى الكعبة، وفرضوا على الناس عبادتها، أليس ذلك يوجب على كلّ مؤمن أن ينهض بالأمر، ويردّ عليهم؟

قال عبد الرحمن: قطعاً.

(1) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج14، ص54.
(2) نهج البلاغة، خطبة رقم 93.

قال عبد الله: أترى أنَّ إقامة الظلم باسم هذا الدِّين، واتخاذ مال الله دولاً، وعباده خولاً باسم شريعة سيِّد المرسلين أقلّ خطورة من نصب الأصنام على الكعبة؟

ألم يقل النبيّ للكعبة: «مرحباً بالبيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك على الله. واللَّهِ للمؤمن أعظم حرمة منك»؟[1].

أليس من الغريب أنَّ النبيّ، وهو مرسل من قِبل ربّ العالمين، لم يكن يفرض على أحد بيعته، وإنَّما كانت البيعة اختياريَّة، واليوم يفرض بنو أُميَّة على الناس البيعة ليزيد بصفته خليفة رسول الله، وهو لا يمتُّ إلى النبيّ بصلة، لا في دينه، ولا في نسبه، ولا في أخلاقه، ولا في التزامه، ولا في علمه؟

أترى أنَّ رسول الله بُعث لينتهي أمر الأُمَّة إلى مثل يزيد، فيكون حاكماً على الناس وبيده مقدّراتهم، ومصيرهم، وأعراضهم، وأموالهم، وكلّ صغيرة وكبيرة في دينهم ودُنياهم؟

قال عبد الرحمن الصالح: إذن هل الحسين يخرج على السلطة لكي يقضي على شخص يزيد ويجلس في مكانه؟

قال عبد الله بن مسلم: أولياء الله لا يتخذون مواقفهم بناءً على عداوة شخصيَّة مع أحد، ثمَّ إنَّهم يريدون الاستنهاض بالأُمَّة، وليس الحصول على السلطان والتاج. فهل كان إبراهيم الخليل يريد أن يجلس مكان نمرود؟

وهل كان النبيّ موسى عليه السلام يريد أن يحتلّ موقع فرعون؟

(1) مستدرك سفينة البحار، للنمازي الشاهرودي، ج1، ص204.

وهل كان رسول الله يريد أن يحصل على موقع أبي سفيان في مكَّة؟

إنَّ الأنبياء يبحثون عن شيء آخر، وهو هداية الناس ودفعهم إلى إقامة العدل ومنع الفتنة، حتَّى لا تكون الأموال بيد قوم طغاة يستخدمونها لإبعاد الناس عن التزامهم بدينهم وقيمهم ومثُلهم وأخلاقهم.

قال عبد الرحمن: ولكن الحسين إذا نهض وخرج إلى العراق فلربَّما يُقتل؟

قال عبد الله: إنَّ الحسين لا يقوم بمغامرة سياسيَّة، ولا ينهض لمساومة تجارية، وإنَّما الحسين يؤمن بدينه، فإن نصره الناس وقبلوه، فقد نصروا حقَّهم في أن يكونوا أحراراً في دُنياهم، وإن تقاعسوا عن ذلك، واستطاعت السلطة أن تقضي على الحسين، التزم هو بالحقّ. وسيَّان عنده فوات هذا الأمر عنه بالموت أو فواته بالحياة، بل الموت بالنسبة إليه أشهى من الحياة.

قال عبد الرحمن: إذن أن ترى أنَّ الحسين خارج لا محالة؟

قال عبد الله: هكذا يبدو.

فقال عبد الرحمن: وهل أنَّ أحداً نصحه بخلاف ذلك، أو منعه من التوجّه إلى العراق؟

قال عبد الله: كثيرون نصحوه بأن لا يخرج.

قال عبد الرحمن: فهل قبل منهم الحسين؟

قال عبد الله: كلا.

قال عبد الرحمن: ولماذا؟

قال عبد الله بن مسلم: لأنَّ منطق الحسين يختلف عن منطقهم، الكثيرون حينما أتوا إلى الحسين ظنّوا أنَّه يبحث عن التاج والسلطان، ويريد الانتصار على بني أُميَّة بأيِّ ثمن، فهم يقولون له إنَّك لا تنتصر، فالسلطة أقوى من أن تسقط على يديك، مع قلَّة العدد وخذلان الناصر.

وأنت تعرف أنَّ الحسين حفيد رسول الله، وابن أمير المؤمنين، وهو من حيث العمر في نهايات الثامنة والخمسين، بينما يزيد بن معاوية في الخامسة والثلاثين، فالحسين عليه السلام أكثر حكمة وحنكة وعلماً ومعرفة من عدوِّه، وقد عاش أحداثاً كبيرة مرَّت عليه منذ ولادته إلى اليوم، فما يقوله له هؤلاء لا يغيب عنه، غير أنَّ منطقه مختلف عن منطقهم. إنَّ الحسين لا يخرج لكي يحكم كما يظن هؤلاء.

قال عبد الرحمن: فهل يخرج الحسين لكي يُقتل؟

قال عبد الله: لا؛ فالأمر لا يدور بين أن يبحث الحسين عن السلطة أو أن يبحث عن الموت، الحسين يقوم بواجبه، وهو بين إحدى الحسنيين، إمَّا النصر وإمَّا الشهادة، تماماً كما كان يفعل جميع الأنبياء. فلو بعث نبيّ في أُمَّة من الأُمم، فهل يريد أن يكون حاكماً عليها، أم يريد أن يهديها؟

إنَّ المشكلة التي وقعت الأُمَّة فيها اليوم هي أنَّ هنالك جماعة يبحثون عن الحكم والسلطان ليصبحوا ملوكاً باسم هذا الدِّين، وخطورة هؤلاء أنَّ أعمالهم تصبح موازين دينية لدى الناس، وتصبح مواقفهم مصبوغة بصبغة الشرعية، وهذا هو معنى النفاق الذي لابُدَّ أن نخشاه دائماً على أنفسنا وعلى غيرنا.

إنَّ كلّ الذين جاؤوا إلى الحسين قالوا له إنَّ الوضع لا يزال مضطرباً في الكوفة، وأنَّ خروجه إلى العراق قد لا ينتهي بحصوله على السلطة، والحسين أساساً لا يبحث عن السلطة، إنَّما يريد أن يؤدِّي ما عليه من الواجب.

❁

عندما بلغ عبد الله بن عبَّاس خبر أنَّ الحسين يريد المسير إلى العراق أقبل حتَّى دخل عليه مُسلِّماً، فقال له: «جعلت فداك يابن بنت رسول الله؛ إنَّه قد شاع الخبر في الناس بأنَّك سائر إلى العراق، فبيِّن لي ما أنت صانع».

فقال الحسين عليه السلام: «نعم؛ إنِّي أزمعت على ذلك في أيَّامي هذه إن شاء الله، ولا قوَّة إلَّا بالله».

فقال ابن عبَّاس: «أعيذك بالله من ذلك، فإن كنت تسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوّهم، فإنَّ في مسيرك إليهم لعمري الرشاد والسداد. وإن كانوا إنَّما دعوك إليهم وأميرهم قاهر لهم، وعمَّالهم يجبون بلادهم، فإنَّما دعوك إلى الحرب والقتال. وإنَّك تعلم أنَّه بلد قد قُتل فيه أبوك، واغتيل فيه أخوك، وبويع يزيد بن معاوية، وعبيد الله بن زياد في البلد يعطي ويفرض، والناس اليوم إنَّما هم عبيد الدينار والدرهم، ولا آمن عليك أن تُقتل، فاتق الله والزم هذا الحرم»[1].

❁

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص112.

قال عبد الرحمن الصالح: ألا ترى أنَّ كلام عبد الله بن عبَّاس هو كلام ناصح؟

قال عبد الله بن مسلم: هو كلام ناصح بالنسبة إلى من يريد الحصول على الحكم والسلطة. يقول له لا تذهب إلى الكوفة إلَّا بعد أن يقوم الناس بطرد أميرهم ونفيه، والقضاء على سلطانه، حتَّى إذا ذهبت إلى هناك أصبحت أميراً عليهم، وإلَّا فإنَّك ربَّما تُقتل في هذا الطريق. أمَّا الحسين فلا هو يبحث عن السلطان، ولا هو خائف من الموت، كما لم يكن الأنبياء يبحثون عن السلطان، ولا كانوا يخافون من الموت.

❋

في الجواب على ابن عبَّاس قال الحسين: «والله لئن أُقتل بالعراق أحبُّ إليَّ من أن أُقتل بمكَّة، ويُستحلّ بي حرم الله وحرم رسوله. وما قضى الله فهو كائن، وأنا مع ذلك أستخير الله وأنظر ما يكون»[1].

وبعد أيَّام جاءه عبد الله بن عبَّاس مرَّة أُخرى، فدخل إليه وقال: «يابن بنت رسول الله؛ إنِّي قد رأيت رأيي إن تقبل منِّي».

فقال الحسين: «وما ذاك»؟

قال ابن عبَّاس: «تخرج إلى بلاد اليمن، فإنَّ فيها حصوناً وشعاباً، وهي أرض عريضة طويلة، وإنَّ لك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة، فإذا استوطنت بها أكتب إلى الناس، وأعلمهم مكانك».

---

(1) المعجم الكبير، للطبراني، ج3، ص128.

فقال الحسين: «يابن عمِّي؛ إنِّي لأعلم أنَّك ناصح شفوق، ولكنِّي أزمعت على المسير إلى العراق ولابُدَّ من ذلك، فخلِّ عنِّي يابن عبَّاس، فإنِّي أستحي من ربِّي عزَّ وجلَّ أن ألقاه ولم آمر في أُمَّتنا بمعروف، ولم أنهى عن منكر»[1].

فأطرق ابن عبَّاس ساعة، ثمَّ قال: «يابن بنت رسول الله؛ إن كنت قد أزمعت ولابُدَّ لك من ذلك، فلا تسر بنسائك وأولادك، فإنِّي خائف عليك أن تُقتل، وهم ينظرون إليك، ولا يقدرون على حيلة».

فقال الحسين: «إنَّهنَّ ودائع رسول الله، ولا آمن عليهن أحداً، وهنَّ أيضاً لا يفارقنني».

ويبدو أنَّ بعض نسوة الحسين سمعن كلام ابن عبَّاس، حيث ارتفع أصواتهنَّ بالبكاء، وسمع ابن عبَّاس قائلة منهن تقول: «يابن عبَّاس؛ أتشير على شيخنا وسيِّدنا أن يخلِّفنا هاهنا، ويمضي وحده؟!

لا والله، بل نحيا معه ونموت معه، وهل أبقى الزمان لنا غيره»؟[2].

فلمَّا أبى الحسين قبول رأي ابن عبَّاس قال له هذا الأخير: «والله لو أعلم أنِّي إذا تشبَّثت بك، وقبضت على مجامع ثوبك، وأدخلت يدي في شعرك، حتَّى اجتمع الناس عليَّ وعليك، لو علمت أنَّ ذلك كان نافعاً لي لفعلته، ولكن اعلم أنَّ الله بالغ أمره».

---

(1) الأمالي، للشجري، ج1، ص186.

(2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص157.

ثمَّ أسبل عينيه وبكى وودَّع الحسين وانصرف، وهو يقول: «وآحسيناه»[1].

❋

في لقائهم الليلي بفناء الكعبة جلس عبد الرحمن الصالح إلى جنب صاحبه وهما صامتان فترة من الزمن، ثمَّ التفت عبد الرحمن إلى عبد الله قائلاً: حديث الناس كُلّهم حول خروج الحسين.

فقال عبد الله: هل هم يؤيّدونه، في ذلك أم يخالفون؟

قال عبد الرحمن: عامَّة الناس مع الحسين، فهم يرون أنَّ ليل الظلم قد طال، وأنَّه لابُدَّ أن يتغيَّر شيء ما في هذه الأُمَّة.

قال عبد الله: هذا صحيح، ولكن أتدري أنَّ أوَّل شيء لابُدَّ أن يتغيَّر في الأُمَّة هو بصيرتها، وتحرير إرادتها، حتَّى يتحرَّكوا ويغيّروا، لا أن يكتفوا بتأييد الشيء بقلوبهم من دون أن يحرِّكوا ساكناً بمواقفهم، وهذا هو الذي يُميِّز الحسين عليه السلام عن بقيَّة الناس. فهو لا يقول شيئاً إلَّا ويفعل، وإذا فعل فهو يمشي على خطى جدّه رسول الله، لا يلوي إلى الوراء.

قال عبد الرحمن: هل أنَّ الحسين في النهاية يقوم بنهضته لا محالة؟

قال عبد الله: لا يشك الحسين في مواقفه، وليس متردِّداً في أمره، ولو كان إبراهيم الخليل عليه السلام قد تردَّد في كسر الأصنام لتردَّد الحسين، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تردَّد في رفضه لعبادة الأصنام

---

(1) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص73؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص114.

لتردَّد الحسين. وكما أعلن رسول الله البراءة من المشركين يوم الحجّ الأكبر، فإنَّ الحسين قد أعلن البراءة من المنافقين في حجِّه هذا.

قال عبد الرحمن: وماذا عن مواقف عليّة القوم وكبارهم؟

قال عبد الله بن مسلم: هنالك من يحاول منع الحسين عليه السلام من التوجُّه إلى العراق كما ذكرت لك، وهم على أربعة أصناف:

الصنف الأوَّل: المشفقون على الحسين.

الصنف الثاني: المشفقون على بني أُميَّة.

الصنف الثالث: الذين لم يفهموا مقاصد الحسين عليه السلام فيما هو مقدم عليه، فهم يتحدَّثون بمنطق يختلف تماماً عن منطق الحسين.

قال عبد الرحمن: أتريد أن تقول إنَّ هذا الصنف لا يفهم الحسين ولا يفهمهم الحسين؟

قال عبد الله: الحسين يفهمهم، ولكنَّهم هم لا يفهمونه.

الصنف الرابع: الذين يحبّذون خروج الحسين، ولكنَّهم يتظاهرون بخلاف ذلك، حتَّى لا يتّهموا فيما بعد بالشراكة في دمه إذا قُتل.

قال عبد الرحمن: ومن تقصد بهذا الصنف؟

فقال عبد الله: أقصد أمثال عبد الله بن الزبير، فقد جاء مرَّة إلى الحسين ليشجِّعه على أن ينهض ضدَّ يزيد، وقال فيما قال: «ما أدري لماذا تركنا هؤلاء القوم وكففنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين وأولى بالأمر منهم، فخبِّرني بماذا تريد أن تصنع»؟

فقال له الحسين: «والله لقد حدَّثت نفسي بإتيان الكوفة، فإنَّ أشراف أهلها قد كتبوا إليَّ بالقدوم عليهم، وأستخير الله».

فقال ابن الزبير: لو كان لي بها مثل شيعتكم ما عدلت بها.

ثمَّ خشي أن يتَّهمه، فقال: بلى؛ لو أنَّك أقمت بالحجاز، ثمَّ أردت الأمر هاهنا ما خلف عليك إن شاء الله[1]. فإذا قوي أمرك نفيت عمَّال يزيد عن هذا البلد، وعليَّ لك المكاتفة والمؤازرة، وإن عملت بمشورتي طلبت هذا الأمر بهذا الحرم، فإنَّه مجمع أهل الآفاق ومورد أهل الأقطار، لم يعدمك بإذن الله إدراك ما تريد، ورجوت أن تناله[2].

قال عبد الرحمن: وبماذا أجابه الحسين؟

قال عبد الله: إنَّ الحسين قال له: «إنَّ أبي حدَّثني أنَّ بمكَّة كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أحبّ أن أكون أنا ذلك الكبش. نحن لا نستحلّها ولا تُستحلّ بنا، ولئن أُقتل على تلّ أعفر أحبُّ إليَّ من أن أُقتل بها»[3].

فخرج عبد الله بن الزبير، فقال الحسين لمن معه: «ما من شيء من أمر الدُّنيا يؤتاه أحبُّ إليه من خروجي عن الحجاز، لأنَّه قد علم أنَّه ليس له معي من الأمر شيء، وأنَّ الناس لن يعدلوه بي، فودَّ أنِّي خرجت من هنا لتخلو له»[4].

---

(1) جمل لأنساب الأشراف، للبلاذري، ج5، ص315.
(2) الأخبار الطوال، للدينوري، ص244.
(3) كامل الزيارات، لابن قولويه، ص73.
(4) التاريخ، للطبري، ج5، ص383.

قال عبد الرحمن الصالح: هذا عن الصنف الرابع ممَّن أشاروا على الحسين بعدم المسير إلى العراق، فماذا عن الذين أشاروا عليه بعدم الخروج إشفاقاً منهم عليه، من هم مثلاً، وماذا قالوا، وماذا قال لهم الحسين؟

قال عبد الله بن مسلم: مِن هؤلاء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو ابن عمّ الحسين وزوج أخته زينب، فقد كان الرجل في المدينة، ولما سمع بأنَّ الحسين يريد الخروج إلى العراق كتب إليه يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن عليّ، من عبد الله بن جعفر، أمَّا بعد، أنشدك الله أن لا تخرج عن مكَّة، فإنِّي خائف عليك، من هذا الأمر الذي قد أزمعت، عليه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك، فإنَّك إن قُتلت أخاف أن يطفأ نور الله، فأنت عَلَم المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلا تعجِّل بالمسير إلى العراق، فإنِّي آخذ لك الأمان من يزيد، ومن جميع بني أُميَّة، لنفسك ولمالك وأولادك وأهل بيتك، والسَّلام[1].

فكما هو واضح فإنَّ الرجل مشفق على الحسين، وهو خائف من أن يقدم بنو أُميَّة على قتله، ومن ثمَّ أن ينقطع نسل رسول الله ويستأصل أهله.

فكتب إليه الحسين يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعد، فإنَّ كتابك ورد عليَّ، فقرأته وفهمت ما فيه، وأعلمك أنِّي قد رأيت جدِّي رسول الله ﷺ

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص218؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص115.

في منامي، فأخبرني بأمر أنا ماضٍ له، أكان لي الأمر أو عليَّ، فوالله يابن عم لو كنتُ في حجر هامَّة من هوامّ الأرض فإنَّهم يستخرجوني حتَّى يقتلوني، ووالله ليعتدنَّ عليَّ كما اعتدت اليهود في يوم السبت، والسَّلام[1].

قال عبد الرحمن الصالح: هل تكشف رسالة عبد الله بن جعفر أنَّ بعض أهل البيت يختلفون مع الحسين في أمر خروجه؟

قال عبد الله بن مسلم: أهل البيت مجمعون على إمامة الحسين، وهو سيِّدهم بلا منازع، وزعيمهم، وهم مشفقون عليه، ولو أنَّه صمَّم على الخروج فسوف يستسلمون له، ولذلك فإنَّ عبد الله بن جعفر مع هذه الرسالة التي تلوتها لك أرسل ولديه عون ومحمَّد لكي يلتزما ركاب الحسين، مع قطع النظر عمَّا يمكن أن يحدث له، ولهما[2].

وأضاف عبد الله بن مسلم: ومن الذين أشاروا على الحسين بعدم الخروج، إشفاقاً منهم عليه، عبد الله بن مطيع، فقد قال للحسين: «فداك أبي وأُمِّي، أنشدك الله أن تعتني بنفسك ولا تسرْ إلى العراق، فإنَّ حرمتك من الله حرمة، وقرابتك من رسول الله قرابة، وإنَّ بني أُميَّة إن قتلوك لم يرتدعوا عن حرمة الله أن ينتهكوها، ولن يهابوا أحداً بعدك أن يقتلوه، فوالله لئن قتلتك هؤلاء القوم ليتخذونا خولاً وعبيداً»[3].

---

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص174.
(2) الفصول المهمَّة، لابن الصبَّاغ، ص187.
(3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص217؛ والتهذيب، لابن بدران، ج4، ص328.

ومن المشفقين الذين أشاروا على الحسين عليه السلام بعدم الخروج أيضاً عمر بن عبد الرحمن المخزومي، فقد جاء إليه وقال له: «بلغني أنَّك تريد العراق، وأنا مشفق عليك من مسيرك، لأنَّك تأتي بلداً فيها عمَّال يزيد وأُمرائه ومعهم بيوت المال، وإنَّما الناس عبيد الدينار والدرهم، فلا آمن عليك أن يقاتلك مَن وعدك نصره، ومن أنت أحبّ إليه ممَّن يقاتلك معه».

فقال له الحسين: جزاك الله خيراً من ناصح، ولكن مهما قُضي من أمر يكون، أخذت برأيك، أو تركته[1].

وممَّن أشار على الحسين بعدم الخروج أيضاً عمرة بنت عبد الرحمن الأنصاريَّة، فقد كتبت إليه تخبره أنَّه إنَّما يصار إلى مصرعه.

وقالت: «أشهد لقد حدَّثتني عائشة أنَّها سمعت رسول الله يقول: يُقتل حسين بأرض بابل».

فلمَّا قرأ الحسين كتابها، قال: فلابُدَّ لي إذن من مصرعي[2].

قال عبد الرحمن الصالح لعبد الله: إنَّ جواب الحسين على هذه الرسالة عظيم فعلاً، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أخبر بمقتله في أرض العراق، فإذن لابُدَّ أن يذهب إلى هناك، لأنَّ إخبار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحيٌّ من السَّماء.

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص382.

(2) تاريخ الإسلام، للذهبي، ج2، ص343؛ والعبرات، للمحمودي، ج1، ص361.

ولكن أخبرني عمَّن أشار على الحسين بعدم الخروج وهو مشفق على بني أُميَّة، وليس على الحسين، من هم مثلاً؟

قال عبد الله بن مسلم: من هؤلاء عمرو بن سعيد بن العاص، وهو نائب الحرمين، فقد كتب إلى الحسين بمنطق المتكبِّرين يقول: «إنِّي أسأل الله أن يلهمك رشدك، وأن يصرفك عمَّا يرديك، وأن يهديك لما يرشدك، فقد بلغني أنَّك قد اعتزمت على الشخوص إلى العراق، وإنِّي أعيذك بالله من الشقاق، فإنِّي أخاف عليك فيه الهلاك فإن كنت خائفاً فقد بعثت إليك بأخي يحيى بن سعيد، فأقبل إليَّ معه، فلك عندنا الأمان، والصلة، والبرّ، والإحسان.

فكتب إليه الحسين يقول: «أمَّا بعد، فإنَّه لم يشاقق من دعى إلى الله وعمل صالحاً وقال إنَّني من المسلمين، وقد دعوتني إلى الأمان والبرّ والإحسان، وخير الأمان أمان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدُّنيا، ونحن نسأل الله مخافةً في الدُّنيا توجب أماناً يوم القيامة، فإن كنت بكتابك هذا إليَّ أردت برِّي وصلتي، فجزيت بذلك خيراً في الدُّنيا والآخرة، والسَّلام»[1].

قال عبد الرحمن الصالح: فمن هم الصنف الثالث الذي قلت إنَّهم يرون شيئاً، بينما يرى الحسين شيئاً آخر، وأنَّهم ربَّما لم يفهموا لماذا يريد الحسين الخروج؟

قال عبد الله بن مسلم: مثل محمَّد ابن الحنفيَّة، فقد ظنَّ أنَّ الحسين إنَّما يخرج إلى العراق لأنَّه يخاف على نفسه من البقاء في

---

(1) التهذيب، لابن بدران، ج4، ص330؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص164.

مكَّة، وفي العراق له أتباعه ومريدوه، الذين يطلبون منه الذهاب إليهم ليكون إماماً لهم. فقد قال للإمام إنَّه يخاف عليه في الكوفة أكثر ممَّا يخاف عليه في مكَّة، حتَّى أنَّه قال: «رأيي أن تقيم بمكَّة، وتكون أعزّ مَن في الحرم، أو إذهب إلى اليمن فإنَّك أمنع الناس به، ولا يقدر عليك بنو أُميَّة».

وكان جواب الحسين عليه السلام إنَّه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منامه، فأمره بأن يخرج إلى العراق حتَّى لو قُتل هناك، فقد شاء الله أن يراه قتيلاً، وحينما سأل عن حمله النساء من أهل بيته، قال: «شاء الله أن يراهنَّ سبايا[1]».

وكذلك الأمر بالنسبة إلى عبد الله بن عبَّاس، فقد ظنَّ أنَّ الحسين إنَّما يخرج لكي يصبح حاكماً في الكوفة، ومن ثمَّ يبسط سلطته على العراق، وفيما بعد يبايعه الناس كخليفة للمسلمين، كأنَّ الحسين يريد إقامة سلطة بديلة عن السلطة القائمة.

بينما الحسين يريد الخروج لأداء مسؤوليته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعادة الأُمَّة إلى مسارها الصحيح، وبغيته أن يهدي الناس بهدى الله ورسوله، ويفصل بين السياسة التي تستغلّ الدِّين لمآربها، وبين دين الله الذي لابُدَّ من الالتزام به، والعمل بما جاء به النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ليس من أجل مغانم في الدُّنيا، وإنَّما لكسب رضى الله عزَّ وجلَّ.

فالحسين إنَّما يخرج لتُقام المعطَّلة من حدود الله، ويبسط

---

(1) لواعج الأشجان، للسيِّد الأمين، ص73؛ والمنتخب، للطريحي، ج2، ص435.

العدل بين الناس، ويكون دين الله في مأمن من استغلال الأشرار والمنافقين.

قال عبد الرحمن الصالح: هل لك أن تخبرني بما يختلف عليه الحسين عن ابن الزبير، فكلاهما رفض بيعة يزيد؟

قال عبد الله بن مسلم: كما أنَّ السلطات تختلف من سلطة عادلة تريد بسط العدل للناس والخير لهم، مع قطع النظر عمَّا ترفعه من شعارات، سواء كانت دينيَّة أو غير دينيَّة، وبين سلطة لا تريد بسط العدل، وإنَّما تريد كلّ الامتيازات لنفسها، وإذا ذكرت اسم الناس أو اسم الله فلمصالحها؛ كذلك الذين يخرجون على السلطات هم صنفان: صنف يخرجون على السلطة الظالمة، ويرفعون شعار العدل في وجهها، ولكن مقصدهم أن يكونوا هم مكان أولئك وليس أكثر من ذلك، فهم يبحثون عن السلطة والجاه والجلال والتاج والصولجان والمال والامتيازات.

وصنف آخر صادقون في دعواتهم، لا يريدون لأنفسهم شيئاً. فعبد الله بن الزبير من الصنف الأوَّل، فهو يخالف يزيد لأنَّه يريد أن يكون مكانه، ومن ثمَّ فهو لا يختلف عن يزيد في أهدافه وتطلُّعاته، بينما الحسين يتحرَّك على منهج الأنبياء، وشعاره هو: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾، و﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾.

والفرق بينهما أنَّ الحسين لو حكم لفعل كما فعل أبوه، الذي ازداد زهداً في حطام الدُّنيا بعد أن بويع بالخلافة، فحرَّم على نفسه الملذَّات، ومنع حتَّى من أن يمشي خلفه أحد من الرجال، ولم يتخذ لنفسه حرساً، مع كثرة أعدائه وخوضه ثلاثة حروب داخلية، ولا

اتخذ عبيداً وإماء في داره وبيته، وكان أهله يعيشون بمستوى أقلّ ممَّا يعيش عامَّة الناس.

أمَّا عبد الله بن الزبير فإنَّه إذا حكم لفعل كما يفعله الظالمون، لأنَّه يريد السلطة لنفسه ولجماعته، بينما نرى أنَّ الحسين يريد الخروج إلى العراق والموت بين عينيه، ولا يهمّه ذلك لأنَّه لا يريد الدُّنيا أساساً، وكما قال لعبد الله بن عمر حينما جاء إليه وحذَّره من مشاقَّة أهل العناد، لأنَّهم لا يرقبون في الله إلّاً ولا ذمَّة، وربَّما يقدمون على قتله.

فقال الحسين: «يا أبا عبد الرحمن؛ أما علمت أنَّ من هوان الدُّنيا على الله، أنَّ رأس يحيى بن زكريَّا يُهدى إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل»؟[1].

فالدُّنيا عند الحسين هي أدنى من أن يقصدها، وأهون من أن يطلبها، ومن ثمَّ فحتى لو أهدي رأسه الشريف إلى يزيد فسيكون مثل رأس يحيى بن زكريَّا الذي أُهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل.

❁

قال عبد الرحمن: وما هو موقف بعض صحابة النبيّ ﷺ من أمثال جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو سعيد الخدري؟

قال عبد الله بن مسلم: لقد كان كلاهما مشفقين على الحسين، أمَّا جابر بن عبد الله فقد جاء إليه وقال: «أنت ولد

---

(1) اللهوف، لابن طاوس، ص31؛ والبحار، ج44، ص365؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص39 و40؛ والإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص119.

رسول الله وأحد سبطيه، لا أرى إلَّا أنَّك تصالح كما صالح أخوك الحسن، فإنَّه كان موفَّقاً راشداً».

فقال له الحسين: «يا جابر؛ قد فعل أخي ذلك بأمر الله وأمر رسوله، وإنِّي أيضاً أفعل بأمر الله وأمر رسوله[1].

قال عبد الرحمن الصالح: وهل اقتنع جابر بن عبد الله بما قاله الحسين؟

قال عبد الله بن مسلم: نعم، فهو يعرف أنَّ الحسين لا يتقوَّل على الله ولا على رسوله، كيف وهو أمين الله في أرضه، وحجَّته على عباده، وهذا مقام يعرفه جابر بن عبد الله للحسين.

قال عبد الرحمن: وماذا عن نساء رسول الله؟

قال عبد الله: لقد بعثت إليه أُمّ سلمة، وهي التي ربَّته صغيراً، وكان من أحبَّ الناس إليها، وكانت هي أرقّ الناس عليه، وقد دفع إليها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تربة الحسين، فوضعتها في قارورة، فقالت له: يا بُنيَّ، أتريد أن تخرج؟

قال الحسين: يا أُمَّاه؛ أريد أن أخرج إلى العراق.

فقالت له: إنِّي أذكِّرك الله تعالى أن تخرج إلى العراق.

فقال الحسين: ولِمَ ذلك يا أُمَّاه؟

قالت: سمعت رسول الله يقول: يُقتل ابني الحسين بالعراق، وعندي يا بُنيَّ تربتك في قارورة مختومة دفعها إليَّ رسول الله[2].

---

(1) الثاقب في المناقب، لابن حمزة، ص323.
(2) الثاقب في المناقب، لابن حمزة، ص330.

فقال الحسين: «والله إنِّي مقتول كذلك، وإن لم أخرج إلى العراق يقتلونني أيضاً[1]. وإنِّي لا أفرّ من القدر والمقدور، والقضاء المحتوم، والأمر الواجب من الله تعالى».

فقالت أُمّ سلمة: واعجباه، فأنت تذهب وأنت مقتول؟

فقال الحسين: «يا أُمَّاه؛ إن لم أذهب اليوم ذهبت غداً، وإن لم أذهب غداً لذهبت بعد غد، وما من الموت بُدّ، وإنِّي لأعرف الموضع الذي أُقتل فيه، والسَّاعة التي أُقتل فيها، والحفرة التي أُدفن فيها كما أعرفكِ، وأنظر إليها كما أنظر إليكِ، وإن أحببتِ أن أريكِ مضجعي ومصرع أصحابي فعلت».

فقالت: قد شِئتُها.

فمسح الحسين على وجهها، وما زاد أن تكلَّم باسم الله، حتَّى فسح الله في بصرها وانخفضت لها الأرض، وأراها مضجعه ومضجع أصحابه، وأخذ تربة فأعطاها من تلك التربة أيضاً في قارورة أُخرى وقال لها: إذا فاضتا دماً فاعلمي أنِّي قد قُتلت[2].

❋

في اليوم السابع من ذي الحجَّة، عام ستّين للهجرة، التقى عبد الرحمن الصالح في أحد أزقَّة مكَّة بصاحبه عبد الله بن مسلم، فقال له: كلّ الأخبار تقول إنَّ الحسين على وشك أن يخرج اليوم،

---

(1) الخرائج والجرائح، للراوندي، ج1، ص253.

(2) الثاقب في المناقب، لابن حمزة، ص331؛ والبحار، للمجلسي، ج45، ص89.

وسؤالي هو: ألا يوجد بديل آخر ما دام في هذا الخروج كلّ الخطورة على حياته، وربَّما على حياة أهل بيته أيضاً؟

قال عبد الله بن مسلم: لو كان هنالك مخرج لاختاره الحسين، ولكن ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ التزامه بالدِّين متأصّل في نفس هذا الرجل، وهو يعتقد اعتقاداً جازماً بأنَّ تعطيل حدود الدِّين أكبر فتنة ابتليت بها هذه الأُمَّة في حاضرها ومستقبلها، وأيّ مسلم يؤمن بدينه لا يستطيع أن يساوم عليه، فكيف بالحسين وهو وارث الأنبياء، وسبط رسول الله؟.

إنَّ الحسين يرى في وجود يزيد على رأس السلطة خطراً على الدِّين كُلّه، فإذا كان من يفترض فيه أن يكون أميناً على دين الناس ودُنياهم ومصالحهم المعنويَّة والمادّية، ليست له حتَّى كفاءة أن يكون مجرَّد عضو في شرطة الخميس، أفلا يكون الدِّين في خطر الإبادة على يديه؟

ثمَّ إنَّ يزيد قد وضع الحسين بين أمرين: إمَّا أن يبايع، وإمَّا أن يُقتل. أمَّا الحسين فقد اختار أمراً آخر وهو أن ينهض، لأنَّه لا يستطيع أن يكون موافقاً على ضلالة السلطات، وكيف يمكن للحسين أن يشهد ليزيد بالصلاح للإمامة، أليس في ذلك تغريراً بالناس، وفي مقابل ماذا، في مقابل أن يَسْلَم في دُنياه؟

إنَّ يزيد ليس فيه ولو صفة واحدة يمكن أن يرضى الحسين بها؛ لا في دينه، ولا في شرفه، ولا في علمه، ولا في كفاءته، ولا في اهتمامه بالناس ومصالحهم.. ومن ثمَّ فإنَّ من يقبل بخلافة يزيد فهو يتنكَّر لكلّ أُصول الدِّين، ويتجاهل كل حقوق الناس، وفي كلّ مجالات الحياة.

إنَّ التسليم للباطل ليس من شيم الحسين، ولا ترضاه له مروءته، كما لا يرضاه له إيمانه.

قال عبد الرحمن الصالح: ولكن الحسين عليه السلام نفسه لم يخرج على معاوية؟

قال عبد الله بن مسلم: نعم؛ لم يخرج على معاوية، ولكنَّه لم يبايعه أيضاً، ومعاوية لم يجعله بين خيارين: إمَّا البيعة وإمَّا القتل. أمَّا يزيد فقد وضع الحسين بين هذين الأمرين: إمَّا أن يبايع يزيد ويعطيه الشرعية في كُلّ شيء، وإمَّا أن يُقتل، وهذا ما كتبه إلى واليه على المدينة، وهو ما أشار به مروان بن الحكم في الليلة التي استحضره الوالي إلى دار الإمارة، وهذا أمر مختلف. الحسين مؤمن صادق في إيمانه، ملتزم بكل المفردات الأخلاقية، وهو معدن الفضائل، ويتمتَّع بالوفاء كما يتمتَّع بالشجاعة، ومن وفائه أنَّه لم يخرج على معاوية بعد وفاة أخيه، لأنَّ أخاه عاهد معاوية على المسالمة، فكان بينه وبين الرجل عهد وعقد، لم يرى الحسين له أن ينقضه حتَّى تمضي المدَّة[1].

أمَّا خلافة يزيد فهي مفتتح مُلكٍ جديد، والتسليم لها يعني تحويل هذه الحالة إلى سُنَّة تستقرّ عليها الأُمَّة جيلاً بعد جيل، من دون أن يكون هنالك أمل في التغيير، بالإضافة إلى أنَّ عمله سيصبح ديناً يدين به الناس.

ألا ترى كيف أنَّ بني أُميَّة جعلوا من الطغيان أمراً طبيعيّاً،

---

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج1، ص187؛ وتاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، ج14، ص205.

فمن خلال الذين اشتروا ضمائرهم بالدينار والدرهم أضفوا على الطاغي حالة قدسية باعتباره خليفة لرسول الله، وهذا معناه إعادة الجاهليَّة بكلّ ما تعنيه الكلمة ولكن بغطاء ديني.

فإذا كان ربّنا يوجب التبرِّي من الطاغوت، ويعتبر نفي الأرباب والآلهة من دون الله مقدّمة للتوحيد في كلمة: لا إله إلَّا الله.. وإذا كان كلّ الأنبياء إنَّما بعثوا لمواجهة طاغوت زمانهم، حتَّى آدم بعثه الله في مقابل طغيان إبليس، وإذا كان ربّنا يقول في كتابه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(1)، فإنَّ هؤلاء حوَّلوا الطاغوت إلى رجل مقدَّس، فما دام أنَّه حاكم فهو مقبول ومرضي، وعمله شرع ودين، وإن طغى وإن ظلم بحيث ينسجم الدِّين مع الطغيان رغم كلّ الموبقات التي يرتكبها الطاغوت، واليوم يحاولون أن يجعلوا ذلك سُنَّة يتوارثها جيل بعد جيل، بالإضافة إلى أنَّ تعيين يزيد جاء بخلاف سُنَّة رسول الله، وسُنَّة الخليفة الأوَّل، وسُنَّة الخليفة الثاني، وسُنَّة الخليفة الثالث، وسُنَّة الخليفة الرابع، وكأنَّ هذا الدِّين لا نظام فيه، ولا موازين له، ولا حدود لأهم قضاياه.

ألم يكن اختيار معاوية لولاية العهد مساومة مكشوفة قبض كلّ مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته، جهرةً وعلانية، من المال أو الولاية أو المصانعة.. ولو أنَّ معاوية كان يعيّن قرداً من القرود وليّاً لعهده، ويصرف تلك الأموال، ويعطي من أجلها الولايات لهذا وذاك، من أجل تثبيته، لحاول أعوانه أن يفرضوه خليفة على الناس.

---

(1) سورة البقرة، آية 257.

وتكمن خطورة تعيين يزيد خليفة على المسلمين، أنَّه لم يأت باعتبار معاوية ملكاً يورّث ملكه لبنيه، وإنَّما باعتباره خليفة لرسول الله، وما كان يراه المؤمنون في النبيّ، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من البيعة له اختياراً أجبر عليه المسلمون، بعد أن عطَّل كلّ حدود الدِّين، وقوَّض كلّ معالم الأخلاق.

وأغرب ما في الأمر أن يُطلب من الحسين أن يبايع مثل هذا الرجل، ويزكِّيه أمام المسلمين، ويشهد له عندهم بأنَّه خليفة رسول الله، وصاحب حقّ ديني في الخلافة، وهم لم يتركوا للحسين خياراً، إمَّا أن يستسلم ويبايع، وإمَّا أن يُقتل.

لكن الحسين اختار طريقاً ثالثاً، وهو أن يعلنها ثورة مقدَّسة ضدَّ الظلم والطغيان، مع علمه بأنَّه سيكون سيِّد شهداء هذه الأُمَّة.

❋ ❋ ❋

إعلان الثورة

في ليلة الثامن من شهر ذي الحجَّة، وبينما كان حجَّاج بيت الله الحرام، والمعتمرون يستعدّون للتروية، والإحرام من جديد للذهاب إلى منى لقضاء ليلة التاسع هناك، ثمَّ الانتقال إلى عرفات في يومها، انتشر بين الناس خبر مهم، وهو أنَّ الحسين يريد أن يلقي خطبة عامَّة يُبيِّن فيها ما هو عازم عليه. ولم يكن خلال الفترة السابقة قد تحدَّث للناس بشكل عام، وإنَّما كانت هنالك أحاديث يتبادلها مع هذا أو ذاك، أو رسائل يرسلها إلى بعض الجماعات هنا وهناك.

ومع أجواء الاحتقان السائدة، والتجاذبات التي كانت قائمة في البلدان، فلقد تسارع أكثر حجَّاج بيت الله الحرام وأهل الحجاز لسماع كلمة الحسين عليه السلام.

كانت الجموع تتسابق فيما بينها للوصول إلى البيت الذي ينزل فيه الإمام عليه السلام، وحينما امتلأت الأزقَّة والساحات بالناس، خرج الحسين بكامل هيبته وجلاله وكماله، لا تختلف مشيته عن مشية رسول الله، وفي وجهه ملامح تصميم عظيم، وفي خطواته جلجلة الثبات على المبدأ، وفي عينيه بريق الشهادة.

كان الحسين قبل غيره يعرف على ماذا يُقدم، وماذا تعني خطوته القادمة بالنسبة إلى شخصه وإلى أهل بيته.

من رأى الحسين في تلك اللحظات، رأى فيه هابيل عليه السلام في صفائه وعطوفته، ورأى نوحاً عليه السلام في ثباته وشوكته، وإبراهيم عليه السلام في إيمانه وشجاعته، وموسى عليه السلام في شدّته وسطوته، وعيسى عليه السلام في رأفته ورحمته، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رسالته ودعوته، وعليّاً عليه السلام في كلّ مناقبه وصفاته. فوقف هنالك على مرتفع، بينما خيَّم الصمت على الجميع كأنَّ على رؤوسهم الطير، وبدأ خطبته قائلاً:

بسم الله الرحمن، الحمد لله وما شاء الله، ولا قوَّة إلَّا بالله، وصلَّى الله على رسوله، وعلى آله وسلَّم.

ثمَّ سكت لحظات، قال بعدها: «خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيِّر لي مصرع أنا لاقيه، كأنِّي بأوصالي تقطِّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن منِّي أكراشاً جوفا وأجربة سغبى، لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفِّينا أجور الصَّابرين، لن تُشذّ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة له في حضيرة القدس، تقرّ بهم عينه، ويُنجز له بهم وعده».

ثمَّ قال: «ألا فمن كان باذلاً فينا مهجته، وموطِّناً على لقاء الله نفسَه، فليرحل معنا، فإنَّني راحل مصبحاً إن شاء الله»(1).

ثمَّ أقفل راجعاً إلى بيته.

❁

(1) نزهة الناظر، للحلواني، ص41؛ والأمالي، لأبي طالب الزيدي، ص199؛ وكشف الغمَّة، للإربلي، ج2، ص29؛ ومثير الأحزان، لابن نما، ص21.

كان كل من عبد الرحمن الصالح، وعبد الله بن مسلم من أوائل من حضروا خطاب الحسين، واستمعوا إليه، ومع قصر الخطبة، إلَّا أنَّها كانت إعلاناً صريحاً ببدء نهضة عظيمة، لم يكن أحد يعرف إلى أين ستنتهي.

إلتفت عبد الرحمن إلى صاحبه قائلاً: أنت تعرف الحسين أكثر منِّي، فقد كنتَ مع أهل البيت منذ البدايات، أمَّا أنا فلم أكن كذلك، ولولا رحمة الله لكنت في ضلالي القديم، قل لي ماذا أراد الحسين بما قال؟

قال عبد الله بن مسلم:

أوَّلاً: إنَّ الحسين اليوم بين موتين: موت يأتي إليه، وقد اتخذ قراره يزيد، وموت يذهب إليه، وقد اتخذ قراره الحسين. فلقد قام يزيد بإرسال مجموعة من جلاوزته إلى الحجاز لاغتيال الحسين، وإن كان متعلِّقاً بأستار الكعبة. أمَّا الحسين فقد اختار الموت الثاني، لأنَّه سبق وأن قال في مجالسه الخاصَّة أنَّه لا يريد أن يُستباح به الحرم، فهو أمين على قدسيَّة هذا المكان، لأنَّ أهل البيت لا يستبيحون الحرم بأحد، ولا يَدَعون الآخرين يستبيحون الحرم بهم. هذا بالإضافة إلى أنَّ الموت الذي يأتي المرء يذلّه، أمَّا الموت الذي يذهب إليه فهو مثل القلادة على جيد الفتاة. فكما تزيّن القلادة الفتاة، كذلك يُزيّن الموت صاحب الحقّ حينما يذهب إليه.

ثانياً: كشف الحسين عليه السلام عن مداخل نفسه، فهو مشتاق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإلى أبيه أمير المؤمنين، وإلى أُمِّه فاطمة الزَّهراء عليها السلام، وإلى أخيه الحسن عليه السلام، وشوقه هذا يشبه شوق يعقوب عليه السلام إلى يوسف عليه السلام بعد أن ابيضَّت عيناه من الحزن عليه.

ثالثاً: أعلن أنَّ له مصرعاً هو لاقيه، ومن ثمَّ فهو مشروع قربان ربَّاني، وقد اختار الله له ذلك، من قبل أن يبرأ السَّموات والأرض.

رابعاً: كشف بوضوح عمَّا سيجري عليه وما سيفعل به، ومن ثمَّ فقد كشف عن وحشيَّة عدوّه وطريقته حينما قال: «كأنِّي بأوصالي تقطِّعها عسلان الفلوات»، وحدَّد المكان، «بين النواويس وكربلاء». فكما تفعل الذئاب الجائعة بضحاياها حيث تقطِّعها، ثمَّ تملأ أكراشها الفارغة وتشرب من دمائها، كذلك سيفعل العدوّ به. وبيَّن أيضاً أنَّ هذا قضاء الله وقدره، إذ «لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم».

خامساً: صرَّح الحسين عليه السلام بمنطلقاته فيما يفعل، فهو لا ينطلق من أجل المصالح، ولا هو يبحث عن حطام الدُّنيا. فأهل البيت راضون بما يرضى الله، وهذا أعلى درجات الإيمان. وأعلن بأنَّه سيصبر ويتحمَّل ولا يتراجع عمَّا فيه رضا ربّه: «نصبر على بلائه ويوفِّينا أجور الصَّابرين».

سادساً: أعلن أنَّ العاقبة بالنسبة إليه وإلى أهل بيته، هي الجنَّة بلا شك ولا ترديد، لـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾(1).

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حضيرة القدس، فإنَّ الحسين في حضيرة القدس معه، إذ «لن تشذّ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة له هناك». وباعتبار أنَّ الدار الآخرة هي الحيوان، والفلاح

(1) سورة التوبة، آية 111.

والنجاح إنَّما هو هناك وليس هنا في الدُّنيا، فإنَّ عين رسول الله تقرّ بأهل بيته، وينجز الله له بهم وعده، ويسكن معه ذرِّيَّته في الفردوس الأعلى.

سابعاً: فتح الحسين الباب لينضمّ إليه من يريد، بشرط واحد، وهو أن يكون مستعدّاً للموت في سبيله: «فمن كان باذلاً فينا مهجته، وموطِّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا».

ثامناً: حدَّد الساعة التي سينطلق منها، وهو صبيحة اليوم التالي: «فإنِّي راحل مصبحاً إن شاء الله».

قال عبد الرحمن الصالح: مع علم الحسين بوحشيَّة عدوّه، كيف يعلن عن يوم خروجه، وساعته، واتجاهه؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ معرفة الحسين بمصيره فيما هو مقدم عليه لأكبر دليل على أنَّه يخرج في سبيل الله، ولا يخرج أشراً ولا بطراً، ولا ظالماً ولا مفسداً، وإلَّا فإنَّ باستطاعته أن يساوم على موقفه إذا كان يريد حطام الدُّنيا. ثمَّ لا تنس أنَّ الجهاد في سبيل الله من أهم ما جاء به هذا الدِّين، فالقتل في سبيل الله أعلى درجات الإيمان، فقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**فوق كلّ برٍّ برّ حتَّى يُقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه من برّ**»[1].

ألم يكتب الإمام عليّ عليه السلام في نهاية عهده إلى مالك الأشتر قائلاً: «وأنا أسأل الله.. أن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة»[2].

(1) الكافي، للكليني، ج2، ص348.
(2) نهج البلاغة، رسالة رقم 53.

ثمَّ أليس أنَّ «الجهاد باب من أبواب الجنَّة فتحه الله لخاصَّة أوليائه»[1]، كما يقول الإمام عليّ أيضاً؟

قال عبد الرحمن الصالح: ولكن حينما يعرف الحسين أنَّه يُقتل فالأمر يكون مختلفاً، فهل الجهاد مطلوب حتَّى مع العلم بالموت؟

قال عبد الله بن مسلم: عندما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، لم يجعل الحياة شرطاً للجهاد، بل قال: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[2]، فهو ليس مقيَّداً بالانتصار، بل قد ينتهي إلى الشهادة.

ثمَّ ألم يكن رسول الله ﷺ يخوض الجهاد مع عدد قليل من الناس، وعدَّة بسيطة من السلاح، في مواجهة الجيوش الجرَّارة؟

كم من مرَّة خرج النبيّ ﷺ للجهاد، بعدد قليل جدّاً وقُتل خيرة أصحابه مثل حمزة سيِّد الشُّهداء، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهما من الصحابة الصالحين الصادقين؟

ولا تنس أنَّ الحسين إمام، فإذا كان الجهاد واجباً على جميع الناس، فإنَّه على الإمام أوجب.

قال عبد الرحمن: ولماذا؟

قال عبد الله: لأنَّ الإمام من واجباته المحافظة على حدود الله، وإذا لم يكن الإمام، وهو المسؤول الأوَّل عن الدِّين، والمحور الأساسي في الأُمَّة، يقوم بما يجب عليه، فهل يُنتظر من الآخرين أن يقوموا بما يجب عليهم؟

---

(1) نهج البلاغة، خطبة رقم 27.

(2) سورة التوبة، آية 111.

قال عبد الرحمن: أتريد أن تقول أنَّ الحسين مقدم على عمل يؤدِّي إلى إراقة دمه ودماء أهل بيته، لكي يحفظ شريعة الله وحدوده؟

قال عبد الله: تماماً؛ إنَّ ربّنا وصف المؤمنين بأنَّهم تائبون وعابدون، وحافظون لحدود الله، فقد قال تعالى بعد أن حدَّد الصفقة التي بينه وبين عباده المؤمنين بـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(1)، ثم قال ربّنا: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(2).

قال عبد الرحمن: إذن أنت ترى أنَّ الحسين شهيد لا محالة؟

قال عبد الله: هو كذلك؛ فلقد اتخذ الحسين قراره بأن ينهض لإنقاذ دين جدّه، كما اتخذ يزيد قراره بأن يقضي على هذا الدِّين فالصِدام بينهما واقع لا محالة.

فقال عبد الرحمن: ومن يقول إنَّ يزيد سوف ينتصر على الحسين، وليس العكس؟

قال عبد الله: أمَّا أنَّ الحسين ينتصر، فهو في علم الله منتصر حتماً، ولا شكَّ في ذلك ولكن لا بمعنى أنَّه سيستلم الحكم والسلطة، وذلك لسبب بسيط، أنَّه لا يبحث عن الحكم والسلطة، كما أنَّه لن يتوسَّل بما يتوسَّل به يزيد من وسائل حرمها الله تعالى.

---

(1) سورة التوبة، آية 111.

(2) سورة التوبة، آية 112.

فمنذ البداية تراه يعلن بأنَّه مقتول، ولو كان الحسين يبحث عن السيطرة على عدوّه، والحصول على السلطة لوعد الناس بالانتصار وليس بالموت. ثمَّ إنَّ الميزان من حيث العدَّة والعدد ليس لمصلحة الحسين. فمع مجموعة بسيطة من الناس لا يمكن الانتصار على السلطة في هذه الإمبراطوريَّة الشاسعة، التي ورثها يزيد من أبيه، إضافة إلى ميل الناس الشديد إلى الدعة والراحة، والإخلاد إلى الأرض، والخوف من الموت.

إنَّ بيوت الأموال الممتلئة ذهباً وفضة بيد يزيد، وهو يشتري بالجملة ضمائر ضعاف النُّفوس، بينما الحسين يُكلِّف الأيَّام ضدَّ طباعها. ففي المدى القريب لن ينتصر الحسين على يزيد، ولكنَّه في المدى البعيد هو المنتصر على كلِّ حال. وأنت تعرف أنَّ الحسين وأصحابه لن يصرفوا موارد الأُمَّة لشراء الضمائر، فإنَّ الحسين لا يريد إلَّا من وطَّن نفسه على المنيَّة، ويرفض أن يصرف درهماً واحداً لشراء ولاء شخص واحد.

فهذا سفير الحسين مسلم بن عقيل يدخل الكوفة صفر اليدين من المال، حتَّى أنَّه يقترض لأُمور البسيطة.

وإذا كانت السلطات الظالمة تمنِّي الناس بالنصر لتدفعهم إلى التضحية بأنفسهم من أجل الحاكم، فإنَّ الحسين لا يتحدَّث لأصحابه إلَّا عن الموت والشهادة؛ أي عن موته هو، وشهادته، وموت من معه وشهادتهم.

وإذا كان سلاطين الجور لا يغادرون قصورهم في الحروب، وإنَّما يدفعون الجنود لكي يخوضوا المعارك نيابة عنهم، فإنَّ الحسين بنفسه خارج غداً، ومعه أهل بيته وفلذات أكباده. وهذا هو الذي

يريده الحسين، أن يكشف للناس الفرق بين الإيمان الصادق والنفاق، وبين المؤمنين الصادقين وأدعياء الإيمان.

الحسين لا يهدف ـ كما ذكرت ـ إلى فتح البلدان والحصول على السلطان، وليست نهضته مغامرة سياسيَّة، ولا مساومة تجاريَّة، وإنَّما يقوم بنهضته دفاعاً عن الحقّ، فإن نصره الناس وأعانوه فقد نصروا حقّهم وأعانوا أنفسهم، وإن تقاعسوا عن ذلك التزم هو وحده بالحقّ وإن صُرع معه.

قال عبد الرحمن الصالح: وهل أنت تخرج معه مصبحاً؟

قال عبد الله بن مسلم: ولِمَ لا؟ وهل هنالك فوز أكبر من هذا الفوز؟ إنَّه لتوفيق عظيم أن يكون المرء في ركاب ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسيِّد شباب أهل الجنَّة. فإذا لم نكن في عهد رسول الله لكي نقاتل على التنزيل، فنحن اليوم في عهد الحسين نقاتل على التأويل.

❋ ❋ ❋

الخطوات الأُولى

اليوم الثامن من ذي الحجَّة هو يوم الاستعداد لأعمال الحجّ، والانتقال إلى منى، للمبيت فيها ليلة عرفة، ثمَّ الذهاب إلى عرفات في صبيحة اليوم التاسع، أو الانتقال من مكَّة المكرَّمة إلى عرفات في يوم غده.

الحجَّاج يتروون، ويهيَّأون لأنفسهم زاد يوم عرفة وليلة مزدلفة، ثمَّ الذهاب إلى منى للمبيت هناك، ومن ثمَّ فإنَّ هنالك حركة وعجيجاً في مكَّة. والاستعداد للذهاب إلى عرفات أمر عادي في جميع السنوات، لكن ما جعل ذلك اليوم مختلفاً هو إعلان الحسين، الذي يعتبره المسلمون أمير الحاج، قيامه بالنهضة، فكلّ الحجَّاج ينتظرون حركة الحسين حتى يتعلَّموا منه، ويقتدوا به، ويمشوا خلفه، لكن الذي فعله الحسين هو أنَّه جاء وطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، ثمَّ أحلَّ من إحرامه، بعد أن حوَّله من إحرام الحج إلى عمرة مفردة[1].

كان خبر إحلال الحسين من إحرامه، للتوجُّه إلى العراق، قد

(1) روضة الواعظين، للفتَّال، ص152؛ وأعلام الورى، للطبرسي، ص230؛ ولواعج الأشجان، للأمين، ص69.

أثار موجة من التساؤلات: لماذا لا يتأخَّر الحسين بضعة أيَّام حتَّى يكمِّل حجَّه، ثمَّ يذهب إلى العراق؟

ما الذي يراه ابن بنت رسول الله ممَّا لا يراه غيره حتَّى يستعجل في نهضته؟ خاصَّة وأنَّه منذ فترة لم تصل أخبار إيجابيَّة مهمَّة من الكوفة التي يتوجَّه إليها، بل العكس، فقد وصلت أخبار انتقال عبيد الله بن زياد، هذا الرجل الغليظ القلب، القاسي، الذي لا يعرف لغة غير لغة الدم، انتقاله من البصرة إلى الكوفة كوالٍ عليها، بدلاً عن النعمان بن البشير الذي رفض أن يحمل السيف في وجه مسلم بن عقيل؟

لقد سُئل بعض المقرَّبين من الحسين عن هذا القرار المفاجىء له، فكان جوابهم أنَّ هنالك أخباراً مؤكَّدة بأنَّ السلطة الجديدة في الشام، قد أرسلت عصابة من الرجال لقتل الحسين غيلة حين الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة[1]، ثمَّ اتهام السرَّاق وقطَّاع الطرق بذلك.

ولمَّا سُئل: وماذا لو فشل هؤلاء، أليس باستطاعة الحسين أن يتخذ حرَّاساً لنفسه، بأن يكون محاطاً بمجموعة من رجال أهل البيت المعروفين بالشجاعة، كأمثال أخيه العبَّاس وابنه عليّ الأكبر؟

فكان الجواب: إنَّ مهمَّة هؤلاء هو قتل الحسين في مكان ما، بحيث لا تتهم السلطة بذلك، فهي مأمورة بأن تقتل الحسين كيف ما كان، فإن لم تستطع بطريقة خفيَّة، فبأية طريقة، حتَّى ولو كان متعلِّقاً بأستار الكعبة.

(1) لواعج الأشجان، للسيِّد الأمين، ص62؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص193.

ولمَّا سُئل: إذن هو الخوف من الموت؟

فكان الجواب: أبداً؛ فالحسين هو الذي بشَّر بموت نفسه في ليلة سابقة، واستبشر به معتبراً إيَّاه وسيلته للحاق بأسلافه الذين يشتاق إليهم اشتياق يعقوب عليه السلام إلى يوسف عليه السلام، وإنَّما هو هروب من موت ذليل إلى موت عزيز.

هذا بالإضافة إلى أنَّه فرق بين أن يُقتل الإنسان غيلة، وبين أن ينهض دفاعاً عن قضية، ثمَّ يُقتل في سبيلها، فتنتصر قضيَّته، ومن ثمَّ يكون قد أدَّى رسالته التي كلَّفه الله بها، وهذا معنى كلام الحسين عليه السلام: شاء الله أن يراني قتيلاً. فإذا كان مجرَّد إحلال الحسين عليه السلام عن إحرام الحج، وتحويله إلى عمرة مفردة، قد أثار العالم الإسلامي كُلّه بهذا الشكل، فكيف إذا تعدَّى آل أُميَّة على حياته؟ خاصَّة وأنَّ المواجهة ليست بين شخصين، بل بين مسلكين ومنهجين وطريقتين. ولا شكَّ أنَّ الحسين هو من يمثِّل رسول الله في هذه المواجهة، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيّاً لفعل ما فعله الحسين عليه السلام.

❁

كان عبد الرحمن الصالح وعبد الله بن مسلم في قافلة الحسين، ويرون ما يحدث فيها، ومن أهم ما شاهدوه قبيل حركة الحسين من مكَّة أنَّه طلب قلماً وقرطاساً، ثمَّ كتب رسالة قصيرة جدّاً إلى كلّ بني هاشم، أرسلها إلى محمَّد ابن الحنفيَّة لكي يبلِّغها جميع بني هاشم، ونصّ الرسالة: بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ إلى محمَّد بن عليّ ومن قِبله من بني هاشم،

أمَّا بعد، فإنَّ من لحق بي استشهد، ومن تخلَّف لم يبلغ الفتح، والسَّلام[1].

وكانت الرسالة بالغة الوضوح في أنَّ الحسين يطالب بني هاشم جميعاً أن ينهضوا معه في وجه بني أُميَّة، وأن يتحمَّل كلّ واحد منهم مسؤوليته كاملة غير منقوصة، لمواجهة النفاق والتلاعب بالدِّين، ومقارعة الظلم والعدوان.

❁

كان الوقت صباحاً عندما تحركت قافلة الحسين عليه السلام من مكَّة باتجاه العراق وما إن تحركت القافلة التي ضمَّت كوكبة من أهل بيته إلَّا وكثر الباكون حولها، إذ لم يبق بمكَّة أحد إلَّا وحزن لمصيره[2].

ولمَّا أكثروا عليه وألحّوا في أن يبقى، أخذ يتمثَّل بأبيات أخي الأوس:

سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى — إذا ما نوى خيراً وجاهد مُسلما
وواسى الرجالَ الصالحينَ بنفسِهِ — وفارقَ مثبوراً وخالفَ مجرما
فإن عشتُ لم أندم، وإن متُّ لم أُلم — كفى بك ذلّاً أن تعيش وتُرغما

ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[3].

❁

(1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص87؛ وبصائر الدرجات، للصفَّار، ص502؛ وإثبات الهداة، للحرّ العاملي، ج2، ص577؛ ودلائل الإمامة، للطبري، ص77؛ والخرائج والجرائح، للراوندي، ج2، ص772.
(2) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص137.
(3) نفس المهموم، للقمِّي، ص170؛ وتذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص137.

خرج مع الحسين عليه السلام من مكَّة اثنان وثمانون رجلاً من أولاده وإخوته وأهل بيته وصحابته[1].

وقد أعطى الحسين لكلّ واحد من أصحابه عشرة دنانير، وجملاً يحمل زاده ورحله، كما حمل بناته وأخواته على المحامل، وكان خروجه يوم الثلاثاء من أيَّام الأسبوع، في الثامن من شهر ذي الحجَّة الحرام[2].

فمجموع الأيَّام التي بقي فيها في مكَّة المكرَّمة، بعد هجرته من المدينة إليها، كانت مائة ونيفاً وعشرين يوماً[3].

❋

لقد شكَّل خروج الحسين صدمة لوالي يزيد بن معاوية على مكَّة: عمرو بن سعيد بن العاص، فلم يعلم ماذا يفعل، لأنَّه كان متورِّطاً مع يزيد في التخطيط لقتل الحسين غيلة، عند انصرافه من عرفات إلى مزدلفة، فأمر صاحب شرطته وهو أخوه يحيى بن سعيد أن يعترض الحسين ويمنعه من الذهاب إلى العراق، فجاء مع مجموعة رجال مسلّحين ووقف أمام الحسين قائلاً: انصرف، إنَّ الأمير يأمرك بالانصراف، انصرف وإلَّا منعتك.

فامتنع عليهم الحسين، وتدافع الفريقان واضطربوا بالسياط، فنادوه: «يا حسين؛ ألا تتقي الله، تخرج من الجماعة وتفرِّق بين هذه الأُمَّة؟

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص220.
(2) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص120.
(3) الإرشاد، للمفيد، ج2، ص67.

فقرأ الحسين قوله تعالى: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وكادت أن تقع بين الفريقين المواجهة بالسّلاح، فبلغ ذلك عمرو بن سعيد، فخاف أن يتفاقم الأمر، فأرسل إلى أخيه صاحب شرطته يأمره بالانصراف[2].

وفيما كان الحسين مع أهله وأصحابه يخرجون من مكَّة المكرَّمة، التقى عبد الله بن عبَّاس بعبد الله بن الزبير الذي كان يريد الخلافة لنفسه، ويتمنَّى في قرارة نفسه أن يخرج الحسين، ويُقتل حتَّى يتورَّط يزيد وبنو أُميَّة في دمه، فيستغل الفرصة، ويعلن نفسه خليفة على المسلمين، التقى به عبد الله بن عبَّاس فقال له:

يا لكِ من قبّرة بمعمر خلا لك الجوّ فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت أن تنقّري قد رُفع الفخّ فماذا تحذري
هذا حسين سائر فأبشري[3]

فقال له عبد الله بن الزبير: والله ماترون إلَّا أنَّكم أحقّ بهذا الأمر من سائر الناس.

فقال ابن عبَّاس: إنَّ من يرى من كان في شك، فأمَّا نحن

(1) سورة يونس، آية 41؛ التاريخ، للطبري، ج5، ص385؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص166.
(2) الأخبار الطوال، للدينوري، ص244.
(3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص217؛ والمنتظم، لابن الجوزي، ج5، ص328.

فمن ذلك على يقين، ولكن أخبرني عن نفسك لِمَ زعمت أنَّك أحقَّ بهذا الأمر من سائر العرب؟

قال عبد الله بن الزبير: لشرفي عليهم.

قال ابن عبَّاس: وبماذا شُرِّفت؟ إن كان لك شرف فإنَّما هو بنا، فنحن أشرف منك، لأنَّ شرفك منَّا.

فارتفعت أصواتهما، فقال ابن أخ لعبد الله بن الزبير: يابن عبَّاس دعنا من قولك، فوالله أنتم بنو هاشم لا تحبّوننا أبداً. فضربه عبد الله بن الزبير بالنعل وقال: أتتكلَّم وأنا حاضر؟

فقال له ابن عبَّاس: لماذا ضربت الغلام؟ وما استحقّ الضرب، وإنَّما يستحقّ الضرب من مرق ومذق.

فقال عبد الله بن الزبير: ومَن تقصد؟

قال ابن عبَّاس: أنت.

فقال عبد الله بن الزبير، وهو يريد أن يخفِّف من حدَّة كلامه مع ابن عبَّاس: أما تريد أن تعفو عن كلمة واحدة؟

قال ابن عبَّاس: إنَّما نعفو عمَّن أقرّ، فأمَّا من هرّ فلا.

فقال ابن الزبير وكأنَّه يستجدي العفو منه: فأين الفضل؟

قال ابن عبَّاس: عندنا أهل البيت، لا نضعه في غير موضعه فنذم، ولا نزويه عن أهله فنظلِم.

فقال عبد الله بن الزبير: أوَلستُ منكمُ؟

قال: إن نبذت الحسد، ولزمت الحدود.

وهنا تدخَّل عدد من رجال قريش، فأسكتوهما[1].

انطلقت قافلة الحسين من مكَّة بثبات وتصميم لا مثيل لهما، بالرغم من وجود أخطار جمَّة، أقلّها أن يجنّد يزيد بن معاوية، من خلال بعض ولاته هنا أو هناك، قوَّة لمواجهة الحسين في بدايات الطريق، إلَّا أنَّ ما كان يزيد هذا الخطر أمران:

الأوَّل: الشجاعة التي اتصف بها الحسين وأصحابه، ذلك أنَّ آل عليّ عليه السلام كانوا من أشهر من عُرف بالشجاعة النفسيَّة، والصبر على الجراح، والاطّلاع بعلم الحرب، والقوَّة البدنيَّة، وكان الوقت مبكِّراً في أن يستطيع أحد من الولاة تعبئة أعداد كبيرة لجيش لجم، وإن كان والي الكوفة عبيد الله بن زياد يستعد لذلك ليل نهار.

الثاني: إنَّ قلوب الناس كانت مع الحسين، ولم يكن يمرُّ بمنطقة إلَّا وينظّم إليه منها بعض الرجال، مع أنَّ الحسين لم يكن يُمنِّي أحداً بالنصر، ولا بمغانم الدُّنيا وحطامها، بل العكس فإنَّه كان يتحدَّث دائماً عن القتال والاستشهاد والجنَّة والثواب.

وكان من الذين انضمّوا إلى الحسين في منطقة الأبطح ـ وهو مسيل وادي مكَّة فيها بقاق الحصى أوَّله عندما ينقطع الشعب بين وادي منى وآخر متّصل بالمقبرة التي تُسمَّى بالمعلَّى ـ هو يزيد بن نبيد الذي قدم من البصرة مع اثنين من أولاده هما عبد الله وعبيد الله مع أشخاص آخرين، فقد جدّ الرجل السير لكي يلحق بالحسين في

(1) مختصر ابن منظور، لابن عساكر، ج12، ص326؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج20، ص134.

مكَّة، وحينما وصل إليها عرف أنَّ الحسين قد خرج، فجعل يطلبه حتَّى جاء إلى رحله، فلمَّا رأى الحسين قال: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[1]، السَّلام عليك يابن رسول الله.

ثمَّ جلس إلى الإمام عليه السلام، وأخبره بالذي جاء له، فدعى له الحسين بالخير، ثمَّ ضمَّ رحله إلى الحسين[2].

* * *

(1) سورة يونس، آية 58.

(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص354.

الاستعدادات المضادَّة

فيما كانت قافلة الحسين في طريقها إلى العراق، كان عبد الله بن مسلم وعبد الرحمن الصالح، وهما في ركابه، يلتقطان الأخبار ممَّا تقوم به السلطة في الشام أو في العراق، وكان عبد الله بن مسلم أكثر قدرة على تصيُّد الأخبار، نظراً لعلاقاته الواسعة مع مختلف الأطراف، فكان يلتقي بالقادمين من الشام، أو من العراق ويسألهم عمَّا هناك.

وكان ممَّا سمعاه أنَّ يزيد بن معاوية حينما وصله خبر خروج الحسين من مكَّة نحو العراق كتب رسالة إلى عبيد الله بن زياد ـ كما ذكرنا ذلك سابقاً ـ يقول له فيها: «أمَّا بعد، فقد بلغني أنَّ الحسين بن عليّ قد توجَّه نحو العراق، وقد ابتلي به بلدك من بين البلدان، وابتليت به من بين العمَّال، وعندها تعتق أو تعود عبداً كما تعتبد العبيد، فضع المناظر والمسالح والأرصاد، وأدق العيون، واحترس كلّ الاحتراس، فاحبس على الظنَّة، وخذ بالتّهمة، واكتب إليَّ في كلّ يوم بما يحدث لك، من خير أو شرّ»[1].

وهكذا كانت الأوامر مشدَّدة بالتهيئة أوَّلاً، وبضرب الذين

---

(1) تذكرة الخواص، ص140؛ وأنساب الأشراف، للبلاذري، ج2، ص85؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص380.

يخالفون السلطة بكلّ قوَّة، وأخذ الناس بالتّهمة، وحبسهم على الظنَّة، ممَّا جعل سجون الكوفة ـ كما ذكرنا ـ تمتلىء بأربعة آلاف شخص، منهم المختار بن أبي عبيد الثقفي، وسليمان بن صرد الخزاعي، وغيرهم من الأشراف ورجال الكوفة، فمن كان له هوى في أهل البيت كان ذلك كافياً للقضاء عليه، أو إلقائه في الحبس.

أمَّا الحسين فكان ذاهباً إلى مبتغاه، وهو يعلم ببصيرته الثاقبة أنَّ كلّ كلمة يقولها، وكلّ خطوة يخطوها ستكون مثالاً، ونموذجاً، وقدوة للمؤمنين في التاريخ، كيف لا وهو سبط رسول الله ووصيّه، وإمام المؤمنين وزعيمهم.

❁

في منطقة التنعيم التقى الحسين بقافلة من العير كانت تقبل من اليمن، بعث بها بجير بن ريسان الحميري، والي معاوية على اليمن، لإيصالها إلى الشام، وكانت تحمل الورس والحلل، فأخذها الحسين وانطلق بها، وقال لأصحاب الإبل: «لا أكرهكم، فمن أحبَّ أن يمضي معنا إلى العراق وفيناه كراه وأحسنَّا صحبته، ومن أحبَّ أن يفارقنا من مكاننا هذا أعطيناه من الكراء على قدر ما قطع من الأرض».

وأوفى لمن فارقه حقّه، ومن مضى منهم معه أعطاه كراه وكساه، وكان عدد الذين اختاروا أن يكونوا في قافلة الحسين من اليمن هم ثلاثة نفر منهم، فزادهم عشرة دنانير وأعطاهم جملاً[(1)].

❁

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص386؛ والجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص376.

لمَّا رأى عبد الرحمن الصالح ذلك قال لصاحبه عبد الله بن مسلم: كما أعرف أنَّ الحسين ليس بحاجة إلى الورس والحلل، فلماذا أخذها من هؤلاء؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ هذه أموال المسلمين، ولابُدَّ من إيصالها إلى المحاويج منهم، أمَّا يزيد فهو مغتصب للخلافة، وقد جعل مال الله دولاً، وعباده خولاً، وليس من حقِّه أن يتصرَّف في هذه الأموال، بينما الحسين إمام الأُمَّة، وهو الأمين على حقوق الناس، وأساساً هو لم يخرج من مكَّة إلَّا من أجل العدل، فما دام باستطاعته أن يقيم العدل بيديه فإنَّه يفعل، ولا يهمّه ما يترتَّب على ذلك. ألا ترى وأنت في الطريق كيف أنَّ الحسين يفيض على الأعراب بكلّ ما تجود به نفسه؟

وإنَّما فعل ذلك لكي يعرف الآخرون أنَّ عليهم أن يأمروا بالمعروف قولاً وفعلاً، وينهوا عن المنكر أيضاً بالقول والفعل. فإذا كان الحاكم غاصباً للحكم، فهو لا يملك حقّ التصرُّف في أموال المسلمين، ومن واجب هؤلاء أن يمنعوه منها. فإذا كنَّا لا نرى ليزيد حقّاً في الخلافة وزعامة الأُمَّة، أفهل نرى له حقّاً في التصرُّف في أموال الناس، والغنائم، والزكوات، وما أشبه؟

✵

في منطقة الصفاح التقى الحسين بالفرزدق الشاعر، وهو قادم من العراق يريد مكَّة، فقال الفرزدق للحسين: أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب يابن رسول الله، ما أعجلك عن الحجّ؟

فقال له الحسين: لو لم أعجل لأُخذت[1].

ثمَّ قال عليه السلام: يا فرزدق؛ كيف خلَّفت الناس بالعراق؟

فقال الفرزدق: «من الخبير سألت، أنت يابن رسول الله أحبّ الناس إلى الناس، فقلوب الناس معك، ولكن سيوفهم مع بني أُميَّة، والقضاء ينزل من السَّماء، والله يفعل ما يشاء».

فقال له الحسين: «صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكلّ يوم ربّنا في شأن. إنَّ الناس عبيد الدُّنيا والدِّين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درَّت معائشهم، فإذا محِّصوا بالبلاء قلَّ الديَّانون[2].

«يا فرزدق؛ إنَّ هؤلاء قوم لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد في الأرض، وأبطلوا الحدود، وشربوا الخمور، واستأثروا في أموال الفقراء والمساكين، وأنا أولى من قام بنصرة دين الله، وإعزاز شرعه، والجهاد في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا[3].

«فإن نزل القضاء بما نحبّ فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء، فلا يُعتَب من كان الحقّ نيَّته، والتقوى سريرته».

ثمَّ حرَّك الحسين راحلته وافترق عنه الفرزدق[4].

---

(1) الإرشاد، للمفيد، ص218.

(2) نزهة الناظر، للحلواني، ص42.

(3) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص251.

(4) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص276؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج20، ص410.

ومشى الحسين بأهله، من إخوته وأخواته، وعلى رأسهن كانت العقيلة زينب الكبرى بنت فاطمة الزَّهراء، لكنَّ زوجها: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ابن عمّ الحسين، لم يكن معهم، وكان من الحريصين على حياة الحسين، ومشفقاً عليه، وخائفاً من حركته تلك، ولذلك حينما سمع بخروج الإمام من مكَّة باتجاه العراق كتب إليه رسالة أرسلها مع ابنيه عون، ومحمَّد. وجاء في رسالته ـ كما ذكرنا ـ: إنِّي مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك[1].

ولمَّا قرأ الحسين الكتاب قال لمن حوله: إنِّي رأيت رسول الله في المنام وأمرني بأمر أنا ماضٍ له.

وحينما سُئل عن تلك الرؤيا قال: ما حدَّثت بها أحداً، ولا أُحدِّث حتَّى ألقى ربِّي عزَّ وجلَّ.

أمَّا عون ومحمد فقد لزما الحسين بناءً على أمر والدهما، وبقيا معه في قافلته نحو العراق.

❋

ولمَّا وصل إلى بطن «الرمَّة» نزل على ماء من مياه العرب، وهناك لقيه عبد الله بن مطيع، وهو منصرف من العراق، فسلَّم على الحسين وقال له: بأبي أنت وأُمِّي يابن رسول الله، ما الذي أخرجك من حرم الله وحرم جدّك؟

فقال الحسين: إنَّ أهل الكوفة كتبوا إليَّ يسألوني أن أقدم عليهم، لما رجوا من إحياء معالم الحقّ، وإماتة البدع.

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص277؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص388.

فقال ابن مطيع: أنشدك الله أن لا تأتي الكوفة، فوالله لأن أتيتها لتُقتلن، وإن قتلوك لا يهابون أحداً أبداً، والله إنَّها لحرمة الإسلام تنتهك، وحرمة قريش وحرمة العرب[1].

فقال له الحسين: «يا عبد الله؛ أكلّ ذلك فراراً من الموت؟ قل لن يصيبنا إلَّا ما كتب الله لنا. والله إنَّ الموت على الحقّ أولى من الحياة على الباطل، واللَّهِ لجهاد يزيد على الدِّين، أحقّ من جهاد المشركين»[2].

وهكذا كلَّما نزل الحسين في منزل والتقى بالمسافرين من هنا وهناك كان يُبيِّن أهدافه الربَّانية في نهضته، ليس فقط لكي يعتذر إلى الله عزَّ وجلَّ فيما هو مقدم عليه، ويتمّ الحجَّة على أعدائه فحسب، وإنَّما لكي يُبيِّن الأسس التي يجب أن يبنى عليها المؤمنون أُمورهم في كل نهضة يقومون بها في المستقبل.

وممَّن التقى بهم الحسين عليه السلام رجل من أهل الكوفة يُكنَّى أبا هرّة الأزدي، فقال للحسين: يابن بنت رسول الله، ما الذي أخرجك من حرم الله، وحرم جدّك محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم؟

فقال الحسين: «يا أبا هرَّة؛ إنَّ بني أُميَّة أخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فسكتّ، وطلبوا دمي فهربت. والله يا أبا هرَّة لتقتلنِّي الفئة الباغية، وليلبسنَّهم الله ذلّاً شاملاً وسيفاً قاطعاً، وليسلطنَّ الله

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص396؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص246.
(2) وسائل المظفّري، لليزدي، ص437.

عليهم من يذلّهم حتَّى يكونوا أذلّ من قوم سبأ، إذ ملكتهم امرأة، وحكمت في أموالهم وفي دمائهم»[1].

ولـمَّا نزل في منطقة شقوق أتاه رجل، فسأله الإمام عن العراق، فأخبره بحاله. فأنشد الحسين قائلاً:

فإن تَكنِ الدُّنيا تُعدّ نفيسةً فدارُ ثوابِ اللَّه أعلى وأنبلُ
وإن تَكنْ الأموالُ للترك جمْعُها فما بالُ متروكٍ به المرء يبخلُ
وإن تَكنْ الأرزاقُ قِسماً مقدَّراً فقلَّةُ حرصِ المرء في الكسب أجملُ
وإن تكن الأبدانُ للموتِ أُنشأتْ فقتلُ امرىءٍ بالسَّيف في اللَّه أفضلُ
عليكم سلامُ اللَّهِ يا آلَ أحمدٍ فإنِّي أراني عنكُمُ سوف أرحلُ[2]

ويبدو أنَّ الرجل تحدَّث مع الحسين عليه السلام بكلام كأنَّه يعلِّمه ما لا يعرف، فقال له الحسين: من أيِّ البلاد أنت؟

قال: من أهل الكوفة.

قال الحسين: «أما والله يا أخا أهل الكوفة، لو لقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبرائيل من دارنا، ونزوله بالوحي على جدِّي. يا أخا أهل الكوفة؛ مستقى العلم من عندنا، أفعلموا وجهلنا؟ هذا ما لا يكون»[3].

❋

وفي منطقة الحاجز ببطن الرمَّة كتب الحسين كتاباً إلى المؤمنين من أهل الكوفة، بعثه مع قيس بن مسهَّر الصيداويّ، ونصّ الرسالة

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص124؛ والعوالم، ج17، ص163.
(2) الكامل، للبهائي، ج2، ص277؛ والمناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص95.
(3) بصائر الدرجات، للصفَّار، ص32؛ والأُصول من الكافي، للكليني، ج2، ص250.

كالتالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين».

«سلام عليكم، أمَّا بعد، فإنَّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه حسن رأيكم، واجتماع ملأكم على نصرنا، والطلب بحقِّنا، فسألت الله أن يحسن لنا الصُنع، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصتُ إليكم من مكَّة يوم الثلاثاء، لثمانٍ مضين من ذي الحجَّة يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم وجدّوا، فإنِّي قادم عليكم في أيَّامي هذه إن شاء الله، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

❁

قال عبد الرحمن الصالح لصاحبه عبد الله بن مسلم: حقّاً إنَّ الدُّنيا غدَّارة، فرجل ورث من جدّه كلّ صفاته، وآثار جبرائيل في داره، ويستقي علمه من أبيه وهو باب مدينة علم الرَّسول، بدل أن يكون مرجعاً للناس جميعاً، يهيم على وجهه بالبراري والصحارى، وينتقل من منزل إلى منزل، لا لكي يصل إلى مرتع من المراتع، وإنَّما ليؤدِّي ما عليه من الواجب، ويدافع عن المظلومين والمستضعفين، وينتصر للحقّ وأهله.

فقال عبد الله بن مسلم: هكذا كان يا أخي أنبياء الله وأوصياؤهم، فهم: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾[2].

❁

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص395؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، ص72.
(2) سورة الأحزاب، آية 23.

ثمَّ إنَّ الحسين وصل إلى بطن العقيق وهو من منازل الحجَّاج، ومنه يحرم أهل العراق، فلقيه شيخ من بني عكرمة يُقال له عمرو بن لوذان، فقال: يا أبا عبد الله، أين تريد؟

قال الحسين: الكوفة.

فقال الشيخ: أنشدك الله لمَّا انصرفت، فوالله ماتقدم إلَّا على الأسنَّة وحدِّ السيوف، وإنَّ هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال، ووطأوا لك الأشياء، ثمَّ قدمت عليهم بعد ذلك كان ذلك رأياً، فأمَّا على هذه الحال التي تذكر فإنِّي لا أرى لك أن تفعل.

فقال له الحسين: «يا عبد الله؛ ليس يخفى عليَّ الرأي، ولكنَّ الله تعالى لا يُغلب على أمره. ثمَّ قال: والله لا يَدَعوني حتَّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلَّط الله عليهم من يذلّهم حتَّى يكونوا أذلّ فِرق الأُمم»[1].

❋

سمع عبد الرحمن وصاحبه حوار الحسين مع الشيخ، فقال عبد الرحمن: يبدو أنَّ المصير عند الحسين محسوم، ولا مجال للتراجع عنه، إذ لا نسمع منه إلَّا الحديث عن أمر الله وقضاء الله، وأنَّ سلطة بني أُميَّة سوف لن تدعه حتَّى تقتله، ويستخرجوا العلقة من جوفه.

قال عبد الله: هو كذلك، فظواهر الأُمور تدلُّ على ما تقول،

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص399؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، ص78؛ والفصول المهمَّة، لابن الصبَّاغ، ص189.

وإن كان ما يجري في الكوفة غير واضح حتَّى الآن، فدعنا نرى ماذا سيكون الوضع هناك.

❋

كان الحسين في طريقه إلى الكوفة لا يتنكَّب الطريق الأعظم، وإنَّما يمشي في الطرق المعهودة التي يمشي فيها المسافرون، وكان ينزل في المنازل التي يستريحون فيها، وهو لم يكن مستعجلاً للوصول إلى الكوفة، على عكس عبيد الله بن زياد الذي ما إن نصبه يزيد بن معاوية والياً على الكوفة حتَّى جدَّ السير حتَّى يصل إليها قبل أن يصل الحسين، والسبب في هذا الاختلاف هو أنَّ عبيد الله بن زياد كان يبحث عن السلطة، أمَّا الحسين فكان يؤدِّي مسؤوليته في الاستجابة لمن طلبوا منه أن يكون إماماً لهم.

وعلى كلِّ حال فإنَّ الحسين كان يلتقي بالأعراب وبالمسافرين، سواءً القادمين من الكوفة أو الذاهبين إليها، وكان أغلب القادمين من الكوفة كما ذكرنا يُحذِّر الحسين من الاستمرار في التوجُّه إليها، نظراً لتحكيم السلطة الأمويَّة قبضتها هناك، وتعبئة الموارد لتنظيم الجيش لمواجهة أهل البيت.

❋

سار موكب الحسين ومن معه حتَّى نزلوا في منطقة زرود، وكان معه رجلان من بني أسد قد قضيا حجَّهما، ولم تكن لهما همَّة إلَّا اللحاق بالحسين لينظرا ما يكون من أمره وشأنه، فأقبلا مسرعين حتَّى لحقاه في تلك المنطقة. فلمَّا دنوا منه، إذا بهما يرون رجلاً قادماً من الكوفة، ولكنَّه بمجرَّد أن رأى موكب الحسين عليه السلام عدل عن الطريق، مع أنَّ الحسين وقف كأنَّه كان يريد خبره.

فقال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا فلنسأله، فإن كان عنده خبر الكوفة علمناه.

فمضيا حتَّى انتهيا إليه، فسألاه عن نسبه، فقال: أنا أسديّ.

فقالا له: ونحن أسديَّان، فمن أنت؟

قال: أنا بكير بن مثعبة. فتعرَّف بعضهم على بعض، ثمَّ قالا له: أخبرنا عن الناس ورائك؟

قال: نعم؛ لم أخرج من الكوفة حتَّى قُتل مسلم بن عقيل، وهاني بن عروة، ورأيتهما يُجرَّان بأرجلهما في الأسواق.

ثمَّ مضى الرجل في طريقه.

فأقبل هذان الأسديَّان حتَّى لحقا بالحسين، فسايراه حتَّى نزل الثعلبيَّة في المساء، فسلَّما عليه وردَّ عليهما، فقالا له: يرحمك الله، إنَّ عندنا خبراً، فإن شئت حدَّثناك علانية وإن شئت حدَّثناك سرّاً.

فنظر الحسين إلى أصحابه وقال: ما دون هؤلاء من سرّ.

فقالا له: أرأيت الراكب الذي استقبلك عشاء أمس؟

قال الحسين: نعم؛ وقد أردت مسألته.

فقالا له: قد استبرأنا لك خبره، وكفيناك مسألته، وهو امرىء أسديّ منَّا، ذو رأي وصدق، وفضل وعقل، وإنَّه حدَّثنا أنَّه لم يخرج من الكوفة حتَّى قُتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، وأنَّه رآهما يجرَّان في السوق بأرجلهما.

فقال الحسين: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، رحمة الله عليهما..

وردَّد ذلك مراراً.

ثمَّ قال له الرجلان: ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك إلَّا انصرفت من مكانك هذا، فليس لك بالكوفة ناصر ولا معين، بل نتخوَّف أن تكون الكوفة عليك.

فنظر الحسين إلى إخوة مسلم من بني عقيل، وقال لهم: ما ترون، فقد قُتل مسلم؟

فقالوا: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، والله لا نرجع حتَّى نصيب ثأرنا، أو نذوق ما ذاق.

فأقبل الحسين على الرجلين وقال: لا خير في العيش بعد هؤلاء.

فعلما أنَّ الحسين قد عزم على المسير.

فقالا له: خار الله لك.

فأجابهما الحسين بقوله: رحمكم الله.

ثمَّ جمع الحسين من كان معه وقال لأصحابه: قد ترون ما يأتينا من الأخبار، وما أرى القوم إلَّا سيخذلوننا، فمن أحبَّ أن يرجع فليرجع[1].

فانصرف عنه الذين صاروا إليه في طريقه، وبقي أصحابه الذين خرجوا معه من مكَّة، وعدد قليل ممَّن صحبه بعد خروجه، فكان عدد الخيَّالة منهم إثنين وثلاثين فارساً[2].

---

(1) نهاية الإرب، للنويري، ج20، ص414.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص398؛ والحسين في طريقه الشهادة، للهاشمي، ص72؛ والطبقات، لابن سعد، ص68.

وبعد وصول خبر مقتل مسلم بن عقيل، وتفرَّق أهل الأطماع والارتياب عن الحسين وبقاء أهله وخيار أصحابه، ارتجَّ الموضع بالبكاء، وسالت الدموع كلّ مسيل، ولكن ثقل المسؤولية التي كانوا يشعرونها لم تدع لهم خياراً إلَّا الجدّ في طريقهم للوصول إلى مبتغاهم[1].

ومع أنَّ الصورة أصبحت واضحة لكلّ من كان مع الحسين، إلَّا أنَّ بعضهم كان لا يزال يرى أنَّ من الممكن أن تنقلب المعادلة ومن ثمَّ يفشل عبيد الله بن زياد في الكوفة، ويقوم الناس بما يجب عليهم إذا وصل إليهم الحسين.

فقد قال له بعض من كان معه: إنَّك والله ما أنت بمثل مسلم، ولو قدمت الكوفة ونظر الناس إليك لكانوا إليك أسرع، وما عدلوا عنك ولا عدلوا بك أحداً.

لكنَّ الحسين لم يعلِّق على ذلك، بل سكت وسار في طريقه[2].

❁

بعد استشهاد مسلم بن عقيل، كان الحسين كثيراً ما يُردِّد قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[3]، وأحياناً يتمثل بقول الشاعر:

سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى   إذا ما نوى حقّاً وجاهدَ مسلما
وواسى الرجالَ الصالحين بنفسِهِ   وفارقَ مثبوراً وخالف مجرما

---

(1) اللهوف، لابن طاوس، ص74؛ وأسرار الشهادة، للدربندي، ص250.
(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص215 و229.
(3) سورة البقرة، آية 156.

فإن عشتُ لم أندم وإن متُّ لم أُلم كفى بك ذلّاً أن تعيش وتُرغما

ثمَّ أمر فتيانه بأن يكثروا من حمل الماء، فاستقوا وأكثروا منه، ثمَّ ارتحلوا من الثعلبيَّة(1).

❋

وسار حتَّى وصل منطقة يُقال لها زبالة، وهناك استقبل شخصاً جاء كرسول من قِبل محمَّد بن الأشعث وعمر بن سعد لكي يخبر الحسين بخذلان أهل الكوفة إيَّاه بعد أن بايعوه. فلمَّا سمع الحسين ذلك قال: كلَّما حُمّ ـ أي قضي وقدّر ـ نازل، وعند الله نحتسب أنفسنا وفساد أُمَّتنا(2).

ولم يفعل الحسين شيئاً برسول عمر بن سعد ومحمَّد بن الأشعث، بل أكرمه وتركه يرجع إلى الكوفة.

❋

كان عبد الرحمن الصالح وعبد الله بن مسلم حاضرين في ذلك المكان، فقال عبد الرحمن لصاحبه: إنَّ بني أُميَّة قتلوا رسول الحسين وهو مسلم بن عقيل، وقتلوا من آواه وهو هاني بن عروة، لكنَّ الحسين لا يمسّ رسولهم بسوء، بل ويكرمه، ويتركه يعود سالماً إلى من جاء من قِبله؟

قال عبد الله بن مسلم: يا أخي؛ إنَّ أهل البيت هم خلاصة الفضائل، وبنو أُميَّة خلاصة الرذائل، وهذا الذي تراه ليس خلافاً بين شخصين ـ كما قلت لك من قبل ـ وإنَّما هو اختلاف بين طريقتين

---

(1) نهاية الإرب، للنويري، ج20، ص414.

(2) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص273؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص375.

وسُنَّتين، بين أتباع الأنبياء الصادقين، وبين أهل الدُّنيا المنافقين. وكما ترى فإنَّ هؤلاء لا يرقبون في الله إلّاً ولا ذمَّة، ولا يتركون وسيلة لدعم سلطانهم إلَّا ويستخدمونها، فلا يحترمون حدود الله ولا يقيمون للأخلاق والفضائل أي وزن. لقد أعماهم حبّ السلطان، وحليت الدُّنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها.. ألا ترى كيف أنَّهم باسم رسول الله يحكمون، ورسول الله هو جدّ الحسين، ودماء رسول الله تجري في عروق الحسين وأهل بيته، ولولا سيف عليّ ـ والد الحسين ـ لما كان هؤلاء مسلمين، وهم لم يدخلوا في الدِّين إلَّا طمعاً في الدُّنيا، أو خوفاً على أنفسهم.

قال عبد الرحمن: ولكن لماذا لا يرجع الحسين، وقد جاءته الأخبار المؤكَّدة بأنَّ أوليائه إمَّا مقتولون، أو مسجونون، أو مشرَّدون، وأنَّ الكوفة في قبضة بني أُميَّة، فليترك الأُمور لهم؟

فقال عبد الله: أيترك الحسين دين جدّه، ليتلاعب به المرجفون؟

أيترك الحسين هذه الأُمَّة تحت سياط بني أُميَّة، ليظلموا الناس باسم الدِّين، وباسم شريعة سيِّد المرسلين؟

أيسكت سيِّد شباب أهل الجنَّة، ليرتكب هؤلاء المآثم والجرائم، باسم رسول الله؟

إنَّ الحسين يعرف سلفاً أنَّ هؤلاء الذين قتلوا عمَّار بن ياسر، والذي كان الجميع قد سمعوا من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «**تقتلك الفئة الباغية**»[1]، ولم يرعوا إلّاً ولا ذمَّة في إراقة دماء عشرات الألوف

(1) دعائم الإسلام، للقاضي النعمان المغربي، ج1، ص392.

من المسلمين لن يتركوه، وإنَّهم قاتلوه على كلِّ حال، وهذا ما قاله أكثر من مرَّة، فهل يتركهم يفعلوا ذلك من دون أن يحرِّك ساكناً؟

❁

في أثناء الطريق رأى رجل كان يعود من الحجّ خياماً مضروبة في الطريق إلى الكوفة، فسأل: لمن هذه؟

فقالوا: للحسين بن عليّ.

فدخل على الحسين، فرآه يقرأ القرآن، والدموع تسيل على خدّيه. فقال له: بأبي أنت وأُمِّي يابن بنت رسول الله، ما أنزلك هذه البلاد والفلات التي ليس بها أحد؟

فقال له الحسين: هذه كتب أهل الكوفة إليَّ. ثمَّ سكت هنيئة، ثمَّ قال: ولا أراهم ـ ويقصد بني أُميَّة ـ إلَّا قاتلي، فإذا فعلوا ذلك لم يدعوا لله حرمة إلَّا انتهكوها[1].

❁

بعد مقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة دعا الحسين عليه السلام بدواة وبياض، وكتب إلى أشراف الكوفة رسالة جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ إلى جماعة المؤمنين.

«أمَّا بعد، فقد علمت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قد قال في حياته: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلّاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسُنَّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، ثمَّ لم يغيِّر عليه بقول ولا فعل كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله».

(1) تاريخ الإسلام، للذهبي، ج2، ص345.

«وقد علمت أنَّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتولّوا عن طاعة الرحمن، وأظهروا في الأرض الفساد، وعطّلوا الحدود والأحكام، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرَّموا حلاله، وإنِّي أحقّ بهذا الأمر، لقرابتي من رسول الله، وقد أتتني كتبكم وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم أنَّكم لا تخذلوني، فإن وفيتم لي ببيعتكم فقد أصبتم حظَّكم ورشدكم، ونفسي مع أنفسكم، وأهلي وولدي مع أهليكم وأولادكم، فلكم بي أسوة».

«وإن لم تفعلوا ونقضتم عهودكم، ونكثتم بيعتكم ومواثيقكم، فلعمري ما هي منكم بالنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمِّي، والمغرور من اغترَّ بكم، فحظَّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيَّعتم، ومن ينكث فإنَّما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم، والسَّلام».

وأرسل هذا الكتاب مع أخ له من الرضاعة، اسمه عبد الله بن يقطر، إلى أهل الكوفة[1].

❁ ❁ ❁

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص186؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص228.

تعبئة الكوفة ضدَّ الحسين

بعد الانتهاء من قتل مسلم بن عقيل قام عبيد الله بن زياد بتعبئة الناس لمواجهة الحسين وأصحابه، وأمر مناديه في الكوفة أن ينادي: ألا قد برئت الذمَّة ممَّا لا يخرج لقتال الحسين.

وزاد في أعطيات من كانوا يأخذون الأموال من الدولة مائة في المائة، بالإضافة إلى أنَّه اعتقل كثيراً من الأشراف الذين لم يكن باستطاعته أن يجبرهم على قتال الحسين، ولا أن يقتلهم، خوفاً من أن تنهض ضدّه العشائر التي كانوا ينتمون إليها.

ثمَّ أمر صاحب شرطته الحصين بن نمير، أن يتوجَّه في أربعة آلاف فارس من المقاتلين من أهل الكوفة إلى المناطق المحيطة بتلك المدينة لينتشروا ما بين القادسيَّة إلى خفَّان، وما بين القادسيَّة إلى القطقطانة وإلى لعلع، وأن يضع المصالح والحواجز فينظِّم الدخول والخروج إلى مدينة الكوفة، ويمنع الناس من الالتحاق بالحسين، ويمنع أصحاب الحسين من الدخول إلى الكوفة، فلا يدعون أحداً يلج، ولا أحداً يخرج[1].

---

(1) البداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص170؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص392؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص243.

وفي ذات الوقت وجَّه الحرّ بن يزيد الرياحي اليربوعي، في ألف فارس للبحث عن الحسين في الطريق، لمنعه من التحرُّك أو جلبه إلى الكوفة[1].

وقال له: إذا لقيت الحسين فسايره، ولا تدعه يرجع حتَّى يدخل الكوفة، وجعجع به[2].

وهكذا فإنَّ ابن زياد سيطر على المنطقة الواقعة ما بين منطقة «واقصة» إلى مفرق طريق الشام، وإلى مفرق طريق البصرة.

وقبل أن تصل هذه القوات إلى الحسين، التقى الإمام ببعض الأعراب، فسألهم عن الأوضاع، فقالوا: والله لا ندري، غير أنَّا لا نستطيع أن نلج ولا أن نخرج[3].

وبما أنَّ المنطقة كُلّها قد أصبحت تحت سيطرة ابن زياد، فإنَّ جميع الطرق أصبحت غير آمنة، ولذلك فإنَّ عبد الله بن يقطر، الذي كان يحمل رسالة الحسين إلى أهل الكوفة، وقع في قبضة الحصين بن نمير في منطقة القادسيَّة، فمزَّق عبد الله رسالة الحسين، حتَّى لا تقع في يد الأعداء. فاعتقله الحُصين، وأرسله إلى عبيد الله بن زياد، وهناك في الكوفة سأله عبيد الله عن نسبه؟

فقال: أنا مولىً لبني هاشم.

قال ابن زياد: فما اسمك؟

قال: اسمي عبد الله بن يقطر.

(1) أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص166.
(2) الطبقات، لابن سعد، ص68.
(3) التاريخ، للطبري، ج5، ص392؛ والبحار، ج44، ص371.

فسأله عن الرسالة التي كانت معه، ومن أعطاها له، فامتنع من أن يذكر شيئاً عن ذلك.

فقال له ابن زياد: إمَّا أن تخبرني من دفع إليك هذا الكتاب فتنجو من يدي، وإمَّا أن تصعد المنبر فتلعن الحسين بن عليّ وأباه، ثمَّ تنزل حتَّى أرى فيك رأيي.

فقال عبد الله بن يقطر: أمَّا أن أخبرك لمن كانت الرسالة، فلن أفعل، وأمَّا الصعود على المنبر فنعم.

فجمع ابن زياد الناس في المسجد، وأمر عبد الله بن يقطر أن يصعد، فلمَّا أشرف على الناس قال: «أيُّها الناس؛ إنِّي رسول الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله إليكم، لتنصروه وتوازروه على ابن مرجانة الدعيّ وابن الدعيّ، لعنه الله.

وقبل أن يكمِّل كلامه أمر عبيد الله بن زياد جلاوزته، فأنزلوه من المنبر، ثمَّ أمر به، فألقوه من فوق القصر إلى الأرض، فتكسَّرت عظامه وبقي به رمق وهو يضطرب، فهجم عليه رجل يُقال له عبد الملك بن عمير اللخمي، فذبحه وهو في تلك الحالة[1].

❋

وأمَّا قيس بن مسهَّر الصيداويّ فهو أيضاً وقع في قبضة جنود الحصين بن نمير، وفعل قيس مثل ما فعل عبد الله بن يقطر، حيث أخرج كتاب الحسين فمزَّقه عن آخره، فأخذوه حتَّى أتوا به إلى عبيد الله بن زياد، فقال له: من أنت؟

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص398؛ وجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص379؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص187.

قال: أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين الحسين بن عليّ.

قال: فلِمَ خرقت الكتاب الذي كان معك؟

قال: حتَّى لا تعلم أنت ما فيه.

قال ابن زياد: وممَّن كان هذا الكتاب، وإلى من كان؟

قال: من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة، لا أعرف أسمائهم.

فغضب ابن زياد وقال: والله لا تفارقني أبداً، أو تدلّني على هؤلاء القوم الذي كتب إليهم هذا الكتاب، أو تصعد المنبر فتسبّ الحسين وأباه وأخاه، أو لأقطعنَّك.

فقال قيس: أمَّا هؤلاء القوم فلا أعرفهم، وأمَّا الأُخرى فإنِّي أفعل.

فأمر به ابن زياد، فأدخل المسجد الأعظم، ثمَّ صعد المنبر ونادوا بالناس: الصلاة جامعة. فلمَّا اجتمعوا، قام قيس فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ صلَّى على محمَّد وآله، وأكثر الترحُّم على عليّ وولده، ثمَّ لعن عبيد الله بن زياد وأباه. ثمَّ قال: أيُّها الناس؛ هذا حسين بن عليّ خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم، وفارقته بالحاجز، فأجيبوه[1].

ولمَّا أخبر ابن زياد بما قاله أمر أن يصعد به القصر، ويرمى به من أعلاه، فأصعدوه أعلى القصر ورموا به على أُمِّ رأسه، فاندقَّ عنقه وخرج دمه من أذنيه ومات[2].

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص146؛ وتجارب الأُمم، لأبي علي مسكويه، ج2، ص57.

(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص236.

أنباء مقلقة، وحوادث مؤسفة

منذ خروج الحسين من المدينة، وخلال بقائه في مكَّة، كانت الأنباء التي تصل إليه كُلّها تدلُّ على التفاف المؤمنين حوله.

فكانت الأنباء كُلّها سارَّة حيث أنَّ الناس بدأوا ينشطون في سبيل الله، ويرفضون الباطل المتمثِّل في السلطة الأمويَّة القائمة على الظلم والعدوان، والاحتيال والاغتيال.

ولكن منذ خروجه من مكَّة المكرَّمة انقلبت الأُمور تماماً، فكانت الأنباء التي تصله تباعاً كُلّها مقلقة وغير سارَّة، كما أنَّ الحوادث التي مرَّ بها كُلّها كانت تصبُّ بالاتجاه المعاكس لنهضته.

ففي منطقة زبالة، التي سُمِّيت بهذا الاسم باعتبار ضبطها للماء وأخذها منه، وكانت قرية عامرة بها أسواق، وتقع بين منطقة الواقصة والثعلبيَّة، وصل إلى الحسين خبر مقتل أخيه من الرّضاعة عبد الله بن يقطر، وكان قد وصله من قبل خبر مقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، فجلس الحسين وكتب كتاباً، ثمَّ قرأ على من كان معه، وهذا نصّه.

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، أمَّا بعد، فقد أتانا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبد الله بن يقطر، وقد خذلنا شيعتنا، فمن كان منكم يصبر على حدِّ السيوف، وطعن الأسنَّة فليقم

معنا، ومن أحبَّ منكم الانصراف، فلينصرف من غير حرج، ليس عليه منَّا ذمام.

ووقع هذا الخبر على الحاضرين مثل الصاعقة، ليس بسبب مقتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة، فهذا الخبر كانوا قد سمعوه، ولكن مقتل عبد الله بن يقطر، أخو الحسين من الرّضاعة، الذي لم يكن إلَّا مجرَّد رسول منه إلى بعض أهل الكوفة، شكَّل مفاجأة كبيرة، فقد دلَّ على أنَّ السلطات مستعدَّة أن تذهب إلى نهاية المطاف، وترتكب كلّ إجرام ضدَّ الحسين، ذلك أنَّ الرُّسل في جميع الأعراف والأُمم لا تُقتل، وحتَّى في الجاهليَّة، لم يكن المتخاصمون يقتلون الرُّسل، وإذا حدث وأنَّ رسولاً قُتل فإنَّه كان بمثابة إعلان للحرب، وكانوا يعطون للطرف الذي ينتمي إليه الرسول الحق في أن يشنّ الهجوم على من قتلوه.

والسبب الذي جعل الحسين يعلن مقتل عبد الله بن يقطر أنَّه علم أنَّ الذين اتبعوه من الأعراب إنَّما اتبعوه لأنَّهم ظنّوا أنَّه سيأتي إلى بلد قد استقامت له طاعة أهله، فكره أن يسير معه إلَّا من يعلم أنَّه يقدم على قتال وحرب، فلم يكن يريد إلَّا من وطَّن نفسه على الموت معه.

وبعد تكرار مثل هذا الكلام من الحسين، لم يبق معه إلَّا أهل بيته ومواليه الذين قالوا: «والله ما نرجع حتَّى نأخذ بثأرنا ونذوق الموت غصَّة بعد غصَّة. وكان عددهم أقل من ثمانين رجلاً، ومعظمهم من الذين خرجوا معه من مكَّة[1] وقليل ممَّن انضمَّ إليه في الطريق.

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص399؛ وينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص62؛ ومقتل أبي مخنف، ص43.

ومن هؤلاء زهير بن القيس البجلي، وهو من أشراف الناس، وكان عثماني الهوى، لا يرغب في عليّ وأولاد عليّ، وكان الرجل قد أتمَّ حجَّه، فأقبل يتَّجه نحو الكوفة، وكان أبغض شيء إليه أن يلتقي بالحسين، ويسير معه في طريق واحد، أو أن ينزل معه في منزل واحد، فإذا سار الحسين تخلَّف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدَّم زهير، لكن الظروف اضطرَّته للنزول مع الحسين في منطقة «زرود»، وكان ذلك في اليوم الواحد والعشرين من ذي الحجَّة سنة ستّين، فنزل الحسين في جانب، ونزل زهير بن القين ومن معه في جانب آخر.

وبينما كان زهير وأصحابه جلوساً يتغدّون من طعام لهم، إذ دخل عليهم رسول الحسين وسلَّم، وقال: يا زهير، إنَّ أبا عبد الله الحسين بن عليّ بعثني إليك لتأتيه.

فطرح كلّ واحد من الحضور ما في يده من الطعام، وجلسوا ساكتين كأنَّ على رؤوسهم الطير، وكان واضحاً أنَّ الرجل لا يريد أن يستجيب للحسين وأن يُكلِّمه.

فقامت زوجته واسمها «دلهم بنت عمرو» وقالت له: سبحان الله؛ أيبعث إليك ابن رسول الله ثمَّ لا تأتيه، فلو أتيته فسمعت كلامه ثمَّ انصرفت؟

فقام زهير على كره منه، وذهب مع الرَّسول متثاقلاً، فما كانت إلَّا ساعة إلَّا ورجع بوجه مشرق مستبشر، فأمر بفسطاطه ومتاعه ورحله أن تُنقل إلى جانب الحسين، ثمَّ قال لزوجته: الحقي بأهلكِ، فإنِّي لا أحبّ أن يصيبكِ بسببي إلَّا خير.

كان واضحاً أنَّ الرجل اتخذ قراره بالالتحاق بقافلة الحسين، فقامت إليه زوجته وبكت وودَّعته وقالت له: كان الله لك عوناً

ومعيناً، خار الله لك، أسألك أن تذكرني عند جدّ الحسين يوم القيامة[1].

ثمَّ قال زهير لأصحابه: من أحبَّ منكم أن يتّبعني، وإلَّا فإنَّه آخر العهد.

وأضاف: إنِّي سأُحدِّثكم حديثاً: غزونا بلنجر، ففتح الله علينا، فأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان الفارسي: أفرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم؟

فقلنا: نعم.

فقال لنا: إذا أدركتم سيِّد شباب أهل الجنَّة، فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم، منكم بما أصبتم من غنائم.

ثمَّ قال: أما أنا فإنِّي أستودعكم الله، والتحق بالحسين[2].

❁

وسارت قافلة الحسين حتَّى نزلت في الخزيميَّة، فأقام فيها يوماً وليلة، فلمَّا أصبح أقبلت إليه أُخته زينب وقالت: أبا عبد الله، إنِّي سمعت البارحة هاتفاً يقول:

ألا يا عينُ فاحتفلي بجهدي فمَن يبكي على الشُّهداء بعدي
على قومٍ تسوقُهُم المنايا بمقدارٍ إلى إنجاز وعدي

فقال لها الحسين: يا أُختاه، كلّ الذي قضى الله فهو كائن[3].

---

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص184.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص397.
(3) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص164؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص226.

كانت تلك واحدة من عشرات الشواهد التي تدلُّ على أنَّ قافلة الحسين مكتوب عليها الموت في سبيل الله، وأنَّ جميع من فيها سوف يقتلون، حتَّى أنَّ الحسين حينما نزل في بطن العقبة قال لأصحابه: ما أراني إلَّا مقتولاً، فإنِّي رأيت في المنام كلاباً تنهشني، وأشدّها عليَّ كلب أبقع[1].

❋

في منطقة الشراف أمر الحسين فتيانه أن يحملوا الكثير من الماء.

قال عبد الرحمن الصالح لصاحبه: تُرى، لماذا يأمر الحسين الفتية بحمل أكبر قدر ممكن من الماء، أليست هنالك منازل في الطريق فيها الماء؟ ألسنا نمشي مع شطِّ الفرات؟

قال عبد الله بن مسلم: ما دامت القافلة محكومة بالموت فلابُدَّ من الاستعداد لكلِّ شيء.

قال عبد الرحمن: وهل الواثق من موته يفكِّر في مثل هذه الأُمور؟

قال عبد الله: إنَّ الحسين لن يستسلم، وفرق كبير بين من يثق بموته وهو ذليل، وبين من يقدم على الموت وهو عزيز. فلا شكَّ أنَّ الحسين سيدافع عن نفسه وحقّه وأهل بيته، ولابُدَّ من الاهتمام بعناصر البقاء. ألا ترى أنَّ الحسين مع أنَّه لم يقصد القتال، بدليل أنَّه يحمل معه أهل بيته وأطفاله ونسائه والصغار والكبار منهم، فإنَّه

---

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص213؛ وكامل الزيارات، ص75؛ والحسين في طريق الشهادة، للهاشمي، ص89.

يحمل معه السيف والرّمح والسهم. فالحسين لا يريد القتال، ولكن إذا فرض عليه ذلك فسوف يقاوم، ويعمل بوصيَّة أبيه لأخيه الحسن، حينما قال له: «لا تدعونَّ إلى مبارزة، وإن دعيت إليها فأجب، فإنَّ الداعي باغ والباغي مصروع»[1]. هذا بالإضافة إلى أنَّ الحسين يفكِّر في أهله وعياله، فحتى لو قُتل الرجال فإنَّ العيال بحاجة إلى الماء.

قال عبد الرحمن: إذا لم يكن الحسين يريد قتالاً، فلربَّما يسلم من الموت، لأنَّ القوم ربَّما لا يحبذون قتله؟

قال عبد الله: لا أظنُّ ذلك، إنَّ أولياء الله لا يعتدون على أحد، ويأتي العدوان دائماً من أعدائهم، وكما قلت لك فإنَّ هابيل ما أراد سوءً بأخيه قابيل، بل وصرَّح له بذلك، قائلاً: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾[2]، ومع ذلك اعتدى عليه قابيل وقتله. وإبراهيم الخليل عليه السلام ما حاول أن يحرق نمرود بالنَّار، ومع ذلك فإنَّ نمرود ألقى به في النار، والنبيّ موسى عليه السلام ما أراد أن يغرق فرعون، وإنَّما فرعون هو الذي تعقَّبه حتَّى يقضي عليه. ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا قومه في مكَّة إلى الهدى عشر سنوات، ولم يحمل حتى مجرَّد خنجر في مواجهة قريش، لكنَّهم آذوه واعتدوا عليه، وعذَّبوا أصحابه، وقتلوا بعضاً منهم، وهجَّروه من مكَّة.

إنَّ أهل الباطل هم أهل العدوان، أمَّا أهل الحقّ ـ والحسين اليوم سيِّدهم ـ لا يعتدون على أحد.

قال عبد الرحمن: إذن لماذا يحمل الحسين معه السلاح؟

---

(1) نهج البلاغة، حكمة رقم 233.

(2) سورة المائدة، آية 28.

قال عبد الله: عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1] إنَّ المؤمن لن يقبل بالذلَّة مهما كانت الظروف، ألم يقل الحديث الشريف: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ فوَّض إلى المؤمن أُموره كُلّها ولم يفوِّض إليه أن يذلّ نفسه»[2]؟

قال عبد الرحمن: وماذا عن الماء، هل يتوقَّع الحسين أن يمنعوه منه؟

قال عبد الله: كُلّ شيء ممكن، فالعدوّ الذي نعرفه لا يتقي الله في أي أمر، ولابُدَّ أن نتوقَّع منه ارتكاب كُلّ جريمة. ألم يمنع معاوية بن أبي سفيان عليّاً وأصحابه، وفيهم صحابة كبار من أمثال عمَّار بن ياسر الشهيد ابن الشهيد، ألم يمنعوهم من شريعة الماء في صفِّين، وحينما استردَّ الإمام عليّ عليه السلام منهم الماء لم يمنعهم منه؟

إنَّ القوم أبناء القوم. فالحسين هو ابن عليّ، ويزيد هو ابن معاوية، فكلّ شيء وارد.

❁

واستمرَّت قافلة الحسين في مسيرها، حتَّى إذا كانوا في منتصف النهار رفع أحد أصحاب الحسين صوته قائلاً: الله أكبر.

فالتفت إليه الحسين قائلاً: الله أكبر، ممَّ كبَّرت؟

قال الرجل: رأيت النخل.

---

(1) سورة الأنفال، آية 60.

(2) الكافي، للكليني، ج5، ص63.

فقال له رجلان من بني أسد يعرفان المنطقة تماماً: إنَّ هذا مكان ما رأينا به نخلاً قطّ.

فقال لهما الحسين: فما تظنون أنَّه قد رأى الرجل؟

قالا: إنَّه رأى هوادي الخيل.

فقال الحسين: وأنا والله أرى ذلك.

ثمَّ التفت الحسين إليهما وقال: أما لنا ملجأ نلجأ إليه، نجعله في ظهورنا، ونستقبل القوم من وجه واحد؟

فقالا له: بلى؛ هذا ذو حصن إلى جنبك، تميل إليه عن يسارك، فإن سبقت القوم إليه فهو كما تريد.

فسار الحسين حتَّى سبق إلى ذلك المكان، وجعل الجبل وراء ظهره، ولم تمرُّ إلَّا فترة قصيرة حتَّى تبيَّنت هوادي الخيل، وجنود كثيرون، وكان عددهم ألف فارس، كأنَّ أسنَّتهم اليعاسيب، وكأنَّ راياتهم أجنحة الطير، وكان يقودهم الحرّ بن يزيد التميمي، فمال هو وجيشه حتَّى وقف مقابل الحسين في حرِّ الظهيرة وكان الحسين وأصحابه يعتمّون بالعمائم، وتلتمع سيوفهم.

فقال له الحسين: لنا، أم علينا؟

قال الحرّ: لسنا معك. ولمَّا رأى الحسين عليه السلام أنَّ القوم يتضوَّرون عطشاً أمر فتيانه بأن يسقوهم، قائلاً: أسقوا القوم، وأرووهم من الماء، ورشِّفوا الخيل ترشيفاً.

فقام أصحاب الحسين وسقوا القوم من الماء، حتَّى أرووهم ورشفوا خيولهم، وكانوا يملأون القصاع والطساس من الماء، ثمَّ يدنونها من الفرس، فإذا عبَّ منها ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلوها

عنه، وسقوا فرساً آخر حتَّى سقوا الخيل كُلّها، كما سقوا الجيش كُلّه، حتَّى أنَّ رجلاً اسمه: عليّ بن الطعان المحاربي كان آخر من جاء من أصحاب الحرّ، فلمَّا رأى الحسين ما به وبفرسه من العطش قال له: أنخ الراوية.. وكلمة الراوية تعني السقاء بلغة أهل الحجاز، فلم يفهم معناها، فقال له الحسين عليه السلام: يابن أخ، أنخ الجمل، فأناخه.

فقال له الحسين: إشرب، ولكن الرجل كُلَّما أراد أن يشرب سال الماء من السقاء، فقال له الحسين: أخمث السقاء، أي أعطفه.

فلم يكن يعرف ماذا يفعل، فقام الحسين بنفسه فأعطف له السقاء، فشرب وسقى فرسه.

ولمَّا أتمَّ أصحاب الحسين عمليَّة السقي لجيش الحرّ حضر وقت الصلاة، فأمر الحسين مؤذّنه، وهو الحجَّاج بن مسروق الجعفي أن يؤذِّن، فأذَّن للصلاة.

فلمَّا حضرت الإقامة خرج الحسين، وهويلبس إزاراً ورداءاً وفي رجليه نعلان، فقال للحرّ: أتريد أن تصلِّي بأصحابك؟

قال الحرّ: لا، بل تُصلِّي أنت، ونصلِّي نحن بصلاتك.

فأمر الحسين مؤذِّنه أن يقيم، فأقام، فصلَّى بهم جميعاً.

فلمَّا فرغوا من الصلاة عاد أصحاب الحرّ إلى مكانهم الذي كانوا فيه، وأخذ كلّ رجل منهم بعنان دابَّته وجلس في ظلّها.

فقام الحسين عليه السلام واتكى على قائمة سيفه، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال:

«أيُّها الناس؛ إنَّها معذرة إلى الله عزَّ وجلَّ وإليكم، إنِّي لم

أقدم إلى هذا البلد حتَّى أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسلكم: أن أقدم إلينا فإنَّه ليس لنا إمام، فلعلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدى.

«فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما اطمأن إليه من عهودكم ومواثيقكم، دخلت معكم إلى مصركم، وإن لم تفعلوا، وكنتم كارهين لقدومي عليكم، انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه».

فسكت القوم عنه ولم يجيبوا بشيء[1].

ثمَّ إنَّ الحرّ بن يزيد دخل خيمته التي ضربت له، وجلس فيها يفكِّر في أمره، وإذا برسالة وردت إليه من عبيد الله بن زياد، وفيها: «أمَّا بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فجعجع بالحسين، ولا تفارقه حتَّى تأتيني به، فإنِّي أمرت رسولي أن لا يفارقك حتَّى يأتيني بإنفاذ أمري إليك، والسَّلام.

فلمَّا قرأ الحرّ الكتاب بعث إلى ثقات أصحابه، فدعاهم، ثمَّ قال لهم: إنَّه قد ورد إليَّ كتاب عبيد الله بن زياد، يأمرني أن أقدم إلى الحسين بما يسوؤه، ووالله ما تطاوعني نفسي، ولا تجيبني إلى ذلك.

وكان في أصحاب الحرّ رجل يُكنَّى بأبي الشعثاء الكندي، فالتفت إلى رسول عبيد الله بن زياد، وقال له مستنكراً: بماذا جئت، ثكلتك أُمّك؟

قال الرجل: أطعت إمامي، ووفيت ببيعتي، وجئت برسالة أميري.

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص401.

فقال له أبو الشعثاء: لقد عصيت ربّك، وأطعت إمامك، وأهلكت نفسك، واكتسبت عاراً، فبئس الإمام إمامك، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[1].

وفيما هم كذلك، وإذا بصلاة العصر قد دنت، فأمر الحسين مؤذّنه من جديد أن يؤذّن للصَّلاة، فأذَّن وأقام للصلاة، فتقدَّم الحسين فصلَّى بالعسكرين أيضاً.

فلمَّا أكمل صلاته وقف على قدميه، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال:

«أيُّها الناس؛ إنَّكم إن تتقوا وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والظلم والعدوان».

«وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقّنا، وكان رأيكم على خلاف ما جاءت به كتبكم، وقدمت به عليَّ رسلكم انصرفت عنكم».

فقام الحرّ وقال: أبا عبد الله؛ إنَّا والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكرها؟

فقال الحسين لعقبة بن سمعان: أخرج الخرجين الذين فيهما كتبهم إليَّ.

فأخرج عقبة بكتب أهل البصرة والكوفة، فنشرها بين يدي الحسين.

فقال الحرّ: يا أبا عبد الله؛ لسنا من القوم الذين كتبوا إليك

---

(1) سورة القصص، آية 41.

هذه الكتب، وقد أُمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتَّى نقدمك على عبيد الله بن زياد.

فتبسَّم الحسين، وقال: الموت أدنى إليك من ذلك.

ثمَّ التفت إلى أصحابه وقال: قوموا فاركبوا..

فركبوا، وانتظروا حتَّى ركبت نساؤهم. فقال الحسين لهم: انصرفوا بنا، فلمَّا أرادوا أن ينصرفوا، حال جيش الحرّ بينهم وبين الانصراف.

فقال الحسين للحرّ: ثكلتك أُمّك، ما تريد أن تصنع؟

فغضب الحرّ من ذكر أُمّه، ولكنَّه كظم غيظه وقال: «أما والله، لو غيرك من العرب يقولها لي، وهو على مثل الحال التي أنت عليها، ما تركت ذكر أُمّه بالثكل أن أقوله كائناً من كان، ولكن والله ما لي إلى ذكر أُمّك من سبيل إلَّا بأحسن ما يقدر عليه.

فقال الحسين: فما تريد؟

قال الحرّ: أريد والله أن أنطلق بك إلى عبيد الله بن زياد.

فقال الحسين: إذن والله لا أتّبعك.

فقال الحرّ: إذن والله لا أدعك.

وبقيا يُردِّدان مثل هذا الكلام ثلاث مرَّات، ثمَّ قال الحرّ: «يا أبا عبد الله؛ إنِّي لم أؤمر بقتالك، وإنَّما أُمرت أن لا أفارقك حتَّى أقدمك الكوفة، فإذا أبيت ذلك فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا تردّك إلى المدينة، تكون بيني وبينك نصفاً، حتَّى أكتب إلى عبيد الله بن زياد، فلعلَّ الله إلى ذلك الوقت أن يأتيني بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك».

ثمَّ أشار إلى طريق هناك، وقال: خذ هاهنا فتياسر عن طريق العذيب والقادسيَّة، وكان بينه وبين العذيب ثمانية وثلاثون ميلاً[1].

وأضاف: يا حسين؛ إنِّي أُذكِّرك الله في نفسك، فإنِّي أشهد لأن قاتلت لتُقتلن، ولئن قُوتلت لتهلكن فيما أرى.

فقال له الحسين: «أفبالموت تخوِّفني، وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟ ما أدري ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمّه حينما لقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ، فقال له: أين تذهب فإنَّك مقتول.

فقال:

سأمضي فما بالموت عار على الفتى
إذا ما نوى حقّاً وجاهدَ مسلما
وواسى الرجالَ الصالحينَ بنفسه
وفارقَ مذموماً وخالف مجرما
أقدّم نفسي لا أريد بقائها
لتلقى خميساً في النزال عرمرما
فإن عشتُ لم أندم، وإن مِتُّ لم أُلم
كفى بك ذلّاً أن تعيش وتُرغما[2]

وهكذا فقد أخذ الحسين يسير ليس باتجاه الكوفة ولا باتجاه المدينة، وكان الحرّ وأصحابه يراقبونه في الطريق[3].

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص403؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص140؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص74.
(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص233.
(3) أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص170.

ولمَّا أقبل اللَّيل التفت الحسين إلى أصحابه وقال: هل فيكم أحد يعرف الطريق على غير الجادَّة؟

فقال الطرمّاح بن عدي الطائي: يابن بنت رسول الله؛ أنا أعرف الطريق.

فقال له الحسين: إذن سِرْ بين أيدينا.

فتقدَّم الطرمّاح وجعل يحدو الإبل ويقول:

يا ناقتي لا تذعري من زجري　　وامضي بنا قبل طلوع الفجرِ
بخير فتيانٍ وخير سفر　　آل رسول اللَّه أهل الفخرِ
السادة البيض الوجوه الغرِّ　　الطاعنين بالرِّماح السُّمْرِ
الضاربين بالصفاح البترِ　　حتَّى تحلَّى بكريم نجر
الماجد الحرّ رحيب الصدرِ　　أتى به اللَّه لخير أمر
أمَّره اللَّه بقاء الدَّهرِ　　وزاده من طيِّبات الذِّكرِ
يامالك النفع معاً والضُّرِّ　　أيِّد حسيناً سيِّدي بالنصرِ
على الطغاة من بقايا الكفرِ　　على اللعينين سليلي صخر
يزيد، لا زال حليف الخمرِ　　والعود والصنج معاً والزمرِ
وابن زياد العهر وابن العهرِ(١)

❁

ونزل الحسين في منطقة البيضة، وأصحاب الحرّ يسايرونه، فقام خاطباً في أصحابه وأصحاب الحرّ، فقال لهم بدايةً ما ذكره في رسالته إلى أهل الكوفة بعد معرفته بمقتل مسلم بن عقيل، حيث حمد

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص141؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص233.

الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أيُّها الناس؛ إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من رأى سلطاناً جائراً مستحلّاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسُنَّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيِّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله**».

ثمَّ قال: «ألا وإنَّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرَّحمن، وأظهروا الفساد، وعطَّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرَّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيَّر».

«أيُّها الناس؛ قد أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم أنَّكم لا تسلِّموني ولا تخذلوني، فإن أتممتم عليَّ بيعتكم فقد أصبتم حظَّكم ورشدكم، فأنا الحسين بن عليّ ابن فاطمة بنت رسول الله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، وولدي مع أولادكم، فلكم فيَّ أسوة».

«وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمِّي مسلم، والمغرور من اغترَّ بكم، فحظَّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيَّعتم، ومن نكث فإنَّما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

كان عدد أصحاب الحسين حينئذٍ أقلّ من مائة، بينما كان يتجاوز أصحاب الحرّ الألف رجل، وكان عبيد الله بن زياد لا يفتأ يرسل جنوداً إضافيين، وكان الحسين كلَّما جاء منهم رجال جدد، يذكِّرهم بما آل إليه أمر الأُمَّة، ويتحدَّث معهم عن مسؤولياتهم،

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص403؛ والعبرات، للمحمودي، ج1، ص397.

ويُبيِّن لهم أيضاً تصميمه على المضي على الطريق. فكان يخطب فيهم بين الفينة والأُخرى، فيحمد الله ويثني عليه ويصلِّي على النبيّ، ويذكر فضل أهل البيت، وقرابتهم من رسول الله، ويُبيِّن مكانته من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال ذات مرَّة: «ألا وإنَّه قد نزل بنا ما ترون، ألا وإنَّ الدُّنيا قد تغيَّرت وتنكَّرت، وأدبر معروفها، واستمرت حذَّاء وولَّت، فلم يبق منها إلَّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟

«ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنِّي لا أرى الموت إلَّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلَّا برما»[1].

فقام زهير بن القين، الذي كان لتوِّه قد التحق بركب الحسين عليه السلام، فقال بعد أن أثنى على الله وحمده: «يا أبا عبد الله؛ قد سمعنا هداك الله مقالتك، والله لو كانت الدُّنيا باقية وكنَّا فيها مخلَّدين لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها»[2].

وقام هلال بن نافع البجلي فقال: «والله ما كرهنا لقاء ربّنا، وإنَّا على نيَّاتنا وبصائرنا، نوالي من والاك، ونعادي من عاداك».

وقام برير بن خضير، فقال: «والله يابن رسول الله، لقد منَّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك وتُقطَّع فيها أعضاؤنا، ثمَّ يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة».

---

(1) المعجم الكبير، للطبراني، ج3، ص122؛ وحلية الأولياء، لأبي نعيم، ج2، ص39.

(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص404؛ ووسيلة الدارين، للزنجاني، ص69.

وتكلَّم بقيَّة أصحاب الحسين بهذا ونحوه من الكلام، فجزَّاهم الحسين خيراً[1].

❋

ومضى الحسين حتَّى وصل إلى منطقة تُسمَّى عذيب الهجانات، فإذا هو بأربعة أشخاص مقبلين من الكوفة على رواحلهم، وهم: نافع بن هلال المرادي، وعمرو بن خالد الصيداوي، وسعد مولاه، ومجمع بن عبد الله العائذي، من قبيلة مذحج. فأراد الحرّ أن يمنعهم من الالتحاق بالحسين، فقال للإمام عليه السلام: إنَّ هؤلاء ليسوا ممَّن أقبل معك، فأنا حابسهم أو رادّهم إلى الكوفة.

فقال الحسين عليه السلام: إذن سأمنعهم ممَّا أمنع منه نفسي (أي أدافع عنهمُّ)، إنَّما هؤلاء أنصاري وأعواني، وقد أعطيتني أن لا تعرضني بشيء حتَّى يأتيك كتاب من ابن زياد.

فقال الحرّ: أجل؛ لكن هؤلاء لم يأتوا معك.

فقال الحسين: هم أصحابي، وهم بمنزلة من جاء معي، فإن أتممت ما كان بيني وبينك، وإلَّا ناجزتك.

فكفَّ عنهم الحرّ، فالتحقوا بالحسين، فسألهم عن خبر الناس من ورائهم، فقال له مجمع بن عبد الله العائذي، وهو أحد الأربعة:

«سيِّدي؛ أمَّا أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائزهم، واستميل ودّهم، واستخلصت نصيحتهم، فهم إلبٌ واحد

---

(1) اللهوف، لابن طاوس، ص80؛ والدَّمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص255.

عليك، وأمَّا سائر الناس فإنَّ أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك.

فقال لهم الحسين: أخبروني، فهل لكم خبر برسولي إليكم؟

قالوا: ومن هو؟

قال الحسين: قيس بن مسهَّر الصيداويّ.

فقالوا: نعم؛ لقد أخذه الحصين بن نمير، فبعث به إلى ابن زياد، فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك، فصعد المنبر وصلَّى عليك وعلى أبيك، ولعن ابن زياد وأباه، ودعى إلى نصرتك، وأخبرهم بقدومك، فأمر به ابن زياد، فألقي من طمار القصر، فقُتل.

فترقرقت عينا الحسين ولم يملك دمعه، ثمَّ قال: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾[1]. اللَّهمَّ اجعل لنا ولهم الجنَّة نزلاً، واجمع بيننا وبينهم في مستقرّ رحمتك، ورغائب مذخور ثوابك. أما والله إنِّي لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا، قُتلنا أم ظفرنا[2].

ثمَّ رفع يديه بالدُّعاء قائلاً: «اللَّهمَّ اجعل لنا ولشيعتنا عندك منزلاً كريماً، واجمع بيننا وبينهم في مستقرّ رحمتك، إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ»[3].

وهنا التفت الطرمّاح إلى الحسين وقال: والله إنِّي لأنظر، فما أرى معك كثيرَ أحد، ولو لم يقاتلك إلَّا هؤلاء الذين أراهم ملازمين

---

(1) سورة الأحزاب، آية 23.

(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص405؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج20، ص421.

(3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص236.

لك مع الحرّ لكان ذلك بلاءً، وقد رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم واحد ظهر الكوفة مملوءاً رجالاً، لم تر عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم، فقيل: اجتمعوا ليعرضوا، ثمَّ يسرّحوا إلى الحسين. فأنشدك الله إن قدرت على أن لا تقدم شبراً إلَّا فعلت.

وأضاف: «أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتَّى ترى من رأيك، ويستبين لك ما أنت صانع، فسِرْ حتى أُنزلك أجاء، وهو جبلنا الذي امتنعنا والله به من ملوك غسَّان وحمير، ومن النعمان بن المنذر، ومن الأسود والأحمر، واللَّهِ ما دخل علينا ذلّ قطّ، فأسير معك حتَّى أنزلك القرية، ثمَّ نبعث إلى الرجال ممَّن بأجى وسلمى من طي، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيَّام حتَّى تأتيك طيّ رجالاً وركباناً، ثمَّ أقم فينا ما بدا لك، فإن هاجك هيج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بأسيافهم، والله لا يوصل إليك شرٌّ أبداً، ومنهم عين تطرف».

فقال له الحسين: «جزاك الله وقومك خيراً، إنَّ بيننا وبين هؤلاء القوم قولاً لسنا نقدر معه على الانصراف، ولا ندري على ما تنصرف بنا وبهم الأُمور في عاقبة، فإن يدفع الله عنَّا فقديماً ما أنعم علينا وكفى، وإن يكن ما لابُدَّ منه ففوز وشهادة إن شاء الله»[1].

فتقدَّم الطرمّاح باقتراح آخر أصرَّ على الإمام بأن يقبله، حيث قال: أرى أن تركب معي جمَّازة ـ أي فرساً من أكرم خيول العرب ـ

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص406؛ ومثير الأحزان، لابن نما، ص20؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص219.

فإنِّي أبلغ بك الليلة قبل الصباح أحياء طيّ، وأسوِّي لك الأُمور، وأقيم بين يديك خمسة آلاف مقاتل، يقاتلون عنك.

فقال له الحسين: «أمن مروءة الإنسان أن ينجي نفسه، ويهلك أهله وإخوته وأصحابه؟

فقال بعض أصحابه: إنَّ هؤلاء القوم ـ يقصدون جيش بني أُميَّة ـ إذا لم يجدوك لم يفعلوا شيئاً.

لكن الحسين لم يلتفت إلى قولهم، وجزَّ الطرمّاح خيراً[1].

فقال الطرمّاح: إنِّي قد امترت لأهلي من الكوفة ميرة، ومعي نفقة لهم، فآتيهم فأضع ذلك فيهم، ثمَّ آتيك إن شاء الله، فإن ألحقك فوالله لأكوننَّ من أنصارك.

فقال له الحسين: فإن كنت فاعلاً فعجِّل رحمك الله، ثمَّ ودَّعه وذهب إلى أهله[2].

❃

ثمَّ إنَّ الحسين رحل عن عذيب الهجانات حتَّى نزل في الأوَّل من شهر محرَّم في قصر بني مقاتل، فإذا به يرى فسطاطاً مضروباً، فسأل عن صاحبه، فقيل له: إنَّه لعبيد الله بن الحرّ الجعفي.

فأرسل الإمام أحد أصحابه، وهو الحجَّاج بن مسروق إليه ليدعوه للقاء الحسين، فجاء ابن مسروق إلى عبيد الله بن الحرّ في فسطاطه، فسلَّم عليه، فردَّ عليه السَّلام، وقال له: ما ورائك؟

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص239.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص407.

فقال الحجَّاج: إنَّ الله قد أهدى إليك كرامة، إن قبلتها.

فقال: وما ذلك؟

قال الحجَّاج: «هذا الحسين بن عليّ يدعوك إلى نصرته، فإن قاتلت بين يديه أجرت، وإن متَّ فإنَّك استشهدت.

فقال له عبيد الله: «إنِّي والله ما خرجت من الكوفة إلَّا كراهة أن يدخلها الحسين وأكون أنا فيها، فإن قاتلته كان ذلك عند الله عظيماً، وإن وقفت معه كنت أوَّل قتيل في غير غناء عنه، ووالله لا أراه ولا يراني، فارجع إليه وخبِّره بذلك.

فأقبل الحجَّاج إلى الحسين وأخبره بما قاله عبيد الله الجعفي، فقام الحسين بنفسه، وجاء إليه في جماعة من إخوته، فلمَّا دخل عليه، حمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «يابن الحرّ؛ إنَّ أهل مصركم هذا كتبوا إليَّ، وخبَّروني أنَّهم مجتمعون على نصرتي، وسألوني القدوم إليهم فقدمت».

فقال له عبيد الله بكلِّ صراحة: «والله إنِّي ما خرجت من الكوفة إلَّا مخافة أن تدخلها أنت وأنا فيها فلا أنصرك، لأنَّه ليس لك في الكوفة أنصار».

فقال له الحسين: «يابن الحرّ؛ إعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ يؤاخذك بما كسبت وأسلفت من الذُّنوب في الأيَّام الخالية، وأنا أدعوك في وقتي هذا إلى توبة تغسل بها ما عليك من الذُّنوب، أدعوك إلى نصرتنا أهل البيت، فإن أعطيتنا حقّنا حمدنا الله على ذلك وقبلناه، وإن مُنعنا حقّنا كنتَ من أعواني على طلب الحقّ».

فقال عبيد الله بن الحرّ: «والله، يابن بنت رسول الله، لو كان

لك بالكوفة أعوان يقاتلون معك لكنت أنا من أشدّهم على عدوّك، ولكنِّي رأيت أنَّ شيعتك بالكوفة قد لزموا منازلهم خوفاً من بني أُميَّة ومن سيوفهم، فأنشدك بالله أن لا تطلب منِّي هذه المنزلة، وأنا أواسيك بكلّ ما أقدر عليه، فهذا فرسي ملجمة، والله ما طلبت عليها شيئاً إلَّا أذقته حياض الموت، وخذ هذا سيفي، فوالله ما ضربت به أحداً إلَّا قطعته».

فقال له الحسين: «يابن الحرّ؛ ما جئناك لفرسك وسيفك، إنَّما أتيناك لنسألك النصرة، فإن كنت قد بخلت علينا بنفسك، فلا حاجة لنا في شيء من مالك، ولم أكن بالذي يتخذ المضلِّين عضداً، وإذ قد امتنعت من نصرتي فلا تظاهر عليَّ، وإن استطعت أن لا تسمع واعيتنا فافعل، لأنِّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من سمع واعية أهل بيتي، ولم ينصرهم على حقّهم، أكبَّه الله على وجهه في النار»[1].

وكان في مجلس ابن الحرّ آنذاك رجل اسمه أنس بن الحارث الكاهلي، وكان قد ترك الكوفة بنفس السبب الذي تركها عبيد الله بن الحر. فلمَّا سمع مقالة الحسين تأثَّر بها، فخرج من خيمة عبيد الله، ولحق بالحسين، وقال له: «والله ما أخرجني من الكوفة إلَّا ما أخرج هذا، من كراهة قتالك أو القتال معك، ولكنَّ الله قد قذف في قلبي نصرتك، وشجَّعني على المسير معك».

فقال له الحسين: فاخرج معنا راشداً محفوظاً[2].

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص133؛ وجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص384.

(2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص384.

وكان هذا الرجل شيخاً صحابيّاً، ممَّن رأى النبيّ ﷺ وسمع حديثه، وكان ممَّا قاله لأصحاب الحسين حينما التحق بهم: لقد سمعت رسول الله يقول: والحسين في حجره: «**إنَّ ابني هذا يُقتل بأرض من العراق، ألا فمن شهده فلينصره**»[1].

❋

لمَّا سمع عبد الرحمن الصالح حوار الحسين مع عبيد الله بن الحرّ، التفت إلى صاحبه عبد الله بن مسلم وقال: ترى لماذا قال الحسين للرجل: «إنَّ الله يؤاخذك بما كسبت وأسلفت من الذُّنوب في الأيَّام الخالية»، صحيح أنَّ الناس ليسوا معصومين من الخطأ، ولكن لماذا التأكيد من الحسين لعبيد الله، دون غيره، بأنَّه قد كسب الذُّنوب، وأسلف المعاصي في الأيَّام الخالية، من دون أن يردَّ عليه عبيد الله، أو ينكر ذلك؟

فقال عبد الله: إنَّ عبيد الله بن الحرّ هذا، كان من قادة جيش عليّ أمير المؤمنين في صفِّين، ولكنَّه كان ضعيف الإيمان، فبعث إليه معاوية بمبالغ من المال ووعده بالمزيد، فترك الجند الذي كان تحته، وهرب إلى معاوية متخفّياً من دون أن يخبر أحداً، وبقي في الشام إلى أن ضاعت أخباره، وسرت شائعة تقول: إنَّ الرجل قد قُتل، فاتخذت زوجته العدَّة بالوفاة، وتزوَّجت بعد انتهائها، من رجلٍ اسمه عكرمة، ولمَّا وصل الخبر إليه ترك الشام وعاد إلى الكوفة، وذهب إلى دار عكرمة ليسترجع زوجته منه، فطرده الرجل شرّ طردة، فجاء مضطرّاً إلى الإمام عليّ عليه السلام في جامع الكوفة وكان الإمام يصلِّي،

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص411؛ وأسد الغابة، ج1، ص349.

فلمَّا أنهى صلاته جلس إليه، فعرفه الإمام فأخذ يعاتبه على ما فعل من الخيانة.

ولمَّا أكمل الإمام عتابه قال الرجل: أوَ يمنعني ذلك من عدلك يا أمير المؤمنين؟

فقال له الإمام: لا؛ فقصَّ عليه قصَّته، وكيف أنَّ زوجته أصبحت تحت عكرمة. فبعث الإمام من يستبرىء المرأة، فتبيَّن أنَّها حامل، فأودعها في بيت، ومنع الاقتراب إليها، سواء من قِبل زوجها الأوَّل أو الثاني، وأمر بأنَّها إذا وضعت مولودها، أن يلتحق الولد بعكرمة، وتعود زوجة عبيد الله بن الحرّ إليه. وما قاله الحسين من مؤاخذة الله له إشارة إلى خيانته هذه.

وعلى كلِّ حال فإنَّ التوفيق لم يحالف الرجل، ليغسل ذنوبه ويكفِّر عنها بنصرة الحسين، وهو الذي خان أباه من قبل.

❁

وفي قصر بني مقاتل هذا، دخل على الحسين عمرو بن قيس المشرقي، وابن عمّ له، فسلَّما عليه. وكان بينهما وبين الحسين معرفة سابقة، فقال عمرو: يا أبا عبد الله؛ هذا الذي أرى لون خضاب، أو لون شعرك؟

فقال الإمام: خضاب، والشيب يسرع إلينا بني هاشم.

ثمَّ التفت إليهما وقال: جئتما لنصرتي؟

فقال له عمرو بن قيس: أنا رجل كثير العيال وفي يدي بضائع للناس، ولا أدري ما يكون، وأكره أن تضيع أمانتي.

وقال ابن عمّه مثل قوله، فقال لهما الإمام: فانطلقا، فلا

تسمعا لي واعية، ولا تريا لي سواداً، فإنَّه من سمع واعيتنا، أو رأى سوادنا، فلم يجبنا ولم يُعنَّا كان حقّاً على الله عزَّ وجلَّ أن يكبَّه على منخريه في النَّار[1].

ويبدو أنَّ هذين الرجلين أيضاً لم يحالفهم التوفيق ليكونا في ركاب الحسين، مثلما لم يحالفه عبيد الله بن الحرّ الجعفي.

❁

ربَّما كان قصر بني مقاتل آخر منزل نزل فيه الحسين قبل وصوله إلى كربلاء، ولذلك فلمَّا كان في آخر اللَّيل أمر فتيانه بأن يكثروا من حمل الماء، فاستقوا ثمَّ أمر بالرحيل من هناك، وبعد ساعة من المسير خفق الحسين، وهو على ظهر فرسه، خفقة ثمَّ انتبه وهو يقول: إنَّا لله وإنَّه إليه راجعون، والحمد لله ربّ العالمين.

وكرَّر ذلك مرَّتين أو ثلاثاً، فأقبل ابنه عليّ بن الحسين الأكبر، فقال له: يا أبتاه؛ جعلت فداك، ممَّ حمدت الله، واسترجعت؟

فقال الحسين: «يا بُنيَّ؛ إنِّي خفقت خفقة، فظهر لي راكب على فرس وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم. فعلمت أنَّها أنفسنا نُعيت إلينا.

فقال له عليّ الأكبر: يا أبتاه؛ لا أراك الله سوءاً، أوَلسنا على الحقّ؟

قال الحسين: بلى؛ والذي إليه مرجع العباد.

---

(1) العبرات، للمحمودي، ج1، ص408؛ والرجال، للكشّي، ج1، ص331؛ والبحار، ج45، ص84.

فقال عليّ الأكبر: إذن لا نبالي أن نموت محقِّين.

فقال له الحسين: جزاك الله من ولدٍ خير ما جزى ولداً عن والده[1].

وكان الحسين، بعد لقائه بالحرّ بن يزيد الرياحي، مقيَّداً في مسيره بحركة الحرّ، حيث كان الرجل وجيشه يراقبونه، وكلَّما أراد أن يميل نحو البادية منعوه، بل حينما أراد الحسين أن يفرِّق أصحابه، كان الحرّ يردّهم عن ذلك. وأحياناً كان يحاول أن يدفع الحسين باتجاه الكوفة، لكن الحسين كان يمتنع عليه، فلم يزالوا يتسايرون في الطريق[2].

وفيما هم كذلك، وإذا براكب يأتي على نجيب له وعليه السلاح، وهو متنكِّر قوساً، وكان مقبلاً من الكوفة، فوقف الطرفان جميعاً ينتظرون، فلمَّا انتهى إليهم سلَّم على الحرّ وأصحابه، ولم يسلِّم على الحسين، ثمَّ دفع إلى الحرّ كتاباً من عبيد الله بن زياد، وكان فيه:

«أمَّا بعد، فاحبس الحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي، فلا تنزله إلَّا بالعراء، في غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرتُ رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتَّى يأتيني بإنفاذك أمري».

فلمَّا قرأ الحرّ رسالة عبيد الله، قال للحسين: «هذا كتاب الأمير عبيد الله بن زياد، يأمرني فيه أن أجعجع بكم في المكان الذي

(1) أعلام الورى، للطبرسي، ص233؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص74؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص408؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، ص84.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص408؛ وبغية الطلب، لابن العديم، ج6، ص2624.

يأتيني فيه كتابه، وهذا رسوله، وقد أمره أن لا يفارقني حتَّى أنفذ رأيه وأمره».

ثمَّ طالب الحسين وأصحابه بالنزول في ذلك المكان في غير ماءٍ ولا بيوت، فقال له الحسين وأصحابه: دعنا ننزل في هذه القرية، وأشاروا إلى نينوى، أو تلك، وأشاروا إلى الغاضريَّة، أو هذه الأُخرى، وأشاروا إلى شفيَّة.

فقال الحرّ: لا والله ما أستطيع ذلك.

ثمَّ أشار إلى الرجل الذي جاء بالكتاب وقال: إنَّ هذا رجل قد بعث إليَّ عيناً[1].

ومع وقوع تلك المشادة بين الحسين والحرّ، اقترح زهير بن القين مقاتلة القوم، وقال للحسين: «بأبي وأُمِّي يابن رسول الله؛ والله لو لم يأتنا غير هؤلاء لكان لنا فيهم كفاية، فكيف بمن سيأتينا من غيرهم؟ فهلمَّ بنا نناجز هؤلاء، فإنَّ قتالهم أيسر علينا من قتال من يأتينا غيرهم».

فقال له الحسين: إنِّي أكره أن أبدأهم بقتال حتَّى يبدأوا.

فقال زهير: فهاهنا قرية بالقرب منَّا على شطِّ الفرات، وهي في عاقول حصينة، (العاقول يعني النهر المعوج)، فإن منعونا قاتلناهم، فقتالهم أهون علينا من قتال من يجيء بعدهم.

فقال الحسين: ما اسم تلك القرية؟

قال زهير: العقر.

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص409؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج20، ص424.

فقال الحسين: اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من العقر[1]. ورفض الذهاب إليها..

لقد كان الوضع متوتّراً جدّاً بين الحسين وبين الحرّ، إلَّا أنَّ الحرّ لم يكن قد أُمر بالقتال، ولعلَّه لو كان قد أُمر لفعل، والحسين كان يرفض أن يبدأهم بقتال. فلم تقع بينهما المواجهة.

هنا التفت الحسين إلى الحرّ قائلاً: سِرْ بنا قليلاً ثمَّ ننزل.

فسار معه حتَّى أتوا في يوم الخميس الواقع في الثاني من شهر محرَّم، سنة إحدى وستّين للهجرة إلى أرض قريب من نهر صغير، فوقف الحرّ وأصحابه أمام الحسين ومنعوه من المسير، وقالوا: أنزل بهذا المكان، فالفرات منك قريب.

فقال الحسين: وما اسم هذا المكان؟

قالوا له: إنَّ هذه الأرض تُسمَّى الطَّفّ.

قال الحسين: فهل لها اسم غيره؟

قالوا: تعرف بكربلاء.

فدمعت عينا الحسين، وقال: اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من الكرب والبلاء[2].

ثمَّ قبض من ترابها قبضة فشمَّها[3]، ثمَّ استخرج طينة من جيبه

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص282؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج20، ص425.
(2) مقتل الحسين، للمقرّم، ص229.
(3) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص142.

وقال لهم: هذه طينة جاء بها جبرائيل من عند الله لجدِّي رسول الله وقال: هذا موضع تربة الحسين، ثمَّ قال: إنَّهما رائحة واحدة[1].

ثمَّ قال: صدق الله ورسوله، ذات كرب وبلاء، ولقد مرَّ أبي بهذا المكان عند مسيره إلى صفِّين وأنا معه، فوقف، فسأل عن اسمه، فقيل له: كربلاء.

فقال أبي: هاهنا محطِّ ركابهم، وهاهنا مهراق دمائهم، فسألوه عن ذلك، فقال أبي: ثقل لآل محمَّد ينزلون هاهنا.

ثمَّ التفت الحسين إلى أصحابه وقال: انزلوا، فهاهنا مناخ ركابنا، ومحطِّ رجالنا، ومسفك دمائنا.

فنزل القوم وحطّوا الأثقال ناحية من الفرات، وضُربت في خيم الحسين لأهله وبنيه وبناته في ناحية، وضُربت خيم أُخرى لإخوته وبني عمِّه حول خيمته، وخيم الأصحاب في جانب آخر، كما أنَّ الحرّ وأصحابه أيضاً نزلوا وخيَّموا في مواجهة مخيَّم الحسين[2].

وهكذا تعيَّنت أرض المعركة، وتبيَّن أنَّ قافلة الحسين لن ترحل من تلك الأرض.

❁

التفت عبد الرحمن الصالح إلى صاحبه عبد الله بن مسلم

---

(1) موسوعة الإمام الحسين، ج2، ص611.

(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص237؛ واللهوف، لابن طاوس، ص81؛ وذخائر العقبى، للطبري، ص149.

وقال: إنَّ الحسين قال صدق الله ورسوله، تُرى إلى مَ أشار بكلامه هذا؟

قال عبد الله: أظنّ أنَّه أشار إلى الحديث الذي ذكرته لك عن أُمّ سلمة التي قالت: كان رسول الله جالساً ذات يوم في بيتي، فقال: لا يدخلن عليَّ أحد، فانتظرت، فدخل الحسين، فسمعت نشيج رسول الله يبكي، فاطَّلعت، فإذا الحسين في حجره، والنبيّ يمسح رأسه وهو يبكي، فقلت: والله ما علمت أنَّه دخل.

فقال رسول الله: «**إنَّ جبرائيل كان في البيت، فقال لي والحسين في حجري: أتحبّه؟**

قلت: أمَّا في الدُّنيا فنعم.

فقال جبرائيل: إنَّ أُمَّتك ستقتل هذا بأرض يُقال لها كربلاء.. وناولني جبرائيل من تربتها»[1].

ويبدو أنَّ الحسين يعرف هذا الحديث، ولذلك قال: صدق الله ورسوله.

❁

لقد استغرقت رحلة قافلة الحسين من مكَّة المكرَّمة إلى كربلاء أربعة وعشرين يوماً، قطع بها ستّة عشر منزلاً، وأقام في بعضها يوماً أو يومين أو ثلاثة أيَّام.

❁

(1) المعجم الكبير، للطبراني، ج23، ص289، رقم 637؛ والصواعق المحرقة، لابن حجر الهيثمي، ص117.

قال عبد الرحمن لصاحبه: ترى لماذا تُسمَّى كربلاء، هل هي من الكرب والبلاء؟

قال عبد الله: إنَّ الكلمة قد تعني ذلك، ولكنَّها من كلمتين: الكرب بمعنى حرم، وأبلى بمعنى إله، أي حرم الإله في لغة الكلدانيين في عهد البابليين[1].

❁

كان عدد أصحاب الحسين حين نزل كربلاء خمسة وأربعين فارساً، منهم تسعة عشر من أهل بيته ومائة راجل[2].

ومنذ نزوله هناك كان الحسين يتصرَّف وكأنَّه شهيد، بالرغم من أنَّه كان مصمَّماً عل أن لا يتنازل للعدوّ عن شيء، فهو صاحب حقّ وصاحب رسالة، والأعداء هم المعتدون عليه، فهم الذين يمنعونه من الدخول إلى الكوفة أو العودة إلى المدينة. وممَّا فعله أنَّه سأل عن الأعراب الموجودين هناك، فدلّوه على بعضهم، فطلب منهم شراء تلك الأراضي من أصحابها، فقبلوا ذلك، فاشتراها بستّين ألف درهم وتصدَّق بها عليهم.

لكنَّه اشترط عليهم أن يرشدوا المارَّة إلى قبره بعد مقتله، ويقوموا بضيافة زوّاره ثلاثة أيَّام، وكان المقدار الذي اشتراه أربعة أميال في أربعة أميال[3].

❁

(1) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص199 و207.

(2) البداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص197؛ وتهذيب التهذيب، لابن حجر، ج2، ص352.

(3) مقتل الحسين، للمقرّم، ص235.

حطَّ أهل البيت رحالهم في تلك الأرض الجرداء، وكانت أرضاً مسطَّحة، لا تلال فيها ولا بيوت، بحيث كانوا مكشوفين أمام أعدائهم.

وفي صباح اليوم التالي أخذ الحسين قرطاساً وقلماً وكتب الرسالة التالية إلى أخيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ إلى أخيه محمَّد ابن الحنفيَّة بن عليّ بن أبي طالب، ومن قبله من بني هاشم، أمَّا بعد، فكأنَّ الدُّنيا لم تكن، وكأنَّ الآخرة لم تزل، والسَّلام[1].

ثمَّ دعا أحد أصحابه وأعطاه الرِّسالة، وبعثه إلى أخيه في المدينة المنوَّرة.

أمَّا الحرّ بن يزيد الرّياحي فقد أرسل رسالة إلى ابن زياد يخبره بنزول الحسين بأرض كربلاء، ويطلب منه تعليماته بما عليه أن يفعل[2].

ولمَّا وصلت رسالة الحرّ إلى ابن زياد كتب رسالة تهديد واضحة إلى الحسين، جاء فيها: «أمَّا بعد يا حسين، فقد بلغني نزولك بكربلاء، وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يزيد بن معاوية أن لا أتوسَّد الوثير، ولا أشبع من الخمير، حتَّى ألحقك باللطيف الخبير، أو ترجع إلى حكمي وحكم يزيد»[3].

---

(1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص87؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص235.

(2) الفصول المهمَّة، لابن الصبَّاغ، ص190؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص239.

(3) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص11؛ ومطالب السؤول، لابن طلحة، ص75؛ والمناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص98.

فلمَّا ورد هذا الكتاب إليه وقرأه الحسين رمى به على الأرض وقال: لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق.

فقال له الذي جاء بالرِّسالة: يا أبا عبد الله، ما هو جواب كتاب الأمير؟

فقال له الحسين: لا جواب له عندي، لأنَّه قد حقَّت عليه كلمة العذاب.

فرجع الرَّسول إلى ابن زياد وأخبره بذلك، فغضب أشدَّ الغضب[1].

❁

كان عبيد الله بن زياد يرسل الألوف المؤلَّفة من الجيوش تباعاً إلى كربلاء، وفي بحثه عن قائد عام لهم وقع اختياره على عمر بن سعد بن أبي وقَّاص، الذي كان قد ابتعثه على أربعة آلاف من أهل الكوفة ليسير بهم إلى دستبي، وكانت الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، وكان عبيد الله قد كتب عهداً بولاية الرَّي له إن استطاع أن يخمد تمرُّد الديلم، وذلك قبل أن تصله رسالة الحرّ بإجبار الحسين على النزول في أرض كربلاء.

كان عمر بن سعد في ذلك الوقت قد جمع رجاله في منطقة حمام أعين، استعداداً للرحيل إلى دستبي، إلَّا أنَّ عبيد الله بن زياد استدعاه، فلمَّا جاءه، قال له: سِرْ إلى الحسين أوَّلاً، فإذا فرغنا ممَّا بيننا وبينه، سرت إلى عملك.

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص239؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج44، ص383.

فقال له عمر بن سعد: إنْ رأيت أن تعفيني، فافعل.

فقال له عبيد الله: نعم؛ على أن تردّ لنا عهدنا بالرّي.

فقال عمر بن سعد: إذن أمهلني اليوم حتَّى أنظر في أمري.

فأمهله، فانصرف يستشير نصحائه، فلم يكن يستشير أحداً إلَّا نهاه عن قتال الحسين، حتَّى أنَّ حمزة بن المغيرة بن شعبة، وهو ابن أخته، قال له: أنشدك الله يا خال أن لا تسير إلى الحسين فتأثم بربِّك وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دُنياك ومالك وسلطان الأرض كُلّها، خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين.

فقال له عمر بن سعد: إنِّي أفعل إن شاء الله.

وفي اليوم التالي أقبل إلى ابن زياد وقال: «أصلحك الله؛ إنَّك ولَّيتني هذا العمل - أي الذهاب إلى دستبي - وكتبت لي العهد بالرّي، وسمع به الناس، فإن رأيت أن تنفذ لي ذلك فافعل، وابعث إلى الحسين في هذا الجيش من أشراف الكوفة من لستُ بأغنى، ولا أجزأ عنك في الحرب منه».

ثمَّ بدأ يُسمِّي لابن زياد أسماء بعض الرجال لقيادة الجند إلى حرب الحسين عليه السلام، فقال له ابن زياد: «لا تعلِّمني بأشراف أهل الكوفة، ولست أستأمرك (أستشيرك) فيمن أريد أن أبعث، فإن سرت بجندنا، وإلَّا فابعث إلينا بعهدنا».

فلمَّا رأى ابن سعد أنَّ ابن زياد مصرّ على أمره، خضع له وقال: إنِّي سائر إلى الحسين[1].

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص410؛ ومختصر ابن منظور، ج19، ص64.

وبات ليلته قلقاً ممَّا هو مقدم عليه، وكان يتململ بين نداء ضميره، وبين رغبته في أُمور دُنياه، وفي ذلك أنشد يقول:

دعاني عبيد اللَّهِ من دونِ قومِهِ ... إلى خطَّةٍ فيها خرجتُ لحيني
فواللَّهِ ما أدري وإنِّي لحائرٌ ... أُفكِّر في أمري على خطرينِ
أأتركُ ملكَ الرّي، والرّيُّ مُنيتي ... أم أرجعُ مأثوماً بقتل حسينِ
حسينُ ابنُ عمِّي والحوادثُ جمَّةٌ ... ولكنَّ لي في الرَّي قرَّةُ عينِ
يقولونَ: إنَّ الله خالقُ جنَّةٍ ... ونارٍ وتعذيبٍ وغلِّ يدينِ
فإن صَدَقوا فيما يقولون ... إنَّني أتوبُ إلى الرَّحمن من سنتينِ
وإنَّ إله العرشِ يَغفرُ زلَّتي ... وإن كنتُ فيها أعظمَ الثقلينِ
وإن كَذَبوا فزنا بدنيا عظيمةٍ ... وملكٍ عظيمٍ دائمِ الحجلينِ
ألا إنَّما الدُّنيا لخيرٌ معجِّلٌ ... وما عاقلٌ باعَ الوجودَ بدينِ[1]

وهكذا حسم عمر بن سعد أمره، وبدل أن يذهب إلى الديلم، تحرَّك مع أربعة آلاف فارس باتجاه كربلاء، وكان قد جعل خالد بن عرفطة على مقدِّمة جيشه، كما أعطى رايته لحبيب بن جمَّاز، ونزل كربلاء في اليوم الثالث من شهر محرَّم الحرام، سنة واحد وستّين للهجرة؛ أي بعد يوم واحد من نزول الحسين بتلك الأرض.

ولمَّا رأى أصحاب الحسين جيش عمر بن سعد يتقدَّمهم خالد بن عرفطة، ويحمل الراية حبيب بن جمَّاز، قال عبد الله بن مسلم لصاحبه: سبحان الله؛ لقد سمعت من سويدة بن غفلة أنَّه قال:

(1) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص221؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص283.

«كنت أنا عند أمير المؤمنين عليّ، إذ أتاه رجل وقال: يا أمير المؤمنين، جئتك من واد القرى، وقد مات خالد بن عرفطة.

فقال عليّ: إنَّه لم يمت.

فأكَّد الرَّجل موت خالد بن عرفطة.

فقال عليّ: إنَّه لم يمت، ثمَّ أعرض عنه بوجهه، فأعاد الرجل عليه الثالثة، وقال: سبحان الله؛ أخبرك أنَّه قد مات، فتقول إنَّه لم يمت؟

فقال علي: «والذي نفسي بيده، لا يموت خالد بن عرفطة حتَّى يقود جيش ضلال، يحمل رايته حبيب بن جمَّاز.

ولمَّا انتشر ذلك الخبر وسمع حبيب بن جمَّاز ذلك جاء إلى أمير المؤمنين وقال له: أنشدك الله فيَّ، فإنِّي لك شيعة، وقد ذكرتني بأمر، لا والله لا أعرفه من نفسي.

فقال له عليّ: ومن أنت؟

قال: أنا حبيب بن جمَّاز.

فقال له عليّ: «إن كنتَ حبيب بن جمَّاز، فلا يحملها غيرك.

فولَّى عنه حبيب، وأقبل أمير المؤمنين يقول: إن كنت حبيب لتحملنَّها[1] وقد حملها بالفعل في جيش الضلال في كربلاء.

❁

ولمَّا استقرَّ بعمر بن سعد المكان، دعا عروة بن قيس

---

(1) الاختصاص، للمفيد، ص280؛ وأعلام الورى، للطبرسي، ص175.

الأحمسي وقال له: اذهب إلى الحسين، واسأله ماذا يريد أن يصنع؟ وماذا أخرجه عن مكَّة وقد كان مستوطناً بها؟

فاعتذر عروة بن قيس وقال: أيُّها الأمير؛ إنِّي كنت ممَّن قد كاتب الحسين، وأنا أستحي أن أسير إليه، فإن رأيت أن تبعث غيري فافعل.

فنادى عمر بن سعد رجلاً من أصحابه اسمه كثير بن عبد الله الشعبي، وكان رجلاً فاتكاً فاسقاً، وقال له: إمضي إلى الحسين، وسله ما الذي أخرجه عن مكَّة، وماذا يريد؟

فقال له الرجل: أذهبُ إليه، ووالله لأن شئت لأفتكنَّ به.

فقال له عمر: ما أريد أن تفتك به، ولكن اذهب إليه، واسأله ما الذي جاء به؟

فأقبل هذا الرجل نحو مخيَّم الحسين، فلمَّا رأه أبو ثمامة الصائدي، قال للحسين: أصلحك الله يا أبا عبد الله، قد جاءك شرّ أهل الأرض، وأفتكهم، وأجرأهم على دم.

فقام إليه أبو ثمامة وقال له: ضع سيفك.

قال الرجل: لا والله، لا أضع سيفي ولا كرامة، إنَّما أنا رسول عمر بن سعد، فإن سمعتم منِّي بلَّغتكم ما أرسلت به إليكم، وإن أبيتم انصرفت عنكم.

فقال له أبو ثمامة: فإنِّي آخذ بقائم سيفك ثمَّ تكلَّم بحاجتك.

فقال الرجل: لا والله، لا يمسّ سيفي أحد.

فقال أبو ثمامة: فتكلَّم بما تريد ولا تدنو من الحسين، فإنَّك رجل فاسق.

فغضب الرجل ورجع إلى عمر بن سعد وقال له: إنَّهم لم يتركوني أصل إلى الحسين فأبلِّغه الرِّسالة.

فانتدب عمر بن سعد رجلاً آخر من أصحابه اسمه قرَّة بن قيس الحنظلي، وسأله أن يأتي إلى الحسين ويسأله عن سبب قدومه، وما الذي يريد أن يصنع؟

ولمَّا قرب الرجل ورآه الحسين، قال لأصحابه: هل تعرفون هذا؟

فقال حبيب بن مظاهر: نعم؛ هذا من بني تميم، وقد كنت أعرفه بحسن الرأي، وما ظننت أنَّه يشهد هذا المشهد.

وحينما وقف الرجل بين يدي الحسين، سلَّم عليه، وأبلغه رسالة عمر بن سعد.

فقال الحسين: يا هذا، أعلم صاحبك عنِّي أنِّي لم أرد إلى هاهنا حتَّى كتب إليَّ أهل مصركم أن أقدم، فإن كرهوني أنصرف عنهم من حيث جئت.

فسمع الرجل ذلك، ولمَّا همَّ بالانصراف التفت إليه حبيب بن مظاهر الأسديّ وقال: ويحك يا قرَّة، عهدي بك أنَّك حسن الرأي في أهل البيت، فما الذي غيَّرك حتَّى أتيتنا في هذه الرِّسالة، فأقم عندنا وانصر هذا الرجل ـ وأشار إلى الحسين ـ.

فقال الحنظلي: لقد قلتَ الحقّ، ولكنِّي أرجع إلى صاحبي بجواب رسالته، ثمَّ أنظر في ذلك وأرى رأيي[1].

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص156؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، ص87؛ ونفس المهموم، للقمِّي، ص212.

وحينما أخبر الحنظلي عمر بن سعد بما قاله الحسين، قال عمر بن سعد: أرجو أن يعافيني الله من حربه وقتاله[1].

ثمَّ كتب رسالة إلى ابن زياد يقول له فيها: «أمَّا بعد، فإنِّي حيث نزلت بالحسين، بعثت إليه رسولي، فسألته عمَّا أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إليَّ أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم، ففعلت، فأمَّا إذ كرهوني، وبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم، فأنا منصرف عنهم».

فلمَّا قرأ ابن زياد رسالة عمر بن سعد استشهد بقول الشاعر:

الآن إذا علقتْ مخالبُنا به يرجو النجاةَ، ولاتَ حينَ مناصِ

ثمَّ كتب رسالة إلى عمر بن سعد يقول له فيه: «أمَّا بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فأعرض على الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا»[2].

ولمَّا وصلت الرِّسالة إلى عمر بن سعد، قال: «ما أحسب أنَّ ابن زياد يريد العافية».

ثمَّ أرسل الرِّسالة بنصِّها إلى الحسين.

فقال الحسين للرَّسول: «لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبداً، فهل هو إلَّا الموت، فمرحباً به»[3].

---

(1) الإرشاد، للمفيد، ص687.

(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص412.

(3) الأخبار الطوال، للدينوري، ص252؛ وبغية الطلب، لابن العديم، ج6، ص2626.

ولمَّا عرف ابن زياد بجواب الحسين غضب، وخرج بجميع أصحابه إلى منطقة النخيلة، وأعلن التعبئة العامَّة في الكوفة[1].

ثمَّ كتب رسالة إلى عمر بن سعد يقول له فيها: «أمَّا بعد، فحُلْ بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا تدعهم يذوقوا منه قطرة، كما صُنع بالتقي المظلوم عثمان بن عفَّان».

فقام عمر بن سعد بما أمره ابن زياد، فبعث عمرو بن الحجَّاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ومنعوهم من أن يسقوا منه، وكان ذلك في اليوم السابع من محرَّم الحرام سنة واحد وستّين للهجرة[2].

ولمَّا جاء أصحاب الحسين ليستقوا من الماء صرخ عبد الله بن حصين: يا حسين؛ ألا تنظر إلى الماء كأنَّه كبد السَّماء، والله لا تذوق منه قطرة حتَّى تموت عطشاً.

وسمع الحسين مقالته، فقال: اللَّهمَّ أُقتله عطشاً، ولا تغفر له أبداً[3].

ونادى عمرو بن الحجَّاج: يا حسين؛ هذا الماء تلغ فيه الكلاب، وتشرب منه خنازير أهل السواد والحمر والذئاب، ولن تذوق منه والله قطرة حتَّى تذوق الحميم في نار جهنَّم.

وكان سماع هذا الكلام على الحسين أشدّ من منعهم إيَّاه الماء[4].

---

(1) العبرات، للمحمودي، ج1، ص424؛ وأعلام الورى، للطبرسي، ص235.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص412.
(3) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص390.
(4) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص141.

ولمَّا رأى عبد الله بن مسلم ما فعلوا بالحسين من منع الماء، التفت إلى صاحبه عبد الرحمن الصالح وقال له: سبحان الله؛ إنَّ الحسين هو الذي حمل الماء إلى عثمان بن عفَّان حينما حاصروه، وكان هو وأخوه الحسن يوصلان الماء إلى أهله. ثمَّ لو كان عثمان مات وهو عطشان، فما ذنب صبية الحسين الصغار والنساء، وهنَّ حرائر رسول الله؟

قال عبد الرحمن الصالح: يبدو أنَّنا أمام جرائم لم يسبق لها مثيل حتى في الجاهليَّة.

❁

أمَّا في الكوفة فبعد إعلان التعبئة العامَّة، جمع ابن زياد الناس وخطب فيهم قائلاً: «أيُّها الناس، إنَّكم بلوتم آل بي سفيان، فوجدتموهم كما تحبّون، وهذا أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد عرفتموه حسن السيرة، محمود الطريقة، محسناً إلى الرعيَّة، يعطي من العطاء في حقِّه، قد أُمّنت السبل على عهده، وكذلك كان أبوه معاوية في عصره، وهذا ابنه يزيد من بعده، يكرم العبا،. ويغنيهم بالأموال ويكرمهم، وقد زادكم في أرزاقكم مائة مائة، وأمرني أن أوفِّرها عليكم، وأخرجكم على حرب عدوِّه الحسين، فاسمعوا له وأطيعوا»(1).

وبهذا أعلن بأنَّ الحرب على الحسين أمر مباشر من يزيد، ثمَّ

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص242؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص236.

عيَّن على الكوفة عمرو بن الحريث، وأمر بأخذ الناس جميعاً بالخروج إلى النخيلة وضبط الجسر، من دون أن يترك أحداً يجوزه[1].

وبعد ذلك دعا شهاب الحارثي، ومحمَّد بن الأشعث بن قيس، والقعقاع بن سويد، وأسماء بن خارجة، وقال لهم: طوفوا في الناس، وأمروهم بالطاعة والاستقامة، وخوِّفوهم عواقب الأُمور والفتنة، وحثّوهم على العسكرة.

فخرجوا، فعزَّروا وداروا بالكوفة، ثمَّ ألحق بهم كثير بن شهاب، الذي كان مبالغاً يدور بالكوفة ويأمر الناس بالجماعة ويحذِّرهم من الفرقة، ويخذِّلهم عن الحسين.

ثمَّ جعل ابن زياد يرسل من النخيلة لمقاتلة الحسين من الجنود العشرين، والثلاثين، والخمسين، والمائة، غدوة، وضحوة، ونصف النهار، وعشيَّة يمدُّ بهم عسكر عمر بن سعد، كما وضع المناظر على الكوفة لئلَّا يهرب أحد من الناس، مخافة أن يلحق بالحسين مغيثاً له، ورتَّب المسالح حولها، وجعل على حرس الكوفة والعسكر زحر بن قيس الجعفي. ورتَّب بينه وبين عسكر عمر بن سعد خيلاً مضمرة مقدَّحة، فكان يأتيه الخبر في كلّ وقت[2].

وكان من يستطيع الإفلات من عبيد الله بن زياد يهرب منه، لأنَّهم كانوا يكرهون قتال الحسين، ويحاولون أن يتخلَّفوا عن مقاتلة الحسين.

---

(1) طبقات ابن سعد، موضوعة الحسين، ص70.

(2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص388.

فبعث ابن زياد سويد بن عبد الرحمن المنقري في خيل إلى الكوفة، وأمره أن يطوف بها، فمن وجده قد تخلَّف أتاه به[1].

أمَّا من بعثهم من المجاميع الكبيرة إلى كربلاء، فكان كثيراً، وكان من أوائل هؤلاء: يزيد بن ركاب الكلبي في ألفين، والحصين بن نمير السكوني في أربعة آلاف، وعروة بن قيس في أربعة آلاف، وسنان بن أنس في أربعة آلاف[2].

ولمَّا تخلَّف عن ابن زياد شبث بن ربعي الرِّياحي، وهو مَّن كاتب الحسين وقال له: أقدم إلينا فإنَّه ليس لنا إمام، وكان يعتبر فقيه أهل الكوفة، أرسل إليه عبيد الله يطلب منه اللحاق به في النخيلة، لكن الرجل تظاهر بالمرض، فأرسل إليه من يقول له: أتتمارض؟ إن كنت في طاعتنا فاخرج إلى قتال عدوّنا.

فخرج إليه، فعقد له ابن زياد راية في ألف فارس، بعد أن زاد في عطائه وحباه[3].

وهكذا جاءت الخيل والرجال إلى كربلاء حتَّى تكامل عند عمر بن سعد ثلاثون ألفاً، بين فارس وراجل[4].

وكانت أوامر ابن زياد مشدَّدة في وجوب أن يلتحق كلّ من يستطيع حمل السيف أو الرمح أو حتَّى العصي والحجارة بالجيوش

---

(1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص252.

(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص242؛ ومقتل أبي مخنف، ص52.

(3) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص159.

(4) بحار الأنوار، للمجلسي، ج44، ص386؛ والإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص229.

المتجهة إلى كربلاء لمقاتلة الحسين، حتَّى لا يبقى أحد إلَّا وتورَّط في مقتل سيِّد شباب أهل الجنَّة.

حتَّى أنَّ القعقاع بن سويد وجد رجلاً غريباً من أهل الشام، قد جاء إلى الكوفة يطلب ميراثاً له في تلك المدينة، فأتى به إلى ابن زياد، فسأله عبيد الله: لماذا لم تخرج لقتال الحسين؟

فقال الرجل: إنِّي رجل غريب من أهل الشام، جئت لدَين لي في ذمَّة رجل من أهل العراق.

فقال ابن زياد: أقتلوه، ففي قتله تأديب لمن لم يخرج إلى حرب الحسين. فلمَّا رأى الناس ذلك خرجوا بأجمعهم، إلَّا من استطاع الهروب أو كان في السجن[1].

❁

وفي كربلاء وفيما كان الحسين عليه السلام جالساً مع أصحابه، في الخيمة، إذ دخل عليهم رجل اسمه هرثمة بن سليم، فسلَّم على الحسين وقال له: «يا أبا عبد الله؛ غزونا مع أبيك عليّ بن أبي طالب غزوة صفِّين، فلمَّا نزلنا بكربلاء صلَّى بنا الصلاة في طريقه، فلمَّا سلَّم رفع إليه من تربتها فشمَّها، ثمَّ قال: وآهٍ لكِ أيّتها التربة، ليقتلنَّ فيكِ قوم يدخلون الجنَّة بغير حساب».

«فلمَّا رجعت من الغزوة إلى امرأتي، وهي جرداء بنت سمير، وكانت شيعة لعليّ، قلت لها: ألا أعجبكِ من صديقكِ أبي الحسن؟ لمَّا نزلنا كربلاء رفع إليه من تربتها فشمَّها وقال: «وآهٍ لكِ أيّتها

---

(1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص252؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص241؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص313.

التربة، ليقتلنَّ فيك قوم يدخلون الجنَّة بغير حساب، وما علمه بالغيب»؟

«فقالت زوجتي: دعنا منك أيُّها الرجل، فإنَّ أمير المؤمنين لا يقول إلَّا حقّاً».

«ثمَّ إنَّ أباك عليّ عليه السلام قد قُتل ونسيتُ الحديث، فلمَّا جئتَ أنتَ إلى هنا بعثني عبيد الله بن زياد لمقاتلتك، لكنَّني عرفت المنزل الذي نزل بنا عليّ عليه السلام فيه، والبقعة التي رفع إليه من ترابها، والقول الذي قاله، فكرهت مسيري، فأقبلت إليك لأخبرك بما سمعته من أبيك».

وأضاف الرجل: «وإنَّك يا أبا عبد الله لمقتول السَّاعة.

فقال له الحسين: أنت معنا، أم علينا؟

قال هرثمة: يابن رسول الله، لا معك ولا عليك، تركتُ أهلي ووُلدي، وأخاف عليهم من ابن زياد.

فقال له الحسين: «فولِّ هرباً، حتَّى لا ترى لنا مقتلاً، فوالذي نفسي بيده لا يرى مقتلنا اليوم رجل ولا يغيثنا، إلَّا أدخله الله النار».

فولَّى الرجل هارباً، حتَّى لا يسمع صوتاً، ولا يشهد مقتلاً[1].

❋

ثمَّ إنَّه بالرغم من أنَّ السواد الأعظم من الناس تعبَّئوا للحرب

---

(1) المناقب، لمحمَّد بن سليمان، ج2، ص201؛ ووقعة الصفِّين، لنصر بن مزاحم، ص141؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج3، ص169.

ضدَّ الحسين، فإنَّ بعض المؤمنين هنا وهناك كانوا يتسلَّلون إليه ليدافعوا عنه.

فقد التحق بالحسين رجل يدعى عبد الله بن عمير، من قبيلة بني عليم، كان قد نزل الكوفة، واتخذ عند بئر الجعد من همدان داراً، وكانت معه امرأة له من النمر بن قاسط، فرأى القوم بالنخيلة يهيئون ليسرّحوا إلى الحسين، فقال: «والله لقد كنت على جهاد أهل الشِّرك حريصاً، وإنِّي لأرجو أن لا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيّهم أكثر ثواباً عند الله من ثوابه إيَّاي في جهاد المشركين.

فدخل إلى زوجته، فأخبرها بما يريد أن يفعل.

فقالت له: «أصبت، أصاب الله بك أرشد أُمورك، إفعل وأخرجني معك».

فخرج ليلاً حتَّى أتى الحسين وأقام معه.

كما أنَّ رجلاً آخر اسمه عمرو بن أبي سلامة الدالَّاتي خرج متسلِّلاً ليلتحق بالحسين، ووقعت بينه وبين زجر بن قيس الجعفي، الذي عيَّنه عبيد الله بن زياد على رأس خمسمائة فارس، ليمنع من يخرج من أهل الكوفة إلى الحسين، وقعت بينهما مواجهة، واستطاع أن ينفلت من قبضة ابن قيس، ويلتحق بالحسين في كربلاء.

ومن الذين استطاعوا الانفلات من عسكر ابن سعد والالتحاق بالحسين في كربلاء حبيب بن مظاهر الأسدي، الذي فرح أهل البيت بالتحاقه إليهم، وكان شيخاً صحابيّاً، شجاعاً، يهابه الأعداء.

وكان له دور كبير في نصرة الحسين، ومن ذلك أنَّه لما رأى كثرة من جاؤوا لقتال أهل البيت التفت إلى الحسين وقال: «يابن

رسول الله، إنَّ هاهنا حيّاً من بني أسد قريباً منَّا، أفتأذن لي بالمسير إليهم في اللَّيل لأدعوهم إلى نصرتك، فعسى الله أن يدفع بهم عنك ما تكره؟

فأذن له الحسين بذلك، فخرج في جوف اللَّيل متنكِّراً حتَّى صار إلى حيّ أولئك، وعرَّف نفسه فعرفوه، فقالوا له: ما حاجتك يابن عمّ؟

قال: «حاجتي إليكم إنِّي قد أتيتكم بخير ما أتى به وافدٌ إلى قومه قطّ، أتيتكم أدعوكم إلى نصرة ابن بنت نبيّكم، فإنَّه في عصابة من المؤمنين، الرجل منهم خير من ألف رجل، لن يخذلوه ولن يسلِّموه ما دامت فيهم عين تطرف، وهذا عمر بن سعد قد أحاط به في أكثر من إثنين وعشرين ألفاً وأنتم قومي وعشيرتي، وقد أتيتكم بهذه النصيحة، فأطيعوني اليوم تنالوا شرف الدُّنيا وحسن ثواب الآخرة، فإنِّي أقسم بالله لا يُقتل منكم رجل مع ابن بنت رسول الله صابراً محتسباً، إلَّا كان رفيق محمَّد صلَّى الله عليه وآله في أعلى علِّيين».

فقام رجل من بني أسد يُقال له عبد الله بن بشر وقال: أنا أوَّل من يجيب إلى هذه الدعوة، ثمَّ أنشد يقول:

قد علم القومُ إذا تناكلوا وأحجم الفرسانُ إذ تناضلوا
أنِّي الشجاعُ البطل المقاتلُ كأنَّني ليثُ عرينٍ باسلُ

ثمَّ بادر رجال الحيّ إلى حبيب وأجابوه، فالتأم منهم تسعون رجلاً، وجاؤوا معه يريدون الحسين، إلَّا أنَّ أحدهم، وكان ضعيفاً في إيمانه، يُقال له «جبلة بن عمر» أسرع إلى عمر بن سعد في جوف

اللَّيل وأخبره بقدوم قومه لنصرة الحسين، فدعا ابن سعد برجل من أصحابه يُقال له الأزرق بن الحارث الصيداوي، فضمَّ إليه أربعمائة فارس ووجَّه به إلى حيّ بني أسد، يرافقهم الذي جاء إليه بالخبر.

فبينما كان أولئك القوم يقبلون مع حبيب يريدون عسكر الحسين، إذ استقبلتهم خيل ابن سعد على شاطئ الفرات، ولم يكن بينهم وبين معسكر الحسين إلَّا اليسير من الطريق، ووقع بينهما التناوش واقتتلوا، فصاح حبيب بالأزرق بن الحارث: ما لك ولنا، انصرف عنَّا، ودعنا يشقى بنا غيرك، فأبى الأزرق وخاف بنو أسد، حيث قال منهم قائلاً: انصرفوا، لا طاقة لنا بخيل ابن سعد، فانهزموا راجعين إلى حيِّهم، ورجع حبيب إلى الحسين وأخبره بما جرى، فقال الحسين: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليّ العظيم.

ولمَّا كملت الأعداد الغفيرة في كربلاء، وامتلأت الصحراء بالرجال والجنود الرجَّالة، كتب عبيد الله بن زياد رسالة إلى عمر بن سعد يقول له فيها: «إنِّي لم أجعل لك عذراً في قتال الحسين من كثرة الخيل والرجال، فانظر أن لا تبدأ أمراً حتَّى تشاورني غدواً وعشياً مع كلّ غاد ورائح» وكان ابن سعد يمتثل لأوامر ابن زياد في كل ما يأمر به.

✵

في اليوم السابع من شهر محرَّم الحرام اشتدَّ الحصار على أهل البيت، وسدَّ رجال بني أُميَّة عنهم باب الورود إلى الماء تماماً، ونفد ما عندهم منه. فعاد كلّ واحد يعاني من لهب الشمس، وأخذ الرجال والأطفال والنساء يتضوّرون من العطش، بينما لم يكن بينهم وبين الماء إلَّا الرماح المشرعة والسيوف المرهفة. فطلب الحسين

من أخيه أبي الفضل العبَّاس أن يستقي لهم بالقوَّة، وضمَّ إليه عشرين راجلاً يحملون القرب، وثلاثين فارساً. فتقدَّموا إلى الشريعة، وكان نافع بن هلال البجلي يحمل اللِّواء، فصاح عمرو بن الحجَّاج، المكلَّف بالشريعة من قِبل ابن سعد: من الرجل؟

قال نافع: جئنا لنشرب من هذا الماء الذي حلّئتمونا عنه.

فقال له عمرو بن الحجَّاج: اشرب هنيئاً، ولكن لاتحمل إلى الحسين منه.

فقال نافع: لا والله لا أشرب منه قطرة، والحسين ومن معه من آله وصحبه عطاشى.

ثمَّ صاح بأصحابه: املأوا قربكم وأسقيتكم.

فشدَّ عليهم أصحاب عمرو بن الحجَّاج، ووقعت بينهم المواجهة، فكان بعض القوم يملأون القرب وبعضهم يقاتل، وكان العبَّاس يقود ذلك الجمع، واستطاعوا أن يحملوا بعض الماء، فجاؤوا به إلى خيام أبي عبد الله الحسين(1).

إلَّا أنَّ تلك الكمّية القليلة من الماء لم تكن لتجدي نفعاً أولئك الجمع الذين كان يتجاوز عددهم المائة والخمسين من الرجال والنساء والأطفال.

❁

ولمَّا نال منهم العطش، وأخذ منهم كل مأخذ، قام الحسين

---

(1) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص141؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص245؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص246.

واتكأ على قائم سيفه ونادى في أصحاب عمر بن سعد بأعلى صوته: «أنشدكم الله، أتعرفوني؟

قالوا: نعم، أنت ابن بنت رسول الله وسبطه.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنِّ جدِّي رسول الله؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنَّ أبي عليّ بن أبي طالب؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنَّ أُمِّي فاطمة الزهراء بنت محمَّد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنَّ جدَّتي خديجة بنت خويلد، أوَّل نساء هذه الأُمَّة إسلاماً؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنَّ حمزة سيِّد الشُّهداء عمّ أبي؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنَّ جعفر الطيَّار في الجنَّة عمِّي؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنَّ هذا سيف رسول الله، أنا مقلّده؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنَّ هذه عمامة رسول الله، أنا لابسها؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أنَّ عليّاً كان أوَّل القوم إسلاماً، وأعلمهم علماً، وأعظمهم حلماً، وأنَّه وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة؟

قالوا: اللَّهمَّ نعم.

قال: فبِمَ تستحلّون دمي، وأبي الذائد عن الحوض يذود عنه رجالاً كما يُذاد البعير الصادر عن الماء، ولواء الحمد في يد أبي يوم القيامة»؟

قالوا: قد علمنا ذلك كلّه، ونحن غير تاركيك حتَّى تذوق الموت عطشاً.

فلمَّا سمعت نسوة الحسين وبناته هذه الخطبة ارتفعت أصواتهن بالبكاء، فوجَّه الحسين إليهن أخاه العبَّاس وعليّاً ابنه وقال لهما: «سكّتاهن، فلعمري ليكثرنَّ بكائهن»[1].

✵

ثمَّ إنَّ الحسين أرسل إلى ابن سعد: إنِّي أريد أن أُكلِّمك فألقني اللَّيلة بين عسكري وعسكرك.

فاستجاب له عمر بن سعد على كره، وخرج إليه في عشرين

---

(1) اللهوف، لابن طاوس، ص87.

فارساً، والحسين في مثل ذلك. ولمَّا التقيا أمر الحسين أصحابه فتنحّوا عنه، وبقي معه أخوه العبَّاس وابنه عليّ الأكبر، وأمر ابن سعد أصحابه فتنحّوا عنه، وبقي معه ابنه «حفص» وغلام له، فقال الحسين لعمر بن سعد: ويحك، أما تتقي الله الذي إليه معادك؟ أتقاتلني وأنا ابن من علمت؟

وأضاف: يا هذا، ذرْ هؤلاء القوم وكن معي، فإنَّه أقرب لك من الله.

فقال له عمر بن سعد: أخاف أن تُهدم داري.

فقال الحسين: أنا أبنيها لك.

فقال عمر بن سعد: أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

فقال الحسين: أنا أُخلِّف عليك خيراً منها، من مالي بالحجاز.

فقال عمر بن سعد: لي عيال أخاف عليهم.

فقال الحسين: أنا أضمن سلامتهم.

فلم يقبل ابن سعد دعوة الحسين ولم يجبه إلى ذلك، فانصرف عنه الحسين وهو يقول: «ما لك، ذبحك الله على فراشك سريعاً عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فوالله إنِّي لأرجو أن لا تأكل من برّ العراق إلَّا يسيراً».

فقال عمر بن سعد مستهزئاً: يا أبا عبد الله، في الشعير كفاية!

ثمَّ رجع كلّ واحد منهما إلى معسكره[1].

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص245.

ومع أنَّ عمر بن سعد رفض دعوة الحسين للانضمام إليه، إلَّا أنَّه كتب رسالة إلى عبيد الله بن زياد يقول له فيها: «أمَّا بعد، فإنَّ الله قد أطفأ النائرة، وجمع الكلمة، وأصلح أمر الأُمَّة. هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى، أو أن نسيِّره إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئنا، فيكون رجلاً من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، أو أن يأتي أمير المؤمنين يزيد فيضع يده في يده، فيرى فيما بينه وبينه رأيه، وفي هذا لكم رضى وللأُمَّة صلاح»[1].

وقد خلط ابن سعد في رسالته هذا بين الصدق والكذب، فالحسين كان قد عرض عليهم أن يعود إلى المكان الذي جاء منه، أو أن يذهب إلى أيِّ مكان آخر. ولكن عمر بن سعد زاد على ذلك بأنَّ الحسين قبل أن يذهب إلى يزيد وأن يضع يده في يده، وهذا كذب صريح وتقوُّل فاضح من الرجل على الحسين، لأنَّ أساس الصراع كان حول خلافة يزيد، وكان الحسين قد قال من قبل: «وعلى الإسلام السلام إذا بُليت الأُمَّة براعٍ مثل يزيد». فكيف يقبل أن يذهب إلى يزيد ويضع يده في يده؟

وعلى كلِّ حال، فعندما وصلت الرسالة إلى عبيد الله بن زياد قرأها على جمع من أصحابه، فيهم شمر بن ذي الجوشن الكلابي الضبابي، الذي قال لابن زياد: «لا تقبلنَّ إلَّا أن يضع يده في يدك، فإنَّه إن لم يفعل ذلك كان أولى بالقوَّة والعزّ، وكنت أولى بالضعف والعجز، فلا ترضى إلَّا بنزوله على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت كان ذلك لك، وإن غفرت كنت أولى بما تفعله».

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص414.

وأضاف الشمر: «لقد بلغني أنَّ حسيناً وعمر بن سعد يجلسان ناحية من العسكر، يتناجيان ويتحادثان في اللَّيل».

فقال ابن زياد: «نِعم ما رأيت، فاخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد، فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فإن فعلوا ابعث بهم إليَّ سلماً، وإن هم أبوا فقاتلهم».

وكان كتابه إلى عمر بن سعد كالتالي: «أمَّا بعد، فإنِّي لم أبعثك إلى حسين لتطاوله وتمنِّيه السَّلامة، وتكون له عندي شافعاً، فانظر إن نزل الحسين وأصحابه على حكمي فابعث بهم إليَّ سلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتَّى تقتلهم وتمثِّل بهم، فإنَّهم لذلك مستحقّون. وإن قتلتَ حسيناً فأوطىء الخيل صدره وظهره، فإنَّه عاقّ مشاقّ قاطع، فإن فعلت ذلك جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أنت أبيت فاعتزل عملنا وجندنا، وخلِّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر وأمر الناس، فإنَّا قد أمَّرناه فيك بأمرنا، والسَّلام»[1].

❁ ❁ ❁

(1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص391؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص253؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص415؛ والعقد الفريد، لابن عبد ربّه، ج4، ص379؛ وجواهر المطالب، للباعوني، ج2، ص269.

كربلاء.. مقدِّمات المواجهة

كان واضحاً للجميع أنَّ الأرض التي خيَّم فيها كلّ من الحسين وأصحابه من جهة، والجيش الأموي بقيادة عمر بن سعد من جهة أُخرى، هي أرض المعركة القادمة.

فالحسين من جهته كان قد حسم الموقف منذ بداية البدايات، إيماناً منه بمسؤوليته الربَّانية بإقامة الحقّ ورفض للباطل، واستجابة منه لدعوة من دعاه لكي يكون لهم إماماً وقدوة.

والعدوّ من جهته كان قد حسم الموقف أيضاً، استجابة منه لحبِّ السلطان، ورغبة منه في الانتقام، وكان مصمَّماً على قتل الحسين وأصحابه بأبشع صوره.. وما جاء في رسالة عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد، كان صريحاً في ذلك.

وكانت بداية المعركة وصول شمر بن ذي الجوشن الضبابي إلى كربلاء عشيَّة الخميس، في اليوم التاسع من شهر محرَّم، سنة إحدى وستّين بعد العصر[1].

وكان شمر بن ذي الجوشن ـ كما ذكرنا ـ يحمل الأمر

(1) الطبقات، لابن سعد، موضوعة الحسين، ص70؛ والعبرات، للمحمود،ي ج1، ص441.

بالزحف على الحسين، ويُحدِّد له ساعة الصفر، بعد إتمام الاستعدادات اللازمة لتلك المواجهة.

لقد كان عمر بن سعد في آخر رسائله إلى عبيد الله بن زياد يحاول أن يمنع وقوع الحرب، وقد عرض ما ذكره الحسين من أنَّه مستعدّ للرجوع إلى المدينة، أو الذهاب إلى أيِّ مكان آخر، وكان ذلك صحيحاً. فالحسين أساساً لم يكن طالب حرب، بل كان طالب حقّ، ولم يكن أشراً ولا بطراً، يطلب الملك والسلطان، كما أنَّه كأيِّ إمام ربَّاني كان يريد إتمام الحجَّة على أعدائه، ومن ثمَّ فإنَّه عرض عليهم العودة من حيث جاء، وكان في موقفه ذلك يشبه موقف رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في صلح الحديبيَّة. فقد خرج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه يريد مكَّة لكي يحجّ إلى بيته، ويتعبَّد الله فيه، ولم يكن راغباً في قتال المشركين مع حملهم للسيوف، كما كانت العادة في السابق.

وحينما واجهه رجال قريش، ومنعوه من الذهاب إلى بيت الله، لم يصرّ على ذلك، بل رضي بالعودة إلى المدينة، مع فارق واحد أنَّ طغاة قريش لم يحاولوا أن يفرضوا على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذوه إلى أبي سفيان قسراً حتَّى يبايعه، أمَّا في كربلاء فلم يمنحوا الحسين الخيار بين أن يواصل الطريق إلى الكوفة، بحسب طلب الناس له ذلك، أو العودة إلى المدينة، وإنَّما ركزوا بين اثنتين، بين السلَّة والذلَّة.

هذا، وقد جاء شمر بن ذي الجوشن برسالتين معه إلى كربلاء، الأولى إلى عمر بن سعد برفض ترك الحسين عليه السلام، ورسالة أُخرى إلى العبَّاس وإخوته، بإعطائهم الأمان حتَّى ينفصلوا عن الحسين.

وحينما أوصل كتاب عبيد الله إلى عمر بن سعد، قال له عمر: «ويلك يا أبرص، لا قرَّب الله دارك، ولا أدنى مزارك، وقبَّح الله ما قَدِمتْ به عليَّ، وإنِّي والله لأظنّك أنت الذي ثنيته أن يقبل ما كتبت به إليه، لقد أفسدت علينا أمراً كنَّا رجونا معه الصلاح، ولكنَّك شيطان، فعلت ما فعلت»(1).

وأضاف: «لا يستسلم والله حسينٌ أبداً، إنَّ نفساً أبيَّة لبين جنبيه».

فقال له شمر، وقد تجاهل عتابه بإفساد أمره: «أخبرني يا عمر، ما أنت صانع، أتمضي لأمر أميرك وتقاتل عدوّه، وإلَّا فخلِّ بيني وبين الجند والعسكر».

فقال له عمر بن سعد، وقد هاجت به الرغبة في ملك الرّي: «لا، ولا كرامة لك، ولكن أنا أتولَّى ذلك، فدونك أنت، كُن على الرجَّالة»(2).

ثمَّ إنَّ عمر بن سعد بعث إلى الحسين يخبره بوصول أمر عبيد الله بن زياد بالمناجزة ورفضه القبول بالعودة إلى مكَّة أو المدينة، أو الذهاب إلى مكان غير الكوفة.

فقال الحسين: «والله لا وضعت يدي في يد ابن مرجانة أبداً». ثمَّ تمثَّل بقول الشاعر:

لا ذعرت السوَّام في غسق اللَّيل مـغـيـراً ولادعـوت يـزيـدا

(1) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص142.

(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص416؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، ص91؛ ومختصر ابن عساكر، لابن منظور، ج19، ص65.

يوم أعطى من المهانة ضيماً والمنايا ترصدنّي أن أحيدا[1]

أمَّا الرسالة الثانية التي حملها الشمر فكانت إلى العبَّاس وإخوته من أُمّه، وهم عبد الله بن عليّ، وجعفر بن عليّ، وعثمان بن عليّ، بالإضافة إلى العبَّاس نفسه، فقد كانت لها قصَّة وهي أنَّ شمر بن ذي الجوشن، وهو من أكثر المشجّعين لعبيد الله بن زياد بالتعجيل في قتال الحسين وإراقة دمه، كان من نفس العشيرة التي تنتمي إليها أُمّ البنين والدة العبَّاس وإخوته، فقد كان كلابيّاً، وكان الرجل يعرف نتائج المواجهة بين الحسين وبين الجيش اللجب الذي كان يعدّ لقتاله، فكلّ من هو مع الحسين سيُقتل.

فقام الشمر قبل مغادرته الكوفة، واصطحب معه عبد الله بن أبي المحل، وهو ابن أخ أُمّ البنين، ودخلا على عبيد الله بن زياد، فقال عبد الله بن أبي المحل: «أصلح الله الأمير، إنَّ عليّ بن أبي طالب كان عندنا هاهنا بالكوفة، فخطب إلينا، فزوَّجناه بنتاً لنا يُقال لها أُمّ البنين بنت حزام، فولدت له عبد الله وجعفر والعبَّاس وعثمان، فهم بنو أُختنا، وهم مع الحسين أخيهم، فإن رأيت أن تكتب إليهم كتاباً بأمان منك عليهم فعلت متفضّلاً».

فقال عبيد الله بن زياد: نعم، وكرامة لكم، ثمَّ أمر كاتبه أن يكتب إليهم بالأمان.

وكتاب الأمان هذا حمله الشمر إلى العبَّاس وإخوته، فجاء

---

(1) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص142؛ والإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص250.

حتَّى وقف بقرب معسكر الحسين ونادى بأعلى صوته: أين بنو أُختنا؟ أين العبَّاس وإخوته؟

فأعرض هؤلاء عنه وما أجابوه، فقال لهم الحسين: أجيبوه، ولو كان فاسقاً.

فجاؤوا إليه وقالوا: ما شأنك وما تريد؟

قال الشمر: يا بني أُختي، أنتم آمنون، لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين، وألزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد.

فغضب العبَّاس من كلامه، وصرخ في وجهه قائلاً: «لعنك الله ولعن أمانك، أتؤمِّننا وابن رسول الله لا أمان له؟ وتأمرنا أن ندخل في طاعة اللُّعناء وأولاد اللُّعناء، ونترك طاعة ابن فاطمة الزَّهراء»[1].

ومع هذا الجواب القاسي رجع الشمر إلى معسكره خائباً، بعد أن اكتشف أنَّ كلّ أولاد عليّ بن أبي طالب يحملون أنفساً أبيَّة في جنباتهم، كما اكتشف عمر بن سعد من قبل، النفس الأبيَّة التي كانت بين جنبي الحسين عليه السلام.

❁

بعدما رأى عبد الله الصالح ما جرى، التفت إلى صاحبه عبد الله بن مسلم وقال له: ترى ما الذي ينتظر هؤلاء حتى يشنّوا حربهم؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ ما يميِّز أصحاب الحسين هو

(1) نهاية الإرب، للنويري، ج2، ص432؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص166؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص252.

بصيرتهم، فهم مؤمنون بما يفعلون، وواثقون من سلامة مواقفهم، ولا تجد عندهم تزلزلاً في أمر، كما هو بالنسبة إلى سيِّدهم الحسين، أمَّا أعدائهم فهم يعرفون بأنَّهم على باطل، فهم يقدِّمون رجلاً ويؤخِّرون أُخرى.

قال عبد الرحمن الصالح: أتقصد ابن سعد؟

قال عبد الله بن مسلم: أقصد عمر بن سعد، كما أقصد كلّ من في معسكره، واستثني الشمر بالطبع، فإنَّه جلف جافي، وهو يختلف عن غيره تماماً، فذاته خبيثة، يريد الحرب الآن وليس بعد ساعة. أمَّا عمر بن سعد فإنَّه يحاول التأجيل، لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً، إنَّه يعرف الحسين تماماً، وبينه وبين الحسين رحم، وقد كان كلاهما يجلسان تحت منبر عليّ عليه السلام في الكوفة، ويستمعان إلى مواعظه ونصائحه، ولكن الذي أعماه هو ملك الرّي، ورغبته في مغانم السلطان هي التي جاءت به إلى كربلاء.

وأضاف: إنَّ الحسين من أبناء الآخرة، أمَّا عمر بن سعد فهو من أبناء الدُّنيا، وخشيته من إراقة دم الحسين ليس على آخرته بل على دُنياه، فهو يخاف أن تنقلب الموازين عليه، إذ ليس سهلاً إراقة دم ابن بنت النبيّ، الذي سمع الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقِّه الكثير من الأحاديث، مثل قوله: «**حسين منِّي وأنا من حسين**»[1]، وقوله: «**الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنَّة**»[2]، وغير ذلك كثير.

---

(1) كامل الزيارات، لابن قولويه، ص116.

(2) قرب الإسناد، للحميري القمِّي، ص111.

قال عبد الرحمن: وماذا عن عبيد الله بن زياد، ألا يخاف من انقلاب الأمر عليه؟

قال عبد الله: معروف عن عبيد الله بن زياد أنَّه رجل جبان، وبمقدار جبنه يحشِّد الناس ضدَّ الحسين، لكي يورِّط جميع من يمكن أن يحمل سيفاً أو رمحاً، أوحتى عصى، في دم الحسين، حتَّى لا يطالبه أحد فيما بعد بالثأر لسيِّد شباب أهل الجنَّة.

قال عبد الرحمن: وهل ترى أنَّ عبيد الله بن زياد متردِّد في قتل الحسين؟

قال عبد الله: أبداً، إنَّ الرجل ذاته كذات الشمر، خبيثة، فهو ابن زياد ابن أبيه، لا يُعرف له أصل في الحقيقة، ولكن الرجل يخاف من يزيد بن معاوية الذي انتدبه لمواجهة الحسين وقد أعطاه ولاية الكوفة والبصرة معاً، ويخاف من أن يعزله يزيد إن لم ينفِّذ أوامره، ويخاف من انقلاب الأمر عليه، فهو مدفوع بأمرين: الأوَّل رغبته في السلطة، والثاني خوفه من يزيد. وأمَّا عمر بن سعد فهو يماطل لعلَّ الأمر يتغيَّر لدى يزيد أو عبيد الله بن زياد، ومن هنا فإنَّ الرجل يماطل ويؤجل الهجوم.

❁

عندما كان الأعداء يمنعون الماء عن أهل البيت في شدَّة الحرّ، فإنَّهم كانوا يتمتَّعون ليس بشربه فحسب، بل والسباحة فيه. فقد ذهب عمر بن سعد إلى نهر الفرات ومعه سعد بن عبيدة يستنقع في الماء. وبينما هو فيه، وإذا برجل يأتي إلى عمر بن سعد، فيسرّ إليه قائلاً: «إنَّ ابن زياد قد أرسل جويرة بن بدر التميمي، وأمره إن أنت لم تقاتل الحسين وأصحابه أن يضرب عنقك».

وبين الرغبة في ملك الرّي والخوف من أن يُضرب عنقه، خرج عمر بن سعد من الماء مسرعاً، ووثب على فرسه، ودعا بسلاحه[1].

ثمَّ نادى في أصحابه أن اهجموا على الحسين الآن.

كان الوقت بعد صلاة العصر، عشيَّة يوم الخميس في اليوم التاسع من شهر محرَّم الحرام.

وبالفعل، فقد تحرَّك الجيش نحو خيام الحسين.

كان الحسين في ذلك الوقت جالساً أمام خيمته، محتبياً بسيفه، إذ خفق برأسه على ركبتيه، فسمعت أُخته زينب صيحات القوم، فدنت من أخيها وقالت له: أخي، أما تسمع الأصوات؟

فرفع الحسين رأسه غير آبه بذلك، وقد ارتسمت بسمة الرضى على شفتيه، وقال لها: إنِّي رأيت رسول الله الآن في المنام، فقال لي: إنَّك تروح إلينا.

فلطمت زينب وجهها وقالت: يا ويلتاه.

فقال لها الحسين: ليس لكِ الويل يا أُخيَّة، أُسكتي، رحمكِ الرَّحمن.

وبينما الحسين وزينب يتحدَّثان، فإذا بالعبَّاس قد أقبل قائلاً: يا أخي، أتاك القوم.

فنهض الحسين من مكانه، وقال للعبَّاس: «اركب بنفسي أنت،

---

(1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص424؛ وبغية الطلب، لابن العديم، ج6، ص2638.

حتَّى تلقاهم، فتقول لهم: ما لكم وما بدا لكم، وتسألهم عمَّا جاء بهم»؟

فأتاهم العبَّاس ومعه عشرون فارساً، فيهم زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر، فقال لهم العبَّاس: ما بدا لكم، وما تريدون؟

قالوا: جاء أمر من الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه، أو نناجزكم.

فقال العبَّاس: فلا تعجلوا، حتَّى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم.

فوافقوا، وقال قائلهم: ألقه فأعلمه ذلك، ثمَّ ارجع بما يقول.

فانصرف العبَّاس وحده راجعاً إلى الحسين ليخبره بالخبر، بينما وقف من كان معه يخاطبون القوم، فقال حبيب بن مظاهر لزهير بن القين: كلِّم القوم إن شئت، وإن شئتَ كلَّمتُهم أنا.

فقال له زهير: أنت بدأت بهذا، فكن أنت من تُكلِّمهم.

فرفع حبيب بن مظاهر صوته قائلاً لهم: «أما والله، لبئس القوم عند الله غداً قوم يقدمون على الله، وقد قتلوا ذرِّيَّة نبيّه وعترته وأهل بيته، وعبَّاد أهل هذا المصر، المجتهدين بالأسحار، الذاكرين الله كثيراً باللَّيل والنهار، وشيعتهم الأبرار».

فقال له عزرة بن قيس، مستهزءاً: إنَّك لتزكِّي نفسك ما استطعت يا حبيب.

فقال زهير بن القين: يا عزرة؛ إنَّ الله زكَّاها وهداها، فاتق الله، فإنِّي لك من الناصحين، أنشدك الله أن تكون ممَّن يُعين الضُلَّال على قتل النُّفوس الزكيَّة.

فقال عزرة: يا زهير؛ إنَّك لم تكن عندنا من شيعة أهل هذا البيت، إنَّما كنت عثمانيّاً.

فقال زهير بن القين: «أفلست تستدلّ بموقفي هذا أنِّي منهم؟ أما والله ما كتبت إلى الحسين كتاباً قطّ، ولا أرسلت إليه رسولاً قطّ، ولا وعدته نصرتي قطّ، ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلمَّا رأيته ذكرتُ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوِّه وحزبكم فرأيت أن أنصره، وأكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون نفسه، حفظاً لما ضيَّعتم من حقّ الله وحقّ رسوله»[1].

أمَّا ما جرى للعبَّاس مع الحسين فقد جاء إليه وأخبره بمقالة القوم، فقال له الحسين: «ارجع إليهم، فإن استطعت أن تؤخِّرهم إلى غد، وتدفعهم عنَّا هذه العشيَّة، لعلَّنا نُصلِّي لربّنا الليلة، وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنِّي أُحبُّ الصلاة له، وتلاوة كتابه، وكثرة الدُّعاء والاستغفار».

فرجع العبَّاس بمقالة الحسين إلى القوم، وطلب منهم تأخير القتال إلى يوم غد، فالتفت عمر بن سعد إلى شمر وقال له: ما ترى يا شمر؟

قال شمر: ما ترى أنت؟ أنت الأمير والرأي رأيك، ولو كان الأمر إليَّ لمضيتُ إلى ما أُمرت به، ولم أؤخِّر القتال.

فقال عمر بن سعد: قد أردت أن لا أكون.

ثمَّ أقبل على الناس من قومه، فقال: ماذا ترون؟

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص416.

فقال عمرو بن الحجَّار بن سلمة الزبيدي، سبحان الله؛ والله لو كانوا من الديلم، ثمَّ سألوك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم إليها!

وقال قيس بن الأشعث: أجبهم إلى ما سألوك، فلعمري ليصبحنَّك بالقتال غدوة.

فقال عمر بن سعد: والله لو أعلم أن يفعلوا ما أخَّرتهم العشيَّة.

ثمَّ التفت إلى العبَّاس وقال: إنَّا قد أجَّلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرَّحنا بكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد، وإن أبيتم فلسنا تاركيكم[1].

❋

بعد رجوع عمر بن سعد إلى معسكره ورجوع العبَّاس وأصحابه إلى مخيَّمهم، التفت عبد الرحمن الصالح إلى صاحبه عبد الله وقال: كما ترى فإنَّ المعركة واقعة لا محالة فيها، ولكن لماذا أجَّلها الحسين؟

قال عبد الله بن مسلم: لقد بيَّن ذلك، إنَّه يريد أن يعبد الله، فهذه آخر ليلة من حياته، وهو يُحبُّ الصلاة، والتزوُّد من كتاب الله، والاستغفار، ولعلَّه يريد أُموراً أُخرى.

❋

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص178؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص268.

بعد صلاة العشاء من ليلة العاشر من محرَّم جمع الحسين أصحابه وقام فيهم خطيباً، وقال:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصَّلاة على رسول الله وأهل بيته. أُثني على الله تبارك وتعالى أحسنَ الثناء، وأحمده على السرَّاء والضرَّاء. اللَّهمَّ إنِّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنُّبوَّة، وعلَّمتنا القرآن، وفقَّهتنا في الدِّين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين».

«أمَّا بعد، فإنِّي لا أعلم أصحاباً أوفى، ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرَّ، ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنِّي جميعاً خيراً. ألا وإنِّي أظنُّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإنِّي قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم منِّي ذمام، وهذا اللَّيل قد غشيكم، فاتخذوه جملاً، وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرَّقوا في سوادكم ومدائنكم، فإنَّ القوم إنَّما يطلبونني، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري»[(1)].

❁

حينما سمع عبد الرحمن الصالح هذا الكلام من الحسين التفت إلى صاحبه وقال: أظنُّ أنَّ الحسين إنَّما أجَّل المعركة لكي يقول لقومه ما قاله الآن، وحتى يسمح لمن يطلب الحياة الدُّنيا، أن يتركه ويبتعد عن المواجهة.

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص418؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص257؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص74.

فقال عبد الله بن مسلم: هذا بالإضافة إلى ما صرَّح به من أنَّه يريد أن يصلِّي هذه اللَّيلة، ويتلو كتاب الله، ويستغفره، ويقضي آخر ليلة من ليالي حياته في الدُّنيا بالدُّعاء والتضرُّع والعبادة فهذا ديدن الأولياء، ينظرون إلى الدُّنيا كدار للتزوُّد، وليس كدار للتمتُّع.

بعد خطبة الحسين عليه السلام ارتفعت أصوات أصحابه، وكان كلّ واحد منهم يتسابق مع صاحبه لكي يقول شيئاً. فقام مسلم بن عوسجة الأسدي إلى الحسين وقال: «أنحن نخلِّي عنك، ولمَّا نعذر إلى الله في أداء حقّك؟!

«أما والله لأقاتلنَّهم حتَّى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به، لقذفتهم بالحجارة دونك حتَّى أموت معك».

وقام سعيد بن عبد الله الحنفي، وقال: «واللَّهِ لا نخلِّيك حتى يعلم الله أنَّا حفظنا غيبة رسول الله فيك».

وأضاف: «واللَّهِ لو علمت أنِّي أُقتل، ثمَّ أحيا، ثمَّ أحرق حيّاً، ثمَّ أذر، يفعل ذلك بي سبعين مرَّة ما فارقتك حتَّى ألقى حِمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك، وإنَّما هي قتلة واحدة ثمَّ بعدها الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً».

وقام زهير بن القين وقال: «واللَّهِ لوددت أنِّي قُتلت، ثمَّ نُشرت، ثمَّ قُتلت، حتَّى أُقتل هكذا ألف قتلة، وأنَّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك»[1].

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص420؛ والأمالي، للصدوق، ص156؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، ص95.

وتكلَّم جماعة آخرون من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: «والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قُتلنا كُلّنا وفَينا وقضينا ما علينا»(1).

أمَّا إخوة الحسين فقد نطق باسمهم العبَّاس بن عليّ، فقال: «معاذ الله والشهرِ الحرام، يابن بنت رسول الله، فماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟

«أنقول لهم: إنَّا تركنا سيِّدنا وابن سيِّدنا وعمادنا، وتركناه غرضاً للنبل، وذريئة للرِّماح، وجزراً للسباع، وفررنا عنه رغبة في الحياة، ولم نرم معه بسهم، ولم نطعن عنه برمح، ولم نضرب معه بسيف، معاذ الله؟!

«لا والله، يابن بنت رسول الله، لا نفارقك أبداً، ولكنَّنا نفديك بأنفسنا، ونحيا بحياتك، ونموت معك، ونرد موردك، فقبَّح الله العيش بعدك»(2).

فالتفت الإمام الحسين إلى أولاد عمّه عقيل وقال لهم: «حسبكم من القتل ما تقدَّم في أخيكم مسلم، اذهبوا فقد أذنت لكم».

فقالوا: «لا والله لا نفعل، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا»(3).

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص419.
(2) الفتوح، لابن الأعثم، ج5، ص171؛ ومقالت الطالبيين، لأبي الفرج، ص75.
(3) البداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص177.

ولمَّا سمع الحسين مقالتهم جزَّاهم خيراً، وانصرف إلى خيمته[1].

ويبدو أنَّ زينب كانت قد سمعت مقال الحسين وما قاله أصحابه، فلمَّا رأته عائداً إلى خبائه قامت تجرُّ ثوبها، فدخلت عليه وهي تقول: «واثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم قُتل أبي عليّ، اليوم ماتت أُمِّي فاطمة، اليوم مات أخي الحسن، يا خليفة الماضين ويا ثمال الباقين».

ثمَّ لطمت وجهها والحسين يعزِّيها[2].

لقد كانت الآلام في مخيَّم الحسين تختلط، في تلك اللَّيلة، بإرادة المقاومة، والرعب يمتزج بالتصميم على رفض الاستسلام.

فلقد كانت نساء أهل البيت ينظرن إلى رجالهن، وهنَّ يرون أنَّهنَّ سيفقدنهم خلال سويعات النهار، كما أنَّ غموض ما سيحدث، وهول الحرب التي ستقع صبيحة اليوم الثاني، كان يزيد من أجواء الرعب التي كانت تخيم عليهنَّ، خاصَّة وأنَّ عدد الرجال في هذا المخيَّم كان قليلاً جدّاً بالقياس إلى أعدائهم الذين كانوا يملؤن الصحراء. فإزاء كلّ واحد من أصحاب الحسين كان يقف خمسمائة شخص من الرجال، يحملون معهم كلّ أنواع الأسلحة المتوفِّرة من السيوف والرماح والنبال والعصي والحجارة، بالإضافة إلى الضغائن والأحقاد التي كانت تملأ قلوبهم.

(1) أعلام الورى، للطبرسي، ص239.

(2) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ج، ص142.

هذا بالإضافة إلى أنَّ أولئك الذين صحبوا الحسين عليه السلام من أجل الدُّنيا لم يكونوا أصحاب إرادة وإيمان وتصميم وثبات على الحقّ من النوع الذي سبق، أخذوا يفارقونه واحداً بعد واحد. حتَّى أنَّ سكينة بنت الحسين قالت: «كنت جالسة في وسط الخيمة عندما سمعت نشيجاً من خلفي، فخرجت أعثر بأذيالي خوفاً من أن تفقه بي النساء، فنظرت إذا بأبي الحسين جالس وأصحابه من حوله ودموعه تجري على خدِّيه، فسمعته يقول: «يا قوم؛ إنَّكم خرجتم معي لعلمكم أنِّي أقدم على قوم بايعوني بألسنتهم وقلوبهم، إلَّا أنَّهم الآن استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، وليس لهم مقصد إلَّا قتلي وقتل من يجاهد بين يدي، وسبي حريمي بعد سلبهم، وأخشى أنَّكم لا تعلمون ذلك، أوتعلمون وتستحيون، والمكر والخديعة محرَّم عندنا أهل البيت، فمن كره منكم نصرتنا فلينصرف، فإنَّ اللَّيل ستير، والسبيل غير خطير، والوقت ليس بهجير ومن واسانا بنفسه كان معنا غداً في الجنان، نجيّاً من غضب الرَّحمن»، وقد قال رسول الله: «ولدي الحسين يُقتل بأرض كربلاء غريباً وحيداً عطشاناً، فمن نصره فقد نصرني، ونصر ولده القائم».

وتضيف السيِّدة سكينة: «فوالله ما أتمَّ كلامه إلَّا وتفرَّق القوم من عشرة وعشرين، فلم يبق معه إلَّا ما ينقص عن الثمانين ويزيد على السبعين. فنظرت إلى أبي وقد نكَّس رأسه في حزن وكرب، فخنفتني العبرة، فرددتها ولزمت السكوت».

ثمَّ إنَّ سكينة رجعت إلى الفسطاط الذي فيه النساء، بينما كانت دموعها تجري على خدِّها، فنظرت أُمّ كلثوم إليها وقالت: ما لكِ؟

فذكرت قصَّتها، فلمَّا سمعت ذلك، نادت: «وآجدَّاه، وآعليّاه، وآحسناه، وآحسيناه، وآقلَّة ناصراه. ثمَّ قالت: يا ليت الأعادي يرضون أن يقتلونا بدلاً عن أخي.

فاجتمعت النساء من بكائها، فبكين، وسمع الحسين بكاؤهن، فدخل عليهن، فقالت له أُمّ كلثوم: «يا أخي؛ اذكر لهم (لأهل الكوفة) محلّ جدّك وأبيك، وجدّتك وأخيك.

فقال الحسين: «ذكَّرتهم فلم يذكَّروا، ووعظتهم فلم يتَّعظوا، ولم يسمعوا قولي، وليس لهم رأي سوى قتلي، أوصيكم بتقوى الله ربّ البريَّة، والصبر على البليَّة، وأودِّعكم الله الفرد الصمد، الذي لم يتَّخذ صاحبة ولا ولداً. ثمَّ قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[1].

❁

لقد كان الحسين يريد نهضته طاهرة مطهَّرة، فلم يكن يرغب أن يكون معه من هو راغب في الدُّنيا، بل وحتَّى ولم يكن يريد أن يبقى معه من هو مديون للآخرين. فلقد أخبره رجلٌ من أنصاره في ليلة عاشوراء، فقال: إنَّ عليَّ دَيناً.

فقال الحسين: لا يقاتل معي من عليه دَين[2].

إنَّ التزام الحسين بالقضايا الإنسانية كان نابعاً من إيمانه

---

(1) أسرار الشهادة، للدربندي، ص268؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص272.

(2) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج3، ص202؛ والطبقات، لابن سعد، موضوعة الحسين، ص71، رقم 291.

المطلق بمبادئه وقيمه، ونهضته كانت تقوم أساساً على إحياء الشريعة بكلّ جوانبها، وعلى رأسها الجوانب الأخلاقيَّة.

ومن هنا أيضاً أنَّ رجلاً من أصحاب الحسين اسمه محمَّد بن بشير الحضرمي، جاءه الخبر في ليلة عاشوراء أنَّ ابنه قد تمَّ أسرُه في الرّي، فقال الرجل: عند الله أحتسبه ونفسي، وأضاف: ما كنت أُحبّ أن يؤسر ولا أن أبقى بعده.

ولمَّا سمع الحسين ذلك، قال للرجل: رحمك الله، أنت في حلٍّ من بيعتي، فاعمل في فكاك ابنك.

فقال الرجل: أكلتني السباع حيّاً إن فارقتك، يا أبا عبد الله. هيهات أن أفارقك، ثمَّ أسأل الركبان عن خبرك، وأخذلك مع قلَّة الأعوان، لا يكون هذا والله أبداً ولا أفارقك[1].

❁

في ليلة العاشر من محرَّم كان الحسين يوزِّع وقته بين أُمور ثلاث:

الأوَّل: الدُّعاء والاستغفار والصلاة وتلاوة القرآن، وهو أكثر ما أخذ من وقته، لأنَّه استمهل القوم في اليوم التاسع لهذا الغرض.

الثاني: إلقاء المواعظ والوصايا على الأصحاب.

الثالث: الذهاب إلى النساء، وتوصيتهنَّ بالصبر، والتحدّث

(1) تهذيب الكمال، للمزّي، ج6، 407؛ والإقبال، لابن طاوس، ص576؛ ومصباح الزائر، ص282.

معهنَّ حول الآخرة، وضرورة أن ينظرن إلى الدُّنيا كدار ممرّ، لا دار مقرّ، ودار بلاء وابتلاء.

من الأُمور التي حدثت في تلك الليلة أنَّ الإمام أخبر أصحابه بأنَّهم سيُقتلون معه جميعاً، وقال: «لا يبقى منكم أحد إلَّا ولدي عليّ زين العابدين، لأنَّ الله لن يقطع نسلي منه، وهو أبو أئمَّة ثمانية.

فقالوا بأجمعهم: الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك، وشرَّفنا بالقتل معك، أوَلا نرضى أن نكون معك في درجتك؟

فقال لهم الحسين: جزاكم الله خيراً.

ثمَّ أخبرهم أنَّ الأعداء بعد مقتلهم سيصلون إلى المخيَّم، وأنَّ ولده الرَّضيع أيضاً هو ممَّن يُقتل معه.

فقال القاسم بن الحسن، وكان في حدود الثالثة عشرة من عمره: يا عمّ، أيصل العدوّ إلى مخيَّمنا حتَّى يُقتل الرَّضيع في حضن أُمّه؟

فقال الحسين: فداك عمّك، يُقتل عبد الله إذا جفَّت روحي عطشاً، وصرت إلى خيمتنا، فطلبت ماءً، فلا أجد قطّ، فأقول ناولوني ابني، فيأتوني به، فيضعونه على يدي، فأحمله لأدنيه من فمي، فيرميه فاسق بسهم، فينحره وهو يناغي، فيفيض دمه في كفِّي، فأرفع إلى السَّماء وأقول: اللَّهمَّ صبراً واحتساباً فيك[1].

---

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص282؛ والإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص262؛ ومدينة المعاجز، للسيِّد هاشم البحراني، ص286.

فأخذ القاسم يُفكِّر كيف سيُقتل عبد الله وهو طفل رضيع، وهل يكون ذلك، بينما القاسم نفسه لا يزال موجوداً؟

فسأل الحسين، قائلاً: وأنا فيمن يُقتل يا عمّ؟

فأشفق عليه الحسين أن يقول له نعم، فقال: يابن أخي، كيف تجد طعم الموت عندك؟

فقال القاسم: يا عمّ؛ فيك أحلى من العسل!

فقال له الحسين: إنَّك لأحد من يُقتل معي، بعد أن تبلو ببلاء عظيم[1].

✵

وممَّا حدث في تلك الليلة أنَّ الحسين حينما عرف من أصحابه صدق النيَّة والإخلاص، ولم يبق معه إلَّا الذين كُتبت لهم الشهادة في يوم غد، كشف لهم عن أبصارهم، فرأوا ما حباهم الله من نعيم الجنان، وعرَّفهم منازلهم فيها، فرأوها، فجعلوا ينظرون إلى بيوتهم وقصورهم هناك، والإمام يقول لهم: هذا منزلك يا فلان، وهذا قصرك يا فلان، وهذه درجتك يا فلان[2].

ولم يكن ما فعله الحسين غريباً، فالأولياء الذين سبقوه كشفوا أيضاً لأصحابهم في ساعات العسرة بعض من هذه الأُمور.

---

(1) نفس المهموم، للقمِّي، ص230؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص343.

(2) الخرائج والجرائح، للراوندي، ج2، ص848؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج44، ص298.

فموسى عليه السلام كشف للسحرة حينما آمنوا بالله عزَّ وجلَّ، كشف لهم عن منازلهم في الجنَّة[1].

❁

أمَّا وضع الماء في مخيَّم الحسين فكان مأساويّاً حقّاً.

تقول سيكنة بنت الحسين: «عزَّ ماؤنا في التاسع من المحرَّم حتَّى كبَّنا العطش، وقد نفد الماء كُلّه وخلت الأواني وجفَّت القرب التي فيها الماء، حتَّى يبست من شدَّة الحرّ.

«فلمَّا أمسى المساء عطشت أنا وبعض فتياتنا، فقمت إلى عمَّتي زينب أُخبرها بعطشنا لعلَّها ادَّخرت لنا ماءً. فوجدتها في خيمتها وفي حجرها أخي الرَّضيع عبد الله، وهي تارة تقوم وتارة تقعد، وهو يضطرب اضطراب السمكة ويصرخ، وكانت زينب عمَّتي تقول له: صبراً صبراً يابن أخي، وأنَّى لك الصبر وأنت على هذه الحالة المشؤومة؟ يعزُّ على عمَّتك أن تسمعك ولا تنفعك.

«فلمَّا سمعتُ انتحبت باكية، فقالت عمَّتي: ما يبكيكِ»؟

«قلت لها: حال أخي الرضيع، ولم أخبرها بعطشي، خشية أن يزيد ذلك من همّها ووجْدها».

«ثمَّ قلت لها: يا عمَّتاه؛ لو أرسلتِ إلى بعض عيالات الأنصار فلربَّما أن يكون عندهم ماء. فقامت وأخذت الطفل بيدها ومرَّت بخيم عمومتي، فلم تجد عندهم ماءاً، فرجعت وتبعها بعض أطفالهم رجاء أن تسقيهم ماءً».

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص261.

«ثمَّ جلستْ عمَّتي في خيمة أولاد عمِّي الحسن، وأرسلت إلى خيم الأصحاب لعلَّ عندهم ماء، فلم تجد. فلمَّا أيست من الماء رجعتْ إلى خيمتها، ومعها ما يقرب من عشرين صبيّاً وصبيَّة، كُلّهم عطاشى يطلبون الماء، فأخذت أنا بالعويل».

«وبينما نحن نتصارخ بالقرب من عمَّتي، مرَّ علينا رجل من أصحاب أبي، وهو برير بن خضير الهمداني، وكان سيِّد القرَّاء، فلمَّا سمع بكائنا رمى بنفسه على الأرض، ونادى بأصحابه قائلاً: «ما عندكم من الرأي، أيسرّكم أن تموت بنات فاطمة عليها السلام عطشاً وفي أيدينا قوائم وسيوفنا؟ لا والله لا خير في الحياة بعدهم، بل نرد قبلهم حياض الموت».

«ثمَّ قال لهم: أصحابي؛ ليأخذ كلّ واحد منَّا بيد فتاة من هذه الفتيات، ونهجم بهم على مشرعة الغاضريَّات، قبل أن يهلكن من الظمأ، وإن قاتَلنا القوم قاتلناهم».

«فقال لهم يحيى المازني: إنَّ الحرس يصرّون على قتالنا لا محالة، فإذا أخذنا بأيدي الفتيات ربَّما ينال إحداهنَّ سهم أو رمح فنكون نحن السبب لذلك، لكن الرأي أن نحمل معنا قربة ونملأها لهم، فإن قاتَلَنا أحد قاتلناه، وإن قتل منَّا أحد يكون فداء لبنات فاطمة الزَّهراء».

«ثمَّ أخذوا قربة وساروا قاصدين الفرات، وكانوا أربعة أشخاص، وأقبلوا نحو المشرعة، فحسَّ بهم الحرَّاس، فقالوا: من هؤلاء القوم»؟

«فقال لهم برير: أنا برير وهؤلاء أصحابي، وقد كظَّنا العطش، ونريد أن نرد الفرات».

«فقالوا لهم: مكانكم حتَّى نخبر زعيمنا بخبركم. وكان بين برير وبين زعيمهم قرابة، فلمَّا أخبروه قال لهم: أفرجوا لهم عن المشرعة حتَّى يشربوا، فلمَّا نزلوا إلى المشرعة وحسّوا ببرد الماء، انتحب برير وأصحابه وقالوا: لعن الله ابن سعد، هذا الماء يجري، وأكباد آل رسول الله ﷺ لا تبلّ منه بقطرة. ثمَّ قال: يا أصحابي؛ أذكروا ما ورائكم واملأوا القربة وعجِّلوا، فقد ذابت قلوب أطفال الحسين عليه السلام من الظمأ، ولا تشربوا حتَّى تروى أكباد بنات فاطمة.

«فقالوا: إي والله يا برير لا نشرب قبل أن تروى قلوب أطفال الحسين».

«فسمعه رجل من الحرَّاس، فقال لهم: ما كفاكم الورود حتَّى تحملون الماء إلى هذا الخارجي؟ والله لأخبرنَّ صاحبي بخبركم، فإن أغضى، روَّعتكم بسيفي حتَّى يصل خبركم إلى الأمير».

«فقال له برير: يا هذا، أُكتم علينا أمرنا. ثمَّ دنا منه وهو يريد قبضه واعتقاله، فولَّى منهزماً وأخبر صاحبه بذلك، فقال: اعترضوا طريقهم وأتوني بهم، فإن أبوا قاتلوهم».

«فلمَّا اعترضوهم، قالوا: يا برير، لا يرضى صاحبنا بحملكم الماء إلى صاحبكم».

«فقال له برير: ثمَّ ماذا»؟

«قالوا: إراقة دمائكم».

فقال برير: «ويلكم، إراقة الدماء أشهى من إراقة الماء، ما ذاق منَّا أحد طعم فراتكم، وإنَّما همّنا ريِّ أكباد الأطفال، فوالله لا ندعكم حتَّى تُراق دمائنا حول هذه القربة».

«فقال أحد الأعداء: أتركوهم، فإنَّ هؤلاء قوم مستميتون على يسير ماء، ولا يجدي لهم نفعاً، لكن الآخرين قالوا: لا تخالفوا حكم الأمير، فأحاطوا بهم حلقاً، فوضع برير وأصحابه القربة على الأرض وجثوا دونها. ثمَّ حمل أحد أصحاب برير القربة على عاتقه، فاحتوشوه من كلّ جانب وجعلوا يرشقون القربة بالسهام، فأصاب حبل القربة سهم، حتَّى خاطه إلى عاتق الرجل، وسال الدم على ثوبه وقدميه. فلمَّا نظر إلى الدم يسيل والقربة سالمة، قال: الحمد لله الذي جعل رقبتي وفاءً لقربتي».

«فلمَّا رأى برير أنَّ القوم غير تاركيه، صاح بأعلى صوته: ويلكم يا أعوان بني سفيان، لا تثيروا الفتنة، ودعوا سيوف بني همدان في أغمادها».

«وكان برير في تلك الحالة قد وصل قريباً من مخيَّم الحسين، فسمع أحد منهم صوت برير، فقال: إنِّي أسمع بريراً ينتدب».

«فقال الحسين لأصحابه: الحقوا به، فركب جماعة إليهم. ولمَّا رأى أصحاب عمر بن سعد أصحاب الحسين تراجعوا منهزمين، فجاء برير بالماء حتَّى دنا من الخيمة، ووضع القربة على الأرض وقال للأطفال: اشربوا، يا آل الرَّسول، هنيئاً مريئاً».

«فتباشرت البُنيَّات بالماء وصحن صيحة واحدة: هذا برير جاءنا بالماء، ورمين بأنفسهن على القربة، فمنهنَّ من تحضنها بصدرها، ومنهنَّ من تضع خدَّها عليها، ومنهنَّ من تُقبِّلها».

«فلمَّا كثر ازدحامهنَّ على القربة انفلت الوكاء وأريق الماء، فتصارخت الفتيات وصحن قائلاً: أُريق الماء يا برير».

«فلطم برير جبينه وقال: وآلهفتاه على أكباد بنات رسول الله»[1].

في إحدى المرَّات التي جاء فيها الحسين إلى خيمة الأصحاب ليلة العاشر، ينصحهم ويوعظهم، قال لهم: ألا ومن كان في رحلة امرأة فلينصرف بها إلى بني أسد.

فقام إليه عليّ بن مظاهر وقال: ولماذا يا سيِّدي؟

فقال الحسين: إنَّ نسائي تُسبى بعد قتلي، وأخاف على نساءكم من السبي.

فمضى عليّ بن مظاهر إلى خيمته، فقامت زوجته إجلالاً له، فاستقبلته وتبسَّمت في وجهه، فقال لها: دعيني والتبسُّم.

قالت: يابن مظاهر، إنِّي سمعت غريب فاطمة خطب فيكم، وسمعت في آخرها همهمة ودمدمة، وما علمت ما يقول؟

قال عليّ بن مظاهر: يا هذه، إنَّ الحسين قال لنا: ألا ومن كان في رحله امرأة فليذهب بها إلى بني عمّها، لأنِّي غداً أُقتل ونسائي تُسبى.

فقالت زوجته: وما أنت صانع؟

قال لها: قومي حتَّى ألحقكِ ببني عمّكِ بني أسد.

فقامت زوجته ونطحت رأسها بعمود الخيمة، وقالت له: «والله

(1) أسرار الشهادة، للدربندي، ص395؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص321.

ما أنصفتني يابن مظاهر، أيسرّك أن تُسبى بنات رسول الله، وأنا آمنة من السبي؟

«أيسرّك أن تسلب زينب إزارها من رأسها، وأنا أستتر بإزاري»؟

«أيسرّك أن تذهب من بنات الزَّهراء أقراطها، وأنا أتزيَّن بقرطي»؟

«أيسرّك أن يبيضَّ وجهك عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويسودّ وجهي عن فاطمة الزَّهراء»؟

«والله أنتم تواسون الرِّجال، ونحن نواسي النِّساء».

فرجع عليّ بن مظاهر إلى الحسين وهو يبكي، فقال له الحسين: ما يبكيك؟

فقال: سيِّدي أبتْ الأسديَّة إلَّا مواساتكم.

فدمعت عين الحسين دمعة وقال: جزيتم منَّا خيراً[1].

❁

كان الحسين ـ كما ذكرنا ـ يتنقَّل ليلة العاشر بين خيمته الخاصَّة التي يدعو فيها ربّه ويصلِّي ويتلو الكتاب، وبين خيم النِّساء، وخيم الأصحاب.

يقول عليّ بن الحسين: «بينما أنا جالس في عشيَّة العاشر من محرَّم، وكانت عمَّتي تمرّضني، إذا اعتزل أبي الحسين عن أصحابه

(1) موسوعة الإمام الحسين، ج3، ص135؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص342.

في خباء له، ومعه مولى لأبي ذرّ الغفاري، فأخذ يعالج سيفه ويصلحه، وهو يقول:

يا دهر أُفٍّ لك من خليلِ   كم لك بالإشراق والأصيلِ
من صاحبٍ أو طالبٍ قتيلِ   والدَّهرُ لا يقنع بالبديلِ
وإنَّما الأمر إلى الجليلِ   وكلّ حيّ سالكٌ سبيلِ

«فأعادها مرَّتين أو ثلاثاً حتَّى فهمتها، فعرفت ما أراد، فخنقتني عبرتي، فرددت دمعي ولزمت السكون، وعلمت أنَّ البلاء قد نزل.

«أمَّا عمَّتي زينب فإنَّها سمعتْ أيضاً ما سمعتُ، وهي امرأة، وفي النِّساء الرقَّة، فلم تملك نفسها، فوثبت تجرُّ ثوبها حتَّى انتهت إلى الحسين، فقالت:

«واثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت فاطمة أُمِّي، وعليّ أبي، وحسن أخي، يا خليفة الماضين، وثمال الباقين».

فنظر إليها الحسين، فقال: «يا أُخيَّة، لا يذهبنَّ بحلمكِ الشيطان».

قالت زينب: «بأبي أنت وأُمِّي يا أبا عبد الله، استقتلت نفسي فداك»؟

فردَّ الحسين غصَّته وترقرقت عيناه، فقالت له: «ردّنا إلى حرم جدّنا».

فقال الحسين: «هيهات، لو تُرك القطا لغفى ونام».

فقالت زينب: «يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصاباً؟ ذلك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي».

ثمَّ أهوت إلى جيبها وشقَّته، وخرَّت مغشيّاً عليها، فلمَّا أفاقت قال لها الحسين عليه السلام: «يا أُخيَّة، اتقي الله وتعزِّي بعزاء الله، واعلمي أنَّ أهل الأرض يموتون، وأهل السَّماء لا يبقون، وأنَّ كلّ شيء هالك إلَّا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده».

ثمَّ قال عليه السلام: «إنَّ أبي كان خيراً منِّي وقد مات، وأُمِّي خير منِّي وقد ماتت، وأخي خير منِّي وقد مات، ولي ولهم ولكلّ مسلم برسول الله أسوة».

ثمَّ قال لها: «إنِّي أُقسم عليكِ، فأبرِّي قسمي، لا تشقِّي عليَّ جيباً، ولا تخمشي عليَّ وجهاً، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت»[1].

✵

في ليلة العاشر من محرَّم كان الحسين عليه السلام يقوم أحياناً بتعبئة أصحابه نفسيّاً وروحيّاً، ويتهيَّأ من الناحية العسكريَّة أيضاً للمواجهة المقبلة، فمن إصلاح السيوف، باعتباره السلاح الأساسي في المواجهة، إلى ترتيب مكان المواجهة ووجهتها، إلى كلّ ما يتطلب الأمر ليوم المواجهة.

فلقد أمر أصحابه أن يقرِّبوا الخيام بعضها من بعض، وأن يدخلوا الأطناب في بعض، وأن يكونوا هم بين الخيام ليستقبلوا

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص421؛ والتاريخ، لليعقوبي، ج2، ص217؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص3.

الأعداء من وجه واحد، وتكون الخيام من ورائهم وعن أيمانهم وشمائلهم.

ثمَّ بعد أن رتَّب خطَّة المواجهة من هذه الناحية، بات هو تلك الليلة مع أصحابه يصلّون، ويستغفرون، ويدعون، ويتضرَّعون طول ليلهم(1).

وكما في ناحية الرجال، كذلك في ناحية النساء، فزينب لم تزل تلك الليلة قائمة في محرابها تدعو ربّها وتصلّي له، وتتوسَّل به، وتستغيث إليه، وكذلك بقيَّة نساء أهل البيت، إذ ما هدئت لهنَّ عين، ولا سكنت لهنَّ رنَّة(2).

❋

ثمَّ إنَّ الحسين حاول مراراً هداية الأعداء بأية طريقة، حتَّى لا تقع المواجهة معهم، ليمنعهم من ارتكابهم جرائم بحقّ الأبرياء من أهل البيت وأصحابهم. فحينما جاء برير بن خضير، وكان من الزهَّاد المعروفين بقيام الليل وصيام النهار، وقال: يابن رسول الله؛ ائذن لي أن آتي هذا الفاسق عمر بن سعد، فأعِظَه لعلَّه يتعظ ويرتدع عمَّا هوعليه؟

قال له الحسين: ذاك إليك يا برير.

فذهب برير إلى عمر بن سعد حتَّى دخل عليه في خيمته، فجلس ولم يُسلِّم، فغضب عمر وقال: يا أخا همدان، ما منعك من السَّلام عليَّ؟

---

(1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، جظ، ص394؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص421؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص286.

(2) مثير الأحزان، للجواهري، ص56.

ألستُ مسلماً أعرف الله ورسوله، وأشهد بشهادة الحقّ؟

فقال له برير: «لو كنتَ عرفت الله ورسولَه كما تقول، لما خرجت إلى عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تريد قتلهم، وبعد، فهذا الفرات يلوح بصفائه ويلج كأنَّه بطون الحيَّات، تشرب منه كلاب السواد وخنازيرها، وهذا الحسين بن عليّ وإخوته ونسائه وأهل بيته يموتون عطشاً، وقد حُلْتَ بينهم وبين ماء الفرات أن يشربوه، وتزعم أنَّك تعرف الله ورسوله»؟

فأطرق عمر بن سعد برأسه إلى الأرض ساعة، ثمَّ رفع رأسه وقال: «والله يا برير، إنِّي لأعلم يقيناً أنَّ كلّ من قاتلهم وغصبهم حقَّهم هو في النار لا محالة، ولكن يا برير أفتشير عليَّ أن أترك ولاية الرّي، فتكون لغيري، فوالله ما أجد نفسي تجيبني لذلك»؟

ثمَّ قرأ على برير الأبيات التي كان قد نظمها في الكوفة حينما أمره عبيد الله بن زياد للتوجُّه لمقاتلة الحسين، وهي قوله:

دعاني عبيدُ اللَّهِ من دون قومه ... إلى خطَّة فيها خَرجت لحيني

فوالـلَّـه مـا أدري وإنِّـي لـحـائـرٌ ... أُفكِّـر فـي أمـري عـلـى خـطـريـنِ

أأترك ملك الرّي والرّي مُنيتي ... أم أرجعُ مأثوماً بقتل حسينِ

وفي قتله النار التي ليس دونها ... حجاب وملك الرّي قرَّة عيني[1]

فرجع برير إلى الحسين وقال له؛ «إنَّ عمر بن سعد قد رضي

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص248؛ ومطالب السؤول، لابن طلحة، ص76؛ والفصول المهمَّة، لابن الصبَّاغ، ص192.

لقتلك بولاية الرّي، وإنَّ القوم يا مولاي قد استحوذ عليهم الشيطان».

فقال الحسين: «لا يأكل من برّها إلَّا قليلاً، ويُذبح على فراشه»[1].

✵

في أواخر الليل، خرج الحسين ليتفقَّد المكان الذي يحيط بمخيَّمه، ويستطلع الأكمات والتلاع والعقبات، فرآه نافع بن هلال الجملي، فحمل سيفه وجاء لحراسته، فسأله الحسين عمَّا أخرجه في هذه الساعة؟

فقال نافع: يابن رسول الله، أفزعني خروجك إلى جهة معسكر هذا الطاغية في هذه الساعة.

فقال الحسين: إنِّي خرجت أتفقَّد التلاع والروابي، مخافةً أن تكون مكناً لهجوم الخيل، يوم تحملون ويحملون.

ثمَّ بعد أن اطَّلع على المكان، أخذ بيد نافع ورجع إلى المخيم وقال: هو، هو، والله وعد لا خلف فيه.

ثمَّ التفت إلى نافع وقال له: ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف اللَّيل وتنجو بنفسك؟

فوقع نافع على قدمي الحسين يقبِّلهما ويقول: إذن ثكلتْ هلالاً أُمّه. سيِّدي، إنَّ سيفي بألف وفرسي بمثله، فوالله الذي منَّ بك عليَّ لا فارقتك حتَّى يكلَّا (أي يتعبا) عن فرِّي وجرِّي[2].

---

(1) المنتخب، للطريحي، ج2، ص239.

(2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص284؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص265؛ والدَّمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص273.

ثمَّ ودعه الحسين وذهب إلى مخيَّم النساء، فاستقبلته زينب، بينما وقف نافع بن هلال بإزاء الخيمة ينتظره، فسمع أنَّ زينب تقول للحسين: هل استعلمت من أصحابك نيَّاتهم، فإنِّي أخشى أن يسلِّموك عند الوثبة؟

فقال لها الحسين: والله لقد بلوتهم، فما وجدت فيهم إلَّا الأشوس الأقعس، يستأنسون بالمنيَّة دوني، استيناس الطفل إلى محالب أُمِّه.

فلمَّا سمع نافع ذلك جرت دموعه على خدّيه، فذهب إلى حبيب بن مظاهر، وذكر له ما سمع من الحسين ومن أُخته زينب.

فقال حبيب بن مظاهر: والله لولا انتظار أمره لعاجلت العدوّ بسيفي هذه الليلة.

فقال نافع: إنِّي خلَّفته عند أُخته، وأظنُّ أنَّ النساء أفقن وشاركنها في الحسرة، فهل لك أن تجمع أصحابك وتواجههن بكلام طيِّب يسكِّن قلوبهنَّ، ويذهب برعبهنَّ، فلقد شاهدت منها ما لا قرار لي مع بقائها؟

فقام حبيب ونادى بالأصحاب قائلاً: يا أصحاب الحميَّة وليوث الكريهة، فاجتمع إليه الأصحاب، فقال لبني هاشم: ارجعوا إلى مقرَّكم، لا سهرت عيونكم.

ثمَّ التفت إلى أصحابه وحكى لهم ما شاهده نافع وسمعه، فقالوا له: طبْ نفساً وقرّ عيناً، فلولا انتظار أمر الحسين لعاجلناهم بسيوفنا الساعة كما ذكرت.

فقال لهم حبيب: هلمّوا معي لنواجه النسوة، ونطيِّب خاطرهن.

فجاؤوا إلى مخيَّم النساء ووقفوا خارجه، فصاح حبيب: يا معشر حرائر رسول الله، هذه صوارم فتيانكم، آلوا أن لا يغمدوها إلَّا في رقاب من يريد السوء بكم، وهذه أسنَّة غلمانكم، أقسموا أن لا يركِّزوها إلَّا في صدور من يفرِّق ناديكم.

فخرجت بعض النساء ببكاء وعويل، وقلن: أيُّها الطيّبون، حاموا عن بنات رسول الله، وحرائر أمير المؤمنين.

فضجَّ القوم أيضاً بالبكاء، حتَّى كأنَّ الأرض تميد بهم(1).

❁

أمَّا جهة عمر بن سعد فإنَّه أرسل شمر بن ذي الجوشن في منتصف الليل يتجسَّس على مخيَّم الحسين، وكان معه جماعة من أصحابه، وحينما قاربوا خيامهم، سمعوا الحسين يقرأ في كتاب الله في سورة آل عمران: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❁ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ❁ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ❁ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(2).

---

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص266؛ والدَّمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص274؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص285.

(2) سورة آل عمران، الآيات 176 ـ 179.

فصاح أحد أصحاب شمر قائلاً: نحن وربّ الكعبة الطيّبون وأنتم الخبيثون، وقد ميَّزنا الله منكم!

فسمع برير هذا الكلام، فقطع دعائه، وخرج من خيمته وصاح بمن تكلَّم، قائلاً: أمثلك يكون من الطيِّبين، والحسين بن عليّ من الخبيثين؟

«والله ما أنت إلَّا بهيمة لا تعقل ما تأتي وما تذر، فأبشر يا عدوّ الله بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم».

فقال شمر: إنَّ الله قاتلك وقاتل صاحبك عن قريب.

فقال برير: أبالموت تخوِّفني؟ والله إنَّ الموت مع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحبّ إليَّ من الحياة معكم، والله لا نالت شفاعة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم قوماً أرقوا دماء ذرِّيته وأهل بيته.

فأقبل رجل من أصحاب الحسين إلى برير وقال له: رحمك الله يا برير، إنَّ أبا عبد الله يقول لك: ارجع إلى موضعك، ولا تخاطب القوم[1].

هذا، ولم تخل ليلة عاشوراء من بعض المفاجأت، والتي منها مثلاً أنَّه كان مع عمر بن سعد ثلاثون رجلاً من قريش من أهل الكوفة، فاجتمعوا إليه وقالوا له: يعرض عليكم ابن بنت رسول الله ثلاث خصال لا تقبلون واحدة منها؟!

وأضافوا: لقد خاب سعيكم وشقي من يتبعكم.

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص251؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص180.

ثـمَّ هربـوا مـن مـخيَّـم عـمـر بـن سـعـد، وانـضـمّـوا إلى مـعـسـكـر الحسين وبقوا معه[1].

✵

ولمَّا كان عند السحر خفق الحسين برأسه خفقة، ثمَّ استيقظ، فقال لأصحابه: أتعلمون ما رأيت في منامي الساعة؟

قالوا: ما رأيت يابن رسول الله؟

قال: رأيت كلاباً قد شدَّت عليَّ لتنهشني، وفيها كلب أبقع، رأيته كأشدّها عليَّ، وأظنُّ أنَّ الذي يتولَّى قتلي من بين هؤلاء رجل أبرص، ثمَّ إنِّي رأيت على ذلك رسول الله ومعه جماعة من أصحابه، فقال لي: يا بُنيَّ، أنت شهيد آل محمَّد، وقد استبشر بك أهل السَّموات وأهل الصفيح الأعلى، فليكن إفطارك عندي الليلة، فعجِّل يا بُنيَّ ولا تتأخَّر، فهذا ملك نزل من السَّماء يأخذ دمك في قارورة خضراء.

ثمَّ قال: لقد أزف الأمر، واقترب الرحيل من هذه الدُّنيا[2].

✵

بالرغم من أنَّ ليلة عاشوراء كانت ليلة مرعبة بالنسبة إلى أصحاب الحسين، خاصَّة النساء والأطفال منهم، حيث كانوا

---

(1) الجوهرة، للبرِّي، ص44؛ وتاريخ ابن عساكر، موضوعة الحسين، ص220؛ والتهذيب، بن بدران، ج4، ص335.

(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص252؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص181؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص3؛ وأعيان الشيعة، للأمين، ج1، ص601.

محاصرين من قِبل ألوف من الأعداء الحاقدين، إلَّا أنَّهم كانوا ينظرون إلى تلك الليلة باعتبارها آخر ليلة من حياتهم في الدُّنيا، ومن ثمَّ كانوا يشعرون أنَّهم على مقربة من رحمة الله ورضوانه، وجنَّة عرضها كعرض السَّموات والأرض أُعدَّت للمتقين، وكان الواحد منهم يبشِّر الآخر بذلك.

فقد التقى كلّ من عبد الرحمن بن عبد ربّه الأنصاري، وبرير الهمداني، التقيا على باب الفسطاط، فجعل برير يهازل عبد الرحمن ويضاحكه.

فقال له عبد الرحمن: دعنا يا برير، فهذه ليست بساعة باطل.

فقال له برير: «واللَّهِ لقد علم قومي أنِّي ما أحببت الباطل شابّاً ولا كهلاً، ولكنَّني لمستبشر والله بما نحن فيه، وما نحن لاقون».

وأضاف: «والله ما بيننا وبين أن نعانق الحور العين، إلَّا أن يميل علينا هؤلاء القوم بأسيافهم ويقتلونا، ولوددت أنَّهم قد مالوا»[1].

❋

وفي أواخر اللَّيل، عندما نامت عيون الأعداء جميعاً قال الحسين لأصحابه: «قوموا فاحفروا لنا حفيرة شبه الخندق حول معسكرنا حتَّى نؤجج فيه النار غداً، ويكون قتال هؤلاء القوم من وجه واحد، فإنَّهم لو قاتلوا وشغلنا بحربهم لضاعت الحرم».

فحفروا وراء مخيَّمهم حفرة كأنَّها ساقية، فصار كالخندق، ثمَّ

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص423؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص286؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص178.

ألقوا فيها بعض القصب والحطب وقالوا: إذا غدوا فقاتلوا، ألقينا فيها النار، لئلَّا يأتونا من وراءنا[1].

وكان ذلك آخر عمل قاموا به تلك اللَّيلة، ثمَّ انشغلوا بعد ذلك بالدُّعاء والعبادة، وبعضهم ذهب ليستريح لفترة قصيرة قبل أن يطلع الفجر.

❋

أمَّا عبد الرحمن الصالح وعبد الله بن مسلم فقد جلسا في زاوية الخيمة يتحدَّثان بصوت خافت، فقال عبد الرحمن لصاحبه: تُرى، ما الذي جرى، وماذا تتوقَّع أن يجري غداً؟

قال له عبد الله: لقد شاهدت كلّ شيء، فكيف تسأل عن الماضي؟

قال عبد الرحمن: لقد شاهدت كلّ شيء، لكنَّني في ذهول وحيرة، لا أدري كيف جرت الأُمور إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه، أليس هذا الحسين بن عليّ بن أبي طالب ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فكيف يصبح محاصراً الآن من قِبل الذين يدَّعون أنَّهم يتبعون جدّه، ويصلّون ويصومون ويحجّون على دينه؟

كيف أصبح أهل بيت رسول الله ﷺ متَّهَمين ومحارَبين، كيف يجرأ هؤلاء بأن يفعلوا ذلك بهم؟ ما الذي تغيَّر؟ أليس المرء يُحفظ في ولده؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ كثيراً من الذين هم مع عمر بن

(1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص396؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص248؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص174.

سعد يحفظون الأحاديث التي قالها النبيَّ في حقّ أهل بيته، مثل قوله: «**إنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل أهل بيتي في أُمَّتي كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن رغب عنها غرق**»[1]. ومثل قوله: «**إنِّي تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسَّكتم بهما لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنَّهما لن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض**»[2].

قال عبد الرحمن: فهل معنى ذلك أنَّ الأُمَّة قد تركت كتاب الله، كما تركت عترة نبيّها؟

قال عبد الله: تماماً.

قال عبد الرحمن: أليس ذلك غريباً، ولمَّا يمضي على وفاة رسول الله إلَّا أقل من خمسين عاماً؟ أليس ربّنا قد قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3]؟ فإذا تركت الأُمَّة أهل البيت الذين لا يفارقهم الكتاب، فمعنى ذلك أنَّ الذِّكر قد ضاع، ولم يُحفظ كما لم يحفظ أهل البيت؟

قال عبد الله: لا تذهبنَّ بك المذاهب، إنَّ الذِّكر يتمثَّل الآن في الحسين وأصحابه، وهم من يحفظون الذِّكر.

قال عبد الرحمن: وإذا قُتلت هذه العصابة، فكيف يكون الذِّكر قد حُفظ؟

قال عبد الله: إنَّ الحسين لم يأتِ إلى هنا إلَّا لكي يحفظ الذِّكر.

(1) مكارم الأخلاق، للطبرسي، ص459.
(2) بصائر الدرجات، للصفَّار، ص433.
(3) سورة الحجر، آية 9.

قال عبد الرحمن: لكنَّك تقول إنَّ الذِّكر يتمثَّل فيهم، فإذا هلكوا على أيدي هؤلاء الأعداء فهل يبقى الذِّكر؟

قال عبد الله: أنظر يا أخي، حينما هاجر النبيّ ﷺ من مكَّة إلى المدينة هل كان يحفظ بهجرته بيت الله الحرام، أم كان ذلك تضييعاً لهذا البيت؟

إنَّ الحسين هاجر إلى هنا، وسوف يحفظ الله به الذِّكر.

قال عبد الرحمن: لا أفهم؛ كيف يُحفظ بالحسين الذِّكر إذا قُتل؟

قال عبد الله: إنَّ الكتاب ككلمات وحروف وألفاظ ومعاني موجودة بين الدفتين بأيدي الناس، فما من بيت إلَّا وفيه نسخة من القرآن، لكن المشكلة هو في التأويل. فالمنافقون هؤلاء اغتصبوا مقام الخلافة، وادَّعوا أنَّهم هم من يمثِّلون دين الله، مع ظلمهم وطغيانهم ومخالفتهم لكلّ صغيرة وكبيرة من هذا الدِّين، فإذا أقدم هؤلاء على قتل الحسين فسوف يعرف الناس جميعاً أنَّ الدِّين تمثَّل في الحسين، وأنَّ الدِّين الحقيقي هو دين الحسين، أمَّا دين بني أُميَّة فهو النفاق بعينه.

إنَّ الحسين يقول للناس اليوم بأعماله ومواقفه: إنَّ الله يريد الحقيقة لا الزيف، ويريد الإيمان الصادق وليس التظاهر بالإيمان، وأنَّ من الممكن أن يدَّعي المدَّعون أنَّهم يمثِّلون الدِّين وهم يخالفونه، وعلى الأُمَّة أن تفتح عينيها وأن تتبع أهل الحقّ الصادقين، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]؟

---

(1) سورة التوبة، آية 119.

وكما ترى فإنَّ هذا الخطاب موجَّه للمؤمنين، ومعنى ذلك أنَّ من الممكن أن يكون الشخص عضواً في المجتمع المسلم، ويُعرف كمؤمن، لكنَّه لا يكون مع الصادقين. الصدق إنَّما هو في هذا العمل الذي يقوم به الحسين اليوم، حيث نراه مستعدّاً أن يُراق دمه في سبيله، أمَّا هؤلاء فيبحثون عن الدُّنيا. الحسين جعل الدُّنيا مطية الآخرة، أمَّا هؤلاء فجعلوا الآخرة مطيَّة الدُّنيا، ألا تراهم كيف يتظاهرون بالدِّين لخداع الناس؟

ألا ترى كيف يتجاهلون أحد أهم أُمور الدِّين، وهو العدل، ويتخذون مال الله دولاً، وعباده خولاً؟

إنَّ الحسين هو حجَّة الله على خلقه، وبه سيحتجّ ربّنا غداً على جميع من شارك بفعل هؤلاء، ومن اتَّبعهم، ومن فعل مثل ما يفعلون، أو رضي بفعلهم.

قال عبد الرحمن: لكنَّني لا أعتقد أنَّ الحسين سينتصر على هؤلاء، لكي يقيم العدل بين الناس؟

قال عبد الله بن مسلم: لا، لن ينتصر فيما يرتبط بالدُّنيا، لكنَّه منصور على كلِّ حال، لأنَّ الحسين ـ كما قلت لك ـ أساساً لا يريد الدُّنيا، وليس يطلب الحكم والحكومة والسلطة والسلطان، إنَّ الحسين يكشف الآن للأُمَّة المعاصرة ولمن سيأتي فيما بعد، أنَّ الدِّين أصبح دينين: دينُ بني أُميَّة، حيث هو في ظاهره «إسلام» وفي واقعه جاهلية عمياء.. ودين أهل البيت، وهو الجوهر الذي جاء به الأنبياء وهو خالص وطاهر ونقي.

إنَّ القوم خافوا الحسين على دُنياهم، وخافهم الحسين على

آخرته، فتمسَّك الحسين بآخرته، وهؤلاء ماضون في ارتكاب المآثم والجرائم في سبيل دُنياهم.

قال عبد الرحمن: لكن الحسين على كلِّ حال لن ينتصر.

قال عبد الله: إذا كان مقصودك من الانتصار أن يتغلَّب بأصحابه على جيش هؤلاء فهذا صحيح، لكن الأنبياء أيضاً بهذا المعنى لم ينتصروا، وكثير من الصالحين قضوا في هذه الحياة مغلوبين مظلومين.

ألم يُقتل هابيل على يد أخيه قابيل؟

ألم يُرم بإبراهيم عليه السلام في النار على يد نمرود؟

ألم يحاول فرعون أن يقضي على موسى عليه السلام وقتل الألوف من بني إسرائيل؟

إنَّ أكثر الأنبياء لم يغلبوا أعدائهم بالمعنى الماديّ للكلمة، لكنَّهم أدّوا رسالتهم في الحياة، وبهداهم اهتدى الناس، وكذلك يفعل الحسين عليه السلام، ويبقى مسؤولية كلّ شخص كما قال ربّنا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1].

❋ ❋ ❋

(1) سورة الإنسان، آية 3.

يوم المواجهة

ما إن بزغ الفجر من صبيحة العاشر من محرَّم، سنة واحد وستّين للهجرة النبويَّة الشريفة، حتَّى قام أصحاب الحسين وتيمَّموا للصَّلاة، إذ لم يجدوا ماءاً للوضوء، ثمَّ اصطفوا خلف سيِّد شباب أهل الجنَّة وأقاموا صلاة الصبح. وبعد الصَّلاة أخذ الحسين يهيىء أصحابه للقتال، وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً، فيهم ثمانية من صلب عليّ بن أبي طالب، وستّة عشر من الهاشميِّين، فقسَّمهم إلى ميمنة، وميسرة، وقلب.

فجعل على الميمنة زهير بن القين، وجعل على الميسرة حبيب بن مظاهر الأسديّ، وأعطى الراية لأخيه العبَّاس، وثبت هو في القلب، بينما جعلوا الخيام وراء ظهورهم، لتكون الحرب من جهة واحدة[1].

أمَّا عمر بن سعد فقد قسَّم جيشه إلى خمسة أقسام، حيث جعل على ميمنته عمرو بن الحجَّاج الزبيدي، وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن الضبابي، وعلى الخيل عذرة بن قيس الأحمسي، وعلى

(1) الأخبار الطوال، للدينوري، ص254؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص422؛ وتذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص143.

الرجَّالة شبث بن ربيع الرِّياحي، بينما ثبت هو في القلب، وأعطى الراية إلى مولاه دريد[1].

وكان عدد جنود عمر بن سعد على الأقل ثلاثين ألفاً، بينما لم يتجاوز عدد أصحاب الحسين على أكثر التقادير المائة[2].

ولمَّا استعدَّ الطرفان للقتال أضرم الحسين وأصحابه النار في الحطب والقصب الذي رموه في الخندق الذي حفروه في اللَّيل خلف الخيام، وقد فاجأ ذلك أعدائه، حيث كانوا يظنّون أنَّ باستطاعتهم أن يحاصروا مخيَّم الحسين، ويهجموا عليه من كلِّ جانب، وأن يقضوا عليه وعلى أصحابه خلال ساعة من النهار.

وحينما أقبلوا يجولون هناك ويرون النار تضطرم في الخندق، عرفوا أنَّهم أخذوا بذلك، وأنَّ خطَّتهم قد فشلت.

فنادى شمر بن ذي الجوشن بأعلى صوته، وهو في حالة غضب: يا حسين؛ تعجَّلت النار قبل يوم القيامة؟

فقال الحسين: من هذا، كأنَّه شمر بن ذي الجوشن؟

فقال أصحابه: نعم.

فأجابه الحسين قائلاً: يابن راعية المعزى، أنت أولى بها صلّياً.

فقال مسلم بن عوسجة للحسين، وقد رأى الشمر في مرمى

---

(1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص395؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص422.

(2) جواهر المطالب، للباعوني، ج2، ص284؛ وتاريخ الإسلام، للذهبي، ج2، ص348؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص178.

سهامه: يا أبا عبد الله؛ ائذن لي حتَّى أرميه، فإنَّ هذا الفاسق من أشدّ أعداء الله، ومن عظماء الجبَّارين، وقد أمكن الله منه.

لكن الحسين منعه من ذلك، قائلاً: لا ترمه، فإنِّي أكره أن أبدأهم بالقتال[1].

ثمَّ إنَّ أحد أصحاب عمر بن سعد جاء وهو راكب على فرسه، اسمه مالك بن أبي جويرة المزني، فلمَّا نظر إلى النار تتَّقد صفَّق بيده، ونادى: يا حسين، ويا أصحاب الحسين، أبشروا بالنار، فقد تعجَّلتموها في الدُّنيا.

فقال الحسين: من الرجل؟

فقيل له: إنَّه ابن أبي جويرة.

فقال الحسين: اللَّهمَّ جرَّه إلى النار، وأذقه حرّها في الدُّنيا.

وسمع الرجل ذلك فغضب، وأراد أن يظهر الشجاعة، فضرب فرسه وأدارها كأنَّه يريد الهجوم على الحسين عليه السلام، فلم يكن بأسرع من أن شبَّ به الفرس، فألقاه من على ظهره، فتعلَّقت رجله في الركاب، وركض به الفرس قريباً من النار حتَّى ألقي فيها فاحترق، فخرَّ الحسين ساجداً، ثمَّ رفع رأسه وقال: يا لها من دعوة، ما كان أسرع إجابتها[2].

ولقد حدث ذلك بمنظر من الطرفين، وكان في جيش عمر بن

(1) الإرشاد، للمفيد، ج2، ص99؛ والمنتظم، لابن الجوزي، ج5، ص339؛ وجواهر المطالب، للباعوني، ج2، ص285.

(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص249؛ وروضة الواعظين، للفتَّال، ص159؛ والثاقب في المناقب، لابن حمزة، ص340، رقم 285.

سعد رجل اسمه مسروق بن وائل، فلمَّا رأى ما حدث لابن جويرة عرف أنَّ ذلك من دعوة الحسين، فأخذ يبتعد عن جيش عمر بن سعد، ورآه عمر، فقال له: ما بالك ترجع عن القتال؟

فقال الرجل: والله، إنِّي رأيت ما لم تروا من أهل هذا البيت، والله لا قاتلتُ الحسين أبداً، وانعزل عن القتال(1).

وما حدث لابن جويرة حدث مثل ذلك أيضاً لمحمَّد بن الأشعث، ذلك أنَّ الحسين في صبيحة عاشوراء رفع صوته بالدُّعاء قائلاً: «اللَّهمَّ إنَّا أهل بيت نبيّك وذرِّيَّته وقرابته، فاقصم مَن ظَلَمنا وغصبنا حقّنا، إنَّك سميع مجيب».

فسمعها محمَّد بن الأشعث، فقال: يا حسين؛ وأيّة قرابة لك من رسول الله ليست لغيرك؟

فقرأ الحسين هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(2). ثمَّ قال: والله إنَّ محمَّداً جدِّي لمن آل إبراهيم، وإنَّ العترة الهادية لمن آل محمَّد.

ثمَّ سأل الحسين من أصحابه: من الرجل؟

فقيل: محمَّد بن الأشعث بن قيس الكندي. فرفع الحسين طرفه إلى السماء قائلاً: اللَّهمَّ إنَّ محمَّد بن الأشعث يقول إنَّه ليس بيني وبين رسولك قرابة، اللَّهمَّ أذلّ محمَّد بن الأشعث ذلّاً في هذا اليوم لا تعزّه بعده أبداً.

وما هي إلَّا لحظات حتَّى عرض للرجل عارض خطير، فقد

(1) مقتل أبي مخنف، ص64؛ التاريخ، للطبري، ج5، ص431.
(2) سورة آل عمران، الآيتان 33، 34.

نزل من على فرسه ليقضي حاجته، وإذا بعقربة سوداء خرجت من حجرها ولدغته لدغة، فسقط وهو يستغيث ويتقلَّب على برازه، ورآه العسكر وهو يركض مضطرباً من لدغة العقرب، بادي العورة[1].

❁

مع بداية الاصطفاف للحرب في صبيحة عاشوراء، أخذ الحسين عليه السلام ينتقل من دعاء إلى خطبة، ومن خطبة إلى دعاء. فكان قلبه ذاكراً ولسانه شاكراً، ولا يدع لحظة إلَّا ويتوجَّه فيها إلى ربّه، فالله منتهى غايته ومقصده. وكان ممَّا سمعه الناس منه لمَّا صبَّحت الخيل، أن رفع يديه بالدُّعاء قائلاً: «اللَّهمَّ أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدَّة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدَّة، كمن من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدوّ، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منِّي إليك عمَّن سواك، ففرَّجته وكشفته، فأنت وليّ كلّ نعمة، وصاحب كلّ حسنة، ومنتهى كلّ رغبة»[2].

ثمَّ التفت إلى أصحابه، وقال: «الحمد لله الذي جعل الآخرة للمتَّقين، والنَّار للكافرين، وإنَّا والله ما طلبنا وفي وجهنا هذا الدُّنيا فنكون من الشاكين، إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أذن في قتلكم اليوم وقتلي، فعليكم بالصبر والقتال»[3].

---

(1) كتاب الصافي، للفيض الكاشاني، ج1، ص328؛ والمناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص58؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص615.

(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص423؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص287؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ص170.

(3) الأمالي، للشجري، ج1، ص160؛ وإثبات الوصيَّة، للمسعودي، ص126؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص275.

ثمَّ قرَّب إليه فرسه، فاستوى عليه وتقدَّم نحو القوم في نفر من أصحابه، وبين يديه برير بن خضير الهمداني، فقال له الحسين: كلِّم القوم يا برير وانصحهم. فتقدَّم برير حتَّى وقف قريباً منهم، وكانوا قد استعدّوا للهجوم على معسكره، وهم على ظهور أحصنتهم وأيديهم على مقابض سيوفهم، فقال برير: «يا هؤلاء، اتقوا الله، فإنَّ ثقل محمَّد ﷺ قد أصبح بين أظهركم، هؤلاء ذرِّيته وعترته وبناته وحرمه، فهاتوا ما عندكم، وما الذي تريدون أن تصنعوا بهم»؟

فقالوا: «نريد أن نمكّن منهم الأمير عبيد الله بن زياد، فيرى فيهم رأيه.

فقال برير: «أفلا تقبلون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي جاؤوا منه؟

«ويلكم يا أهل الكوفة، أنسيتم كتبكم إليه، وعهودكم التي أعطيتموها من أنفسكم، وأشهدتم الله عليها، وكفى بالله شهيداً؟

«ويلكم، أدعوتم أهل بيت نبيّكم، وزعمتم أنَّكم تقتلون أنفسكم دونهم، حتَّى إذا أتوكم أسلمتموهم لعبيد الله بن زياد، وحلأتموهم عن ماء الفرات الجاري الذي يشرب منه اليهود والنصارى والمجوس، وترده الكلاب والخنازير، بئس ما خلَّفتم محمَّداً في ذرِّيته.

«ما لكم، لا سقاكم الله يوم القيامة، فبئس القوم أنتم».

فقال له نفر منهم: يا هذا، ما ندري ما تقول؟

فقال برير: «الحمد لله الذي زادني فيكم بصيرة، اللَّهمَّ إنِّي أبرأ

إليك من فعال هؤلاء القوم، اللَّهم ألق بأسهم بينهم حتَّى يلقوك وأنت عليهم غضبان».

فجعل القوم يرمونه بالسهام، فرجع برير إلى ورائه عند الحسين[1].

✻

ثمَّ إنَّ عمر بن سعد وجيشه قاموا بتضييق الحصار على الحسين ودنوا أكثر إلى خيامه، فتقدَّم إليهم الحسين وهو على فرسه، وتكلَّم بصوت سمعه جلّهم، فقال:

«أيُّها الناس؛ إسمعوا قولي ولا تعجِّلوا، حتَّى أعظكم بما هو حقّ لكم عليَّ، وحتَّى أعذر إليكم، فإن قبلتم عذري وصدَّقتم قولي، وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليَّ سبيل. وإن لم تقبلوا منِّي العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[2] ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

وبينما الحسين يتكلَّم، خرجت أخواته، وقد سمعن كلامه، فصحن وبكين، وبكت بناته، فارتفعت أصواتهن، فأرسل الحسين إليهنَّ أخاه العبَّاس، وابنه عليّ الأكبر وقال لهما: أسكتاهنَّ،

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص252؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص183؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص5.

(2) سورة يونس، آية 71.

(3) سورة الأعراف، آية 196.

فلعمري ليكثرن بكائهنَّ. فلمَّا سكتن، حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلَّى على محمَّد ﷺ وعلى ملائكته وأنبيائه.

فذكر من ذلك بما لا يحصى ذكره، حتَّى أنَّ بعضهم أخذ ينظر إلى الآخر ويقول: ما سمعت متكلِّماً قطّ قبله ولا بعده أبلغ في منطقه من الحسين.

ثمَّ قال: «أمَّا بعد، فانسبوني فانظروا من أنا، ثمَّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي. ألستُ ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه، وابن عمّه، وأوَّل المؤمنين بالله والمصدّق لرسول الله بما جاء به من عند ربّه»؟

«أوَليس حمزة سيِّد الشُّهداء عمّ أبي»؟

«أوَليس جعفر الطيّار في الجنَّة بجناحين عمِّي»؟

«أوَلم يبلغكم قول رسول الله ﷺ لي ولأخي: هذان سيِّدا شباب أهل الجنَّة؟ وقوله: إنِّي مخلف فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسَّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً»؟

«فإن صدَّقتموني بما أقول وهو الحقّ، فوالله ما تعمَّدت الكذب مذ علمت أنَّ الله يمقت عليه أهله ويضرُّ به من اختلقه، وإن كذَّبتموني فإنَّ فيكم من أن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبروكم أنَّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي».

«أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي»؟

وهنا قاطع شمر بن ذي الجوشن كلام الحسين عليه السلام متوجّهاً

إلى جماعته وقال بصوت عال: هو يعبد الله على حرف، إن كان يدري ما يقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله إنِّي لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنَّك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك.

واستمرّ الحسين في كلامه قائلاً: «فإن كنتم في شك من هذا، أفتشكّون أنِّي ابن بنت نبيّكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري فيكم، وفي غيركم.

«ويحكم؛ أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة»؟

فسكتوا جميعاً كأنَّ على رؤوسهم الطير، وأخذوا لا يكلِّمونه.

فقال الحسين عليه السلام منادياً: «يا شبث بن ربعي، ويا حجَّار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليَّ أن أقدم، قد أينعت الثمار واخضرَّ الجناب، وإنَّما تقدم على جند لك مجنَّد»؟

فقال هؤلاء: لم نفعل.

فقال: «سبحان الله؛ بلا واللَّهِ لقد فعلتم».

وبعد صمت لحظات، استمرَّ في كلامه، قائلاً: «إذا كرهتموني، فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض».

فقال له قيس بن الأشعث: أوَلا تنزل على حكم بني عمّك، فإنَّهم لن يروك إلَّا ما تحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه.

فقال الحسين: «أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟

«لا والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد».

«عباد الله؛ إنِّي عذت بربِّي وربّكم أن ترجمون، أعوذ بربِّي وربّكم من كلّ متكبِّر لا يؤمن بيوم الحساب».

ثمَّ أناخ راحلته، وأمر عقبة بن سمعان، فعقلها[1].

❁

بعد خطبة الحسين عليه السلام هذه التفت عبد الرحمن الصالح إلى صاحبه، قائلاً: كأنَّ الحسين لا يزال عنده أمل في أن يعود بعض هؤلاء القوم إلى رشدهم، أليس كذلك؟

قال عبد الله بن مسلم: إنَّ الحسين عليه السلام صاحب رسالة، وكما هو شأن الأنبياء فإنَّ غايتهم هداية الناس، وأظن أنَّ الحسين سيستمر في محاولة هدايتهم إلى آخر لحظة يستطيع فيها ذلك، لأنَّه لا يحبّ أن يقاتله هؤلاء ويدخلوا النار، وإنَّما يريد لهم أن يهتدوا إلى الصراط المستقيم. أوَلم تسمع أنَّ الحسين بكى صباح هذا اليوم قبل أن يبدأ كلّ شيء، فقالت له زينب: ممَّ بكائك، يا أبا عبد الله؟

فقال لها: أبكي على هؤلاء القوم الذين يدخلون النار بسببي[2].

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص426؛ وأعلام الورى، للطبرسي، ص242؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص288؛ وكشف الغمَّة، للإربلي، ج2، ص13.
(2) بنور فاطمة عليها السلام اهتديت، للسيِّد عبد المنعم.

إنَّ قلب الحسين مفعم بالمحبَّة لله ولعباد الله، ولو أنَّ أحداً من هؤلاء تاب من فعلته، وانتقل من جبهة عبيد الله بن زياد إلى جبهته، لرحَّب به وقبله بقبول حسن، حتَّى ولو كان ذلك عمر بن سعد نفسه، أو حتَّى الشمر. فكما أنَّ الله عزَّ وجلَّ يفتح باب التوبة لعبده حتَّى تبلغ روحه التراقي، كذلك الحسين عليه السلام يفتح باب التوبة لهؤلاء القوم العصاة إلى آخر لحظة.

إنَّ الحسين لم يأت إلى هنا إلَّا ليدافع عن توحيد الله، وعن القيم والمثُل والمبادىء التي جاء بها الأنبياء، ولذلك فإنَّه ينصح هؤلاء بما نصح به الأنبياء بها أُممهم. ومن أهمّ ما يريد تأكيده لهم في خطبه أنَّ لهذا الكون ربّاً، وأنَّ الناس عبيد لربّهم، فإن أطاعوه فبفضل منه وتوفيق، وإن عصوه فبأنفسهم وأعمالهم، وأنَّ جميع الناس مسؤولون عمَّا يفعلون. فليس من حقّ أحد أن ينسب معصيته إلى ربّه، ولا من حقِّه أن يعتبر طاعته تفضُّلاً من نفسه. فالطاعة يسبقها التوفيق، أمَّا المعصية فهي بسبب أهواء النفس.

قال عبد الرحمن: وماذا يقول بنو أُميَّة؟

قال عبد الله: إذا كان هنالك أحد منهم يؤمن بالله وبرسوله فهو ينسب معاصيه إلى ربّه، ويعتبر ما يفعله من الظلم والطغيان هو بإرادة الله عزَّ وجلَّ، أوَما سمعت برسالة الحسين إلى الحسن بن أبي الحسن البصري؟

قال عبد الرحمن: لا.

قال عبد الله: إنَّ هذا الرجل كتب رسالة إلى الحسين يسأله عن القدر، فكتب إليه الحسين قائلاً: «من لم يؤمن بالقدر خيره وشرّه فقد كفر، ومن حمل المعاصي على الله عزَّ وجلَّ فقد افترى

على الله افتراءً عظيماً. إنَّ الله تبارك وتعالى لا يُطاع بإكراه، ولا يُعصى بغلبة، ولا يُهمِل العباد في الهلكة، لكنَّه المالك لما ملَّكهم، والقادر لما عليه أقدرهم، فإن ائتمروا بالطَّاعة لم يكن الله صادّاً عنها مبطئاً، وإن ائتمروا بالمعصية، فشاء أن يمنَّ عليهم، فيحول بينهم وبين ما ائتمروا به، فعل. وإن لم يفعل فليس هو حملهم عليها قسراً، ولا كلَّفهم جبراً، بل بتمكينه إيَّاهم، بعد إعذاره وإنذاره لهم، واحتجاجه عليهم، طوَّقهم ومكَّنهم، وجعل لهم السبيل إلى أخذ ما إليه دعاهم، وترك ما عنه نهاهم جعلهم مستطيعين لأخذ ما أمرهم به من شيء غير آخذيه، ولترك ما نهاهم عنه من شيء غير تاركيه، والحمد لله الذي جعل عباده أقوياء لما أمرهم به، ينالون بتلك القوَّة وما نهاهم عنه، وجعل العذر لمن يجعل له السبيل حمداً متقبّلاً، فأنا على ذلك أذهب وبه أقول، وله الحمد»[1].

قال عبد الرحمن: لم أفهم بعض ما جاء فيما ذكرت من كلام الحسين؟

قال عبد الله: الحسين يشير إلى أنَّ القضاء والقدر أمر كائن، والإيمان بهما ضرورة من ضرورات الدِّين. فالله ليس منعزلاً عن خليقته، وإنَّما له الخلق وله الأمر، وليس لهم أن يفعلوا ما شاؤوا خلافاً لما يريد الله. فالأُمور لم تفوّض إلى الناس بشكل مطلق، فللَّه سلطانه على العباد، ولكن هذا السلطان لا يخرجهم عن الاختيار، فهو الذي أراد لهم أن يكونوا قادرين على أن يعملوا ما يريدون، لكن ذلك لا يعني أنَّ معاصيهم هي من فعل الله عزَّ وجلَّ، فهذا افتراء على ربّ العزَّة والجلال، كما قال الحسين: «ومن حمل

(1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج5، ص123.

المعاصي على الله عزَّ وجلَّ فقد افترى على الله افتراءً عظيماً. ولكنَّه المالك لما ملَّكهم، والقادر على ما عليها أقدرهم». فالله إن أعطى الحرّية والاختيار لعباده فقد أعطاهم الحرّية على الفعل والترك. فالأعمال تصدر وفقاً لإرادة العباد، لكن القدرة على الفعل أو الترك هي من مواهب الله عزَّ وجلَّ لعباده، وهي تأتي في كلِّ آنٍ ولحظة. فقدرة العباد ليست منعزلة أو مستقلَّة عن إرادة الله تعالى، فربّنا أعطى القدرة لعباده، وهم باستطاعتهم أن يفعلوا من الأفعال ما يريدون، سواءً كان خيراً أو شرّاً أو أن يتركوا. وباعتبار أنَّهم قادرون على الأمرين، فإنَّ الفعل ينسب إليهم، سواءً في الطاعة أو في المعصية. لكن الله أحياناً يحول بين العبد والمعصية، وهذا لطف منه تعالى على من يمنعه عن المعصية، وأحياناً أُخرى يترك العبد وما يختار. فالله منزَّه عن أفعال العباد، فلا تنسب تلك الأفعال إلى الله عزَّ وجلَّ. أمَّا بنو أُميَّة فهم يقولون بالجبر وليس بالاختيار في أفعال العباد، وما من خطوة يعملونها إلَّا وينسبونها إلى الله.

إنَّ الحسين يريد أن يُبيِّن لأعدائه أنَّ ما يفعلونه به وبأصحابه وأهل بيته سيحاسبون عليه، وهم مسؤولون عنه، ولا يمكنهم التخلُّص من تبعته غداً. يقول في أشعار له:

تعدَّيتُمُ يا شرَّ قومٍ ببغيكم	وخالفتمُ فينا النبيّ محمَّدا
أما كان خيرُ الخلق أوصاكمُ بنا	أما كان جدِّي خيرة اللَّه أحمدا
أما كانت الزَّهراءُ أُمِّي	ووالدي عليّ أخا خير الأنام مسدَّداً
لُعنتم وأخزيتم بما قد جنيتمُ	ستصلون ناراً حرّها قد توقَّدا(1)

(1) مقتل أبي مخنف، ص61؛ ووسيلة الدارين، للزنجاني، ص301.

قال عبد الرحمن: ما هو واجب الأُمَّة الآن تجاه الحسين؟

قال عبد الله: الدفاع عنه، فمن يخذل سبط رسول الله اليوم لن يكون النبيّ ﷺ شفيعه يوم القيامة. هذا أقلّ ما يمكن أن يُقال في ذلك.

قال عبد الرحمن: إذن تعال نذهب إلى القرى المجاورة، لعلّنا نستطيع أن نقنع بعض المؤمنين لكي يأتوا للدفاع عن الحسين عليه السلام.

قال عبد الله: وكم تظن سيستجيب لنا منهم؟

قال عبد الرحمن: أي عدد كان. إذ ليس من الصحيح أن نجلس ههنا حتَّى يهجم هؤلاء الأجلاف علينا وعلى الحسين عليه السلام، وأن نُغلب من قلَّة..

قال عبد الله: مهما حصلنا من الرجال، فلن نغيِّر شيئاً من واقع الحال، فهم أكثر من ثلاثين ألف.

قال عبد الرحمن: ألم تقل إنَّ واجب الأُمَّة أن تدافع عن الحسين عليه السلام؟

قال عبد الله: هو كذلك.

قال عبد الرحمن: لنضعهم أمام مسؤولياتهم إذن، ولنحاول أن نصنع شيئاً، ولنؤدِّ واجبنا في هذا الأمر.. لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً.

قال عبد الله: فما ترى نفعل؟ وكيف نخرج من حصار هؤلاء الأعداء؟

قال عبد الرحمن: أنَّهم مشغولون بالحديث مع الحسين عليه السلام.

قال عبد الله: وماذا لو أخذونا وانكشف أمرنا؟ أليس يقتلوننا؟

قال عبد الرحمن: لا أعتقد، فهم لم يؤمروا بعد بقتال من يهرب من جيش الحسين عليه السلام فهم يريدون رأس الحسين، كما قال نفسه قبل ساعات، أمَّا نحن فلا حاجة لهم فينا.

قال عبد الله بن مسلم: لنتوكَّل على الله.

فأخذ كلّ واحد منهما سيفه، وتسلَّلا خارج مخيَّم الحسين عليه السلام، واستطاعا الخروج من حصار جيش ابن سعد بسهولة تقريباً. فقد اتخذا طريق النخيل، ودخلا أوَّل قرية وصلا إليها، وكانت تبعد عن كربلاء ثلاثة فراسخ، فدخلا المسجد لأداء الصلاة، لكن المصلِّين استغربوا منهما، فقد كانت ملامحهما مختلفة تماماً، فسألوهما عن أمرهما، فذكرا لهم بصراحة ما جاءا به من أجله، فظنَّ هؤلاء أنَّهما عيون من قِبل ابن زياد، يريدان أن يعرفا موقفهم من الحسين، فكتَّفوهما وأخذوهما إلى رئيس شرطة ابن زياد الحصين بن نمير الذي بدوره أرسلهما إلى الكوفة، وهناك أودعا السجن، وانقطعت أخبارهما.

❋

ثمَّ إنَّ الحسين ركب مرَّة أُخرى فرسه وجاء إلى القوم، وقد نشر القرآن على رأسه، فطلب منهم الصمت، فأبوا أن ينصتوا. فقال لهم: «ويلكم؛ ما عليكم أن تنصتوا إليَّ، فاسمعوا قولي، فإنِّي إنَّما أدعوكم إلى سبيل الرَّشاد، فمن أطاعني كان من المهتدين، ومن عصاني كان من المهلكين.

«وكلّكم عاصٍ لأمري غير مستمع قولي، فقد انجزلت عطاياكم، وملئت بطونكم من الحرام، فطبع على قلوبكم».

«ويلكم؛ ألا تنصتون؟ ألا تستمعون»؟

فتلاوم أصحاب عمر بن سعد بينهم وقالوا: انصتوا له. فسكتوا، وأنصتوا.

فقام الحسين فيهم، فحمد الله وأثنى عليه، وذكره بما هو أهله، وصلَّى على محمَّد وعلى الملائكة والأنبياء والرُّسل، ثمَّ قال: «يا قوم؛ إنَّ بيني وبينكم كتاب الله، وسُنَّة جدِّي رسول الله.

ثمَّ استشهدهم عن نفسه، وعن جدّه وأبيه وأُمّه وجدّته، وذكر لهم أنَّه يحمل سيف رسول الله، ودرعه وعمامته.

ثمَّ قال لهم: ما الذي أقدمكم على قتلي، واستحلال دمي؟

فقالوا: قد علمنا ذلك كُلّه، ونحن غير تاركيك حتَّى تذوق الموت عطشاً.

فقال لهم: «تبَّت لكم أيتها الجماعة وترحا، أحين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم، فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم، ويداً عليهم لأعدائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، إلَّا الحرام من الدُّنيا أنالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه، من غير حدث كان منَّا، ولا رأي تفيل لكم.

«فهلَّا لكم الويلات، إذ كرهتمونا وتركتمونا، والسيف مشين، والجأش طامن، والرأي لمَّا يُستصحف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبى، وتهافتّم إليها كتهافت الفراش، ثمَّ نقضتموها، فسحقاً لكم يا عبيد الأُمَّة، وشذَّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرِّفي الكلم،

وعصبة الآثام، ونفثة الشيطان، ومطفئي السُّنن، وقتلة أولاد الأنبياء، ومبيري عترة الأوصياء، وملحقي العهار بالنسب، ومؤذي المؤمنين، وصراخ أئمَّة المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين، ولبئس ما قدَّمت لهم أنفسهم، وفي العذاب هم خالدون.

«وأنتم، ابن حرب وأشياعه تعضدون، وعنَّا تتخاذلون»؟

«أجل والله غدرٌ فيكم قديم، وَشِجت عليه أُصولكم، وتأزَّرت عليه فروعكم، وثبتت عليه قلوبكم، وغشيت صدوركم، فكنتم أخبث ثمر شجاً للناظر، وأكلة للغاصب. ألا لعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم عليكم كفيلاً، فأنتم والله هم».

ثمَّ قال: «ألا وإنَّ الدَّعي ابن الدَّعي قد ركز بين اثنتين، بين السلَّة والذلَّة، وهيهات منَّا الذلَّة، يأبى الله ذلك لنا ورسولهُ والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوفٌ حميَّة، ونفوسٌ أبيَّة، من أن نؤثر طاعة اللئام، على مصارع الكرام.

«ألَّا وقد أعذرتُ وأنذرتُ، ألا وإنِّي زاحف بهذه الأُسرة، مع قلَّة العدد، وكثرة العدوّ، وخذلان الناصر».

ثمَّ استشهد بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

فإن نَهزم فهزَّامون قدماً وإن نُغْلب فغيرُ مغلَّبينا
وما إن طبُّنا جُبُنٌ ولكن منايانا ودولةَ آخرينا
إذا ما الموتُ رفّع عن أُناسٍ كلاكله أناخَ بآخرينا
فأفنى ذلكم سرواتِ قومي كما أفنى القرونَ الأوَّلينا
فلو خَلد الملوك إذن خلدنا ولو بقي الكرامِ إذن بقينا

فقلْ للشَّامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

ثمَّ قال: «أيم الله؛ لا تلبثون بعدها إلَّا كريث ما يركب الفرس حتَّى تدور بكم دور الرحى، وتقلق بكم قلق المحور، عهدٌ عهده إليَّ أبي عن جدِّي، فاجمعوا أمركم وشركاؤكم، ثمَّ لا يكن أمركم عليكم غمَّة، ثمَّ أقضوا إليَّ ولا تنظرون، إنِّي توكَّلت على الله ربِّي وربّكم، ما من دابَّة إلَّا هو آخذ بناصيتها، إنَّ ربِّي على صراط مستقيم».

ثمَّ رفع يديه إلى السَّماء وقال: «اللَّهمَّ احبس عنهم قطر السَّماء، وابعث عليهم سنين كسنيِّ يوسف، وسلِّط عليهم غلام ثقيف، فيسومهم كأساً مصبَّرة، فإنَّهم كذبونا وخذلونا، وأنت ربّنا، عليك توكَّلنا وإليك أنبنا، وإليك المصير»[1].

❋

كان الحسين لا يترك لحظة من لحظات يوم عاشوراء إلَّا ويحمِّلها موقفاً ما، فكان يلقي على أصحابه أو أعدائه خطبة بعد أخرى، يذكرهم فيها بما جاء في رسالات الأنبياء والأوصياء من المواعظ والتعاليم. وكان من ذلك خطاب مختصر ذكر فيه كلّ ما يرتبط بالدُّنيا والآخرة، ألقاه على جيش عمر بن سعد. فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال:

«عباد الله؛ اتقوا الله وكونوا من الدُّنيا على حذر، فإنَّ الدُّنيا لو بقيت لأحد، أو بقي عليها أحد، لكان الأنبياء أحقّ بالبقاء، وأولى بالرِّضا، وأرضى بالقضاء. غير أنَّ الله تعالى خلق الدُّنيا للبلاء،

---

(1) اللهوف، لابن طاوس، ص100؛ وتحف العقول، للحرّاني، ص275؛ وبغية الطلب، لابن العديم، ج6، رقم 2587.

وخلق أهلها للفناء، فجديدها بال، ونعيمها مضمحل، وسرورها مكفهر، والمنزل تلعة، والدار قلعة، فتزوّدوا فإنَّ خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلَّكم تفلحون»[1].

وعندما أتمَّ الحسين كلامه هذا وأراد الانصراف إلى المخيَّم، فإذا بجماعة عمر بن سعد يرمونه بالسهام والنبال، حتَّى أنَّ رجلاً من بني تميم يُقال له عمر الطهوي رمى الحسين بسهم، فوقع بين كتفيه متعلِّقاً بجبّته[2].

وكان ذلك هو جوابهم على أمثال هذه الخطبة التي فيها بصائر النُّبوَّة، ومواعظها، كالنصيحة بالتقوى، والدعوة إلى الله والخير، والحذر من عواقب ما يقدم عليه المرء في حياته، وخاصَّة حينما ترتبط القضيَّة بالعدل والظلم.

❁

وكما ألقى الحسين خطباً كثيرة وعظ بها العدوّ، فإنَّ أصحاب الحسين أيضاً ألقوا الكثير من الخطب في جند بني أُميَّة.

فقد خرج زهير بن القين على فرس له ذنوب، وهو شاك في السلاح، ووقف بإزاء جيش عمر بن سعد، ورفع صوته قائلاً:

«يا أهل الكوفة؛ نذار لكم من عذاب الله، نذار..

«إنَّ حقّاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتَّى الآن إخوة، وعلى دين واحد وملَّة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف،

(1) تاريخ ابن عساكر، ص215، رقم 272؛ والتهذيب، لابن بدران، ج4، ص333؛ وكفاية الطالب، للكنجي، ص430.
(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص392.

وأنتم للنصيحة منَّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنَّا أُمَّة، وكنتم أُمَّة.

«إنَّ الله قد ابتلانا وإيَّاكم بذرِّيَّة نبيّه محمَّد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنَّا ندعوكم إلى نصرهم، وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، ويزيد بن معاوية، فإنَّكم لا تدركون منهما إلَّا سوء عمر سلطانهما، يسمّلان أعينكم، ويقطّعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتّلان أماثلكم وقرَّائكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة وأشباهه».

فأخذ أصحاب عمر بن سعد يسبّونه، ويثنون على عبيد الله بن زياد، قائلين: والله لا نبرح حتَّى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً.

فقال لهم زهير: «عباد الله؛ إنَّ وُلد فاطمة أحقّ بالودّ والنصر من ابن سميَّة، فإن لم تنصروهم، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلّوا بين الرجلِ وبين ما يريد».

فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال: أُسكت، أسكت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك.

فقال له زهير: «يابن البوَّال على عقبيه، ما إيَّاكَ أخاطب، إنَّما أنت بهيمة، والله ما أظنّك تحكم من كتاب الله آيتين، فابشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم».

فقال له شمر: إنَّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

فقال زهير: «أبالموت تخوِّفني؟ فوالله للموت معه ـ أي مع الحسين ـ أحبّ إليَّ من الخلد معكم».

ثمَّ التفت إلى الناس وقال: «عباد الله، لا يغرنَّكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعةُ محمَّد قوماً أهرقوا دماء ذرِّيته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم، وذبَّ عن حريمهم».

فناداه رجل من خلفه: إنَّ أبا عبد الله يقول لك أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه، وأبلغ في الدُّعاء، فلقد نصحت هؤلاء، وأبلغت النصح والإبلاغ[1].

❋

ثمَّ إنَّ الحسين عليه السلام خرج من خيمته وجاء إلى العدوّ ونادى: أين عمر بن سعد؟ أُدعوا لي عمراً. فدعي له.

وكان عمر بن سعد يكره الخروج إليه، ولا يحب أن يأتيه، ولكنَّه اضطرَّ تحت إلحاح جماعته، أن يأتي إليه. فقال له الحسين: «يا عمر؛ أنت تقتلني وتزعم أن يولِّيك الدَّعي ابن الدَّعي بلاد الرّي وجرجان؟

«والله لا تتهنَّأ بذلك أبداً، عهد معهود، فاصنع ما أنت صانع، فإنَّك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة، وكأنِّي برأسك على قصبة قد نصب بالكوفة يتراماه الصبيان، ويتَّخذونه غرضاً بينهم.

فغضب عمر بن سعد من كلامه، وصرف بوجهه عنه، وعاد إلى خيمته[2].

❋

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص427؛ والعبرات، للمحمودي، ج2، ص12.
(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص8؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص253؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص10.

مع تزايد العطش بالحسين وأهل بيته وأصحابه، حاولوا حفر الآبار، لكنَّهم لم يحصلوا على الماء. فقد روي أنَّه لمَّا اشتدَّ العطش قال الحسين لأخيه العبَّاس: اجمع أهل بيتك وأحفروا بئراً، ففعلوا ذلك، فوجدوا فيها صخرة، ثمَّ حفروا أُخرى ووجدوها كذلك[1].

وكان أصحاب عمر بن سعد يضيقون الحصار على مخيَّم الحسين ساعة بعد ساعة، فلمَّا رأى الحرّ بن يزيد الرِّياحي أنَّ القوم قد صمَّموا على قتال أهل البيت، لامه ضميره على ما ارتكب بهؤلاء الفتية، إذ منعهم من الرجوع إلى المدينة أو الذهاب إلى الكوفة، فأقبل إلى عمر بن سعد وقال له: أي عمر، أمقاتل أنت هذا الرجل؟

قال عمر بن سعد: إي والله قتالاً شديداً، أيسره أن تسقط الرؤوس، وتطيح الأيدي.

فقال الحرّ: أمالكم فيما عرضه عليكم رضى؟

قال عمر بن سعد: لو كان الأمر إليَّ لفعلت، ولكن أميرك قد أبى.

فسكت الحرّ وترك عمر بن سعد، وابتعد قليلاً من أصحابه، وكان إلى جنبه رجل من قومه يُقال له قرَّة بن قيس، فقال له الحرّ: يا قرَّة، هل سقيت فرسك اليوم؟

قال قرَّة: لا.

قال الحرّ: أفما تريد أن تسقيه؟

فظنَّ الرجل أنَّ الحرّ إنَّما يريد أن يبتعد من العسكر، فلا يشهد

(1) ينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص67؛ وناسخ التواريخ، ج20، ص216.

القتال، وأنَّه ربَّما يكره أن يراه حين يسمع ذلك. فقال للحرّ: لم أسقه، وأنا منطلق لأسقيه الآن.

ثمَّ اعتزل قرَّة مكانه، فأخذ الحرّ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً، وهنا سأله المهاجر بن أوس، قائلاً: ماتريد يابن يزيد، أتريد أن تحمل على الحسين؟

فلم يجبه الحرّ، وأخذته مثل الرَّعدة، وبدأ يرتجف. فقال له المهاجر: إنَّ أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قطّ مثل هذا، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك، فما هذا الذي أراه منك؟

فقال له الحرّ: إنِّي والله أخيِّر نفسي بين الجنَّة والنَّار.

ثمَّ سكت هنيئة، قال بعدها: فوالله لا أختار على الجنَّة شيئاً، ولو قطِّعت وأحرقت.

ثمَّ ضرب فرسه منطلقاً باتجاه مخيَّم الحسين، فلمَّا قرب منه وضع يده على رأسه وهو يقول: اللَّهمَّ إليك أنبتُ، فتبْ عليَّ، فقد أرعبتُ قلوب أوليائك، وأولاد بنت نبيّك.

وكان يمشي مطأطأً رأسه، مستحياً من ربّه، فوقف أمام الحسين صامتاً، فقال له أبو عبد الله: من أنت؟

قال الحرّ: جُعلت فداك يابن رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستُك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجعتُ بك في هذا المكان، وما ظننت أنَّ القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم، ويبلغون منك هذه المنزلة. والله لو علمت أنَّ القوم ينتهون بك إلى ما أرى ما

ركبت مثل الذي ركبت، فإنِّي تائب إلى الله ممَّا صنعت، فهل ترى لي من توبة؟

فقال له الحسين: نعم؛ يتوب الله عليك، فانزل.

فقال الحرّ: أنا لك فارساً خيرٌ منِّي راجلاً، أقاتلهم لك على فرسي ساعة، وإلى النزول يصير آخر أمري.

وقال: يابن رسول الله، لقد كنت أوَّل خارج عليك، فائذن لي أن أكون أوَّل قتيل بين يديك، فلعلّي أن أكون ممَّن يصافح جدّك محمَّداً غداً في القيامة.

فقال له الحسين: فاصنع، يرحمك الله، ما بدا لك[1].

ثمَّ إنَّ الحرّ حكى للحسين قصَّته حين خروجه من الكوفة، فقال: لمَّا وجَّهني عبيد الله إليك، خرجت من القصر، فنوديت من خلفي: أبشر يا حرّ بخير. فالتفتّ، فلم أرى أحداً.

فقلت لنفسي: والله ما هذه بشارة وأنا أسير إلى حرب الحسين، وما كنت أُحدِّث نفسي باتّباعك.

فقال الحسين له: لقد أصبت أجراً وخيراً[2]..

ويبدو أنَّ الحرّ لم يكن وحده حينما أتى إلى الحسين، فلقد صحبه ولده أيضاً، فلقد قال له قبل أن ينتقل إلى جبهة الحسين: إنَّ الحسين يستغيث فلا يغيثه أحد، فهل لك نقاتل بين يديه ونفديه

(1) الإرشاد، للمفيد، ج2، ص103؛ وأعلام الورى، للطبرسي، ص243؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص10.
(2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص15؛ ونفس المهموم، للقمِّي، ص56

بأرواحنا، حتَّى لا يكون خصمنا محمَّد المختار، فإنَّا لا صبر لنا على النار؟

فقال ولده: والله أنا مطيعك[1].

وبعد انتقاله إلى جبهة الحسين عليه السلام أخذ الحرّ يشعر بنشوة الإيمان من جديد، فأراد لقومه أن يفيقوا من كبوتهم، ويهتدوا إلى الحقّ كما اهتدى، فاستأذن من الحسين أن يُكلِّمهم، فأذن له، فجاء حتَّى قرب منهم، فرفع صوته وقال:

«يا أهل الكوفة، لأُمّكم الهبل والعبر!

«أدعوتم هذا العبد الصالح، وزعمتم أنَّكم قاتلوا أنفسكم دونه، حتَّى إذا جاءكم أسلمتموه، وعدوتم عليه لتقتلوه، وأمسكتم بنفسه، وأخذتم بكلكله، وأحطتم به من كلِّ جانب، ومنعتموه من التوجُّه إلى بلاد الله العريضة، فأصبح كالأسير في أيديكم، لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرّاً، وحلأتموه ونسائه وصبيته وأهله عن ماء الفرات الجاري، يشربه اليهود والنصارى والمجوس، وتمرر فيه خنازير السواد وكلابه، فها هم قد صرعهم العطش، بئسما خلَّفتم محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم في ذرِّيته، لا سقاكم الله يوم الظمأ».

ثمَّ سكت هنيئة، قال بعدها: «إذا لم تنصروه، ولم تفوا له بما حلفتم عليه، فدعوه يمضي حيث شاء من بلاد الله.

«أما أنتم بالله مؤمنون؟ وبنبوَّة محمَّد جدّه مصدّقون؟ وبالمعاد موقنون»[2].

---

(1) ينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص76.

(2) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص143؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص255؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، ص104.

غير أنَّ محاولته هذه باءت بالفشل، لأنَّ القوم كانت لهم آذان لا يسمعون بها، وعيون لا يبصرون بها، وقلوب لا يعقلون بها؛ إن هم كالأنعام، بل هم أضلّ سبيلاً.

❁ ❁ ❁

بداية المعركة

بدأت المعركة صباح عاشوراء حينما تقدَّم عمر بن سعد نحو معسكر الحسين، ونادى غلامه دريد قائلاً: أدن رايتك، فأدناها، ثمَّ وضع سهماً في كبد قوسه، ورماه باتجاه الحسين وقال لأصحابه: إشهدوا لي عند الأمير، أنِّي أوَّل من رمى[1].

فوقع السهم بين يدي الحسين، فتنحَّى عنه راجعاً إلى ورائه[2].

فصاح أحد أصحاب الإمام موجّهاً كلامه إلى عمر بن سعد: أشهد أنَّك أوَّل من يدخل النار من هذه الأُمَّة[3].

ومع رمية عمر بن سعد قام الجيش الأموي كُلّه برمي السهام، فجاءت كأنَّها المطر، فما بقي أحد من أصحاب الحسين إلَّا أصابه سهم من رميهم[4].

فقال الحسين لأصحابه: قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لابُدَّ منه، فهذه السهام رسل القوم إليكم[5].

فحمل أصحاب الحسين على أعدائهم، فاقتتلوا ساعة من

---

(1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص398.

(2) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص183.

(3) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص278.

(4) الأمالي، لأبي طالب الزيدي، ص97؛ والعبرات، للمحمودي، ج2، ص23.

(5) المناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص100؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص184.

النهار، فما انجلت الغبرة إلَّا عن خمسين قتيلاً من أصحاب الحسين[1].

ولمَّا رأى الحسين مقتل هذا العدد الكبير من رجاله، ضرب بيده عل لحيته، وقال: «اشتدَّ غضب الله تعالى على اليهود إذ جعلوا له ولداً، واشتدَّ غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتدَّ غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر دونه، واشتدَّ غضبه على قوم اتفقت كلمتهم عل قتل ابن بنت نبيّهم، أما والله لا أجيبهم إلى شيء ممَّا يريدون، حتَّى ألقى الله وأنا مخضَّب بدمي»[2].

ثمَّ صاح: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبُّ عن حرم رسول الله؟

فبكت النساء وكثر صراخهن.

وكان في أصحاب عمر بن سعد اثنان من الأنصار، هما سعد بن الحارث، وأخوه أبو الحتوف، فلمَّا سمعا استنصار الحسين واستغاثته، وبكاء عياله جرَّدا سيفهما ومالا بهما على أصحاب عمر بن سعد، وقاتلا دفاعاً عن الحسين، وقتلا ثلاثة أشخاص، ثمَّ قُتلا[3].

❁

بعد تراجع الطرفين إلى المخيَّمات، بدأت المواجهات

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص184؛ ومطالب السؤول، لابن طلحة، ص76.
(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص908؛ واللهوف، لابن طاوس، ص101؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص12.
(3) الأمالي، للشجري، ج1، ص172؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص295.

المتفرِّقة، سواء بين الأفراد أو المجموعات الصغيرة، فقد خرج يسار مولى زياد ابن أبيه، ومعه سالم مولى عبيد الله بن زياد من معسكر عمر بن سعد يطلبان المبارزة، فوثب حبيب بن مظاهر الأسدي، وبرير بن خضير ليواجهانهما.

فقال لهما الحسين: أجلسا، ولم يأذن لهما.

فقال عبد الله بن عمير من بني عليم، وهو الرجل الذي كان يسكن في ظهر الكوفة. فلمَّا رأى الناس يتهيَّأون للخروج إلى قتال الحسين، قال: والله لقد كنت على قتال أهل الشرك حريصاً، وانضمَّ إلى قافلة الحسين، فلمَّا نظر إليه الإمام ورآه طويل القامة، شديد الساعدين، بعيد ما بين المنكبين، أذن له في الخروج لمواجهتهما، وقال: إنِّي لأحسبه للأقران قتَّالاً. فخرج الرجل إلى الميدان. فقال له يسار مولى زياد ابن أبيه: من أنت؟

فانتسب له، فقال له يسار: لا نعرفك، ليخرج إلينا زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر.

فقال عبد الله بن عمير: أوَ بك رغبةٌ عن مبارزة أحد من الناس؟

وأضاف: إنَّه لا يخرج إليك أحد منَّا إلَّا وهو خير منك.

ثمَّ شدَّ عليه، فضربه بسيفه حتَّى برد، وحينما كان منشغلاً به يضربه بسيفه، إذ شدَّ عليه سالم مولى عبيد الله، فصاح به: قد رهقك العبد، فلم يأبه له حتَّى غشيه، فبدره بالضربة، فاتقاه عبد الله بيده اليسرى، فأطار أصابع كفّه، ثمَّ مال عليه عبد الله، فضربه حتَّى قتله.

ثمَّ أقبل يرتجز وهو يقول، وقد قتلهما جميعاً:

إن تنكروني فأنا ابن الكلبي   حسبي ببيتي في عليم، حسبي
إنِّي امرؤ ذو مرَّة وعصبِ   ولستُ بالخوار عند النكبِ

ولم يرجع إلى المخيَّم، بل بقي يهجم على العدوّ، ويقاتل، وفيما هو كذلك، إذ رأى زوجته وقد أقبلت نحو الميدان وهي تحمل عموداً وتقول له: فداك أبي وأُمِّي، قاتل دون الطيِّبين، ذرِّية محمَّد ﷺ.

فحاول ردّها إلى المخيَّم، فامتنعت وقالت: لن أدعك حتَّى أموت معك.

فناداها الحسين قائلاً: جزيتم من أهل البيت خيراً، إرجعي رحمكِ الله، ليس الجهاد على النساء، فرجعت.

أمَّا هو فواصل القتال حتَّى قُتل[1].

ولمَّا قُتل الرجل، التفت الحرّ بن يزيد الرِّياحي إلى ولده الذي انضمَّ إلى الحسين معه، وقال له: إحمل يا بُنيَّ على القوم الظالمين، فخرج الغلام إلى الميدان، ولم يزل يقاتل حتَّى قُتل.

فلمَّا رآه أبوه مقتولاً، قال: الحمد لله الذي منَّ عليك بالشهادة، بين يدي ابن بنت رسول الله[2].

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص430؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص289؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص182.

(2) ينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص76؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص369.

ثمَّ إنَّ أبي الشعثاء يزيد بن زياد بن المهاصر الكندي استأذن الحسين في أن يرمي القوم بسهامه، فأذن له.

وكان الرجل سابقاً من جنود عمر بن سعد، فلمَّا ردّوا على الحسين ما عرض عليهم من أُمور لتجنُّب القتال، عدل إلى جبهة الحسين، فوقف بين يدي أبي عبد الله وأخذ يرمي العدوّ، وكلَّما رمى قال له الحسين: اللَّهمَّ سدِّد رميته، واجعل ثوابه الجنَّة. وعندما أكمل سهامه، حمل على القوم وهو يقول:

أنا يزيد وأبي المهاصرْ أشجعُ من ليثٍ بغيل خادرْ
يا ربِّ إنِّي للحسين ناصرْ ولابن سعد تارك وهاجرْ

وقاتل حتَّى قُتل[1].

✻

واستمرَّ القتال بين الطرفين بين كرّ وفرّ، وكان بعض أصحاب عمر بن سعد يهجمون أحياناً من الأطراف، فيصدَّهم أصحاب الحسين، وأحياناً كان يتمّ القتال بطريقة المواجهة بين الأفراد.

فقد حمل عمرو بن الحجَّاج الزبيدي، وهو قائد ميمنة عمر بن سعد، على أصحاب الحسين، فلمَّا دنوا منهم جثى أصحاب الحسين على الركب، وأشرعوا الرماح نحوهم، فلم تقدم خيلهم على الرماح ورجعت، فرشقهم أصحاب الحسين بالنبل، فصرعوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين.

كما أنَّ شمر بن ذي الجوشن أيضاً هاجم على ميسرة الإمم،

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص293؛ وجمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص405؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص446.

فاستقبلهم أصحاب الحسين بالرماح، فلم تقدم خيلهم عليها، فانصرفوا راجعين، فرموهم بالنبل وصرعوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين.

✵

وخرج من أصحاب الحسين برير بن خضير إلى الميدان، وأخذ يرتجز ويقول:

أنا بريرٌ وفتى خضيرِ   أضربكم ولا أرى من ضيرِ
يَعرف فينا الخيرَ أهلُ الخير   كذاك فعلُ الخيرِ من بريرِ

وكان من عباد الله الصالحين، فحمل وقاتل قتالاً شديداً وهو يقول: إقتربوا منِّي يا قتلة المؤمنين، إقتربوا منِّي يا قتلة أولاد البدريِّين، إقتربوا منِّي يا قتلة عترة خير المرسلين.

فبرز إليه رجل يُقال له يزيد بن معقل، فقال لبرير: يا برير؛ كيف ترى صنع الله بك؟

قال برير: صَنَع الله بي خيراً، وصنع بك شرّاً.

قال الرجل: كذبت، وقبل اليوم ما كنت كذَّاباً، هل تذكر وأنا أُماشيك في بني لوذان وأنت تقول: إنَّ عثمان بن عفَّان كان على نفسه مسرفاً، وأنَّ معاوية بن أبي سفيان ضالّ مضلّ، وأنَّ إمام الهدى والحقّ علي بن أبي طالب؟

فقال له برير: أشهد أنَّ هذا رأيي وقولي.

فقال له يزيد بن معقل: فإنِّي أشهد أنَّك من الضالين.

فقال له برير بن خضير: هل لك أن أباهلك على أن يلعن الله الكاذب، ويقتل المبطل؟

فقبل الرجل، وتباهلا على أن يلعن اللَّهُ الكاذب، وأن يقتل المحقّ منهما من هو على الباطل. ثمَّ تبارزا، فاختلفا ضربتين، فضرب يزيد بن معقل على رأس برير بن خضير ضربة بسيفه، فلم يضرُّه شيئاً، وضربه برير ضربة قدَّت المغفر، وبلغت الدماغ، وسقط والسيف في رأسه.

وفيما كان برير مشغولاً بالرجل، حمل عليه رضي بن منقذ العبدي، فاعتنق بريراً واعتركا ساعة، واستطاع برير أن يصرعه ويجلس على صدره، لكن زميلاً للعبدي واسمه كعب بن جابر الأزدي حمل على برير بالرمح وضربه في ظهره حتَّى غيَّب السنان فيه، فلمَّا أحسَّ برير بذلك نزل عن صدر رضي بن منقذ بعد أن عضَّ أنفه وقطع ظفره، ولكنَّه ضعف وسقط على الأرض، فأقبل عليه كعب بن جابر، فضربه بسيفه حتَّى قتله.

ولمَّا رجع قاتل برير إلى امرأته، قالت له: أعنتَ على ابن فاطمة، وقتلت بريراً سيِّد القرَّاء، لا أُكلِّمك أبداً[1].

وحينما التقى قاتل برير ابن عمّه، قال له: ويلك يا كعب، أقتلت برير بن خضير، بأيِّ وجه تلقى ربّك غداً؟

فندم الرجل، ولكنَّه كعادة كلّ الطغاة والقتلة في التاريخ، ألقى مسؤولية ذلك على ربّه وقال:

فلو شاء ربِّي ما شهدتُ قتالَهم
ولا جَعل النعماءَ عند ابنِ جابر

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص290؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص433؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص16.

لـقـد كـان ذاك الـيـوم عـاراً وسـبَّـة
يـعـيِّـره الأبـنـاء عـنـد الـمـعـاشـر
فيا ليتَ أنِّي كنت في الحرب حفنة
ويـوم حـسـيـنٍ كـنـتُ فـي رمـس قـابـر
ويـا سـوأتـاه مـاذا أقـول لـخـالـقـي
وما حجَّتي يوم الحساب القماطر[1].

وكان في ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[2].

❁

وبعد برير برز الحرّ بن يزيد الرياحي بعد أن استأذن الحسين، وكان يرتجز ويقول:

إنِّي أنا الحرُّ ومأوى الضيفِ   أضربُ في أعناقكم بالسيفِ
عن خيرِ من حلَّ بأرض الخيفِ   أضربكم ولا أرى من حيفِ[3]

وكان الحرّ رجلاً يُضرب به المثل في الشجاعة، ويستطيع أن يواجه الجموع، فكيف بالأفراد. ولذلك فقد قَتَل كلّ من برز إليه، وإنَّ دمائه تسيل وفرسه لمضروب على أذنيه وحاجبه. فقال الحصين بن نمير ليزيد بن سفيان: هذا الحرّ الذي كنت تتمنَّى قتله.

قال: نعم؛ فخرج إليه يزيد بن سفيان، فقال للحرّ: هل لك يا حرّ في المبارزة؟

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص189؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص12؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص16.
(2) سورة الأنعام، آية 148.
(3) المناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص100؛ ونفس المهموم، للقمّي، ص263.

قال الحرّ: نعم، قد شئت.

فتبارزا، وما لبث أن صرعه الحرّ، فكأنَّما كانت نفسه في يده[1].

ثمَّ تحرَّز منه أهل الكوفة، فلم يبرز إليه أحد، فرفع صوته قائلاً: «يا أعداء الله تعالى وأعداء رسوله، كتبتم إلى الحسين وزعمتم أنَّكم لتنصرونه، فلمَّا جاءكم وثبتم عليه لتقتلوه وغررَّتم به؟ لا أنالكم الله شفاعة جدّه يوم القيامة».

ثمَّ حمل عليهم، وهو يقول:

أكونُ أميراً غادراً وابنَ غادر إذا كنتُ قاتلتُ الحسين ابن فاطمهْ
ونفسي على خذلانه واعتزاله وبيعة هذا الناكث العهد لائمهْ
فيا حسرتا أن لا أكون نصرته على كلّ نفس لا تواسيه نادمهْ
أهمّ مراراً أن أسير بجحفلٍ إلى فئة زاغت عن الحقّ ظالمهْ

ثمَّ غاص في أوساط الأعداء، فقتل رجالاً، ونكَّس أبطالاً، حتَّى تجاوز من قتل الأربعين[2].

ثمَّ رجع إلى مخيَّم أصحاب الحسين، وهو يقول:

هو الموتُ فاصنعْ ويك ما أنت صانعُ
فأنت بكأس الموت لا شكَّ كارعُ
وحامي عن ابن المصطفى وحريمه
لعلَّك تلقى حصد ما أنت زارعُ

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص435؛ والعبرات، للمحمودي، ج2، ص31.
(2) معالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص366.

لقد خابَ قومٌ خالفوا اللَّه ربّهم
يريدون هدم الدِّين والدِّين شارعُ
يريدون عمداً قتل آل محمَّد
وجدّهم يوم القيامة شافعُ(١)

وبقي الحرّ في المخيَّم يعالج جراحاته فيه.

❋

وفيما كانت المعركة قائمة، والحرب سجال بين أصحاب الحسين وأعدائه، التفتت أُمّ وهب بن عبد الله بن جناب الكلبي، وكان نصرانيّاً قد أسلم على يد الحسين قبل سبعة عشر يوماً من عاشوراء، جاءت إلى ولدها، وقالت له:

«قم يا بُنيَّ فانصر ابن بنت رسول الله.

فقال وهب: أفعل يا أُمَّاه، ولا أُقصِّر إن شاء الله.

ثمَّ برز وهو يقول:

إن تنكروني فأنا ابن الكلبي	**سوف تروني وترونَ ضربي**
وحملتي وصولتي في الحربِ	**أدرك ثاري بعد ثأر صحبي**
وادفع الكرب بيوم الكربِ	**فما جلادي في الوغى باللّعبِ**

فلم يزل يقاتلهم مستميتاً في الدفاع عن الحقّ حتَّى صرع جماعة منهم، ثمَّ رجع إلى أُمّه ومعها زوجته، ووقف عليهما قائلاً: يا أُمَّاه، أرضيتِ عنِّي؟

---

(1) المقتل، لأبي مخنف، ص78؛ وأسرار الشهادة، للدربندي، ص290.

فقالت: لا والله ما رضيت، حتَّى تُقتل بين يدي ابن بنت رسول الله.

فلمَّاهمَّ بأن يعود مرَّة أُخرى إلى المعركة تعلَّقت به زوجته قائلة: أسألك بالله أن لا تفجعني بنفسك.

وكان قد دخل بها قبل عشرة أيَّام فقط من ذلك اليوم.

فقالت له أُمّه: اعزب عن قولها، وارجع وقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله، لتنال شفاعة جدّه يوم القيامة.

فتقدَّم وهو يقول:

إنِّي زعيمٌ لكِ أُمّ وهْبِ   بالطعن فيهم تارة والضَّرْبِ
ضرب غلام مؤمنٍ بالرَّبِّ   حتَّى يذيق القومَ مرّ الحرْبِ

ولم يزل يقاتل حتَّى قطعت يمينه، فلم يبال، وجعل يقاتل حتَّى قطعت شماله، وفيما هو كذلك، إذا به يسمع زوجته من خلفه تقول له، وقد حملت عموداً من أعمدة الخيمة: «يا وهب، فداك أبي وأُمِّي، قاتل دون الطيِّبين، حرم رسول الله.

فالتفت إليها وقال: الآن كنتِ تنهينني عن القتال، والآن تحرِّضيني على ذلك؟

قالت: «يا وهب، لقد عفت الحياة، وتركت الدُّنيا، منذ أن سمعت الحسين وهو ينادي: وآغربتاه، وآقلَّة ناصراه، أما من ذابّ يذبُّ عنَّا، أما من مجير يجيرنا»؟

فأرجعها وهب إلى الخيمة، وعاد إلى الميدان فقاتل حتَّى قُتل.

ولمَّا رأت زوجته مصرعه ركضت إليه، وجلست عند جثَّته

تمسح الدم والتُّراب عن وجهه، فأبصرها شمر بن ذي الجوشن، فأمر غلاماً له يُقال له رستم، فضربها بالعمود حتَّى شدخها، وقتلها وهي على جثَّة زوجها.

وكانت أوَّل امرأة تقتل من أصحاب الحسين.

وتوغّلاً في الجريمة عمد أصحاب عمر بن سعد إلى جثَّة وهب وقطعوا رأسه، ورموا به إلى أُمَّه التي كانت واقفة بباب الخيمة، فأخذت الرأس، فقبَّلته ومسحت ما به من الدم، وقالت له: هنيئاً لك الجنَّة.

ثمَّ شدَّت على الأعداء وهي تحمل عمود الفسطاط، وقتلت به رجلين.

فجاء إليها الحسين عليه السلام وقال لها: إرجعي يا أُمّ وهب، فإنَّ الجهاد مرفوع عن النساء.

فرجعت وهي تقول: إلهي لا تقطع رجائي.

فقال لها الحسين: لا يقطع الله رجائكِ يا أُمّ وهب، أنتِ وولدكِ مع رسول الله وذرِّيته في الجنَّة[1].

❁

وهكذا كان أصحاب الحسين عليه السلام يخرج الواحد تلو الآخر إلى القتال دفاعاً عن الحقّ والعدل والإيمان، وكان كلّ واحد منهم

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص13؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص17؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص388.

يكشف عن بصيرته من خلال أبياته التي يرتجزها في القتال، كما كانوا يكشفون عن نبلهم ووفائهم وثباتهم بقتالهم حتَّى الموت.

فقد خرج عمرو بن قرضة الأنصاري يقاتل دون الحسين وهو يرتجز ويقول:

قد علمتْ كتيبةُ الأنصارِ أنِّي سأحمي حوزة الذمارِ
ضرب غلامٍ غير نكس شارِ دون حسينٍ مهجتي وداري[1]

وكان هذا الرجل ممَّن يقف أحياناً أمام الحسين، يتَّقي السهام والضربات بيده ومهجته[2].

وفي قتاله استطاع أن يصرع رجالاً ويجرح آخرين، ثمَّ قُتل.

وكان مع عمر بن سعد أخ لهذا الرجل اسمه عليّ بن قرضة، فنادى الرجل: يا حسين؛ أضللت أخي، وغررته حتَّى قتلته؟

فقال الحسين: إنَّ الله لم يضلّ أخاك، ولكنَّه هدى أخاك، وأضلَّك.

فغضب عليّ بن قرضة، وقال: قتلني الله إن لم أقتلك أو أموت دون ذلك، فحمل على الحسين، فاعترضه نافع بن هلال، فطعنه، فصرعه، ولكنَّه لم يُقتل، فحمله أصحابه واستنقذوه[3].

❁

ومن أصحاب البصائر الذين قاتلوا مع الحسين بشجاعة نادرة

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص434.
(2) اللهوف، لابن طاوس، ص108.
(3) التاريخ، للطبري، ج5، ص434.

حتَّى قُتلوا، نافع بن هلال الجملي، فقد دخل الميدان وهو يرتجز قائلاً:

أنــا هــلال الــجــمــلــي أنــا عــلــى ديــن عــلــيّ
أضــربــكــم بــمــنــصــلــي تــحــت عــجــاج الــقــسـطـلـي

وبعد قتال عنيف مع الأعداء قُتل نافع بن هلال[1].

❁

وكان ممَّا يثير الدهشة أنَّ الحسين وأصحابه كانت تشرق ألوانهم، وتسكن نفوسهم، كلَّما اشتدَّ بهم الأمر، حتَّى أنَّ البعض من الأعداء قال: انظروا، لا يبالون بالموت.

ولقد قال لهم الحسين: «صبراً بني الكرام، فما الموت إلَّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرَّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة، فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر؟ وما هو لأعدائكم إلَّا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب».

وأضاف: «إنَّ أبي حدَّثني عن رسول الله ﷺ أنَّ الدُّنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر، والموت جسر هؤلاء، أي المؤمنين، إلى جنانهم.. وجسر هؤلاء، أي الكافرين، إلى نيرانهم، ما كذبت ولا كُذِّبت»[2].

والحقّ أنَّ أصحاب الحسين كانوا من أشجع من عرفتهم البشريَّة، كما قال الشاعر:

قــومٌ إذا نُــودوا لــدفــع مــلــمَّــةٍ والخيلُ بين مُدعّسٍ ومُكردسِ

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص15؛ والإرشاد، للمفيد، ج2، ص107.
(2) معاني الأخبار، للصّدوق، ص289؛ ووسيلة الدارين، للزنجاني، ص92.

لبسوا القلوبَ على الدروعِ كأنَّهم   يتهافتونَ على ذهابِ الأنفسِ[1]

ولقد وصف أحد رجال عمر بن سعد شجاعة أصحاب الحسين وبسالتهم، فقال: «ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية، تحطِّم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنيَّة، فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها»[2].

ولقد استطاعت تلك القلَّة القليلة من أصحاب الحسين أن يكثروا القتل في أهل الكوفة ويجندلوهم، ولو استمرَّت المواجهات الفرديَّة لكانت الغلبة لهم قطعاً، لقوَّة بأسهم ولأنَّهم كانوا قوماً مستميتين، إذ لم يكن لهم عاصم إلَّا سيوفهم.

فقد برز إليهم مسلم بن عوسجة، وهو يرتجز ويقول:

إن تسألوا عنِّي فإنِّي ذو لبدْ   من فرع قوم من ذرى بني أَسدْ

فمن بغانا حائدٌ عن الرشدْ   وكافرٌ بدينِ جبَّار صَمَدْ

فقتل كلّ من برز إليه، ولمَّا رأى قادة جيش العدوّ أن لا أحد يستطيع أن يواجه هذا البطل، صاح عمرو بن الحجَّاج بأصحابه قائلاً: «أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان المصر، وأهل البصائر، وقوماً مستميتين، لا يبرز إليهم أحد منكم إلَّا قتلوه على قلَّتهم. والله لو لم ترموهم إلَّا بالحجارة لقتلتموهم».

---

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص403؛ واللهوف، لابن طاوس، ص112.

(2) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج3، ص263؛ ونفس المهموم، للقمِّي، ص302.

فقال عمر بن سعد: «صدقت، الرأي ما رأيت، أرسل في الناس من يعزم عليهم أن لا يبارزهم رجل منهم، ولو خرجتم إليهم وحداناً لأتوا عليكم».

فحمل عمرو بن الحجَّاج على ميمنة الحسين، فثبتوا له وجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح، فولّوا هاربين وتعقَّبهم أصحاب الحسين، فحدثت البلبلة في صفوفهم، فصاح عمرو بن الحجَّاج في أصحابه: قاتلوا من مرق عن الدِّين وفارق الجماعة.

فصاح به الحسين: «ويحك يابن الحجَّاج، أعليَّ تحرِّض الناس؟ أنحن مرقنا من الدِّين وأنت تقيم عليه؟ ستعلمون إذا فارقت أرواحنا أجسادنا من أولى بصلي النار».

وعاد عمرو بن الحجَّاج من نحو الفرات، وهاجم على مخيَّم الحسين، فاقتتلوا ساعة، وفيها قتل مسلم بن عوسجة، فشدَّ عليه مسلم بن عبد الله الضبابي، من أصحاب عمر بن سعد، ومعه شخص آخر يعاونه اسمه عبد الله بن خشكارة البجلي، فثارت لشدّة الجلاد غبرة شديدة، وما انجلت الغبرة إلَّا ومسلم بن عوسجة صريع وبه رمق، فمشى إليه الحسين ومعه حبيب بن مظاهر الأسدي فقال له الحسين: رحمك الله يا مسلم، ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾[1].

ودنى حبيب بن مظاهر من مسلم بن عوسجة، وهو صريع على الأرض، فقال له: عزَّ عليَّ مصرعك يا مسلم، أبشر بالجنَّة.

فقال مسلم بصوت ضعيف: بشَّرك الله بخير.

---

(1) سورة الأحزاب، آية 23.

فقال له حبيب: لولا أنِّي أعلم أنِّي في الأثر، لأحببت أن توصي إليَّ بما أهمَّك.

فقال مسلم ـ وهو يشير إلى الحسين بإصبعه ـ: أوصيك بهذا أن تموت دونه.

فقال حبيب: أفعل وربّ الكعبة.

ثمَّ فاضت روح مسلم بن عوسجة بينهما.

ولمَّا علمت جارية لمسلم أنَّ سيِّدها قد قُتل صرخت قائلة: وآمسلماه، وآسيِّداه، يابن عوسجتاه.

فتنادى أصحاب عمر بن سعد فرحين مسرورين: قتلنا مسلماً.

فقال لهم شبث بن ربعي، من قادة جيش ابن زياد: «ثكلتكم أُمَّهاتكم، أيقتل مثل مسلم بن عوسجة وتفرحون؟ لربّ موقف له كريم في المسلمين، فقد رأيته يوم أذربيجان وقد قتل ستّة من المشركين، قبل أن تلتأم خيول المسلمين»[1].

❁

وبعد أن قُتل أكثر أصحاب الحسين أمر عمر بن سعد ميمنته وميسرته بالهجوم على مخيَّم الحسين، أمَّا أصحاب الحسين فأخذ الواحد تلو الآخر، وربَّما كان كلّ اثنين منهم يخرجان معاً ويقاتلان ويُقتلان، وكان ذلك يُبيِّن فيهم لقلَّتهم. بينما كان يُقتل من أصحاب عمر بن سعد العشرة، فلا يُبيِّن ذلك فيهم لكثرتهم[2].

ثمَّ إنَّ عمر بن سعد أمر باختراق مخيَّم الحسين، وهدم خيامه

---

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص297؛ والبحار، للمجلسي، ج45، ص20؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص290.

(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص17؛ ولواعج الأشجان، ص155.

حتَّى يحيطوا بهم من كلِّ جانب، فحمل شمر بن ذي الجوشن مع جماعة من رجاله على ذلك المخيَّم، كما هجم عمرو بن الحجَّاج الزبيدي مع من معه من طرف آخر، ممَّا اضطرَّ أصحاب الحسين إلى أن يقوم الثلاثة والأربعة منهم بتخلّل الخيام. فكلَّما اقترب أحد من الأعداء كانوا يشدّون عليه، بينما هو ينهب أو يدمِّر الخيمة، فيقتلونه ويرمونه من قريب.

وكان شمر في مقدِّمة من وصل إلى المخيَّم، واستطاع أن يطعن فسطاط الحسين برمحه، ونادى: عليَّ بالنار حتَّى أحرق هذا البيت على أهله. فصاحت بنات رسول الله ﷺ، وولولنَ، وخرجن من الفسطاط.

فقال له الحسين: ويحك، أتدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي؟

وقال شبث بن ربعي لشمر: «أمرعباً صرت للنساء؟ يا سبحان الله؛ ما رأيت مقالاً أقبح من مقالك، ولا موقفاً أسوأ من موقفك.

فاستحى شمر من صاحبه، فحمل عليه زهير بن القين في عشرة من رجال الحسين عليه السلام، فكشفوه هو وأصحابه عن المخيَّم[1].

❁

صلاة الحسين عليه السلام:

ولمَّا دنى وقت الصلاة، لاحظ أبو ثمامة الصيداوي أنَّ الشمس قد زالت، فقال للحسين: «يا أبا عبد الله؛ نفسي لك الفداء،

---

(1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص402؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص439؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص397.

إنِّي أرى هؤلاء القوم قد اقتربوا منك، لا والله لا تُقتل حتَّى أُقتل دونك، وأُحبّ أن ألقى الله وقد صلَّيت هذه الصَّلاة التي دنا وقتها معك».

فرفع الحسين رأسه إلى السَّماء وقال له: «ذكرت الصَّلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين، نعم هذا أوَّل وقتها.

ثمَّ قال لأصحابه: سلوهم أن يكفّوا عنَّا حتَّى نصلِّي.

فقالوا لأصحاب عمر بن سعد: كفّوا عن القتال حتَّى نصلِّي.

فقال الحصين بن نمير وهو يوجِّه كلامه إلى الحسين: إنَّها لا تقبل منك.

فقال له حبيب بن مظاهر: زعمت أنَّ الصَّلاة لا تقبل من آل رسول الله، وتقبل منك يا خمَّار؟

فغضب الحصين، وحمل على حبيب بن مظاهر، فضرب حبيب وجه فرسه بالسيف، فشبَّ به الفرس ووقع عنه الحصين، فاحتوشه أصحابه فاستنقذوه[1].

ثمَّ هجم أصحاب عمر بن سعد على حبيب وشبَّت المعركة، فخاضها حبيب وهو يرتجز ويقول:

أنا حبيبٌ وأبي مظاهر فارسُ هيجاءٍ وحرب تَسْعرْ
وأنتُمُ أعدّ عدَّة وأكثرْ ونحن أعلى حجَّة وأظهرْ
وأنتُمُ عند الوفاء أغدرْ ونحن أولى منكُمُ وأصبرْ
حقّاً وأنمى منكم وأعذرْ

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص17؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص301.

فحمل عليه أحدهم وهو من بني تميم، فطعنه برمحه، فذهب حبيب ليقوم، فضربه الحصين بن نمير على رأسه بالسيف، فوقع، ونزل إليه ذلك الرجل التميمي فاحتزَّ رأسه، فهدَّ مقتله الحسين، فقال: عند الله أحتسب نفسي وحماة أصحابي[1].

ثمَّ أشار إليه قائلاً: رحمك الله يا حبيب، لقد كنت تختم القرآن في ليلة واحدة، وأنت فاضل[2].

وكان حبيب بن مظاهر أوَّل شهيد قدَّمه الحسين من أجل إقامة الصلاة في يوم عاشوراء.

وبعد مقتل حبيب بن مظاهر وقف الحسين للصَّلاة، فتقدَّم أمامه كلّ من زهير بن القين وسعيد بن عبد الله الحنفي، وكان أكثر أصحاب الحسين قد قُتل، وبقي النصف الأقلّ منهم فصلَّى الحسين بهم صلاة الخوف[3].

❋

وبينما كان الحسين في حالة الصَّلاة، تكالب عليه الأعداء[4]. وأخذوا يرمونه بالنبال، وكلَّما كان يأتي إليه نبل يقدِّم سعيد بن عبد الله الحنفي صدره أو وجهه أو يديه حتَّى يمنعه من الإصابة بالحسين به، فما زالوا يرمونه حتَّى إذا أتمَّ الحسين الصَّلاة كان سعيد

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص19؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص183.

(2) ينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص71.

(3) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص287؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص292.

(4) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص143.

قد أصيب بكثير من النبال، فسقط إلى الأرض وهو يقول: اللَّهمَّ العنهم لعن عاد وثمود، اللَّهم أبلغ نبيّك السَّلام عنِّي، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإنِّي أردت بذلك نصرة ذرِّية نبيّك[1].

ثمَّ توجَّه إلى الحسين قائلاً: أوفيت يابن رسول الله؟

فقال الحسين: نعم، أنت أمامي في الجنَّة.

وفاضت روحه، فوجدوا فيه ثلاثة عشر سهماً، غير الضرب والطعن[2].

وبعد إتمام الصلاة، التفت الحسين إلى أصحابه، فقال: «يا كرام؛ هذه الجنَّة قد فتحت أبوابها، واتصلت أنهارها، وأينعت ثمارها، وهذا رسول الله والشُّهداء الذين قُتلوا في سبيل الله يتوقَّعون قدومكم ويتباشرون بكم، فحاموا عن دين الله ودين نبيّه، وذبّوا عن حرم رسول الله وحرم ذرِّيته، فقد امتحنكم الله تعالى بنا، فأنتم جيراننا وأهل مودَّتنا، فدافعوا بارك الله فيكم عنَّا»[3].

❁

ثمَّ إنَّ الحرّ وزهير بن القين حملا معاً على الأعداء، وقاتلا قتالاً شديداً، فكان إذا شدَّ أحدهما واستلحم وحوصر، شدَّ الآخر حتَّى يخلِّصه، ففعلا ذلك ساعة[4].

---

(1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص21.
(2) مقتل الحسين، للمقرّم، ص304.
(3) مقتل أبي مخنف، ص68؛ وأسرار الشهادة، للدربندي، ص295؛ وينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص72.
(4) التاريخ، للطبري، ج5، ص441؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص184.

ولم يزل الحرّ يقاتل حتَّى عقروا فرسه، ولكنَّه ظلَّ يواجههم راجلاً، وهو يقول:

إن تعقروا بي فأنا ابن الحرِّ أشجع من ذي لبدة هزبري
ولست بالخوَّار عند الكرِّ لكنَّني الثابت عند الفرِّ

وبعد أن أثخن بالجراح حاصروه وصرعوه، فحمله أصحاب الحسين عليه السلام حتَّى وضعوه بين يدي أبي عبد الله، وكان لا يزال به رمق، فجعل الحسين يمسح التُّراب عن وجهه، ويقول: «أنت الحرّ كما سمَّتك أُمّك، أنت الحرّ في الدُّنيا وأنت الحرّ في الآخرة».

وفاضت روحه بين يديه، فرثاه عليّ بن الحسين الأكبر قائلاً:

لَنِعم الحرُّ حرُّ بني رياحِ صبورٌ عند مشتبك الرِّماح
ونعم الحرّ إذ نادى حسين فجاد بنفسه عند الصَّباحِ[1]

وكان للحرّ أخ له اسمه مصعب في عسكر عمر بن سعد، فغضب لمقتل أخيه، وهجم على أصحاب ابن سعد، وقاتلهم حتَّى قُتل[2].

وهكذا فقد قُتل مع الحسين ثلاثة من عائلة الحرّ، وهم الحرّ نفسه، وأخوه، وابنه.

❁

بعد مقتل الحرّ جاء زهير بن القين إلى الحسين مستأذناً، فضرب بيده على منكبه وقال:

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص11؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص186؛ والأمالي، للشجري، ج1، ص167.
(2) معالي السبطين، ج1، ص368، نقلاً عن ناسخ التواريخ.

أقدمْ هُديتَ هادياً مهديّا فاليومَ نلقى جدَّك النبيّا
وحسناً والمرتضى عليّا وذا الجناحين الفتى الكميّا
وأسدَ اللّه الشهيد الحيّا

فأذن له الحسين، فحمل على القوم وهو يقول:

أنا زهير وأنا ابن القينِ أذودكم بالسَّيف عن حسينِ
إنَّ حسيناً أحد السبطينِ من عترة البرّ التقيّ الزَّينِ
ذاك رسول اللّه غير المينِ أضربكم ولا أرى من شينِ[1]

وكعادة غيره من أصحاب الحسين لم يكن يواجه شخصاً واحداً، بل كلَّما خرج أحد منهم احتوشه مجموعة من الأعداء، وهكذا كان بالنسبة إلى زهير الذي هجم عليه بعضهم بالنبل، والبعض الآخر بالرِّماح، والبعض الثالث بالسيوف، أمَّا الذي باشر قتله بعد ذلك فهو كلّ من مهاجر بن أوس التميمي وكثير بن عبد الله الشعبي[2].

ولمَّا صُرع زهير، قال الحسين: «لا يبعدك الله يا زهير، ولعن قاتلك لعنَ الذين مُسخوا قردة وخنازير»[3].

❋

ثمَّ خرج عمرو بن خالد الأزدي، وهو يرتجز ويقول:

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص441؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص20؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج20، ص452.
(2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص403.
(3) العوالم، للبحراني، ج17، ص269؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص26؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص406.

اليوم يا نفسُ إلى الرَّحمنِ تمضينَ بالرَّوح وبالريحانِ
اليومَ تُجزين على الإحسانِ ما كان منكِ غابر الزمانِ
ما خُطَّ باللَّوح لدى الديَّانِ فاليوم زال ذاك بالغفرانِ
لا تجزعي فكلّ حيّ فانِ والصبر أحضى لكِ بالأمانِ[1]

ثمَّ قاتل حتَّى قُتل.

فبرز بعد مقتله ابنه خالد بن عمرو، وهو يرتجز ويقول:

صبراً على الموت بني قحطانِ كي ما تكونوا في رضى الرَّحمنِ
ذي المجد والعزَّة والبرهانِ وذي العُلى والطولِ والإحسانِ
يا أبتا قد صرتَ في الجنانِ في قصر درٍّ حسنِ البنيانِ

ثمَّ قاتل حتَّى قُتل[2].

❁

ثمَّ خرج سعد بن حنظلة التميمي، وهو يرتجز ويقول:

صبراً على الأسياف والأسنَّة صبراً عليها لدخول الجنَّة
وحورُ عينٍ ناعمات هنَّه لمن يريد الفوز لا بالظنَّة
يا نفس للرَّاحة فاجهدنَّه وفي طلاب الخير فارغبنَّه

وقاتل حتَّى قُتل[3].

❁

ثمَّ برز عمير بن عبد الله المذحجي، وهو يرتجز ويقول:

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص14؛ الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص192.
(2) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص193؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص18؛ ولواعج الأشجان، للأمين، ص161.
(3) المناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص101؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص193؛ ونفس المهموم، للقمّي، ص288.

قد علمت سعدُ وحيّ مذحجْ   أنّي لدى الهيجاء غير محرجْ
أعلو بسيفي هامة المدجَّجْ   وأترك القرن لدى التعرُّجْ
فريسة الضبع الأذل الأعرجْ

وقاتل الأعداء، فهجم عليه مجموعة منهم وقتلوه، واشترك في قتله مسلم الضبابي وعبد الله البجلي، ثمَّ قطعوا رأسه[1].

❁

ثمَّ التفت عمرو بن خالد الصيداوي إلى الحسين، فقال: السَّلام عليك يا أبا عبد الله، قد هممت أن ألحق بأصحابي، وكرهت أن أتخلَّف فأراك وحيداً من أهلك قتيلاً.

فقال له الحسين: تقدَّم، فإنَّا لاحقون بك عن ساعة.

فتقدَّم وقاتل حتَّى قُتل[2].

❁

كان أصحاب الحسين يقاتلون عن بصيرة وإيمان وعزيمة، ولذلك فإنَّهم كانوا يواصلون القتال حتَّى آخر قطرة من دمائهم. فلم يستسلم منهم أحد للعدوّ، وإنَّما هنالك أسير واحد فقط أُخذ حيّاً منهم، وهو سوار بن حمير الجابري الهمداني، وسبب وقوعه أسيراً بيد الأعداء أنَّه قاتل قتالاً شديداً، حتَّى امتلأ جسمه بالجراحات وضعف عن القتال، فأخذوه أسيراً، فأراد ابن سعد قتله، ولكن

---

(1) نفس المهموم، للقمّي، ص288؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص193؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص14.
(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص24؛ واللهوف، لابن طاوس، ص109؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص23.

تشفَّع فيه قومه وبقي عندهم جريحاً إلى أن توفِّي على رأس ستّة أشهر[1].

ومن المفارقات إنَّ أصحاب الحسين كانوا من مختلف بقاع الأرض، ومختلف القبائل. فمن الحجاز إلى الكوفة، ومن البصرة إلى اليمن.. كان مع الحسين رجال قاتلوا وقُتلوا، فقد خرج عبد الرحمن بن عبد الله اليَزَني، وهو من اليمن، وكان يرتجز ويقول:

أنا ابنُ عبد اللَّه من آلِ يزنْ   ديني على دين حسينٍ وحَسَنْ
أضربكم ضرب فتى من اليمنْ   أرجو بذاك الفوز عند المؤتمنْ

فقاتل حتَّى قُتل[2].

وكما كان مع الحسين رجال من جميع القبائل والمدن، كذلك كان معه رجال من جميع الأعمار. فبالإضافة إلى حبيب بن مظاهر الأسدي، الذي كان عمره قرابة التسعين، فقد كان مع الحسين جابر بن عروة الغفاري، وكان شيخاً كبيراً قد شهد مع رسول الله معركة بدر وحنين، وفي كربلاء خرج لمقاتلة أعداء الحسين عليه السلام وقد شدَّ وسطه بعمامته، وشدَّ حاجبيه بعصابة حتَّى رفعهما عن عينيه، فنظر إليه الحسين وقال: شكر الله سعيك يا شيخ.

فحمل على الأعداء وهو يقول:

(1) الأمالي، للشجري، ج1، ص173؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص316.
(2) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص194؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص17؛ والمناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص102.

قد علمت حقّاً بنو غفَّارِ وجندبٌ ثمَّ بنو نزارِ
نصرتُنا لأحمد المختارِ وآله السادة الأبرارِ
صلَّى عليهم خالق الأشجارِ ربُّ البرايا خالقُ الأطيارِ

وقاتل حتَّى قُتل[1].

✵

ثمَّ إنَّ نافع بن هلال الجملي أخذ يرمي الأعداء بما تبقَّى لديه من النبال، فجعل يرمي بها العدوّ ويصيب منهم من يصيب، وكان يقول:

أرمي بها معلَّمة أفواقُها والنفسُ لا ينفعها إشفاقُها
مسمومة تجري لها أخفاقها لتملأنَّ أرضها رشاقها

ولمَّا فنيت نباله، هجم عليهم بالسَّيف، وهو يرتجز ويقول:

أنا هلالٌ وأنا ابن البجلِ ديني على دين حسين وعليْ
أضربكم حتَّى ألاقي أجلي ويختم اللَّه بخيرٍ عمليْ

فقتل إثنا عشر من أصحاب عمر بن سعد، سواءً بنباله أو بسيفه، سوى من جرح منهم، فضربوه بسيوفهم حتَّى كُسرتْ عضداه، وأُخذ أسيراً من قِبل شمر بن ذي الجوشن ومعه أصحاب له يسوقونه،حتَّى أتوا به إلى عمر بن سعد، وكانت الدماء تسيل من رأسه ووجهه وعضديه المكسورتين، فقال له عمر بن سعد: ويحك يا نافع، ما حملك على ما صنعت بنفسك؟

(1) المقتل، لأبي مخنف، ص73؛ وينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص74؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص308.

فقال نافع مستنكفاً الكلام معه: إنَّ ربِّي يعلم ما أردت.

ثمَّ قال: والله لقد قتلت منكم اثني عشر، سوى من جرحت، وما ألوم نفسي على الجهد، ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني.

فقال شمر بن ذي الجوشن لعمر بن سعد: أُقتله، أصلحك الله.

فقال عمر بن سعد: أنت جئت به، فإن شئت فاقتله أنت.

فجرَّد شمر سيفه ليقتله، فقال له نافع: أما والله لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا، وأضاف: الحمد لله الذي جعل منايانا على أيدي شرار خلقه.

فقتله شمر[1].

❁

بعد ذلك تقدَّم كلّ من عبد الله الغفَّاري، وعبد الرحمن الغفَّاري إلى الحسين، فقالا: السَّلام عليك يا أبا عبد الله، أحببنا أن نقتل بين يديك، وأن ندافع عنك.

فقال: مرحباً بكما، أدنوا منِّي، فدنوا منه وهما يبكيان.

فقال لهما الحسين: يا بني أخي، ما يبكيكما، فوالله إنِّي لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري العين؟

فقال الغفاريان: جعلنا الله فداك، لا والله ما نبكي على

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص442؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص292؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص184.

أنفسنا، ولكن نبكي عليك، نراك قد أحيط بك، ولا نقدر أن نمنع عنك.

فقال لهما الحسين: جزاكما الله يا بني أخي، بوجدكما من ذلك، ومواساتكما إيَّاي بأنفسكما، أحسن جزاء المتَّقين.

ثمَّ ودَّعا الحسين وهما يقولان: السَّلام عليك يابن رسول الله.

فقال الحسين: وعليكما السَّلام ورحمة الله وبركاته.

فقاتلا قتالاً شديداً حتَّى قُتلا[1].

✻

وتسارعت وتيرة مقتل الأصحاب، فأخذ الواحد منهم والإثنان يودِّعان الحسين ويقاتلان حتَّى يقتلا. هكذا كان الأمر مع سيف بن الحارث بن سريع الهمداني ومالك بن عبد الله بن سريع ابن عمّه، فقد قاتلا حتَّى قُتلا[2].

✻

وبرز عمرو بن مطاع الجعفي، وهو يرتجز ويقول:

أنا عميرٌ وأبي المطاعُ   وفي يميني مرهفٌ قطَّاعُ
وأسمرٌ سنانُه لمَّاعُ   يرى له من ضوئهِ شُعاعُ
قد طابَ لي في يومي القِراعُ   دونَ حسينٍ وله الدفاعُ

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص24؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص292؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج20، ص453.

(2) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص405؛ وبحارالأنوار، للمجلسي، ج45، ص31؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص292.

وقاتل حتَّى قُتل[1].

✵

ثمَّ خرج يحيى بن سليم المازني، وهو يرتجز ويقول:

لأضربنَّ القوم ضرباً فيصلا ضرباً شديداً في العدى معجَّلا
لا عاجزاً فيها ولا مولولا ولا أخاف اليوم موتاً مقبلا

وقاتل حتَّى قُتل[2].

✵

وبعد مقتله خرج قرَّة بن أبي قرة الغفاري، وهو يرتجز ويقول:

قد علمت حقّاً بنو غفَّارِ وخندفٌ بعد بني نزارِ
بأنِّيَ اللَّيث الهزبر الضاري لأضربنَّ معشر الفجَّارِ
ضرباً وجيعاً عن بني الأخيار

فقتل ثمانية من الأعداء، وقاتل حتَّى قُتل[3].

✵

وخرج بعد استشهاد قرصة رجل من أصحاب الحسين عليه السلام اسمه مالك بن أنس الكاهلي، وهو يقول:

قد علمت كاهلُها ودودانْ والخندفيُّون وقيسُ عيلانْ

---

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص197؛ ونفس المهموم، للقمِّي، ص290؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص25.

(2) العوالم، للبحراني، ج17، ص268؛ والمناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص102.

(3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص18؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص196؛ والمناقب، لابن شهرآشوب، ج8، ص102.

بـأنَّ قـومـي آفـة لـلأقـرانْ وإنَّـني سـيِّدُ تـلـك الـفـرسـانْ

وقاتل حتَّى قُتل[1].

ومع كثرة من قُتل من أصحاب الحسين، إلَّا أنَّ البقيَّة منهم لم يتركوا فرصة إلَّا وحاولوا هداية الأعداء، وتحذيرهم من أن يرتكبوا من الجرائم أكثر ممَّا فعلوه، وكانوا ينذرونهم عذاب النار يوم القيامة، على عكس جماعة عمر بن سعد، حيث كان هدفهم ومنطقهم هدفاً دنيويّاً بحتاً. فما كان يقوله أصحاب عمر بن سعد هو وجوب الخضوع لسلطان يزيد ولزوم البيعة له وإطاعته، وحديثهم كُلّه كان يدور حول الدُّنيا والمال والمنصب، بينما حديث أصحاب الحسين كان يدور حول الحقّ والعدل والثواب والعقاب في يوم القيامة، تماماً كما كان ذلك منطق الأنبياء.

ومن جملة من نصح القوم ووعظهم حنظلة بن أسعد الشبامي، وكان من أواخر من بقي من الأصحاب. فقد وقف بين يد الحسين يقيه السهام والرِّماح والسيوف بوجهه ونحره، وأخذ ينادي بالقوم قائلاً: «يا قوم؛ إنِّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلماً للعباد.

«يا قوم؛ إنِّي أخاف عليكم يوم التناد، يوم تولّون مدبرين، ما لكم من الله من عاصم».

«يا قوم؛ لا تقتلوا حسيناً، فيسحتكم الله بعذاب، وقد خاب من افترى».

(1) الأمالي، للصدوق، ص161؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص25.

وكان حنظلة بن الشبامي هذا قد نصح القوم قبل أن تقع المواجهة بين الطرفين، ولكنَّهم ردّوه بأن شتموه وشتموا أصحابه وسبّوه، فقال له الحسين: يابن أسعد، رحمك الله، إنَّهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحقّ، ونهضوا إليك يشتمونك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين؟

فقال حنظلة للحسين: صدقت جعلت فداك، أفلا نروح إلى ربّنا، فنلحق بإخواننا؟

فقال له الحسين: بلى؛ رُحْ إلى ما هو خير لك من الدُّنيا وما فيها، وإلى ملك لا يبلى.

فقال حنظلة ـ وقد اعتبر ذلك إذناً من الحسين ـ: السَّلام عليك يا أبا عبد الله، وعلى أهل بيتك، وجمع الله بيننا وبينك في الجنَّة.

فقال الحسين: آمين، آمين.

ثمَّ تقدَّم إلى القوم وقاتل قتالاً شديداً، فحمل عليه جماعة من الأعداء، فقتلوه[1].

✸

حقّاً، كان أصحاب الحسين يتنافسون على المنية دفاعاً عن الحقّ، وعن إمام الحقّ، وعن منهج الحقّ، مع علمهم بأنَّهم سيُقتلون بالسيوف والرماح، وتقطع الرؤوس. وهذا ما كان يميِّزهم عن غيرهم من المقاتلين في التاريخ، فلم يكن عندهم أي أملٍ في البقاء أحياء،

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص25؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص292؛ وأعيان الشيعة، للأمين، ج1، ص605.

لكنَّهم كانوا يشعرون بأنَّهم يسقون شجرة مقدَّسة بعث الله الأنبياء والرُّسل لزرعها في الأرض، وأنَّ أعدائهم يحاولون اقتلاعها من الجذور، وهي شجرة الإيمان والتقوى والخير والعدل والصلاح، وكانوا مؤمنين بأنَّ من يكون مع الله يكون الله معه، وأنَّ مصيرهم هو الجنَّة، كما أنَّ مصير أعدائهم النَّار.

فقد أقبل عابس بن أبي شبيب الشاكري، وكان من الصالحين المخلصين لأهل البيت، إلى شوذب مولى شاكر، وقال له: «يا شوذب؛ ما في نفسك أن تصنع»؟

فقال شوذب: «وما أصنع؟ أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله حتَّى أُقتل».

فقال عابس: «ذلك الظنّ بك، أمَّا الآن فتقدَّم بين يدي أبي عبد الله حتَّى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه وحتَّى أحتسبك أنا، فإنَّه لو كان معي السَّاعة أحد أنا أولى به منك لسرَّني أن يتقدَّم بين يدي حتَّى أحتسبه، فإنَّ هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب الأجر فيه بكلِّ ما قدرنا عليه، فإنَّه لا عمل بعد اليوم، وإنَّما هو الحساب».

فتقدَّم شوذب، فسلَّم على الحسين وودَّعه، ثمَّ مضى، فقاتل حتَّى قُتل[1].

وبعد مقتله التفت عابس إلى الحسين وقال: «يا أبا عبد الله؛ والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ عليَّ، ولا أحبّ

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص444؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص312؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص23.

إليَّ منك، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعزّ عليَّ من نفسي ودمي لفعلت».

وقال: «السَّلام عليك يا أبا عبد الله، أُشهد الله أنِّي على هديك وهدي أبيك».

ثمَّ مشى مصلتاً سيفه وبه ضربة على جبينه. فلمَّا رآه الأعداء، صرخ أحدهم قائلاً: «أيُّها الناس، هذا أسد الأسود، هذا ابن أبي شبيب القويّ، لا يخرجنَّ إليه أحد منكم، فهذا من أشجع الناس».

فأخذ عابس ينادي: ألا رجل لرجل؟

فرفضوا جميعاً أن يتقدَّموا إليه.

فقال عمر بن سعد: ارضخوه بالحجارة، فرموه بالحجارة من كلِّ جانب، فلمَّا رأى أن لا أحد منهم يتقدَّم لمقاتلته، ألقى درعه ومغفره.

وتقدَّم إليهم حاسراً، فقال له أحد أصحاب الحسين: أجننت يا عابس؟

قال: إي والله، إنَّ حبّ الحسين أجنَّني!

ثمَّ شدَّ على الأعداء، فانهزموا من بين يديه، فكان يهجم على تلك الكتل البشريَّة، فيفرّون من أمامه، فلم يكن يصل إلى أحد منهم إلَّا ويصرعه.

وبعد أن ضعف وأثخن بالجراح، عطفوا عليه من كلِّ جانب، وضربوه بكلّ ما كانوا يملكون، من السيف والرّمح والنبل، وحتَّى الحجارة، إلى أن صُرع وقُتل.

ثمَّ تكالبوا عليه، فقطعوا رأسه، وأخذوا يتصارعون حول ذلك

الرَّأس، كلّ واحد منهم يقول: أنا قتلته، فأتوا عمر بن سعد، فقال لهم ابن سعد: لا تختصموا، هذا لم يقتله إنسان واحد، بل قتلتموه بأجمعكم، وفرَّق بينهم بهذا القول(1).

✵

لقد كان واضحاً أنَّ الحقّ والعدل والخير والصلاح والإيمان مع الحسين، في مواجهة الباطل، والظلم، والشرّ، والفساد، والنفاق لدى أعدائه. ومن هنا فلا أحد من أصحاب الحسين التحق في يوم عاشوراء بعمر بن سعد، ولكن التحق من أصحاب عمر بن سعد الكثيرون بالحسين، وقاتلوا بين يديه حتَّى قُتلوا، ومنهم بكر بن حي التميمي، فقد كان ممَّن خرج مع ابن سعد لحرب الحسين، ثمَّ مال مع الحسين وقُتل بين يديه(2).

✵

ومن الذين قاتلوا قتالاً شديداً مع البصيرة رجل اسمه يزيد بن معقل، وكان من بني مذحج، وكان أبوه من الصحابة. فقد خرج وهو يرتجز قائلاً:

إن تنكروني فأنا ابن مَغفلْ   شاك لدى الهيجاء غير أعزلْ
وفي يميني نصل سيف مصقلْ   أعلو به الفارس وسط القسطلْ
عن الحسين الماجد المفضّل   ابن رسول اللّه خير مرسلْ

---

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص292؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص444؛ ونهاية الإرب، للنويري، ج20، ص455؛ والبداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص185.

(2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص419.

فقاتل قتالاً شديداً حتَّى قُتل[1].

وكما قاتل مع الحسين رجال من جميع البلدان والأعراق، فقد كان معه جمع من العبيد، الذين لم يميِّز الحسين بينهم وبين غيرهم من الأحرار في التعامل معهم. فهذا جون مولى أبي ذرّ، كان عبداً أسوداً، جاء إلى الحسين ليستأذنه، فقال له الحسين: «أنت في إذن منِّي، فإنَّما تبعتنا للعافية، فلا تبتل بطريقتنا.

فقال له جون: «يابن رسول الله؛ أنا في الرخاء ألحس قصاعكم، فهل في الشِّدَّة أخذلكم؟.. والله إنَّ ريحي لنتن، وحسبي للئيم، ولوني لأسود، فتنفَّس عليَّ بالجنَّة حتَّى يطيب ريحي، ويشرف حسبي، ويبيضّ وجهي».

وأضاف ودموعه تنزل على خدّيه: «لا والله لا أفارقكم حتَّى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم أهل البيت».

فأذن له الحسين عليه السلام، فخرج وهو يقول:

كيف يرى الكفَّارُ ضربَ الأسودِ ... بالسَّيفِ ضرباً عَن بني محمَّدِ
أذبُّ عنهم باللِّسان واليدِ ... أرجو به الجنَّة يوم الموردِ

فقاتل حتَّى قُتل[2].

فجاء الحسين ووقف عليه، وقال: «اللَّهمَّ بيِّض وجهه،

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص419؛ والمناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص103.

(2) اللّهوف، لابن طاوس، ص109؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص22؛ ومثير الأحزان، لابن نما، ص33.

وطيِّب ريحه، وأُحشره مع الأبرار، وعرِّف بينه وبين محمَّد وآل محمَّد»[1].

❁

لقد كان يوم عاشوراء عرس الشهادة حقّاً، وكان أصحاب الحسين عليه السلام ينالون شرف الاستشهاد في سبيل الله فرادى أو جماعات. ففي واحدة من أرع ما شاهده التاريخ في ذلك اليوم أنَّه خرج جماعة من أصحاب الحسين عليه السلام، فيهم عمرو بن خالد الصيداوي، ومولاه سعد، وجابر بن الحارث السلماني، ومجمَّع بن عبد الله العائذي، فشدّوا جميعاً على أهل الكوفة، كأنَّهم يبحثون عن موتهم هم، وليس عن موت أعدائهم، فأوغلوا في الأعداء قتلاً وتنكيلاً حتَّى أمر عمر بن سعد الجيش كُلّه بأن يحاصرهم، فعطفوا عليهم وقطَّعوهم عن أصحابهم، وضاعوا بين الجمع، فندب الحسين إليهم أخاه العبَّاس، فهجم على الأعداء، ففرّوا من بين يديه، وأنقذ أصحابه بسيفه، وقد جرحوا بأجمعهم. وفيما هم عائدون إلى مخيَّم الحسين عليه السلام، هجم عليهم الأعداء وحاصروهم، ولكنَّهم لم يتوانوا، بل شدّوا بأسيافهم مع ما بهم من الجراح، وقاتلوا حتَّى قُتلوا جميعاً في مكان واحد[2].

❁

فيما كان الحسين جالساًوالموت يدور حوله، ويُقتل أصحابه

---

(1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص23؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص304؛ ومقتل أبي مخنف، ص81.

(2) التاريخ، للطبري، ج5، ص446؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص293؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص295.

واحداً بعد واحد، وإذا به يرى شابّاً لم يبلغ الحادية عشرة من عمره بعد، واسمه عمرو بن جنادة الأنصاري يدخل عليه، ولمَّا مَثل أمامه طلب منه الإذن بالقتال، فقال الحسين لمن حوله: «إنَّ هذا غلام قُتل أبوه في المعركة، ولعلَّ أُمْه تكره ذلك».

فقال الغلام: «أبا عبد الله؛ إنَّ أُمِّي هي التي أمرتني بذلك، وألبستني لامة حربي».

فأذن له الحسين، فخرج وهو يرتجز قائلاً:

أميري حسينٌ ونِعْم الأمير سرورُ فؤادِ البشيرِ النذيرْ
عليٌّ وفاطمةٌ والده فهل تعلمون له مِنْ نَظيرْ
له طلعةٌ مثلُ شمسِ الضُّحى له غُرَّةٌ مثلُ بدرٍ مُنيرْ

ولم يُعرف إن كان الشعر منه، أو أنَّ أُمّه هي التي حفّظته إيَّاه، وعلى كلِّ حال فإنَّه انحدر إلى الميدان بلهفة وشوق، وقاتل حتَّى قُتل. فرمى الأعداء برأسه إلى جهة الحسين عليه السلام، فأخذته أُمّه ومسحت الدم عنه، وضربت به رجلاً من الأعداء كان قريباً منها، فمات ذلك الرجل، وعادت إلى المخيَّم، فأخذت عموداً وهجمت على القوم وهي تقول:

إنِّي عجوزٌ في النِّسا ضعيفةْ خاويةٌ باليةٌ نحيفةْ
أضربكم بضربةٍ عنيفةْ دونَ بني فاطمةِ الشريفةْ

فردَّها الحسين عليه السلام إلى الخيمة، بعد أن أصابت بالعمود رجلين من الأعداء(1).

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص315؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص21؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص28.

وكان بعض أصحاب الحسين أحياناً يقاتلون لفترة، وربَّما يتحمَّلون بعض الجراحات فيرجعون إلى الحسين عليه السلام لكي يتزوَّدوا منه، بنظرة إلى وجهه الملائكي، أو ليسمعوا منه كلمة أو كلمتين، ثمَّ يعودون إلى ميدان المعركة ويقاتلون حتَّى ينالوا شرف الشهادة. ومنهم الحجَّاج بن مسروق الجعفي، وكان مؤذّن الحسين، فقد عاد إلى أبي عبد الله، وقد خُضِّب وجهه وصدره بالدماء، وأخذ يقول:

اليومَ ألقى جدّكَ النبيّا ثمَّ أباك ذا الندى عليّا
ذاك الذي نعرفه الوصيّا

فقال له الحسين: وأنا ألقاهما على أثرك، ورجع فقاتل حتَّى قُتل[1].

✵

وكان ممَّن قاتل وقُتل عمرو بن جنادة، فقد خرج وهو يرتجز قائلاً:

أَضِقِ الخناق بابن هندٍ وإرمه في عقره بفوارس الأنصارِ
ومهاجرين مخضّبين رماحهم تحت العجاجة من دم الكفَّارِ
خُضبتْ على عهد النبيّ محمَّد واليوم تُخضبُ من دم الفجَّارِ
خانوا حسيناً والحوادث جمَّة ورضوا يزيداً والرِّضى في النارِ
واللَّهِ ربِّي لا أزال مضارباً في الفاسقين بمرهفٍ بتَّارِ
هذا عليّ اليوم حقٌّ واجب في كلّ يوم تعانق وحوار

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص315؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص413.

فقتل حتَّى قُتل[1].

✻

لقد أبدى أصحاب الحسين من الشجاعة والبسالة والثبات، بمقدار ما كانت لهم من البصيرة والإيمان ممَّا أدهش العدوّ قبل الصديق، فقد رأى أصحاب عمر بن سعد بعد أن قُتل أكثرية أصحاب الحسين رجلاً يقاتل قتالاً شديداً، لا يحمل على قوم إلَّا كشفهم، ثمَّ كان يرجع إلى الحسين ويرتجز قائلاً:

أبشر هديت الرّشد تلقى أحمدا   في جنَّة الفردوس تعلو صعّدا

ثمَّ يعود مرَّة أُخرى إلى الأعداء ويقاتلهم هكذا، حتَّى اعترضه جماعة من جيش عمر بن سعد، بعد أن أثخن بالجراح وتعب، فقتلوه واحتزّوا رأسه. وحينما سألوا عن اسمه تبيَّن أنَّه أبو عمرو النهشلي، وكان رجلاً متهجِّداً، كثير الصَّلاة[2].

✻

لقد كان أصحاب الحسين من النوع النادر في الشجاعة والبصيرة، وكانت بصائرهم تظهر في أرجوزاتهم، كما أنَّ شجاعتهم كانت تظهر في مواجهة الواحد منهم لجيش العدوّ كُلّه.

فهذا مالك بن داود، من أصحاب الحسين، يخرج وهو يرتجز ويقول:

إليكُمُ من مالك الضرغامِ   ضرب فتىً يحمي عن الكرامِ
يرجو ثواب اللَّه بالإنعامِ   سبحانه من ملكٍ علَّامِ

---

(1) مقتل الخوارزمي، ج3، ص121.

(2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص30؛ ولواعج الأشجان، للأمين، ص167.

ويغوص في جيش العدوّ، ويقاتل حتَّى يقتل منهم جماعة، فيحملون عليه بأجمعهم ويقتلونه[1].

✻

ولم تكن شجاعة أصحاب الحسين وبصائرهم مقتصرة على الأحرار وحدهم، بل كان العبيد الذين اشتركوا معهم لا يختلفون في ذلك عنهم فهذا غلام تركي اسمه أسلم، كان قارئاً للقرآن، عارفاً بالعربيَّة، وهو من موالي الحسين، خرج يقاتل القوم وكان يقول:

البحرُ من طعني وضربي يَصْطلي   والجوُّ من سهمي ونبلي يَمتلي
إذا حُسامي في يميني ينجلي   ينشقُّ قلبُ الحاسدِ المبجَّلِ

أو يقول:

اليومَ أسقيكم بكأس الحنظلِ   بصارم ذي شفرةٍ لم يفللِ
في حومة الميدان عند القسطلِ   أذودكم عن الحسينِ بنِ علي

فقتل جماعة من الأعداء، فاحتوشوه من كلِّ جانب وصرعوه، فجاء الحسين إليه وبكى، ثمَّ انحنى ووضع خدَّه على خدّه وكان به رمق، ففتح الغلام عينه واعتنق الحسين، ثمَّ تبسَّم وقال: «من مثلي وابن رسول الله واضع خدَّه على خدِّي»؟

وفاضت نفسه بين يدي الحسين[2].

✻

(1) المقتل، لأبي مخنف، ص74؛ وينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص74.
(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص24؛ وأسرار الشهادة، للدربندي، ص287؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص413.

ثمَّ إنَّه كان يأتي إلى الحسين الرجل بعد الرجل، فيقول: السَّلام عليك يابن رسول الله. فيجيبه الحسين: وعليك السَّلام، ونحن خلفك. ويقرأ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾(1)، ثمَّ يحمل على القوم، فيقاتل حتَّى يُقتل.

وكانوا يجدون في إيمانهم بأهل البيت ذلك الزاد الذي يحتاجون إليه في تلك المواقع، خاصَّة وأنَّهم كانوا يتبادلون الحديث الذي روي عن رسول الله أنَّه قال: «**أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة، الضارب بسيفه أمام ذرِّيتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في حوائجهم، والمحبّ لهم بقلبه ولسانه**»(2).

❁

أمَّا آخر من قُتل من أصحاب الحسين فكان سويد بن عمرو الخثعمي، فقد قاتل حتَّى سقط مثخناً بالجراح ووقع بين القتلى، ولم يعي ما يدور حوله، حتَّى سمع القوم يقولون: قُتل الحسين، فأفاق وأخذ يبحث عن سلاح، فإذا معه سكّين، وكانوا قد أخذوا منه سيفه، فقاتلهم بسكّينه. ثمَّ هجم عليه اثنان من رجال عمر بن سعد وقتلوه برماحهم(3).

وهكذا فقد قُتل كلّ أصحاب الحسين، ولم يبق معه إلَّا أهل بيته من إخوته وأولاده وأولاد أبي طالب وعقيل.

---

(1) سورة الأحزاب، آية 23.

(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص26.

(3) التاريخ، للطبري، ج5، ص453؛ والعبرات، للمحمودي، ج2، ص120.

استشهاد أهل البيت عليهم السلام

حينما جرى الحديث ليلة عاشوراء، بين أصحاب الحسين عن المواجهة المتوقَّعة في النهار، أصرَّ الأصحاب على أن يتقدَّموا على أهل البيت في القتال، ورفضوا رفضاً قاطعاً أن يسمحوا لأحد من هؤلاء أن يُقتل قبلهم، لأنَّهم كانوا يعرفون مقام أهل البيت عند الله وعند رسوله، ولأنَّهم أساساً إنَّما انضمّوا إلى قافلة الحسين عليه السلام لكي يدافعوا عنه وعن أهل بيته، ولكن مع مقتل آخر رجل من الأصحاب، لم يبق مع الحسين سوى أهل بيته، وهم ولد عليّ، وولد جعفر بن أبي طالب، وولد عقيل، وولد الحسن وولد الحسين. فقد اجتمعوا مع بعض، وجعل يودِّع بعضهم بعضاً، وعزموا على الحرب وملاقات الحتوف بنفوس أبيَّة، وروح مطمئنة، وبأس شديد.

لقد كان هؤلاء يحملون صفات آبائهم وأجدادهم، ابتداءً من روح الفروسيَّة والعزم والثبات والشجاعة والكرم والبطولة، وانتهاءً بحبّ الاستشهاد في سبيل الله، ومروراً بكلّ فضائل الهاشميِّين.

وأوَّل من خرج منهم لمواجهة الأعداء ومعانقة الموت هو أعزّ أولاد الحسين عليه، وهو عليّ الأكبر، الذي كان من جهة الأب حفيد رسول الله صلَّى الله وآله وسلَّم، ومن جهة الأُمّ حفيد أبي

سفيان، فأُمّه ليلى بنت أبي مرَّة بن عروة بن مسعود، وأُمّ ليلى هي بنت أبي سفيان.

ومن هنا فقد كان عليّ الأكبر رحماً ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ورحماً أيضاً لعمر بن سعد الذي كان من قريش.

فجاء عليّ الأكبر إلى أبيه مستأذناً منه لخوض القتال، رغبة منه في الرحيل إلى جنَّة الله، ومع أنَّ الحسين كان عازماً على أن يقدِّم أولاده شهداء في سبيل ربّه، إلَّا أنَّ عواطفه هاجت عليه. فقال له: «إرحم غربتنا، ولا تستعجل إلى القتال، فإنَّه ليس لنا طاقة في فراقك». فلم يزل عليّ الأكبر يجهد ويبالغ في طلب الإذن من أبيه حتَّى أذن له[1].

وفيما هو يهمّ بأن ينطلق إلى الميدان، نظر إليه الحسين عليه السلام نظرة آيس منه، وأرخى عينيه بالدُّموع، ثمَّ نظر إلى السَّماء كأنَّه يشكو إلى الله عزَّ وجلَّ ما يفعل به الأعداء، ثمَّ رفع شيبته بيده وقال:

«اللَّهمَّ إشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام هو أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك محمَّد صلَّى الله عليه وآله، وكنَّا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيّك نظرنا إليه».

«اللَّهمَّ امنعهم بركات الأرض، وفرِّقهم تفريقاً، ومزِّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضي الولاة عنهم أبداً، فإنَّهم دعونا لينصرونا، فغدوا علينا يقاتلوننا».

ثمَّ صاح بعمر بن سعد، قائلاً: «ما لك يابن سعد، قطع الله رحمك، ولا بارك الله لك في أمرك، وسلَّط عليك من يذبحك بعدي

(1) الدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص328.

على فراشك، كما قطعت رحمي، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله». ثمَّ تلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

لقد كان الحسين عليه السلام مع كلّ عواطفه تجاه ولده في أتمّ الاستعداد لكي يقدِّمه قرباناً في سبيل الله من أجل تلك المبادىء والقيم والمثُل التي قتل من أجلها كل الصالحين في التاريخ، ومن هنا فإنَّه هو الذي ألبس ولده لامة حربه، وأفرغ عليه درعه ومغفره، وشدَّ وسطه بمحزم ادَّخره من أبيه أمير المؤمنين، وأركبه فرسه المُسمَّى العقاب[2].

كما أنَّ عليّاً الأكبر ودَّع النساء اللَّاتي اجتمعن حوله وتعلَّقن بأطرافه، وودَّع أيضاً أباه وعموم بني هاشم، وظهر في أبهى صورة ممكنة عندما هجم على القوم، وحينما رآه الأعداء، قال أحد أهل الشام له: إنَّ لك بيزيد قرابة ورحماً، فإن شئت أمَّناك، وامض حيث ما أحببت.

فقال عليّ الأكبر: أما والله لقرابة رسول الله أولى أن تُرعى، من قرابة أبي سفيان[3].

وهكذا رفض ذلك الأمان المسموم، كما رفض من قبل عمّه العبَّاس عليه السلام وإخوته، أمان الأعداء.

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان 33 ـ 34.

(2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص337.

(3) نسب قريش، لمصعب الزبيري، ص57؛ وشرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج3، ص153.

فهجم عليهم وهويقول:

أنا عليُّ بنُ الحسينِ بن عليّ نحن ـ وبيتِ اللَّه ـ أولى بالنَّبي
واللَّه لا يحكم فينا ابنُ الدَّعي أَضربكم بالسيف أحمي عن أبي
ضربَ غلامٍ هاشميّ علويّ

فحمل على ميمنة جيش عمر بن سعد، وأجبرهم على الفرار بعد أن قتل بعضاً منهم، ثمَّ حمل على الميسرة وغاص في الأساط، فلم يقابله جحفل منهم إلَّا ردَّه، ولا وقف له شجاع إلَّا وصرعه. ولقد بلغت حملاته تلك إثنتي عشرة حملة، وقتل من الأعداء مقتلة ضجَّ بسببها الناس من كثرة من قتل منهم.

فاشتدَّ به العطش لكثرة الجراح وثقل السلاح، فرجع إلى الحسين قائلاً: «يا أبتاه؛ العطش قد قتلني، وثقل الحديد قد أجهدني، فهل إلى شربة من الماء سبيل، أتقوَّى بها على الأعداء»؟

فدمعت عينا الحسين، وقال: «عُدّ يا بُنيَّ، بارك الله فيك وقاتل قليلاً، فما أسرع ما تلقى جدّك رسول الله، فيسقيك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً[1].

«يا بُنيَّ؛ يعزُّ على جدّك المصطفى، وعلى عليّ المرتضى، وعليَّ، أن تدعوهم فلا يجيبوك، وتستيث بهم فلا يغيثوك»[2].

ثمَّ دفع إليه خاتمه الشريف وقال له: «يا بُنيَّ؛ أمسكه في فمك وارجع إلى قتال عدوّك».

فرجع عليّ الأكبر إلى الحرب مستميتاً في الذبِّ عن دين جدّه

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص339.
(2) معالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص412.

المصطفى وعترته الطاهرة، آيساً من الحياة، عازماً على الموت، وهو يقول:

الحربُ قد بانتْ لها حقائقُ وظهرت من بعدها مصادقُ
واللَّهِ ربِّ العرش لا نفارقُ جموعكم أو تُهمد البوارقُ

وأخذ يكرُّ على القوم كرَّة بعد كرَّة، ويجندل الأعداء جماعة بعد جماعة. فبصر به رجل من الأعداء اسمه «مرَّة بن منقذ العبدي»، فقال لمن حوله: «عليَّ آثام العرب لئن مرَّ بي هذا الغلام، يفعل مثل ما فعل، إن لم أثكله أُمّه».

ثمَّ اختفى بين الجموع، يتحيَّن الفرصة لكي يضربه من حيث لا يحتسب.

وفيما كان عليّ الأكبر يشدُّ على الأعداء، اعترضه مرَّة بن منقذ ورماه بسهم وقع في حلقه فخرقه، ثمَّ ضربه بالسَّيف على أُمّ رأسه، ثمَّ طعنه بالرّمح في ظهره، فاعتنق عليّ الأكبر فرسه، فسال الدَّم على عين الفرس، فلم يبصر الطريق، وبدل أن يأخذه إلى معسكر الحسين، حمله إلى معسكر الأعداء، فتكالبوا عليه وقطَّعوه بسيوفهم إرباً إرباً.

ولمَّا بلغت روحه التراقي رفع صوته قائلاً: «يا أبتاه، عليك منِّي السَّلام، هذا جدِّي رسول الله قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبداً، وهو يقول لك: العجل العجل، فإنَّ لك كأساً مذخورةً حتَّى تشربها الساعة».

ثمَّ شهق شهقة كانت فيها نفسه، وفارقت روحه الدُّنيا. فصاح الحسين بأعلى صوته: وآولداه، فتصارخت النِّساء، فسكّتهنَّ الحسين وقال: إنَّ البكاء أمامكن.

ثمَّ حمل على القوم كأنَّه صقر ينقضّ على فريسته، ففرَّقهم، وكان في طريقه يلهج بذكر ولده ويكثر من قوله: ولدي عليّ، ولدي عليّ، حتَّى وصل إليه، فأخلى رجليه معاً من الركاب، ورمى بنفسه على جسد ولده، وأخذ رأسه، فوضعه في حجره، وجعل يمسح الدم والتُّراب عن وجهه. ثمَّ انكبَّ عليه ووضع خدَّه على خدّه، وقال: «يا بُنيَّ؛ قتل الله قوماً قتلوك، ما أجرأهم على الرَّحمن، وعلى انتهاك حرمة الرَّسول».

ثمَّ انهملت عيناه بالدُّموع وقال: «على الدُّنيا بعدك العفى يا بُنيَّ، أما أنت فقد استرحت من همّ الدُّنيا وغمّها، وصرت إلى روح وريحان، وجنَّة ورضوان، وبقي أبوك لهمّها وغمّها، فما أسرع لحوقه بك».

فخرجت عمَّته زينب وهي تنادي: وآولداه، وآغربتاه، وآمهجة قلباه، ليتني وسدت الثرى.

فوثب إليها الحسين وردَّها إلى الخيمة، وهو يكرِّر من قوله: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون(1).

وجاؤوا به إلى الفسطاط الذي يقاتلون أمامه، وكان عليّ الأكبر أوَّل من قُتل من ولد أبي طالب(2).

❋

بعد مقتل عليّ الأكبر، بدأ رجال أهل البيت يتسابقون لنيل الشهادة في سبيل الله، فكان أوَّل من خرج بعده هو عبد الله بن مسلم بن عقيل، فقد دخل حومة الميدان، بينما كانت أُمّه رقيَّة بنت

(1) مقتل الحسين، لأبي مخنف، ص83.
(2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص350؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص447.

الإمام عليّ واقفة بباب الخيمة تنظر إليه، فأطلق العنان مسرعاً إلى الأعداء وهو يرتجز قائلاً:

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي وعُصبةً بادوا على دين النبيّ
ليسوا بقومٍ عُرفوا بالكذبِ لكنْ خيارٌ وكرامُ النسبِ
من هاشم السَّادات أهل الحسبِ

واستطاع في ثلاثة حملات أن يصرع جماعة من الأعداء، فأخذوا يرمونه من بعيد، وجاءه سهم رماه رجل اسمه عمرو بن صبيح، فاتقاه عبد الله بن مسلم بيده، فسمَّرها إلى جبهته، وكلَّما حاول أن يزيل السهم ما استطاع، فرفع صوته قائلاً: «اللَّهمَّ إنَّهم استقلّونا واستذلّونا، فاقتلهم كما قتلونا، وأذلّهم كما أذلّونا».

وبينما هو بهذا الحال، إذ حمل عليه رجل برمحه فطعنه في قلبه، فسقط شهيداً على الأرض وفارقت روحه الدُّنيا. فجاء عمرو بن صبيح الذي رماه بالسهم، فحاول أن يخرج سهمه من جبهته، فلم يستطع أن يفعل ذلك، إذ بقي النصل داخل جبهته[1].

ولمَّا جاء الحسين إلى جثَّته، قال: «اللَّهمَّ أقتل قاتل آل عقيل».

ثمَّ التفت إلى من بقي من أهل البيت وقال: «احملوا عليهم بارك الله فيكم، وبادروا إلى الجنَّة التي هي دار الإيمان»[2].

❁

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص371؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص26.

(2) ينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص73.

وبعد مقتل عبد الله خرج أخوه محمَّد بن مسلم بن عقيل، وقاتل قتال الأبطال كأخيه، ثمَّ اجتمع عليه جماعة من الأعداء وقتلوه[1].

وبعد قتله حمل جملة من آل أبي طالب حملة واحدة على العدوّ، فقال لهم الحسين عليه السلام: «صبراً على الموت يا بني عمومتي، والله لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم».

فوقع منهم كثيرون صرعى، وكان منهم الحسن ابن الإمام الحسن السبط، الملقَّب بالمثَّنى، فقد أصابه ثمانية عشر جراحة بين يدي عمّه، كما قطعت يده اليمنى، لكنَّه لم يمت، بل أسروه. وتوسَّط أسماء بن خارجة، وهو خال الحسن المثَّنى، فقبل عمر بن سعد وساطته وقال: «دعوا لأبي حسَّان ابن أُخته، ومات بعد حين»[2].

❁

وبعد ذلك خرج عبد الرحمن بن عقيل، فحمل على القوم وهو يقول:

أبي عقيل فاعرفوا مكاني   من هاشم وهاشم إخواني

فينا حسين سيِّد الأقرانِ   وسيِّد الشباب في الجنانِ

فقاتل حتَّى قُتل[3].

❁

(1) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص62.

(2) مقتل الحسين، للمقرّم، ص328؛ وإسعاف الراغبين، للصبَّان، ص201.

(3) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص26؛ وتسلية المجالس، لمحمَّد بن أبي طالب، ج2، ص303؛ والبحار، للمجلسي، ج45، ص33.

ثمَّ خرج جعفر بن عقيل بن أبي طالب، فحمل على الأعداء وهو يقول:

أنا الغلام الأبطحي الطالبي من معشر في هاشم وغالبِ
فنحن حقّاً سادة الذوائبِ فينا حسين أطيب الأطايبِ

فرموه بالسهام وقتلوه[1].

ثمَّ برز عبد الله الأكبر بن عقيل، وكان متزوّجاً بميمونة بنت عليّ عليه السَّلام، فتقدَّم إلى الحرب وهو يرتجز قائلاً:

خلّوا عن المصحر دون الغيلِ خلّوا عن الشريف من عقيلِ
يمنع عن صريخة الرَّسولِ بسيفه المهنَّد المصقولِ

وقاتل قتالاً شديداً حتَّى أثخن بالجراح، فشدَّ عليه مجموعة من الأعداء، فقتلوه[2].

وكان كُلَّما قُتل واحد من أبناء عقيل خرج أخوه وقاتل، حتَّى قُتل تسعة منهم دفاعاً عن الحقّ، وعن إمام الحقّ، وعن منهج الحقّ.

✻

ثمَّ خرج عون بن عبد الله بن جعفر الطيَّار، وأُمّه العقيلة زينب بنت أمير المؤمنين، وكان يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا ابنُ جعفرْ شهيدُ صدق في الجنان أزهرْ

---

(1) العبرات، للمحمودي، ج2، ص64؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص61؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص276.

(2) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص65؛ وتذكرة الخواص، ص255؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص353.

يطير فيها بجناحٍ أخضرْ كفى بهذا شرفاً في المحشرْ

فقاتل حتَّى قُتل، وكانت أُمّه زينب واقفة بباب الخيمة تنظر إليه[1].

ثمَّ خرج من بعده أخوه محمَّد بن عبد الله بن جعفر، وهو يقول:

نشكو إلى اللّه من العدوانِ فعالَ قوم في الرَّدى عميانِ
قد بدَّلوا معالمَ الفرقانِ ومحكم التنزيل والتبيانِ

وكانت أُمّه زينب أيضاً واقفة تنظر إليه، فاجتمع عليه مجموعة من الأعداء، فقتلوه[2].

وهكذا قدَّمت زينب بنت عليّ اثنين من أولادها، فداءً لدين الله عزَّ وجلَّ، ودفاعاً عن أخيها أبي عبد الله.

❋

ثمَّ إنَّ آل أبي طالب استمرّوا يتسابقون إلى الشهادة، وينحدرون نحو الميدان فرادى أو مجتمعين، ببصيرة ثاقبة وشجاعة فائقة، حتَّى انتهت النوبة إلى القاسم بن الحسن بن عليّ، وهو غلام لم يبلغ الحلم بعد، وأُمّه أُمّ ولد، واسمها رملة، وهي أُمّ أخويه عبد الله الأكبر وعبيد الله الأصغر، وكان للقاسم حينما مات أبوه من العمر ثلاث سنوات، فربَّاه الحسين عليه السلام، فكان له بمنزلة ابنه

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص27؛ وتسلية المجالس، لمحمَّد بن أبي طالب، ج2، ص3 3؛ والإقبال، لابن طاوس، ص575.
(2) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص203؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص26؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص34.

العزيز، وكان يُحبّه حبّاً شديداً. وقيل إنَّ الحسين كان ينوي أن يزوِّجه من ابنته سكينة[1].

فجاء القاسم إلى عمّه ليستأذنه في القتال، فقام إليه الحسين واعتنقه، ثمَّ أرخى عينيه بالدُّموع، وأخذ القاسم يبكي معه، وأخذ يقبِّل يدي عمّه حتَّى يأذن له، ولمَّا حصل على ما يريد انحدر نحو المعركة، وهو يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا نجلُ الحسن سبطُ النبيّ المصطفى والمؤتمنْ
هذا حسينٌ كالأسير المرتهن بين أُناسٍ لا سُقُوا صوبَ المُزُنْ

كان وجه القاسم في تلك الحالة مشرقاً كأنَّه شقَّة قمر، وعليه قميص وإزار، وفي رجليه نعلان. وبينما هو يقاتل، إذ انقطع شسع نعله اليسرى، فوقف ليشدّه من دون أن يحسب حساباً لأولئك الجمع، إذ كانوا عنده أقل قيمة من نعله. فقال عمرو بن سعد بن نفيد الأزدي: والله لأشدنَّ عليه.

فقال له صاحبه حميد بن مسلم: سبحان الله؛ ما تريد بذلك، فوالله لو ضربني ما بسطت له يدي، يكفيك هؤلاء الذين تراهم قد احتوشوه.

لكن الرجل أصرَّ على جريمته وقال: والله لأشدنَّ عليه.

فبينما كان القاسم منشغلاً بشدِّ شسع نعله، إذ ضربه عمرو بن سعيد على رأسه بالسيف، ففلقه، فوقع القاسم لوجهه، فصاح يا عمَّاه.

---

(1) شرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج3، ص181.

فأتاه الحسين كالصقر المنقضّ، وتخلَّل صفوف الأعداء، حتَّى وصل إلى قاتله عمرو بن سعد الأزدي، فضربه بالسيف، فاتقاه عمرو بساعده، فأطنها الحسين من المرفق، فصاح صيحة عظيمة سمعها العسكر، فحمل خيل أهل الكوفة ليستنقذوه من الحسين، فاستقبلته بصدورها، ووطأته بحوافرها، فمات القاتل.

وقامت بسبب ذلك غبرة كبيرة، ولـمَّا انجلت الغبرة، فإذا بالحسين قائم على رأس القاسم، وهو يفحص برجليه، والحسين يقول: «يعزُّ والله على عمّك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا يعينك، أو يعينك فلا يغني عنك.. بُعداً لقوم قتلوك، هذا يوم كثر واتره، وقلَّ ناصره».

ثمَّ حمله على صدره، بينما رجلاه تخطَّان الأرض، فجاء به إلى الخيمة، وألقاه إلى جنب ولده عليّ الأكبر والقتلى من أهل بيته.

ثمَّ رفع طرفه إلى السَّماء وقال: «اللَّهمَّ احصهم عدداً، وأقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ولا تغفر لهم أبداً».

وتوجَّه إلى من بقي من أهل بيته وقال لهم: «صبراً يا بني عمومتي، صبراً يا أهل بيتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً»(1).

❋

وبعد مقتل القاسم خرج أخوه عبد الله بن الحسن، وكان من أجمل الناس، فأخذ يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا ابن حيدرهْ ضرغام آجام وليس قسورهْ

---

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص358؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص331؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص36.

إنَّ الأعادي مثل ريح صرصرهْ   أكيلكم بالسيف كيل السندرهْ

فرآه رجل من أهل الكوفة، فقال: لأقتلنَّ هذا الفتى. فقيل له: ويحك، ما تصنع بقتله؟

قال: لأفعلن. ثمَّ حمل عليه فضربه، فقطع يده، ثمَّ ضربة أُخرى فقتله[1].

✵

وبعد مقتل القاسم وعبد الله خرج إخوتهما، وهم عمر بن الحسن، وبشر بن الحسن، وأحمد بن الحسن، وكُلّهم من أولاد السبط المجتبى عليه السَّلام، فقاتلوا حتَّى قُتلوا جميعاً[2].

✵

وبعد مقتل أولاد الحسن لم يبق مع الحسين إلَّا إخوته، فتقدَّموا عازمين على الموت دونه، فأوَّل من تقدَّم منهم أبو بكر بن عليّ، واسمه عبد الله، وأُمّه ليلى بنت مسعود بن خالد التميميَّة، فبرز وهو يقول:

شيخي عليٌّ ذو الفخار الأطولِ   من هاشمِ الصدقِ الكريمِ المفضلِ
هذا الحسينُ ابنُ النبيّ المرسلِ   نذود عنه بالحسام الفيصلِ
تفديه نفسي من أخٍ مبجَّلِ   يا ربِّ فامنحني ثواب المجزلِ

فحمل عليه القوم، فاجتمع عليه مجموعة، فمنهم من رماه

---

(1) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج2، ص6؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص28؛ ولواعج الأشجان، للأمين، ص176.

(2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص63؛ والمناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص113؛ وشرح الشافية، لابن أمير الحاج، ص370.

بالسهام، ومنهم من قاتله بالسيف، ومنهم من ضربه بالرّمح حتَّى قُتل[1].

✻

ثمَّ خرج من بعده أخوه محمَّد بن عليّ بن أبي طالب، وكان يرتجز ويقول:

سأصبر حتَّى يحكم اللَّه بيننا
وبين يزيد، ذلك الظالمُ النذلُ
لقد ضلَّ مَن وإلى يزيداً ونسله
وعادى عليّاً من له السبقُ والفضلُ
إلى اللَّه نبرى من أُناس تظاهروا
علينا بجور، إنَّهم معشرٌ ضلّوا

فقاتل حتَّى قُتل[2].

✻

ثمَّ خرج من بعده أخوه عمر بن عليّ بن أبي طالب، قاصداً الثأر من قاتل أخيه، وبالفعل فقد استطاع أن يقضي عليه. ثمَّ اجتمع عليه القوم، فجعل يضرب فيهم بسيفه ضرباً منكراً، وهو يقول:

خلّوا عُداة اللَّهِ خلّوا عن عمرْ   خلّوا عن الليث العبوس المكفهرْ
يضربكم بسيفه ولا يفرّ   وليس يغدو كالجبان المنجحرْ

---

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص354؛ ومقال الطالبيين، لأبي الفرج، ص57.
(2) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص354.

فلم يزل يقاتل، حتَّى اجتمعوا عليه وقتلوه[1].

✵

وبعد ذلك خرج أولاد عليّ الواحد تلو الآخر، منهم إبراهيم بن عليّ، الذي قاتل القوم حتَّى قُتل[2].

ثمَّ خرج عبيد الله بن عليّ وقاتل حتَّى قُتل[3].

✵

مقتل إخوة العبَّاس عليهم السلام:

لمَّا رأى العبَّاس بن عليّ عليه السلام كثرة القتلى في أهله، جمع إخوته من أُمّه وأبيه، وهم: عبد الله بن عليّ، وجعفر بن عليّ، وعثمان بن عليّ، وهم أولاد أُمّ البنين بنت خالد بن حزام الكلابيَّة واسمها فاطمة، فقال لهم: «تقدَّموا بنفسي أنتم، فحاموا عن سيِّدكم حتَّى تموتوا دونه فأحتسبكم عند الله، وأراكم قد نصحتم لله ولرسوله»[4].

ولم يكن سهلاً على أبي الفضل أن يطلب من إخوته أن يقاتلوا قبله فيقتلوا، وإنَّما طلب منهم ذلك حتَّى يصبر على فراقهمُ يحتسبهم عند ربّه فيوفِّيه الله أجور الصابرين.

وقد اختلف إخوة العبَّاس في من يكون أوَّل من يتقدَّم، فقال

(1) الفتوح، لابن أعثم، ج5، ص206؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص29.
(2) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص39.
(3) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص57.
(4) الإرشاد، للمفيد، ج2، ص113؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص54؛ والدَّمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص320.

العبَّاس لأخيه عبد الله بن عليّ: تقدَّم يا أخي أنت حتَّى أراك قتيلاً وأحتسبك[1].

فخرج عبد الله وعمره خمس وعشرون عاماً، وهو يرتجز ويقول:

أنا ابن ذو النجدة والأفضالِ ذاك عليّ الخير ذو الفعالِ
سيف رسول اللَّه بالنكالِ في كلّ يوم ظاهر الأهوالِ

فقاتل قتال الأبطال، وتجمَّع عليه الأعداء فتقلوه[2].

وكان الذي تولَّى قتله من الأعداء هاني بن ثبيت الحضرمي[3].

ثمَّ خرج من بعده أخوه جعفر بن عليّ، وعمره تسعة عشر عاماً[4]، فحمل على الأعداء وهو يقول:

إنِّي أنا جعفر ذو المعالي ابن عليّ الخير ذي النوالِ
حسبي بعمِّي شرفاً وخالي أحمي حسيناً ذا الندى المفضالِ

وفيما هو يقاتل، رماه خولّي الأصبحي بسهم، فأصاب شقيقته، فسقط من على الفرس، فتجمَّعوا عليه وقتلوه[5].

---

(1) بحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص38؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص316.
(2) شرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج3، ص194؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص207.
(3) الإقبال، لابن طاوس، ص574؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص316.
(4) شرح الشافية، لابن أمير الحاج، ص367.
(5) المناقب، لابن شهرآشوب، ج4، ص107؛ وتسلية المجالس، لمحمَّد بن أبي طالب، ج2، ص307؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص66.

ثمَّ خرج من بعده أخوه عثمان بن عليّ، وعمره واحد وعشرون عاماً[1]، وكان يرتجز ويقول:

إنِّي أنا عثمان ذو المفاخرْ شيخي عليٌّ ذو الفعال الطاهرْ

هذا حسين سيِّد الأخايرْ وسيِّد الصغار والأكابرْ

فقاتل قتالاً شديداً، فرموه بالسهام، فسقط من على الفرس، وشدّوا عليه، فقتلوه وقطعوا رأسه[2].

❁

وبقتل هؤلاء لم يبق مع الحسين إلَّا أبو الفضل العبَّاس، الذي شعر أن قد حان حينه بعد إخوته، وأنَّ عليه أن يفدي نفسه للحسين.

كان العبَّاس في الرابعة والثلاثين من عمره[3]. وكان وسيماً، جميلاً، يركب الفرس المطهَّم ورجلاه تخطَّان في الأرض، ولجماله يُقال له (قمر بني هاشم). فجاء إلى الحسين وطلب منه الرخصة في القتال، وكان صعباً على الطرفين أن يفترقا في تلك اللحظات. أمَّا بالنسبة إلى العبَّاس، فلأنَّه كان يعرف أنَّه لم يبق مع الحسين أحد غيره، وكانت حرائر رسول الله، مطمئنَّات إلى وجوده، وأمَّا بالنسبة إلى الحسين فلأنَّه كان صعباً عليه أن يرى أخاه قتيلاً، فقال للعبَّاس: يا أخي؛ أنت صاحب لوائي، (ويقصد أنَّه لو قُتل فإنَّ اللِّواء سيسقط على الأرض ويعتبر نهاية المعركة).

---

(1) شرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج3، ص194.

(2) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج، ص55؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص321؛ والعبرات، للمحمودي، ج2، ص78.

(3) شرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج3، ص194.

فقال العبَّاس: قد ضاق صدري من هؤلاء المنافقين، وأريد أن آخذ ثأري منهم.

فقال له الحسين: إذن، فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء.

فجاء العبَّاس إلى القوم ووعظهم وحذَّرهم غضب الجبَّار، وقال فيما قال: «إنَّ هذا الحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قتلتم أصحابه وأهل بيته، وهؤلاء عياله وأولاده عطاشى، فاسقوهم من الماء، قد أحرق الظمأ قلوبهم، وهو مع ذلك يقول: دعوني أذهب إلى الروم أوالهند، وأخلي لكم الحجاز والعراق.

فصاح الشمر قائلاً: «يابن أبي تراب، لو كان وجه الأرض كُلّه ماءاً، وهو تحت أيدينا، لما سقيناكم منه قطرة، إلَّا أن تدخلوا في بيعة يزيد.

فرجع العبَّاس إلى الحسين عليه السلام ونزل من فرسه، ليخبره بما سمع، فإذا به يسمع الأطفال يتصارخون من العطش، فثارت به الحميَّة، فقفز على فرسه من جديد، وتوجَّه نحو القوم مصلتاً سيفه، وهو يرتجز ويقول:

أقسمتُ باللَّه الأعزِّ الأعظمِ وبالحجور صادقاً وزمزمِ
وبالحطيم والفنى المحرَّمِ ليخضبنَّ اليوم جسمي بدمي
إمام ذي الفضل وذي التكرُّمِ ذاك حسينٌ ذو الفخار الأقدمِ

فأحاط به أربعة آلاف من الرجال، فقتل منهم رجالاً ونكَّس منهم فرساناً، فتفرَّقوا عنه، كما يتفرَّق عن الأسد فريسته، وصعد قوم على التلال والأكماد، وأخذوا يرمونه بالسِّهام، ومع

ذلك كان كالجبل الأصم، لا تحرِّكه العواصف ولا تزيله القواصف[1].

وكان في عسكر عمر بن سعد رجل يُقال له المارد بن صديف التغلبي، فلمَّا نظر إلى ما فعله العبَّاس بأصحابه، صرخ فيهم قائلاً: «لا بارك الله فيكم، أما والله لو أخذ كلّ واحد منكم ملأ كفَّه تراباً لطمَّرتموه، ولكنَّكم تظهرون النصيحة وأنتم تحت الفضيحة؟

ثمَّ نادى بأعلى صوته: «أقسم على من كان في رقبته بيعة للأمير يزيد إلَّا اعتزل عن الحرب، فأنا لهذا الغلام الذي قد أباد الرجال».

ثمَّ أخذ بيده رمحاً وسيفاً وتوجَّه إلى قتال العبَّاس، والعبَّاس واقف لا يتحرَّك، حتَّى إذا وصل قريباً، حاول أن يضربه برمحه، فانتزع العبَّاس الرّمح منه وجذبه إليه، فكاد أن يقع المارد من سرجه.

فصاح العبَّاس: «يا عدوّ الله؛ إنَّني أرجو أن أقتلك برمحك.

فجال المارد على العبَّاس وقحم عليه، لكنَّ العبَّاس طعن جواده في خاصرته، فشبَّ به ووقع على الأرض، ولم يكن له طاقة على القتال راجلاً، لأنَّه كان عظيم الجثَّة، ثقيل الخطوة، فاضطرب اضطراباً شديداً. فنادى الشمر بأصحابه قائلاً: ويلكم، أدركوا صاحبكم قبل أن يُقتل.

غير أنَّ العبَّاس كان أسرع منهم، فضربه بالرّمح وجندله. فقال الرجل: يا قوم؛ أأُغلب على جوادي وأُقتل برمحي؟

---

(1) معالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص438.

ولمَّا رأى الموت يرفرف على هامته، قال للعبَّاس: يابن عليّ، رفقاً بأسيرك.

فقال العبَّاس: أبمثلي يلقى إليه الخدع؟

ثمَّ طعنه في نحره، فخرَّ صريعاً يخور في دمه[1].

ولمَّا رأى القوم مصرع ذلك المارد هابوا العبَّاس أكثر، ولم يثبت له الرجال، فأصبح طريقه سالكاً نحو المشرعة، فأسرع نحوها ووصلها بكل سهولة فأقحم فرسه في النهر، غير مبال بمن حوله. فمدَّ يده إلى الماء ليشرب، فلمَّا أحسَّ ببرده تذكَّر عطش الحسين وأهل بيته، فرمى الماء على الماء، وقال مغضباً:

يا نفسُ من بعد الحسين هوني وبعدَه لا كنتِ أن تكوني
هذا الحسينُ واردُ المنونِ وتشربين بارد المعينِ
تاللَّه ما هذا فعال ديني

ثمَّ ملأ القربة من دون أن يشرب قطرة، وركب جواده وتوجَّه نحو المخيَّم، فزحف إليه جمع من الأعداء، وحاصروه، فأخذ يضرب فيهم يميناً وشمالاً، ويجندل الفرسان، والقربة على ظهره، فكشفهم عن الطريق وهو يقول:

لا أرهبُ الموتَ إذا الموتُ زقى حتَّى أوارى في المصاليت لقا
نفسي لسبطِ المصطفى الطُّهر وِقى إنِّي أنا العبَّاس أغدو بالسُّقى
ولا أخاف الشّر يوم الملتقى

وأخذ طريق النخيل حتَّى يستطيع أن يصل إلى المخيَّم من دون

---

(1) أسرار الشهادة، للدربندي، ص335.

أن يخسر القربة، فكمن له زيد بن الرقّاد الجهني من وراء نخلة، وعاونه حكيم بن الطفيل السندسي، فضرب على يمين العبَّاس، فتطاير كفَّه في الهواء، فقال العبَّاس:

واللَّه إن قطعتمُوا يميني إنِّي أحامي أبداً عن ديني
وعن إمامٍ صادقِ اليقينِ نجلِ النبيّ الطاهرِ الأمينِ

ولم يهتمّ بيمينه المقطوعة، لأنَّ همَّه كان إيصال الماء إلى أطفال الحسين وعياله، فعاد الرجلان: حكيم بن الطفيل، وزيد بن الرقّاد الجهني من جديد، وكمنوا له في مكان آخر من النخيلة. فلمَّا مرَّ من هناك ضربه حكيم بن الطفيل على شماله، فقطعها، وتكاثروا عليه، والعبَّاس يقاتلهم ويقول:

يا نفس لا تخشي من الكفَّارِ وأبشري برحمة الجبَّارِ
مع النبيّ سيِّد الأبرارِ قد قطعوا ببغيهم يساري
فأصلِهمْ يا ربِّ حرَّ النار[1]

وظلَّ يواصل طريقه نحو المخيَّم، فلمَّا نظر ابن سعد إليه والقربة سالمة على ظهره، نادى بأصحابه: «ويلكم، ارشقوا القربة بالنبل، فوالله إن شرب الحسين الماء، أفناكم عن آخركم[2]».

فأتته السهام كالمطر، فأصاب القربة سهم وأريق ماؤها، فخاب أمل العبَّاس في إيصال الماء إلى مخيَّم الحسين، فتجمَّد في مكانه، وتوقَّف عن محاولة الوصول إليه، وقام القوم برشقه بالسهام، فأصاب سهم صدره، وأصاب سهم آخر عينه، فحاول أن يخرج

(1) ينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص68.
(2) معالي السبطين، للمازندراني، ج1، ص440.

السهم من عينه، لكنَّ يداه كانتا مقطوعتين، فأخذ يُحرِّك رأسه بقوَّة ليسقط السهم، فسقطت الخوزة من على رأسه. فاستغلَّ أحد الأعداء ذلك، فضربه بالعمود على رأسه، ففلق هامته وسقط على الأرض، فنادى: أبا عبد الله، عليك منِّي السَّلام[1].

وكان الحسين إذ ذاك واقفاً بباب الخيمة يراقب الموقف من بعيد، فلمَّا سمع صوت العبَّاس انقضَّ إلى الميدان كأنَّه ليث مغضب، فابتعد القوم عنه مذعورين. ولمَّا وصل إلى أخيه رآه مقطوع اليمين واليسار، مفضوخ الهامة، مثخناً بالجراح، وكانت الراية ممزَّقة إلى جنبه، والقربة مخرَّقة، فبكى بكاءً عالياً وقال: «الآن انكسر ظهري، وقلَّت حيلتي، وشمت بي عدوِّي».

ثمَّ تركه في مكانه وحمل على القوم، فأخذ يضرب فيهم وهو يقول:

إلى أين تفرّون، وقد فتَّتم عضدي؟

إلى أين تفرّون، وقد قتلتم أخي؟

ثمَّ رجع إلى المخيَّم منكسراً حزيناً، يكفكف دموعه بكمِّه، لكي لا تراه النساء، وكان يتمتم مع نفسه قائلاً:

أيا قمراً منيراً كنت عوني ... على كلّ النوائب في المضيقِ
فبعدك لا تطيبُ لنا حياةٌ ... سنجمع في الغداة على الحقيق
ألا للّه شكوائي وصبري ... وما ألقاه من ظلم وضيقِ[2]

---

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص237.
(2) معالي السبطين، للمازندراني، ص446.

ولمَّا رأته ابنته سكينة قادماً إلى المخيَّم وحده، تقدَّمت إليه قائلة: يا أبتاه؛ أين عمِّي العبَّاس؟

فقال لها: إنَّ عمّكِ قد قُتل.

فصرخت قائلة: وآعمَّاه. وسمعتها العقيلة زينب، فخرجت من الخيمة، فقالت: وآضيعتاه.

فقال الحسين، إي والله، واضيعتنا بعدك يا أبا الفضل[1].

❁

بعد مقتل العبَّاس لم يبق مع الحسين أحد، فجعل ينظر يميناً وشمالاً، فلم يرى من أصحابه إلَّا من صافح التُّراب جبينه، وقطع الحِمام أنينه، فنادى: «يا مسلم بن عقيل، ويا هاني بن عروة، ويا حبيب بن مظاهر، ويا زهير بن القين، يا أبطال الصفا، وفرسان الهيجا، ما لي أناديكم فلا تجيبون؟

«وأدعوكم فلا تسمعون؟

«أنتم نيام، أرجوكم تنتبهون، أم حالت منيّتكم دون إمامكم فلا تنصرون»؟

«هذه نساء الرَّسول لفقدكم قد علاهنَّ النحول، فقوموا عن نومتكم أيُّها الكرام، وادفعوا عن حرم الرَّسول هؤلاء الطغاة اللئام.. ولكن صرعكم ـ والله ـ ريب المنون، وغدر بكم الدهر الخؤون، وإلَّا لما كنتم عن نصرتي تقصِّرون، ولا عن دعوتي تحتجبون، فها نحن عليكم مفتجعون، وبكم لاحقون، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»[2].

---

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص324.

(2) مقتل أبي مخنف المشهور، ص85.

ثمَّ رفع صوته قائلاً:

«هل من ذابّ يذبُّ عن حرم رسول الله»؟

«هل من موحِّد يخاف الله فينا»؟

«هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا»؟

«هل من معين يرجو ما عند الله في إعانتنا»؟

فارتفعت أصوات النساء بالعويل[1].

فأخذ يلتفت إلى خيم بني أبيه، فرآها خالية منهم، ثمَّ التفت إلى خيم بني عقيل، فوجدها خالية منهم، ثمَّ التفت إلى خيم أصحابه، فلم يرى أحداً منهم، فجعل يكثر من قوله: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليّ العظيم.

ثمَّ ذهب إلى خيم النساء، فجاء أوَّلاً إلى خيمة ولده زين العابدين، وكان ملقى على نطع من الأديم، فدخل عليه وعنده زينب تمرِّضه. فلمَّا نظر «عليّ» إلى أبيه أراد النهوض، فلم يتمكَّن من شدَّة المرض، فقال لعمّته: سنِّديني إلى صدركِ، فهذا ابن رسول الله قد أقبل.

فجلست زينب خلفه، وأسندته إلى صدرها، فجعل الحسين يسأله عن مرضه، وهو يحمد الله تعالى.

ثمَّ قال عليّ: «يا أبتاه؛ ما صنعت اليوم مع هؤلاء المنافقين»؟

فقال الحسين: «يا بُنيَّ؛ قد استحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم

---

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص32؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص289.

ذكر الله، وقد شبَّ بيننا وبينهم القتال، حتَّى فاضت الأرض بالدَّم منَّا ومنهم».

فقال عليّ بن الحسين: يا أبتاه؛ وأين عمِّي العبَّاس؟

فلمَّا سمعت عمَّته زينب اسم العبَّاس اختنقت بعبرتها، وأخذت تنظر إلى الحسين كيف يجيبه.

فقال له الحسين: يا بُنيَّ؛ إنَّ عمَّك قد قُتل.

فبكى عليّ بن الحسين، ثمَّ أخذ يسأل عن كلّ واحد من عمومته وإخوته، والحسين يقول له: قد قُتل، قد قُتل.

ولمَّا أكثر من السؤال عن الأصحاب وأهل البيت، قال الحسين: «يا بُنيَّ؛ اعلم أنَّه ليس في الخيام رجل حيّ إلَّا أنا وأنت، أمَّا من تسأل عنهم فكلّهم صرعى على وجه الثرى».

فقال عليّ لعمّته زينب: «يا عمَّة؛ عليَّ بالسيف والعصى».

فقال له الحسين: «وما تصنع بهما»؟

فقال عليّ بن الحسين: «أمَّا العصى فأتوكَّأ عليها، وأمَّا السيف فأذبُّ به عنك، فإنَّه لا خير في الحياة بعدك».

فضمَّه الحسين إلى صدره وقال: «يا بُنيَّ؛ أنت خليفتي على هؤلاء العيال والأطفال، فإنَّهم غرباء مخذولون، قد شملتهم نوائب الزَّمان. سكّتهم إذا صرخوا، وآنسهم إذا استوحشوا، فإنَّه ما بقي من رجالهن من يستأنسون به غيرك»[1].

(1) الدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص353.

ثمَّ إنَّ الحسين كما وصَّى زين العابدين بالنساء والأطفال، فقد وصَّى النساء به، وقال لهن: «إنَّ ابني هذا خليفتي عليكم».

والتفت إلى أُمّ كلثوم وقال: «خذيه لئلَّا تبقى الأرض خالية من نسل آل محمَّد».

ثمَّ أرجعوا زين العابدين إلى فراشه(1).

❁

مقتل ثلاثة أطفال في حجر الحسين عليه السلام:

كان آخر من قُتل مع الحسين ثلاثة أطفال من أهله(2)، وهؤلاء هم:

الأوَّل: عليّ الأصغر، وعمره يومئذٍ ستّ سنوات.

الثاني: عبد الله الرضيع، وعمره ستّة شهور.

والثالث: عبد الله بن الحسن الذي قُتل بعد سقوط الحسين من على الفرس، وقُبيل أن يقدموا على قطع رأسه.

أمَّا عليّ الأصغر، فإنَّ ما حدث له هو أنَّ الإمام جاء إلى الخيام وجلس عندها، وكانت عليه جبَّة خزّ دكناء، وقال: ناولوني طفلي عليّاً حتى أودعه، فجاؤوا إليه بعليّ الأصغر وأُمّه أُمّ إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميميَّة، فأخذه في حجره ولبَّاه بريقه،

---

(1) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص435؛ ووسيلة الدارين، للزنجاني، ص318؛ ومقتل الحسين، للمقرّم، ص340.

(2) الإرشاد، للمفيد، ج2، ص115؛ وأعلام الورى، للطبرسي، ص249؛ والإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ص288.

وخاطبه قائلاً: يا بُنيَّ؛ ويل لهؤلاء القوم إذا كان غداً جدّك محمَّد خصمهم.

فبينما هو كذلك، إذ رماه عبد الله بن عقبة الغنوي بسهم، فنحره في حجر أبيه[1].

وكان الأعداء قد قرروا في تلك اللحظات أن يرموا كلّ رجل أو امرأة أو طفل يخرج من المخيَّم[2]، وبعد مقتل عليّ الأصغر أخذ الحسين دمه في كفّه، فلمَّا امتلأت صبَّه في الأرض[3]، ثمَّ حمله حتَّى وضعه مع قتلى أهل بيته[4].

❁

وأمَّا عبد الله الرضيع، وهو الطفل الثاني الذي قُتل في حجر الحسين عليه السلام، فقد جاءت إليه أُمّ كلثوم وقالت له: يا أخي؛ إنَّ ولدك عبد الله ما ذاق الماء منذ ثلاثة أيَّام، فاطلب له من القوم شربة تسقيه.

فأخذه الحسين ومضى به إلى القوم وقال: «يا قوم؛ لقد قتلتم أصحابي وبني عمِّي وإخوتي وولدي، وقد بقي هذا الطفل وهو ابن ستّة أشهر، يشتكي من الظمأ، فاسقوه شربة من الماء».

---

(1) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج3، ص203؛ والتاريخ، للطبري، ج4، ص432؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص209.
(2) جنَّة المأوى، ص217.
(3) التاريخ، للطبري، ج4، ص342.
(4) الإرشاد، للمفيد، ص254؛ والكامل، لابن الأثير، ج3، ص294.

ثمَّ سكت هنيئة، وقال بعدها: «إن كان ذنب للكبار، فلا ذنب للصغار، خذوه وأُسقوه، فقد جفَّ اللبن في صدر أُمّه»[1].

كان الحسين يخاطب القوم، وأُمّ الرَّضيع، وهي الرَّباب، واقفة بباب الخيمة تنظر ماذا يفعل القوم، وترجو أن يحصل الحسين على قطرات من الماء تبلّ ريقه، وتنقذه من الموت عطشاً.

لقد كان القوم أمام طلب الحسين هذا، بين ثلاث خيارات: إمَّا أن يعطوا الحسين مقداراً قليلاً من الماء له حتَّى يسقي ولده، أو أن يأخذوا الطفل منه ويسقوه، أو أن يردّوا على طلبه بطريقتهم الخاصَّة. وقد اختاروا الأمر الثالث، حيث إنَّ حرملة بن كاهل الأسدي وضع سهماً في كبد القوس، وهي من السهام المصنوعة لقتل الرجال الكبار، إذ لم تكن هنالك سهام خاصَّة لقتل الأطفال الرضُّع، فرمى به في نحر الرَّضيع، فذبحه من الوريد إلى الوريد، وبدأ دمه يسيل على كتف الحسين عليه السلام.

فتلقَّى الحسين الدَّم بكفِّه ورمى به نحو السَّماء وهو يقول: «بعداً لهؤلاء القوم إذا كان جدّك المصطفى خصمهم يوم القيامة».

ثمَّ التفت إلى السَّماء وقال:

«هوّن عليَّ ما نزل بي أنَّه بعين الله تعالى، اللَّهمَّ لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح. إلهي إن كنت حبست عنَّا النصر فاجعله لما هو خير منه، وانتقم لنا من الظالمين، واجعل ما حلَّ بنا في العاجل ذخيرة لنا في الآجل. اللَّهمَّ أنت الشاهد على قوم قتلوا أشبه

---

(1) ناسخ التواريخ، لسبهر، ج2، ص363.

الناس برسولك محمَّد، وقد عمدوا أن لا يبقوا أحداً من ذرِّية رسولك»[1].

فسمع الحسين هاتفاً يقول له: «دعه يا حسين، فإنَّ له مرضعاً في الجنَّة».

ثمَّ نزل عن فرسه، وصلَّى عليه[2] وحفر له بجفن سيفه قبراً صغيراً بحجم جثَّته الصغيرة، ودفنه مرمَّلاً بدمه، ولقد قيل إنَّ الدَّم الذي رمى به الحسين إلى السَّماء لم يسقط منه قطرة على الأرض[3].

❋

أمَّا الطفل الثالث الذي قتل في حضن الحسين فكان بعد سقوط الحسين على الأرض، وسوف يأتي ذكره.

❋ ❋ ❋

---

(1) ينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص79.
(2) مقتل الحسين، للمقرّم، ص344؛ وأبصار العين، للسماوي.
(3) العبرات، للمحمودي، ج2، ص90.

هجمات الحسين عليه السلام قبل مقتله

لم تفلل إرادة الحسين بعد مقتل إخوته وبنيه وأصحابه، بل العكس تماماً، فكلَّما سقط من أصحابه شهيد ازداد إصراراً على دفاعه عن الحق حتى النفس الأخير. ولقد ظهرت منه الشجاعة أكثر ما ظهرت حينما بقي وحيداً بين أعدائه، فهم إنَّما قتلوا أصحابه لكي يصلوا إليه، وها هو أصبح وحيداً بينهم.

لقد كان الحسين ينتظر اللحظة المباركة، وهي لحظة الشهادة في سبيل الله، وعروج روحه مطمئنة إلى بارئها.

أليس هو الذي قال من قبل: «وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف»؟

فها هي لحظات عروجه إلى لقاء ربّه، وجدّه، وأسلافه قد دنت منه.

أمَّا بالنسبة إلى أعدائه، فقد ازدادوا وحشيَّة وتصميماً على قتل الحسين بكلّ ما تطلَّبته غرائزهم الحيوانيَّة.

فبعد مقتل الطفلين الصغيرين في حضنه، ركب الحسين فرسه ووقف قبالة القوم، مصلتاً سيفه بيده، آيساً من الحياة، عازماً على الموت، وهو يقول:

أنا ابن عليّ الخير من آل هاشم كفاني بهذا مفخراً حين أفخرُ
وجدِّي رسولُ اللَّه أكرمُ مَن مضىً ونحنُ سراج اللَّه بالأرض نزهرُ
وفاطمةٌ أُمِّي ابنة الطُّهر أحمدٍ وعمِّيَ يُدعى ذا الجناحين جعفرُ
وفينا كتابُ اللَّه أُنزل صادعاً وفينا الهدى والوحيُ بالخير يذكرُ
ونحن أمانُ اللَّهِ للخلق كُلّهم نسرُّ بهذا في الأنامِ ونجهرُ
ونحنُ ولاة الحوضِ نسقي وليّنا بكأسِ رسول اللَّهِ ما لَيس ينكرُ
فيسعد فينا في القيام محبّنا ومبغضنا يوم القيامة يخسرُ[1]

ثمَّ دعى القوم إلى المبارزة، فلم يزل يقتل كلّ من برز إليه من شجعان الرجال، حتَّى قتل منهم مقتلة كبيرة[2].

يقول عبد الله بن عمَّار بن عبد يغوث، وهو من أصحاب عمر بن سعد: «ما رأيت مكثوراً قطّ قد قُتل ولده وأهل بيته أربط جأشاً منه، وإن كانت الرجال لتشدّ عليه فيشدّ عليها بسيفه، فتنكشف عنه انكشاف المعزى إذا شدَّ فيها السبع، وكانوا ثلاثين ألفاً، فيحمل عليهم فينهزمون كأنَّهم الجراد المنتشر، ثمَّ يرجع إلى مكانه، وينتظر من جديد الهجوم على العدوّ، أو مقاتلة أفراد منه»[3].

ولمَّا رأى القوم مقتل مَن تقدم للحسين امتنعوا عن مقابلته، فأخذ الحسين المبادرة وهجم على ميمنة العدوّ، وهو يقول:

(1) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج1، ص32؛ والفصول المهمَّة، لابن الصبَّاغ، ص176؛ ومطالب السؤول، لابن طلحة، ص72.
(2) كشف الغمَّة، للإربلي، ج2، ص20.
(3) مثير الأحزان، لابن نما، ص27.

القتلُ أولى من ركوب العارِ والعارُ أولى من دخول النَّارِ
واللَّه ما هذا وهذا جاري[1]

ثمَّ حمل على الميسرة، وهو يقول:

أنا الحسينُ بنُ عليّ آليتُ أن لا أنثني
أحمي عيالاتِ أبي أمضي على دينِ النَّبي[2]

ولم يزل يخوض القتال، فيجندل رجالاً ويجرح آخرين، فقال عمر بن سعد لقومه: «الويل لكم، أتدرون من تقاتلون؟ هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتَّال العرب، فاحملوا عليه من كلِّ جانب». فلم يبال بهم جميعاً، بل واصل القتال.

وكانت الرماة وعددهم أربعة آلاف ترميه بالسِّهام[3].

ولقد ألقى الرّعب في قلوب جميعهم، حتَّى أنَّه قلَّب الميمنة على الميسرة، والميسرة على الميمنة، وقلَّب القلب على الجناحين، وكان يدخل في أوساطهم ويخرج من أعراضهم، ويروي الأرض من دمائهم[4].

وكان كلَّما غاص فيهم وقتلهم، يعود إلى باب خيمته وهو يقول: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليّ العظيم[5].

ثمَّ إنَّ رجلاً جريئاً من أصحاب عمر بن سعد من أهل الشام،

---

(1) أعلام الدِّين، للديلمي، ص298.
(2) تسلية المجالس، لمحمَّد بن أبي طالب، ج2، ص318.
(3) العوالم، للبحراني، ج17، ص293؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص50.
(4) معالي السبطين، للمازندراني، ج2، ص30.
(5) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص304.

واسمه تميم بن قحطبة، اقترب من الحسين ونادى بأعلى صوته: «يابن عليّ، إلى متى الخصومة، فقد قُتل أولادك وأقربائك ومواليك، فأنت بعد تضرب بالسَّيف مع هؤلاء الألوف»؟

فقال الحسين: «أنا جئت إلى محاربتكم، أم أنتم جئتم إلى محاربتي؟

«أنا منعت الطريق عنكم، أم أنتم منعتموني عنه»؟

«وقد قتلتم إخواني وأولادي وليس بيني وبينكم إلَّا السَّيف، فلا تكثر المقال.

ثمَّ طلب منه الحسين المبارزة، قائلاً: «تقدَّم إليَّ حتى أرى ما عندك، فتقدَّم إلى الحسين، فصاح الحسين صيحة وسلَّ السَّيف وضرب عنقه، فتبعَّد خمسين ذراعاً.

ثمَّ بارزه رجل آخر اسمه يزيد الأبطحي، وكان مشهوراً بالشجاعة، فسلَّ سيفه وهجم على الحسين، فسبقه الحسين وضرب على وسطه بالسيف، فقدَّه نصفين[1].

❁

ولما رأى الحسين وجوم القوم، وسمع بكاء الأطفال من العطش هجم على الشريعة، وكان يحرسها أربعة آلاف، بقيادة عمر بن الحجَّاج الزبيدي، واستطاع أن يكشفهم عنها وأن يقحم الفرس في الفرات. فلمَّا دخل الماء، أولغ الفرس برأسه ليشرب، فقال الحسين: «أنت عطشان، وأنا عطشان، فوالله لا أذوق الماء حتَّى تشرب».

---

(1) أسرار الشهادة، للدربندي، ص410.

فلمَّا سمع الفرس كلام الحسين رفع رأسه ولم يشرب، كأنَّه فهم الكلام.

فقال الحسين: «اشرب فأنا أشرب»، ثمَّ مدَّ الحسين يده في الماء، فغرف منه غرفة وقرَّبه إلى فمه، وإذا بأحد رماة العدوّ من بني دارم، رماه بالسهم، فأثبته في حنكه الشريف، فانتزعه وبسط يديه تحت الحنك، فلمَّا امتلأتا دماً رمى به نحو السَّماء وقال «اللَّهمَّ إنِّي أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيّك. اللَّهمَّ احصهم عدداً، وأُقتلهم بدداً، ولا تذر على الأرض منهم أحداً»(1).

وخوفاً من أن يعاود الحسين محاولة شرب الماء، ناداه أحد الأعداء قائلاً: «يا أبا عبد الله؛ أتتلذَّذ بشرب الماء وقد هُتكت حُرمك؟

فنفض الحسين الماء من يده، وخرج من المشرعة، وحمل على القوم، فكشفهم عن مخيمه، فإذا خيمه سالمة(2).

ثمَّ عاود الحملة على القوم في المشرعة، فلم يزل يحمل عليهم ويحملون، وهو في ذلك عطشان، فكلَّما حمل بنفسه، هجموا عليه حتَّى أحالوه عن الماء. وفيما هو كذلك إذ رماه رجل من الأعداء اسمه أبو الحتوف بسهم، فوقع السهم في جبهته، فنزع السهم، فسالت الدماء على وجهه ولحيته، فقال: «اللَّهمَّ إنَّك ترى ما أنا فيه من عبادك هؤلاء الطغاة العصاة».

---

(1) أبصار العين، للسَّماوي، ص13؛ ونفس المهموم، للقمِّي، ص364.

(2) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص296؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص51.

ولم يحاول بعد ذلك أن يصل إلى المشرعة، وكانت عمليات الكرّ والفرّ مستمرَّة بينه وبين الأعداء، وفي إحداها تقدَّم الشمر في جماعة عظيمة من الأعداء، فقاتلهم الحسين بأجمعهم فحالوا بينه وبين رحله، وتقدَّم بعضهم إلى مخيَّمه، فصاح بهم الحسين قائلاً: «ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دُنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون»!

فناداه الشمر قائلاً: ماذا تقول يابن فاطمة؟

فقال الحسين: «أقول أنا الذي أقاتلكم وأنتم تقاتلوني، والنساء ليس عليهن جناح، فامنعوا عتاتكم وطغاتكم عن التعرُّض لحرمي ما دمت حيّاً».

فقال الشمر: لك ذلك يابن فاطمة.

ثمَّ صاح بأصحابه قائلاً: إليكم عن حرم الرَّجل وأقصدوه بنفسه، فلعمري إنَّه لكفوء كريم[1].

فقصدوه من كلِّ جانب، فجعل يحمل عليهم ويحملون عليه[2]. فأحاطوا به من كلِّ جانب، فأسرع منهم رجل يُقال له مالك بن النسر الكندي، فشتم الحسين وضربه على رأسه بالسَّيف، وكان عليه قلنسوة، فقطعها حتَّى وصل إلى رأسه، فأدماه، فامتلأت

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص293؛ وتجارب الأُمم، لأبي علي مسكويه، ج2، ص72؛ والفتوح، لابن أعثم، ج5، ص215.
(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص33.

القلنسوة دماً. فقال له الحسين: «لا أكلت بيمينك ولا شربت بها، وحشرك الله مع القوم الظالمين».

وتراجع القوم عنه فجاء إلى مخيمه وألقى القلنسوة ودعا بخرقة، فشدَّ بها رأسه، وأخذ قلنسوة أُخرى، فلبسها واعتمَّ عليها، ورجع الشمر ومن كان معه إلى مواضعهم[1].

❋

وبعد يقين الحسين باقتراب الموت إليه، قال لأُخته زينب: «آتيني بثوب عتيق لا يرغب فيه أحد من القوم، أجعله تحت ثيابي لئلَّا أُجرَّد منه بعد قتلي»[2].

فجاءت إليه بتبَّان، وهو سروال صغير يلبسه أهل المهن المتواضعة.

فقال: لا؛ ذلك لباس من ضربت عليه الذلَّة، ثمَّ أخذ ثوباً فمزَّقه، فجعله تحت ثيابه[3].

❋

وبالرغم من شدَّة أحواله وما كان عليه، إلَّا أنَّه قام بتسليم وصيَّته في كتاب إلى ابنته فاطمة لكي تسلِّمها إلى عليّ بن الحسين إذا قام من مرضه. فالحسين بصفته أمين الله في أرضه، وحجَّته على عباده، كان عليه أن يُسلِّم مواريث الأنبياء إلى من بعده من الأئمَّة،

---

(1) التاريخ، للطبري، ج5، ص448؛ وشرح الأخبار، للقاضي النعمان، ج3، ص163؛ والأخبار الطوال، للدينوري، ص255.

(2) الإمام الحسين وأصحابه، للقزويني، ج1، ص300.

(3) المعجم الكبير، للطبراني، ج3، ص125؛ وكفاية الطالب، للكنجي، ص434؛ ومجمع الزوائد، للهيثمي، ج9، ص193.

وكان أيضاً قد أودع أشياء عند أُمّ سلمة في المدينة لتُسلِّمها لأكبر ولده[1].

وبعد ذلك نادى في حرمه قائلاً:

«يا سكينة، ويا فاطمة، ويا أُمّ كلثوم، عليكنَّ منِّي السَّلام، فهذا آخر الاجتماع، وقد قرب منكنَّ الافتجاع».

فعلت أصواتهنَّ بالبكاء والنحيب، وصحن: الوداع الوداع، الفراق الفراق.

فنادته ابنته سكينة قائلة: أراك قد استسلمت للموت، فإلى من نتّكل؟

فقال الحسين: «يا نور عيني، كيف لا يستسلم للموت من لا ناصر له ولا معين؟ فاصبري على قضاء الله ولا تشكي، فإنَّ الدُّنيا فانية والآخرة باقية».

فقالت له سكينة: «إذن ردَّنا إلى حرم جدّنا رسول الله».

فقال الحسين: «هيهات، لو تُرك القطى لغفى ونام».

فبكت بكاءً مرّاً، فأخذها الحسين وضمَّها إلى صدره، ومسح الدموع عن عينها، وأنشد يقول:

سيطولُ بعدي يا سكينةُ فاعلمي ... منكِ البكاءُ إذا الحِمام دهاني
لا تُحرقي قلبي بدمعكِ حسرةً ... ما دام منِّي الرُّوحُ في جسماني
فإذا قُتلتُ فأنتِ أولى بالذي ... تأتينه يا خيرةَ النسوان[2]

---

(1) بصائر الدرجات، للصفَّار، ص204، وص169.

(2) وسيلة الدارين، للزنجاني، ص320؛ ومعالي السبطين، للمازندراني، ج2، ص25.

ثمَّ أمر أهل بيته بالصَّبر، وأن يلبسن أزرهن ومقانعن ، وقال لهن:

«استعدّوا للبلاء، واعلموا أنَّ الله تعالى حافظكم وحاميكم، وسينجِّيكم من شرِّ الأعداء، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير، ويعذِّب أعاديكم بأنواع البلاء، ويعوِّضكم عن هذه البليَّة بأنواع النعم والكرامة، ولا تشكّوا، ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص قدركم»(1).

وفيما كان الحسين يودِّع عياله، نادى عمر بن سعد بأصحابه قائلاً: «ويحكم، اهجموا عليه ما دام مشغولاً بنفسه وحرمه، فوالله إن فرغ لكم لا تمتاز ميمنتكم عن ميسرتكم».

فحملوا عليه يرمونه بالسِّهام حتَّى تخالفت السِّهام بين أطناب المخيَّم، وشكَّ بعض السهام أزر النساء، فدُهشن وأُرعبن وصحن ودخلن الخيم.

ثمَّ أخذن ينظرن إلى الحسين كيف يصنع، فحمل عليهم كالليث الغضبان، فكان لا يلحق أحداً إلَّا ضربه بسيفه فقتله، وكانت السِّهام تأخذ منه من كلِّ ناحية، وهو يتَّقيها بصدره وجسمه(2).

❁

ومن غريب ماحدث في تلك اللَّحظات أنَّ بعض كبار السِّنّ من شيوخ أهل الكوفة كانوا واقفين على تلّ يبكون على الحسين

---

(1) نفس المهموم، للقمِّي، ص355؛ والدمعة الساكبة، للبهبهاني، ج4، ص346.
(2) مقتل الحسين، للمقرّم، ص348؛ ومقتل الحسين، لبحر العلوم، ص443.

ويقولون: اللَّهمَّ أنزل عليه نصرك. فقال لهم سعد بن عبيدة، وهو منهم: يا أعداء الله، ألا تنزلون فتنصرونه[1]؟

❁

لقد كانت حملات الحسين عنيفة جدّاً، لأنَّه أساساً كان يطلب بها موتاً محققاً، على عكس أعدائه الذين كانوا يفرّون منه طلباً للحياة.

ولمَّا قتل خلقاً كثيراً، نظر الشمر إلى عمر بن سعد وقال له: «أيُّها الأمير؛ والله لو برز الحسين إلى أهل الأرض لأفناهم عن آخرهم، فالرَّأي أن نفترق عليه فرقتين، فرقة تقاتله بالسُّيوف والرِّماح، وفرقة بالنَّبل والسِّهام»[2].

وسمع الحسين ذلك، فنادى: أعلى قتلي تحاثّون؟

ثمَّ حمل عليهم وهو يقول: «يا أُمَّة السّوء، بئس ما خلَّفتم محمَّداً في عترته، أما إنَّكم لن تقتلوا بعدي عبداً من عباد الله الصالحين، فتهابوا قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إيَّاي. وأيم الله إنِّي لأرجوا أن يكرمني ربِّي بهوانكم، ثمَّ ينتقم منكم من حيث لا تشعرون».

فصاح الحسين بن مالك السكوني مستهزءاً: «يابن فاطمة، بماذا ينتقم لك منَّا»؟

---

(1) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص424؛ والتاريخ، للطبري، ج5، ص392.

(2) أسرار الشهادة، للدربندي، ص411.

فقال الحسين: «يلقى بأسكم بينكم، ويسفك دمائكم، ثمَّ يصبُّ عليكم العذاب الأليم»[1].

وبعد أن تحمَّل اثنتين وسبعين جراحة[2] رجع يستريح وهو يكثر من قول: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليّ العظيم[3]. وبينما هو واقف، وقد ضعف عن القتال، إذ رموه بحجر، فوقع على جبهته، فسالت الدماء منها، فأخذ الثوب ليمسح الدم عن عينيه، فأتاه سهم محدَّد مسموم له ثلاث شعب، فوقع في صدره، فقال وهو يسقط من فرسه: «بسم الله وبالله، وعلى ملَّة رسول الله».

ورفع رأسه إلى السَّماء وقال: «إلهي إنَّك تعلم أنَّهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن نبيّ غيره».

ثمَّ أخذ السَّهم وأخرجه من وراء ظهره، فانبعث الدَّم كالميزاب، فوضع يده على الجرح، فلمَّا امتلئت دماً رمى بها إلى السَّماء، ثمَّ وضع يده على الجرح ثانياً، فلمَّا امتلأت لطَّخ به رأسه ولحيته، وقال: «هكذا والله أكون حتَّى ألقى جدِّي محمَّداً، وأنا مخضوب بدمي وأقول: يا رسول الله، قتلني فلان وفلان»[4].

❁

(1) الكامل، لابن الأثير، ج3، ص295؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص34؛ ونفس المهموم، ص356.

(2) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص34؛ واللّهوف، لابن طاوس، ص120.

(3) مقتل الحسين، لبحر العلوم، ص443.

(4) شرح الشافية، لابن أمير الحاج، ص372؛ ومقتل الحسين، للخوارزمي، ج2، ص35؛ وتسلية المجالس، لمحمَّد بن أبي طالب، ج2، ص320؛ والبحار، للمجلسي، ج45، ص53.

وبعد سقوط الحسين من على الفرس، بقي ملقىً على الأرض لا يستطيع النهوض، والقوم يهابون قتله، وقد أحاطوا به. فبينا هو كذلك، إذ نظر عبد الله بن الحسن، وهو غلام لم يبلغ الحلم، إلى عمِّه على الأرض وقد أحدق به القوم، فانفلت من يد أُمّه، وحاولت زينب حبسه، فأفلت منها، وانحدر إلى الحسين ورمى بنفسه في حضنه. فأهوى بحر بن كعب بالسيف ليضرب الحسين، فصاح الغلام: «يابن الخبيثة، أتضرب عمِّي»؟

فغضب من كلام الطفل، وبدل أن يضرب الحسين، وجَّه الضربة إلى الغلام، فاتقاها بيده، فأطنَّها إلى الجلد، فإذا هي معلَّقة، فصاح عبد الله: «يا عمّاه، قطعوا يميني».

فضمَّه الحسين إليه، وقال: يابن أخي، إصبر على ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير، فإنَّ الله يلحقك بآبائك الصالحين.

ثمَّ رفع الحسين يديه بالدُّعاء قائلاً: «اللَّهمَّ إن متَّعتهم إلى حين ففرَّقهم تفريقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضي الولاة عنهم أبداً، فإنَّهم دعونا لينصرونا، ثمَّ عدوا علينا يقاتلونا».

وكان حرملة بن كاهل الأسدي واقفاً على رأس الحسين، فرمى الغلام بسهم فذبحه، وكان عبد الله بن الحسن هو الطفل الثالث الذي قُتل يوم عاشوراء في حضن الحسين(1).

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص353؛ وأنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص202 والتاريخ، للطبري، ج5، ص451.

ومطرت السَّماء دماً

بينما كان الحسين طريحاً على الأرض، حاولت نسوة أهل البيت الخروج من الخيام والتوجّه إليه في الميدان، فحمل شمر بن ذي الجوشن على فسطاطهن، على مرأى من الحسين ومسمع، فطعنه بالرّمح، ثمَّ قال: عليَّ بالنار لأحرقه على من فيه.

فنادى الحسين: «يابن ذي الجوشن؛ أنت تدعو لتحرق النار على أهلي، أحرقك الله بالنار».

فجاء شبث بن ربعي، فوبَّخ شمراً لما فعل، فعاد عن ذلك[1]. ثمَّ نادى بجماعته قائلاً: ما وقوفكم وما تنتظرون بالرجل وقد أثخنته السِّهام والرِّماح؟ احملوا عليه.

فضربه زرعة بن شريك على كتفه الأيسر، ورماه الحصين بن نمير في حلقه، وضربه آخر على عاتقه ضربةً كبى بها لوجهه، وكان قد أعيى، وجعل ينوء ويكبو، فطعنه سنان بن أنس في ترقوته، ثمَّ في بواني صدره، ثمَّ رماه بسهم في نحره، وطعنه صالح بن وهب في جنبه.

قال هلال بن نافع: «كنت واقفاً نحو الحسين وهو يجود

(1) اللّهوف، لابن طاوس، ص123؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص297.

بنفسه، فوالله ما رأيت قتيلاً قطّ مضمَّخاً بدمه أحسن منه وجهاً، ولا أنور، ولقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله، فاستقى في هذه الحال ماءً، فأبوا أن يسقوه».

وقال له رجل منهم: يا حسين؛ لا تذوق الماء حتَّى ترد الحامية، فتشرب من حميمها.

فقال الحسين بصوت ضعيف: «أأنا أرد الحامية؟! إنَّما أرد على جدِّي رسول الله، وأسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأشكو إليه ما ارتكبتم منِّي وفعلتم بي».

فغضبوا بأجمعهم، حتى كأنَّ الله لم يجعل في قلب أحدهم من الرَّحمة شيئاً[1].

❋

ولمَّا اشتدَّ به الحال رفع طرفه إلى السَّماء قائلاً:

«اللَّهمَّ أنت متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما تشاء، قريب الرَّحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريب إذا دُعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر على ما أردت، تدرك ما طلبت، شكور إذا شكرت، ذكور إذا ذكرت، أدعوك محتاجاً، وأرغب إليك فقيراً، وأفزع إليك خائفاً، وأبكي مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكَّل عليك كافياً».

«اللَّهمَّ أحكم بيننا وبين قومنا، فإنَّهم غرَّونا، وخذلونا،

---

(1) مقتل الحسين، للمقرّم.

وغدروا بنا، وقتلونا، ونحن عترة نبيّك، وولد حبيبك محمَّد صلَّى الله عليه وآله، الذي اصطفيته بالرِّسالة، وائتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، يا أرحم الرَّاحمين»[1].

ثمَّ قال: «صبراً على قضاءك يا ربّ، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين، ما لي ربٌّ سواك، ولا معبودٌ غيرك، صبراً على حكمك، يا غياث من لا غياث له، يا دائماً لا نفاد له، يا محيي الموتى، يا قائماً على كلّ نفس بما كسبت، أحكم بيني وبينهم، وأنت خير الحاكمين»[2].

❋

وأقبل فرس الحسين يدور حوله، ويلطِّخ ناصيته بدمه. فصاح عمر بن سعد بأصحابه: دونكم الفرس، فإنَّه من خيار جياد رسول الله.

فأحاطت به الخيل، فجعل الفرس يضربهم برجله، حتَّى قتل منهم جماعة وجرح آخرين.

فقال ابن سعد: دعوه، لننظر ما يصنع.

فلمَّا أمن الفرس الطلب، أقبل نحو الحسين يمرِّغ ناصيته بدمه، ويشمّه، ويصهل صهيلاً عالياً، ثمَّ توجَّه نحو المخيَّم.

فمَّا نظرن النساء إلى الجواد مخزيّاً، والسِّرج عليه ملويّاً،

---

(1) مصباح المتهجِّد، للطوسي، ص759؛ والمصباح، للكفعمي، ص544؛ والإقبال، لابن طاوس، ص690.

(2) الإمام الحسين قدوة الصدِّيقين، ص60.

خرجن من الخدور، على الخدود لاطمات، وبالعويل داعيات، وبعد العزّ مذلّلات، وإلى مصرع الحسين مبادرات. ونادت زينب:

وآمحمَّداه، وآعليّاه، هذا حسين بالعراء صريع بكربلاء، ليت السَّماء أطبقت على الأرض، وليت الجبال تدكدكت على السهل».

وانتهت نحو الحسين، وقد دنى منه عمر بن سعد في جماعة من أصحابه، والحسين يجود بنفسه، فصاحت به قائلةً: أي عمر، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟

فصرف ابن سعد بوجهه عنها، ودموعه تسيل على لحيته.

فتوجهت إلى القوم وقالت: ويحكم؛ أما فيكم مسلم؟

فلم يجبها أحد.

❁

ثمَّ إنَّ عمر بن سعد صاح بالنَّاس: انزلوا إليه وأريحوه، فبدر إليه خولي بن يزيد الأصبحي ليحتزَّ رأسه، فأرعد.

وتقدَّم عمرو بن الحجَّاج، فنظر إلى عينيه، فرآهما كأنَّهما عيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتراجع.

ثمَّ تقدَّم إليه شمر بن ذي الجوشن، فرفسه برجله، وجلس على صدره، وقبض على شيبته المقدَّسة، وضربه بالسَّيف إثنتا عشرة ضربة، واحتزَّ رأسه المقدَّس(1).

❁

(1) مقتل الحسين، للمقرّم، ص359؛ والعوالم، للبحراني، ج17، ص197؛ وبحار الأنوار، للمجلسي، ج45، ص55.

ومع قتل الحسين أظلمت السَّماء وظهرت حمرة فيها، وما رُفع حجر إلَّا وتحته دم عبيط، ولقد مطرت السَّماء دماً بقي أثره في الثياب مدَّة حتَّى تقطَّعت[1].

❋ ❋ ❋

---

(1) الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيثمي، ص116؛ وفضائل الخمسة، للفيروزآبادي، ج3، ص363؛ والعبرات، للمحمودي، ج2، ص190؛ وينابيع المودَّة، للقندوزي، ج3، ص15؛ وأنساب الأشراف، للبلاذري، ج3، ص209؛ والتاريخ الكبير، للبخاري، ج2، ص130؛ والجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، ج4، ص216.

..وهكذا وصل الصراع بين بني أمية المنافقين وبين بني هاشم الصادقين إلى مفترق الطرق، لاسبيل فيه إلى توفيق، فأصبحت الجبهتان في وضعية التصادم.

ففي جبهة الحق يقف الحسين بن علي بن أبي طالب كوارث آدم، وهابيل، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ورسول الله، وعليّ، ومعه أهل البيت ومجموعة من المؤمنين الصالحين الصادقين المخلصين.

وفي جبهة الباطل يقف يزيد بن معاوية كوارث قابيل، ونمرود، وفرعون، وبني إسرائيل، وجده أبي سفيان، وأبيه معاوية صاحب الدواهي، ورجل الحيلة والمكر والخداع والإغتيال وقتل الأبرياء..

بمقدار ما كان الحسين غيوراً على دين الله وما فيه من المثل والقيم كالعدل، والإحسان، والإيمان، ورعاية حقوق الناس.. بمقدار ماكان يزيد هائماً في عشق السلطة والزعامة، بعيداً عن الأصول الأخلاقية، لايحترم أبسط المُثل الإنسانية، ولا حرمة لدماء الناس وأموالهم وأعراضهم..

لقد برزت في مجابهة الحسين مع أعدائه النفس الإنسانية في صورتين متناقضتين، صورة النفس المطمئنة بإيمانها، الملتزمة بأخلاقها، الصادقة مع الله في تصرفاتها، وبين النفس الأمارة بالسوء، التي لا تصدق في شئ، لا مع الله ولا مع الناس ولا مع النفس..

من هنا لا نجد في التاريخ صورة أوضح للصراع بين الحق الصراح والباطل الواضح، والخير المطلق والشر المطلق، والإيمان الصادق والنفاق العميق، مثل الصراع الذي حدث بين الحسين عليه السلام وأعدائه..

..وجاء الحسين
Then Came Hussain
دار أهل البيت للعلوم
email: asp.dar@gmail.com
@aspdar